



فَصْرُ الْكُسُوفِ

نجيب محفوظ

قصر السوف

مطبوعات مكتبة الزهر

قصر السوف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - الجيزة

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه ، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في خطوات متراخية ، وطرف عصاه ينغرز في الأرض التربة كلما توكأ عليها في مشيته المثابتة . تشوّق وجوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كي يلطف — ولو إلى حين — من حرارة يولية والنار المستعرة في جوفه ورأسه ، فهش لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريره . ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الوافي الهابط من أعلى يتحرك على الجدران وأشيا بحركة اليد القابضة على المصباح ، فرقى على السلم يدا على الدرايزين ويدا على عصاه التي بعث طرفها دقائق متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعا خاصا غدا ينم عنه كما تنم عنه سماته . وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها ، حتى إذا انتهى إليها توقف وصلره يعلو وينخفض ريثما يسترد أنفاسه ، ثم حياها تحيته الليلية المألوفة قائلا :

— مساء الخير..

. فغمغمت أمينة وهي تتقدمه بالمصباح :

— مساء الخير ياسيدى !..

في الحجرة هرع إلى الكنبه فتهالك عليها ، ثم تخلص من عصاه وخلع طربوشه ، وطرح قذاله على المسند ماذا ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الجنبه عن قفطانها ، وكشف القفطان عن رجلى سرواله المتداخلتين في جوربه ، وأغمض عينيه وهو يجفف بمنديله جبهته وخديه وعنقه . على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان ، ثم وقفت تترقب قيامه لتساعده في نزع ثيابه ، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق ، وتود لو تواتبها شجاعتها فتسأله أن يعفى نفسه من الدأب على السهر الذي لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديما . ولكنها لم تدر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة ! توالى دقائق قبل أن يفتح عينيه ، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانها والخاتم الماسى فأودعهما داخل الطربوش ، ثم نهض ليخلع الجنبه والقفطان بمعاونة أمينة ، هناك بدا جسمه كالعهد به : طولا ، وعرضا ، وامتلاء .. لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه ، وعندما أدخل رأسه في طاقة الجلباب

الأبيض غلبه الابتسام فجأة ، إذ ذكر كيف تقياً السيد على عبد الرحيم الليلة في مجلس الأنس ، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرأصاب معدته . وكيف تعمّدوا أن يعيروه به زاعمين أنه لم يعد يحتمل الشراب ، وأنه ليس كل الرجال من يستطيعون معاشرّة الخمر إلى نهاية العمر الخ ، وذكر كيف غضب السيد على وجدّ في دفع الريبة عنه ، ياعجباً.. ألهذا الحد يعير بعض الناس أهمية لهذه الأمور التوافه ؟! ، ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك ! فلم فآخر هو في صخب الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة ؟!

جلس على الكنية مرة أخرى ومد ساقيه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء والجورب ، وغابت عن الحجرة قليلاً ، وعادت بالطبست والإبريق وجعلت تصب له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض ، وأخيراً تربع في جلسته مستعرضاً نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربية والنافذة المطلة على الفناء .

— ياله من صيف فظيع صيف هذا العام !

فقالت أمينة وهي تسحب الشلّة من تحت السرير ، وترتبع بدورها عليها على كُتب من قديمه :

— ربنا يلطف بنا (ثم وهي تنهد) الدنيا كلها كوم وحجرة القرن كوم !

السطح هو المتنفس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس .

بدت في جلستها غيرها بالأمس ، نَحفت واستطال وجهها ، أو لعله تراءى أطول مما هو لما حل بالخدّين من رقة ، وقد انتشر المشيب فيما انحمر عنه منديل رأسها من خصلات ، فأضفى عليها روح كبير أكثر مما تستحق .. وغلظت الشامة في وجنتها قليلاً ، على حين نَمَتَ عيناها — إلى نظرة الخضوع القديمة — عن شرود مزج بالحزن ، كم اشتدت حيرتها لما طرأ عليها من تغير ، ولكن كانت قد رحبت به بادية الأمر على سبيل التعزّي إلا أنها أخذت تتساءل في قلق : أليست هي في حاجة إلى صحتها مادام في العمر بقية ؟ ، بلى ! والآخرين في حاجة إلى صحتها أيضاً ، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله ؟! ، ثم إنها تقدمت سنين ، لعلها لم تكن بالكثرة التي تبرر هذا التغير ولكنها مما يترك أثراً ولا شك .

هكذا كانت تقف في المشربية الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخنصاص ، فتري طريقاً لا يتغير ، والتغير يدب إليها غير متوان . وعلا صوت

النادل في القهوة فتطابر إلى الحجرة الصامتة كالصدى ، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيد .

ما أحب هذا الطريق الذي يسهر الليالي سامرا إلى قلبها ، إنه الصديق الغافل عن القلب الذي يحبه من وراء خصاص ، معاملة ملء نفسها ، سماره أصوات حية تعيش في مسامعها ، هذا النادل الذي لا يستكن له لسان ، وذو الصوت المبحوح الذي يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر ، وذو الصوت العصبي الذي يتصيد بخته في « الكومي » و « الولد » ، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكي الذي يسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى « عند الله الشفاء » ، آه .. كأن المشربية ركن من القهوة هي جليسته . كانت ذكريات الطريق ترتسم على مخيلتها وراء عينين لا تفارقان الرأس المتوسد لمسند الكنبه ، فلما انقطع التيار تركز انتباهها في الرجل فتبينت في صفحتي وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تظالها في أعقاب الليالي الأخيرة ، ولم تكن ترتاح إليها فتساءلت في إشفاق :

— سيدي بخير؟..

فاعتدل رأسه ، وهو يتمتم :

— بخير ، والحمد لله (مستدركا) ما أظفح الجو !!

الزبيب خير مسكر في الصيف .. هكذا قالوا له وأعادوا ، ولكنه لا يطيقه ، فإما الويسكي وإلا فلا . عليه إذن أن يعانى خمار سكرة صيف — وصيف شديد — كل ليلة . شد ما ضحك هذه الليلة ... ضحك حتى كلت عروق عنقه . ولكن فيم كان الضحك ؟! لا يكاد يذكر شيئا ، وليس هناك شيء يروى أو يعاد ، ولكن جو المجلس كان مشحونا بكهرباء لطيفة بحيث أن أى لمسة كانت تحدث اشتعالا ، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار : « أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس » وكان يقصد أن يقول : « أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس » حتى انفجروا ضاحكين ، فعدت « نادرة » من نوادر الخمر اللسانية . وابتدروه قائلين : « وسيمكث في المفاوضة ريثما يسترد صحته ، ثم ينحر إلى الدعوة تلبية للندن التي تلقاها من » أو « وسينال رامزى مكدونالد من الاستقلال على الموافقة » و « سيعود حاملا مصر إلى الاستقلال » ، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات ..

حقا .. إن دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص في ثلاثة : محمد عفت ، وعلى عبد الرحيم ، وإبراهيم الفار .. فهل يستطيع أن يتصور للدنيا وجودا من دون وجودهم ؟! إن إشراف وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته ، سعادة لا تدانيها سعادة . التقت عيناه الحالتان بعيني أمينة المستطلعتين ، فقال وكأنه يذكرها بأمر هام :

— غدا ..

فقلت ، وقد شاعت في وجهها ابتسامة :

— كيف أنسى !

فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته :

— قيل لي إن نتيجة اليكاليوريا كانت سيئة هذا العام ..

فقلت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام :

— ربنا ينجح مقاصده ، ويمد في عمرنا حتى نشهد نجاحه في الدبلوم ..

فتساءل :

— هل ذهبت اليوم إلى السكرية ؟

— نعم ، ودعوتهم جميعا ، وسوف يحضرون إلا الست الكبيرة التي اعتذرت

بتعها ، فقلت : إن ابنيها سينوبان عنها في تهنئة كمال .

فقال السيد ، وهو يوميء بذقنه صوب جيبه :

— جاءني اليوم الشيخ متولى عبد الصمد بأحجية لأولاد خديجة وعائشة ، ودعا

لي قائلا : « إن شاء الله أعمل لك أحجية لأولاد أحفادك » .

ثم وهو يهز رأسه باسم :

— لا شيء على الله يبيعد ، ها هو الشيخ متولى نفسه كالخديد رغم الثمانين !..

— ربنا يمتلك بالصحة والعافية !

فتفكر مليا ، وهو يعد على أصابعه ، ثم قال :

— لو امتد العمر بأبي — رحمه الله — ما زاد على عمر الشيخ كثيرا ..

— رحم الله الراحلين ..

ونخيم الصمت ريثا ذهب الأثر الذي تركه ذكر « الراحلين » ، ثم قال الرجل

بلهجة من تذكر أمرا هاما :

— زينب خطبت !
اتسعت عينا أمينة ، وهى ترفع رأسها قائلة :
— حقا ؟!
— نعم ، أخبرنى محمد عفت بذلك الليلة !..
— من ؟
— موظف يدعى محمد حسن ، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف .
فتساءلت بوجوم :
— يبدو أنه متقدم فى السن ؟
فقال كالمعتز :
— كلا ، فى الحلقة الرابعة ، خمسة وثلاثين .. ستة وثلاثين .. أربعين عاما على الأكثر !
ثم بلهجة تهكمية :
— جربت حفظها مع الشباب فأخفقت ، أعنى الشباب الذين لا يرفعون رأسا ، فلتجرب حفظها مع الرجال العقلاء !
فقال أمينة بأسف :
— كان ياسين أولى بها ، على الأقل من أجل خاطر ابنهما ..
كان هذا رأى السيد ، وعنه دافع طويلا لدى محمد عفت ، بيد أنه لم يعلن موافقته على رأيها مداراة لخبية مسعاه ، فقال متسخطا :
— لم يعد للرجل به من ثقة ، والحق أنه غير جدير بالثقة ، لذلك لم ألح عليه ، لم أقبل أن أستغل صداقتنا فى حمله على ما لا خير فيه ..
فغمضت أمينة فى شيء من الإشفاق :
— هقوة شباب لا يضيق عنها العفو !
هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب ، فقال :
— لم أقصر فى حقه ولكنى لم أصادف ترحيبا ، وقال لى محمد عفت برجاء :
« إن السبب الأول فى اعتذارى هو إشفاق من تعريض صداقتنا إلى الشقاق » ،
وقال لى أيضا : « لا أستطيع أن أرفض لك رجاء ، ولكن صداقتنا أعز لى من رجائك » .. فأمسكت عن الكلام ..

قال محمد عفت هذا حقا ، ولكنه لم يصرح به إلا مدافعة لإلحاحه . والحق أن السيد كان شديد الرغبة في وصل ما انقطع من مصاهرة محمد عفت لمكانته من نفسه ومكانة أسرته من المجتمع ، ولم يكن يطمع في أن يجد لياسين زوجة خيرا من زينب ، ولكنه لم يسعه إلا التسليم بالهزيمة ، خاصة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصة ، حتى قال له : « لا تقل لي إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين ، فالحق أننا نختلف بعض الشيء ، والحق أني لا أرتضى لزينب ما ارتضيت لأمها ! » .

تساءلت أمينة :

— هل علم ياسين بما كان ؟

— سيعلم غدا أو بعد غد ، هل تريه يكثر لذلك ؟. إنه أبعد ما يكون عن

تقدير الزيجة المشرفة ..

فهرزت أمينة رأسها أسفا ، ثم تساءلت :

— ورضوان ؟

فقال السيد مقطبا :

— سيبقى عند جده ، أو يلحق بأمه إن لم يصبر على فراقها ، الله يخبر من

حيه ..!

— مسكين يا ربي ، أمه في ناحية وأبوه في ناحية ، أتطبق زينب فراقه ..؟

فقال السيد فيما يشبه الازدراء :

— للضرورة أحكام (ثم متسائلا) متى يبلغ السن ؟.. ألا تذكرين ؟

فتفكرت أمينة قليلا ، ثم قالت :

— إنه أصغر قليلا من نعيمة بنت عائشة ، وأكبر قليلا من عبد المنعم ابن

خديجة ، فيكون في الخامسة يا سيدى ، سوف يسترده أبوه بعد عامين ، أليس

كذلك يا سيدى ؟

قال السيد ، وهو يتأهب :

— يا ترى من يعيش (ثم مستطردا) وكان متزوجا ، أعنى الزوج الجديد !

— وله أولاد ؟

— كلا لم ينبج من زوجه الأولى ..

— لعل هذا ما حسّنه في عيني السيد محمد عفت ..

فقال السيد بامتعاض :

— ولا تنسى مقامه ..

فقالت أمينة معترضة :

— لو أن الأمر أمر مقام ما عدل بابتك أحدا ، على الأقل من أجلك أنت .:

فشعر باستياء حتى لعن في سره — على حبه — محمد عفت ، ولكنه عاد يجز حطا تحت النقطة التي يتعزى بها ، فقال :

— لا تنسى أنه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا في حرز حريز ما تردد عن قبول رجائي ..

فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس :

— طبعاً ، طبعاً يا سيدي ، إنها صداقة العمر ، وليست لها ولعبا .

عاوده الثأوب مرة أخرى ، فتمتم قائلاً :

— خذني المصباح خارجاً ..

قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيها قليلاً ، ثم نهض دفعة واحدة كأنما ليقاوم الكسل واتجه نحو الفراش فاستلقى عليه .. إنه الآن خير حالا !! ما أهنأ الرقاد بعد التعب !! أجل . لا يخلو رأسه من نبض قارع ، ولكن رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما ، فليحمد الله على أي حال .! الصفاء الكامل ماض مضى ، ثم شيء نفتقده كلما خلونا إلى أنفسنا ولكنه لا يعود ، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذي تشف عنه شراعة الباب . فليحمد الله على أي حال !! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون !! الأجدى أن يقطع برأى فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا ، أو فليدع ما للغد للغد ، إلا ياسين .. فإنه مسألة الأمس واليوم والغد ، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين ، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى ، ولكن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتى يهر نورها الأعين ؟ هنالك يهتف من الأعماق أن الحمد لله ، ولكن ماذا قال محمد عفت ؟ إن ياسين يصول وينجول في الأريكة حتى سراديبها .. كانت الأريكة مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها وينجول ، وهزه الحنين مرات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات ، فليحمد الله على أنه علم بسر ياسين قبل أن

يقدم ، وإلا لضحك الشيطان من أعماق قلبه الهازىء . أوسعوا الطريق للأبناء
 فقد شبوا ، عنها صدك الأستراليون أول الأمر ، وأخيرا هذا البغل الأسترالى ..

٢

تتابع دقات العجين من حجرة الفرن فى هدأة السحر مع صباح الديكة ،
 كانت أم حنفى مكبة على جرة العجين بجسمها اللحم ، يلوح وجهها ريان على
 ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها
 ولكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسماها ، وإلى يمينها قعدت أمينة على
 كرمى المطبخ تفرش ألواح العجين بالردة استعدادا لاستقبال الأقراص ، تواصل
 العمل — فى صمت — حتى توقفت أم حنفى عن العجين . فاستخرجت يدها
 من الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالعرق ببطن مرقفها ، ثم لوحت بقبضتها
 المغطاة بالعجين كقفاز ملاكمة أبيض ، وقالت :

— أمامك يا ستى يوم شاق ولكنه لذيذ ، كثر الله من أيام السرور ..

فغمغت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها :

— علينا أن نقدم مائدة شهية ..

فابتسمت أم حنفى ، وهى تومىء بذقنها إلى سيدتها ، قائلة :

— البركة فى المعلمة ..

ثم غرست يديها فى الجرة مرة أخرى ، وعادت إلى ملاكمة العجين .

— وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين .

فقال أم حنفى بلهجة معاتبة :

— لن يكون بيننا غريب .

فتمتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق :

— ولكنها وليمة وضجة على أى حال ، فؤاد ابن جميل الحمزاوى نال البكالوريا

أيضا ، ولا من رأى ولا من سمع !!

ولكن أم حنفى أصرت على المعاتبة ، قائلة :

— ما هي إلا فرصة نلتجمع فيها بمن نحب ..
كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة . قديما استخبرت السنين
فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا سيوافق تاريخ ليسانس ذاك ، حفل لم ينحى ونذر لم
يوف . ١٩ .. ٢٠ .. ٢١ .. ٢٢ .. ٢٣ .. ٢٤ .. شباب العمر اليافع الذى
حرمت من احتضان ينع ، من قسمة التراب كان ، يا انصداع القلب الذى
يسمونه الحمرة .

— ستفرح ست عائشة بالبقلاوة ، وتذكر أيام زمان يا ستى ..
ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضا ، نهار وليل وشبع وجوع ويقظة ونوم ،
وكأن شيئا لم يكن . سلى الزعم الذى زعم بأنك لن تعيشى بعده يوما واحدا ،
عشت لتحلفى بترته ، إذا زلزل القلب فليس معناه أن تزلزل الدنيا ، كأنه نسي
منسى حتى تزار المقابر ، كنت ملء العين والنفس يا بنى ثم لا يذكرونك إلا فى
المواسم ، أين أنتم يا هؤلاء ؟ كل مشغول بشواغله ، إلا أنت يا خديجة قلب أمك
وروحها حتى وصيتك يوما بالصبر ، لم تكن كذلك عائشة ، مهلا ! لا ينبغي أن
أكون ظالمة ، حرت حزنها كما ينبغي ، كمال لا لوم عليه ، رفقا بالقلوب الغضة ،
بات الأول والأخير ، شاب شعرك وصرت كالخيال ، هكذا تقول أم خفى ، لا
كانت الصحة ولا كان السباب ، تقارئين الخمسين وهو لم يتم العشرين ، حبل
ووحم وولادة ورضاعة وحب وآمال ، ثم لا شيء .. ترى هل خلا من الأفكار رأس
سيدى ؟ دعيه وشأنه ! ليس حزن الرجال كحزن النساء ، هكذا قولك يا أمى
جعل الله الجنة مثواك ، ينز فى نفسى يا أمى أنه عاد إلى سيرته ، كأن فهمى لم
يمت ، وكأن ذكره قد تبخرت ، بل يلومنى كلما لجى الحزن ، أليس هو أباه كما أنا
أمه ؟ يا أمينة يا مسكينة .. لا تفتحى صدرك لهذه الأفكار .. لو صبح أن نغكم
على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب أحجارا .. إنه رجل وليس حزن الرجال
كحزن النساء .. لو استسلم الرجال للأحزان لئاءت بها كواهلهم المتقلبة بالأعباء ،
عليك إذا أنست منه حزنا أن تسرى عنه .. إنه ركنك يا ابنتى المسكينة . غاب
ذلك الصوت الحنون وصادف فقده قلوبا مترعة بالحزن فلم يكذب يكيه أحد ،
وشهد شاهد حكمته ليلة عاد فى أخريات الليل ثملا ، ثم ارتقى على الكعبة مجهشا فى
البكاء ، وتعتيت ليلتئذ له السلامة ولو بالنسيان الأبدى ، أنت نفسك ألا تنسين

أحيانا ؟، ثمة ما هو أظع من ذلك ، هو تمتعك بالحياة وحرصك عليها . هذه هي الدنيا . هكذا يقولون ! فترددن ما يقولون وتؤمنين به . كيف جاز لك — بوما — بعد هذا أن تختفى على ياسين براءه ومواصلته مألوف الحياة ! ، مهلا ، الإيمان والصبر .. سلمى إلى الله ، فكل ما جاءك من عنده ، « أم فهمى » إلى الأبد ، سوف أظل ما حيت أملك يا بنى وتظل ابنى ..

تتابعت دقات العجن ، ففتح السيد عينيه على نور الصباح الباكر ، وراح يتمطى ويتشاءب بصوت مرتفع ممطوط ، تصاعد كالتذمر أو الاحتجاج ، ثم جلس في الفراش مستندا براحتيه على ساقيه الممدودتين ، فبدأ ظهره مقوسا وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق ، وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنما لينفض عنه وطاة الوحشم ، ثم انزلق إلى أرض الحجرة ، ومضى متهاديا إلى الحمام إلى الدش البارد .. الدواء الوحيد الذى يغير عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانها وإلى نفسه اعتدالها ، تجرد من ثيابه ، ولما تعرض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التى وجهت إليه أمس ، فخفق فؤاده الذى تلقى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معا ، على عبد الرحيم قال : « نظره إلى الوراء ، إلى حبيبات زمان ، لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا إلى الأبد ، إني أعرف الناس بك » . أيقدم على هذه الخطوة الأخيرة ؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها . أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب ؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها ؟ أم أطلقها نية صادقة دون تورط فى التوبة ؟ .. لا يذكر ، ولا يريد أن يذكر ، ليس صغيرا من يدنو من الخامسة والخمسين . ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل ؟ كحاله يوم دعى إلى السماع فلبى ، هل يلبي النداء إلى حبيبات زمان بالمثل ؟ ، متى يبعث الحزن ميتا ؟ ، هل أمرنا الله أن نهلك أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا ؟ .. فى عام الحداد والتقصف كاد الحزن يقتله قتلا ، عام طويل لم يذق فيه شرابا ، ولم يسمع نغما ، ولم تند عن فيه ملحمة حتى شابت شعيراته .. أجل لم يتسلل الشيب إلى شعره إلا فى ذلك العام ، رغم أنه عاد إلى الشراب والسماع رحمة بالأصدقاء المقربين الذين انقطعوا عن اللذات إكراما لحزنه ، كذب وصدق ، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة ، لم يكونوا كالأحرين ، وما على الآخرين من ملام ، حزنوا لحزنك ، ثم جعلوا يراوون بين مجلسك الجاف ومجالسهم الندية فأى تنويب عليهم ؟ ! بيد أن الثلاثة المحبين أبوا أن

ينالوا من الحياة نصيباً أوفى مما ارتضيت لنفسك ، وعدت رويدا إلى أشياء ، إلا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلحوا عليك أول الأمر ، لشدة ما تأيت وحزنت ، لم يؤثر فيك رسول رييدة ، رددت أم مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد الآمال قبل لك بها ، ظننت أن لن تعود أبداً ، وخاطبت نفسك المرة تلو المرة .. « أعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب ؟! » آه .. ما أخرجنا في ضعفنا وتعامتنا إلى الرحمة !! فليدوم على الحزن من يضمن ألا يموت عدداً ، من قائل هذه الحكمة ؟ . واحد من اثنين : علي عبد الرحيم أو إبراهيم الفار . محمد عفت بك لا يجود بالبحكم . رفض رجائي ، وزوج البنت من رجل غريب ، ثم ضحك عليّ بالقبل ، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالغني به كما وقع قديماً ، لله هو أى وفاء وأى ود أتذكر كيف امتزج دمعه بدمعك في القرافة ؟ ، ولكنه القائل فيما بعد « أخاف عليك الكبر إن لم تفعل .. تعال إلى العوامة » . ولما آنس تردداً قال : « لتكن زيارة بريئة .. لن يجردك أحد من ملايسك ويرميك على امرأة » . لم أحزن قليلاً علم الله ، بموته مات جزء جسم منى . مات أملى الأول في الدنيا ، منذا يلومنى على الصبر والعزاء ؟ ، قلبى جريح وإن ضحك ! ترى ، كيف هى ؟ ، ماذا فعل بين الزمان في خمسة أعوام ؟ . خمسة أعوام طوال ؟

* * *

كان شخير ياسين أول ما تلقى كمال من عالم اليقظة ، فلم يتمالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه في ميعاده ، ولاحقه بصوته غير متوان حتى رد عليه الآخر بصوت كالنزع تشكياً وتذمراً ، ثم تقلب بجسمه الضخم فقططق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجع ثم فتح عينين حمراوين وتأوه . لم يكن ثمة — فى رأيه — ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منهما لن يذهب إلى الحمام قبل عودة الأب منه ، لم يعد من اليسير استعمال حمام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت — منذ خمسة أعوام — بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التى فرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلا لها ، ومع أن ياسين وكال لم يرحبا — قط — بالإقامة مع الأب فى دور واحد ، إلا أنهما لم يجدا بداً من احترام الرغبة فى مقاطعة الدور الأول الذى لم تعد تدخله قدم إلا حين يلم بالبيت زائر ، أغمض ياسين عينيه ، ولكنه لم ينم لا لأن

معاودة النوم كانت عبثاً فحسب — ولكن لأن صورة انبعثت في خياله فأشعلت إحساسه .. وجه مستدير ، متوسط صفحته العاجية عينان سوداوان . مريم ! فاستجاب للداعى الأحلام .. واستسلم لتخدير ألد من تخدير المنام .

قبل أشهر معدودات ، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط ، وكأنها لم تكن ، حتى سمع أم حنفي تحدث — ذات مساء — إلى امرأة أبيه ، فتقول : « أما سمعت بالخبر يا ستى ؟ .. ست مريم طلقت من زوجها وعادت إلى أمها » هنالك عاوده ذكر مريم ، وفهمى ، والجندى الإنجليزي ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه ، ثم ذكر بالتالى اهتمامه القديم بشخصيتها الذى جاش بها صدره عقب ذبوع الفضيخة ، ما يدرى إلا وقد أضاعت فجأة في نفسه لوحة معبرة ، كما تضيء الإعلانات الكهربائية في الليل ، سطر عليها « مريم .. جارتك .. الجدار لصق الجدار .. مطلقة .. ذات تاريخ وأى تاريخ ! .. أبشر » ، ولكنه ما لبث أن جفل من نفسه ، لأن اقترانها بذكرى فهمى صده وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يحكم إغلاقه ، وأن يندم — إن كان ثمة ندم — على فكرة خفية عابرة ، صادفها بعد ذلك في الموسيقى مع أمها ، فالتفت العين على سهوة ، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان ، ونمت بسلمات لا تكاد ترى بالعين المجردة عن عرفانها ، فتحرك قلبه ، تحرك للعرفان — فحسب — أول الأمر ، ثم لللطيف الأثر الذى خلفه وحه عاجى مكحول العينين ، وجسم نابض بالفتوة والحيوية ، ذكره بزينب في إبانها .. فمضى إلى طبيته متفكراً هائجا . غير أنه بعد خطوات ، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده ، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت في قلبه الشجن ، بعث فهمى في خياله بشتى ذكرياته : صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة وفتر وحده وباخ وغشيه حزن غليظ ، يجب أن ينتهى كل شيء .. لم ؟ ..

عاد يتسائل بعد ساعة ، أو بعد أيام ، فكان الجواب : فهمى .. أية علاقة بين الاثنين ؟ .. ود يوما أن يخطبها ، ولم لم يفعل ؟ .. أبوك لم يوافق . فقط ؟ .. هذا فى الأقل أصل المسألة . ثم ؟ .. جاءت فضيحة الإنجليزي ، فمحت ما بقى من أثر باهت .. أثر باهت ؟ .. أجل لأنه على الأرجح كان نسي . إذن نسي أولا ، ونبذ أخيراً ؟ نعم ، فأية علاقة هنالك ؟ .. لا علاقة ؟ ، ولكن !! .. أعنى شعور الأخوة ، هل يمكن أن يرق شك إلى شعورك ؟ .. كلا وألف مرة كلا . الفتاة

تستحق ..؟.. نعم ، وجهها وجسما ؟.. وجهها وجسما فما انتظارك ؟..
 في النافذة كان يلمحها حينا بعد حين ، ثم فوق السطح .. فوق السطح
 مرات ، ومرات ..

لم طلقت ؟.. لسوء في خلق زوجها ، فيكون الطلاق من حسن حظها . أو
 لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت .
 — قم وإلا غلبك النوم .

فتساءب وهو يتخلل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ ، ثم قال :

— يا بختك بعطلتك المدرسية الطويلة !

— ألم أستيقظ قبلك ؟

— ولكن بوسحك أن تواصل النوم إذا شئت ..

— لا أشاء كما ترى ..

ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها ، ثم تساءل :

— ما اسم الجندي الإنجليزي صديقك القديم ؟

— أوه .. جوليون ..

— أجل جوليون ..

— ما الذي دعاك إلى السؤال عنه ؟

— لا شيء !!

‘ لا شيء ؟. ما أسخف لساننا ، أليس ياسين خيراً من جوليون ؟. في الأقل

جوليون عابر وياسين مقيم ، في وجهها شيء يسم إليك دواما ، ألم تلاحظ مثابرتك

على الظهور فوق السطح ؟، بلى وذكر جوليون ، ليست ممن يفوتهن معنى ، ردت

تحتك .. أول مرة أدارت رأسها باسمه ، في المرة الثانية ضحكت ، ما أجمل

ضحكتها ! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محذرة ، سأعود بعد الغروب .

هكذا قلت في جرة ، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام ؟

— لشد ما أحبيت الإنجليزي في صغرى !.. انظر كيف أمقتهم الآن مقتا ..

— سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم ا.

هتف كمال بحدة :

— والله لأبغضنهم ولو وحدي ..

وتبادلا نظرة أسي صامته ، تناهى إليهما وقع قيقاب السيد وهو راجع إلى حجرته
 مبسلا محفلا ، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتثائب .
 تقلب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيا وتنى ساعديه شابكا راحتيه
 تحت رأسه ، ومضى ينظر فيما أمامه بعينين لا تريان شيئا .. لتسعد بك رأس البر ،
 لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلني حر القاهرة ، فلتطب بموطيء قدميك الرمال ،
 وليهنأ بمشهدك الماء والهواء ، سوف تشيدين بالمصيف ، وعيناك تنطقان بالمسرة
 والحنين ، فأتطلع إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب — في حسرة — عن
 المكان الذي استبواك فاستحق عن جدارة رضاك .. ولكن متى تعودين ومتى
 ينسكب في أذني تغريدك المسحور ؟ ، كيف المصيف ؟ . ليتني أدري .. قيل إنه
 حرية كالهواء ، ولقاء بين أحضان الماء ، وأهواء بعدد حبات الرمال .. وخلق
 كثيرون يحظون بمحياك .. أما أنا .. أنا الذي خفقات قلبه تمن لشكاها الجدران
 فأتلظى في سعي الانتظار . هيهات ! أن تنسى وجهك المنطلق بالبشر وأنت
 تعمغمين : « سنسافر غدا .. ما أجمل رأس البر ! » ولا اكتفى وأنا أتلقي نذير
 الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقى السم مدموسا في طاقة من الزهر
 الفواح ، ولا غيبي من الجماد الذي قدر على إسعادك حين عجزت وحظي بمودتك
 حين حرمت . ألم تلحظي حين الوداع اكتفى ؟ . كلا لم تلحظي شيئا ، لا لأنني
 كنت واحدا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين .. كأنما كنت شيئا
 لا يسترعى انتباهك .. أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعا
 من عل بعينين هائميتين في ملكوت لا ندره .. هكذا وقفنا وجهها لوجه .. أنت
 شعلة من سعادة سادرة ، وأنا أرماد من وجوم وكآبة .. تحظين بحرية مطلقة أو تدعين
 لسنن فوق مداركنا ، وأنا أدور في فللك مجنوبا بقوة هائلة .. كأنك الشمس ،
 وكأنني الأرض ، هل وجدت عند الشاطئ حرية لم تنعمي بها في مغاني العباسية ؟ .
 كلا ، وحق قدرك عندي .. لست كالأخريات .. في حديقة القصر والطريق ،
 آثار عاطرات لقديمك .. وفي قلب كل صديق ذكريات وأمال .. انسة سهلة
 ممتنعة ، تطوف بنا على غير مثال ، كأن الشرق قد استوهبها الغرب في ليلة القدر ..
 أى جديد من الجود ترى تهبين إذا امتد الشاطئ وترامى الأفق واكتظ الساحل
 بالمعجبين ؟ . أى جديد يا أملي وحسرتي ؟ ! . القاهرة في غيبتك خواء تنضح كآبة

ووحشة ، كأنها عكارة الحياة والأحياء .. ثمة مناظر ومعالم ، ولكنها لا تخاطب وجدا ولا تحرك قلبا ، كأنها عاديات الدنيا وذكرياتها في قبر فرعونى لم يفض .. ما من مكان بها يعدنى بعزاء أو تسلية أو مسرة . إخالنى حيناً مختنقا وحيناً سجيناً وحيناً مفقوداً ضالاً غير مفتقد . يا عجباً أكان وجودك يبيل أملاً أفقدينه البعاد ؟. كلا يا قضائى وقدرى ، ولكنك كالأمنية الاستغلال بجناحها برد وسلام وإن اعتصمت بالجمال ، هل يغنى المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته .. أن البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض ؟.. كلا وإن لم يدبر للبدر امتلاكا . إنما أطمع إلى الحياة في صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم ، بل أنت حالة في ما خفى الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحري : الذاكرة . عن إعجازها غفلت حتى عرفتك ، اليوم أو غدا أو بعد دهر في العباسية أو رأس البر أو في أقصى الأرض لن ترح بخيلتى عينك السوداوان الساجيتان ، وحاجباك المقرونان ، وأنفك السوى اللطيف ، ووجهك الدرى الخمرى ، وجيدك الطويل ، وقامتك الهيفاء ، وما شئت من سحر يكتنفك مزربا بكل وصف مسكرا كعرف الفل والياسمين ، لأملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة ، وبعد الحياة لثقوضن عوائق وموانع فيكون المصير إلى .. إلى وحدى بما أحببت هذا الحب كله .. وإلا فخيرينى عن معنى لهذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام ، لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب ، السمع والبصر والذوق والجد واللهم والمودة والظفر مسرات تهوى عند من فعم الحب قلبه ، من أول نظرة يا قلبى . ما ارتدت عنها عينائى حتى آمنت بأنها زيارة مقيم لا زيارة عابر ، لحظة خاطفة حاسمة ، ولكن فى مثلها تخلق الأرواح فى الأرحام وتزلزل الأرض .. رباه لم أعد أنا .. قلبى تلاطمه جذران الأضلع ، أسرار السحر تنفت معانها ، العقل يتدادى حتى يمس الجنون ، اللذة تسطع حتى تعانق الألم ، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكتون ، دمى يصرخ مستغيثا لا يدري مم يستغيث ، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا ، حلفتك بكل عزيز ألا تذهى أبدا ، أنت يا إلهى فى السماء وهى فى الأرض ، آمنت بأن ما مضى من حياتى كان تمهيدا لبشارة الحب ، لم أمت صغيرا ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم .. ولم .. كل أولئك كى أدعى يوما إلى قصر آل شداد ، يا للذكرى ! يكاد القلب من وقعها يقتلع ، كنت وحسين وإسماعيل وحسن

منهمكين في شتى الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخييم محييا ، التفت وأنا من
الذهول في غاية .. من تكون القادمة ؟ .. كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء
مجلسهم ؟ .. ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل .. وتناسيت التقاليد جميعا ..
وجدتني حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض حاء . بدت وكأنها صديقة
للجميع إلآى ، فقال حسنين يعارف بيننا : « صديقي كمال .. أختي عائدة »
لبلبلتني عرفت لم خلقت .. لم لم أمت .. لم دفعتنى المقادير إلى العباسية ، وحسين ،
وقصر آل شداد ، متى كان ذلك ؟ . كان الزمان نسيا منسيا وأسفاه ! إلا اليوم ،
كان يوم الأحد .. عطلة مدرستها الفرنسية الذى صادف عطلة رسمية لعلها مولد
النبي ، وعلى اليقين كانت مولدى أنا ، ما قيمة التاريخ ؟ ، سحر التقويم أنه يوهنا
بأن الذكرى تبعث حية وتعود ولو أن شيئا لا يعود ، لن تفتأ تجد في البحث عن
التاريخ ، ولن تفتأ تردد : مطلع السنة الثانية بالمدرسة .. أكتوبر نوفمبر .. حين
زيارة سعد للصعيد وقيل نفيه للمرة الثانية .. مستخبرا الذاكرة والشواهد والأحداث
وليس إلا أنك تشبث تشبث اليأس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى
الأبد . لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسها ، وهو ما
تتخيله حينما بعد حين بشعور ملكه الشك والهيام ، كأنما هي مخلوق غير جسماني لا
مس له .. وهكذا ضاعت فرصة كالحلم كضائع الزمان ، ثم أقبلت على صديقك
تحدثهما ومجادلتها — بغير كلفة — وأنت قابع في مقعدك تحت الكشك تكابد
حيرة المتشبع بتقاليد حى الحسين ، حتى عدت تتساءل : ترى ، أهى تقاليد
خاصة بالقصور ، أم نفحة من باريس التى نشأ المعبود بين أحضانها ؟ .. ثم
تستغرق في رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنشئ بتغريده وتمتلئ بكل حرف يند
عنه ، ولعلك — يا مسكين — لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد ، وأنت كالوليد
سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح والدموع . وقالت ذات الصوت الرخييم : «
سنذهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة » . فسألها إسماعيل باسم : « أتخبين منيرة
المهدية ؟ » .. فترددت كما ينبغي لأنسة نصف باريسية ، ثم أجابت : « ماما
نحبها » ، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن في حديث عن منيرة وسيد درويش
وصالح وعبد اللطيف البنا ، ثم ما أدري إلا والصوت الرخييم يسأل : « وأنت يا
كمال ، ألا تحب منيرة ؟ » ، أتذكر ذلك النداء الذى نزل على غير انتظار ؟ ، أعنى

أتذكر النغمة الطبيعية التي تجسمها ؟. لم يكن قولاً ، ولكن نغماً وسحراً استقر في الأعماق كى يغرد دوماً بصوت غير مسموع ينصب فؤادك إليه في سعادة سماوية لا يدركها أحد سواك ، كم روعك وأنت تتلقاه ، كأن هاتفاً من السماء اصطفاك فرد اسمك ، سقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نهلة واحدة وددت بعدها لو مهتف مستتجداً : « زملونى .. ذئرونى » ، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت ، لبثت دقائق ثم ودعنا ومضت ، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة ، تنم إلى جمالها الفاتن عن صراحة محبة وجراحة مصدرها الثقة — لا الاستهتار أو القحة — وترفع مروع ، كأنما تجذبك وتدفعك معا .. جمالها فتنة لا أدرك له كتبها ولا أدرى له شها ، وكان يخيل إلى كثيراً أنه ليس إلا ظلاً لسحر أعظم يكمن في شخصها .. من أجل أى هذين أحبها ؟. كلاهما لغز ، ولغز ثالث هو حبيب . يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوماً إلا أن ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً . لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلب القلب في جنباتها نشوان حتى يخال أنها الحياة جميعا ، فيتساءل فيما يشبه الشك : هل كانت ثمة وراء ذلك حياة ؟. هل حقا مضى زمن قبلها خلا من الحب قلبي وأفقرت من تلك الصورة الإلهية نفسى ؟. ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جديب وربما لسعت الألم حتى تذوب حشرات على السلام الذى ولى ، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلا ، فيمضي ملتصقا الشفاء في شتى العقاقير الروحية ، يستمدّها من الطبيعة أنا ، ومن العلم أنا ، ومن الفن حيناً ، وفي العبادة أحياناً كثيرة .. قلب استيقظ فأنطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية .. أيها الناس حبوا أو موتوا .. لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمل بين جنبيك من نور الحب وأسراره .. يزدهيك علو فوق الحياة والأحياء ، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة ، وأنت أنت الذى تخلو حيناً آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية أئمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصصها بلا رحمة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدمية .. ربه ، كيف تخلق نفسك من جديد ؟ ، هذا الحب طاغية يتيه فوق كافة القيم وفي ركاية يتألق معبودك ، لا تكمله الفضائل ولا تنقصه المثالب ، النقيصة تلوح في تاجه الدرى حسنا يشغلك إعجاباً ، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية ؟. كلا ، بل إن خروجها بالتقاليد المرعية أزرى . يطيب

لك أحيانا أن تسأل نفسك : ماذا تروم من حجبها ؟. أجب بكل بساطة : أن أحجبها ، أيجوز أن تنبثق في النفس هذه الحياة كلها ثم يتساءل عن غايته وراءها ؟ لا شيء وراءها . العادة هي التي ربطت بين لفظي الحب والزواج ، ليست فوارق السن والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي ، ولكنه الزواج نفسه ، بما يستنزل الحب من سمائه إلى أرض العقود والعرق .. ويسألك الذي يأتي إلا أن يحاسبك ، بم جادت عليك لقاء التهاك في حجبها ؟. أجب بلا تردد : ابتسامة فاتنة ، و « يا كمال » الغالية ، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة ، وترائيها مع الصباح الندي ، وسيارة المدرسة تمضي بها ، ومعايشتها الخيال في سباحات اليقظة وتهويم الأحلام . ثم تسألك النفس الطماعة الجشونة : أمن المحال أن يكون المعبود مشغولا بأمر عابده ؟. أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب : حسن أن يذكر عند العودة اسمنا .. » ..

— بسرعة إلى الحمام ، هل تأخرت ؟!

مالت عينا كمال — وقدم للاح فيهما رجع المفاجأة — إلى ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشف رأسه بالقطرة ، ثم وثب إلى الأرض فيدا فرعه الطويل نحيفا ، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنما يتفحص رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراءى لكبره وقوته كأنه منحوت من الجرانيت ، ثم تناول فوطته من على شباك السرير ومضى إلى الحمام .

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة ، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه ، سائلا الله الهداية والستر في الدارين .. وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعد المائدة ، ثم ذهبت إلى حجرة السيد ، فدعته — بصوتها الوديع — إلى تناول الفطور ، واتجهت إلى حجرة ياسين وكمال فكررت الدعوة .

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية ، وبسمل الأب وهو يتناول رغيفا معلنا بدء الأكل ، فبعه ياسين ثم كمال ، على حين وقفت الأم وقفها التقليدية إلى جانب صينية القل . كان مظهر الأخوين يدل على الأدب والخشوع ، ولكن خلا قلباهما — أو كادا — من الخوف الذي كان يركبهما — قديما — في حضرة الأب ، ياسين : لأن بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة ، وضمانا ضد الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة ، وكمال : لأن بلوغه السابعة عشرة ،

وتقدمه في الدراسة وهباه نوعا من الضمان أيضا إلا يكن بقوة ضمان ياسين ، فإنه لم يخل من العفو والتسامح على الأقل في الحقوق التافهة ، إلى أنه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوبا من المعاملة تخفف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة ، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الآكلين بعد أن كان الصمت يتحكم في مجلسهم تحكما مخيفا ، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة وهوجة ولو بقم ممتلئ بالطعام . أجل لم يعد غريبا أن يخاطب ياسين أباه ، فيقول مثلا : « ررت أمس رضوان في بيت جده ، وهو يقرئكم السلام ويقل يدكم » ، فلا يعد السيد الخطاب جرأة غير محمود ، ولكنه يقول له سسطة : « ربنا نحفظه ويرعاه » .. ولا يعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب ، محدثا بذلك تطورا خطيرا في علاقته التاريخية بأبيه : « متى يستحق رضوان شرعا لأبيه يا بابا » . فيجيبه السيد : « عندما يبلغ السابعة » .. بدلا من أن يصيح به : « اخرس يا ابن الكلب » طاب لكمال يوما أن يتعرف على تاريخ آخر شتمة تلقاها من أبيه ، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب ، أو بعد حبه — الذي غدا يؤرخ به — بعام ، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشتبان من طراز حسين شداد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأتى له مجاراتهم في لهوهم البريء ، فشكا أمره إلى أمه راجيا إياها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة ، ومع أن مخاطبة الأب — في مثل هذا الأمر — لم تكن يسيرة على الأم ، إلا أنها هانت بغض الشيء بتغير معاملته لها عقب وفاة فهمي ، فحدثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنها بأصدقاء من « الأكابر » ، وعند ذاك دعا السيد كمال ، وصب عليه غضبه ، حتى صاح به : « هل ظننتي تحت أمرك أو أمر أصحابك !.. ملعون أبوك وأبوهم » ، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذاك .. ولكنه ما يدرى إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي ، وما أن سمع اسم حسين عبد الحميد شداد ، حتى سأل به اهتمام : « من العباسية صاحبك ؟ » . فأجاب كمال بالإيجاب ، وقلبه ينفق ، فقال السيد : « كنت أعرف جده شداد بك ، وأعرف أيضا أن أباه عبد الحميد بك كان مبعدا في الخارج لسابق علاقته بالخدو عباس .. أليس كذلك ؟ » ، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى ، وهو يغالب وجده الذي أهاجه الحديث عن والد معبودته : وذكر لـ

ما علم عن الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس ، حيث ترعرعت معودته في نور مدينة النور ، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة ، وعد معرفته لجد معبودته رقية سحرية تنسبه — ولو من بعيد — إلى منزل الوحي ومبعث السنن . ثم ما لبثت أمه أن زفت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه .

منذ ذلك اليوم لم يتعرض ليشتمه جديدة ، إما لأنه لم يرتكب ما يستوجبها ، وإما لأن أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقا .. وقف كإل إلى جانب أمه في المشربية يشاهدان السيد أحمد في الطريق ، وهو يردد — في وقار ولطف — تحيات عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفول واللبن ويومى الشربتلى ، وأبو سريع صاحب المقل . ثم رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفا أمام المرأة يتأنق في عناية وصبر . جلس على كنية بين السريين ، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورد المكتنز بنظرة باسم غامضة ، كان يكن له حبا أخويا صادقا ، فبيد أنه لم يكن يستطيع — كلما أنعم فيه الفكر أو النظر — أن يقاوم شعورا خفيا بأنه حيال « حيوان أليف جميل » ، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص ، ربما تساءل ، تسأول من يرى في الحب جوهر الحياة والروح ، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقا ؟ . فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة ، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة ، ! ما للحب وهذا الجسم اللحيم ، ! ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة ! ، ثم لا يتمالك أن يجد نحوه إحساسا بالازدراء الملطف بالعطف والود ، وإن لم يخل أحيانا — خاصة في الأوقات التي تعترى حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط — من عاطفة إعجاب بل حسد ، كذلك بدا ياسين لعينيه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة ، الذي بوأه إياه قدما حينما كان يظنه غاملا ساحرا مالكا لفنون الشعر والقصص ، تكشف له قارئا سطوحا يقنع من وقت مجلس القهوة ببضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده ، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنْ لصاحبها حبا أخويا لا تشويه شائبة .. لم يكن كذلك فهمي ، كان مثله الأعلى في الحب والعقل ، ولكنه بدا أخيرا كالتخلف بعض الشيء عما يطمح إليه ، أجل ساوره شك يقارب اليقين في أن فتاة كمرم يمكن أن

تبعث في النفس حيا حقيقيا كالحب الذي يضيء به نفسه ، كما ارتاب في أن تضاهي الثقافة القانونية التي نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التي يتشوقها بكل قوة نفسه ، كان يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد ، وذهب في ذلك كل مذهب ، إلا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يجزؤ على أن يرفع قدما ، لاح الرجل لعينيه شيئا هائلا يتربع على عرشه فوق النقد !!

— أنت اليوم عريس !. اليوم عيد من أعيادك الظافرة ، أليس كذلك ؟. لولا. تخافتك ما وجدت ما أؤاخذك عليه ..

قال كمال مبتسما :

— إني راض عنها .

ألقي ياسين على صورته نظرة أخيرة ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله يمنة بعناية حتى أوشك أن يمس حاجبه ، ثم قال وهو يتجشأ :

— أنت حمار كبير يعمل الهكالوريا ، تتمتع بالطعام والراحة فهذه هي العطلة ، كيف تسول لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسي ؟! اللهم إني برىء من النحافة وأصحابها !

ثم ، وهو يغادر الغرفة والمنشة العاجية في يده :

— لا تنس أن تختار لي قصة جيدة ، مثل « باردليان » ، و « فوستا » ، هه ؟!.. مضى زمن كنت تستجديني فصلا من رواية ، هاك زما أغبر أشحذك فيه القصص !

ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه ، فنهض وهو يغمغم : من أين له البدانة والقلب لا ينام ؟!. لم تكن تحلو له الصلاة إلا خاليا ، صلاة بالجهاد أشبه ويشارك فيها القلب والعقل والروح ، جهاد من لا يرضن بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على المنوبة والخاطرة .. أما الدعاء في أعقاب الصلاة ، فلها ، لها وحدها ..

٣

عبد المنعم : الفناء أوسع من السطح ، ولا بد أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها ..

نعيمة : ستغضب ماما وخالتى وجدتي ..

عثمان : لن يرانا أحد ..

أحمد : البئر فضلية ، ويموت من ينظر فيها .

عبد المنعم : نرفع الغطاء ، ثم ننظر من بعيد .. (ثم بصوت مرتفع) .. هيا بنا نزل .

أم حنفى : (معترضة باب السطح) لم يبق في حيل للنزول والطلوع ، قلت نطلع السطح فطلعنا السطح ، وقلتم نزل الفناء فنزلنا إلى الفناء ، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية ، ماذا تريدون من الفناء ؟ .. الجو حار تحت ، أما هنا فالنسمة جارية ، وعما قليل تغيب الشمس .

نعيمة : سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها ..

أم حنفى : سأنادى ست خديجة وست عائشة .

عبد المنعم : نعيمة كذابة ، لن نرفع الغطاء ، ولن نقرب منه ، سنلعب في الفناء قليلا ثم نعود ، ابقى هنا حتى نعود .

أم حنفى : أبقى هنا ؟! رجلى على رجلكم ، الله يهديكم .. ليس في البيت كله مكان أجمل من السطح ، انظروا إلى هذا البستان !

محمد : نامى لأركبك ..

أم حنفى : كفاية ركوب ، اختر لنفسك لعبة أخرى : الله ! الله .. انظروا إلى الياسمين واللبلاب ، انظروا إلى الحمام ..

عثمان : أنت قبيحة كالجاموسة ، ورائحتك نتنة ..

أم حنفى : الله يسامحك ، عرق سال من الجرى وراءكم .

عثمان : خليتنا نر البئر ولو شوية صغيرة .

أم حنفى : البئر ملأى بالعفاريت ، ولذلك سدبناها .

عبد المنعم : كذابة ، لم تقل ماما ولا خالتي هذا ..
 أم حنفى : الحقيقة عندى أنا ، أنا وستى الكبيرة ، كنا نراهم رؤية العين ،
 فانتظرنا حتى دخلوا ، وألقينا على فوهة البئر الغطاء الخشبي وأثقلناه
 بالحجارة . لا تذكروا البئر ، وقولوا معنى : « باسم الله الرحمن
 الرحيم » ..

محمد : نامى لأركبك .
 أم حنفى : انظروا إلى اللباب والياسمين ! . ليت عندكم مثلهما ، ليس في
 سطحكم إلا الدجاج والخروفان اللذان تسمنونهما للعيد .

أحمد : ماء .. ماء .. ماء ..
 عبد المنعم : هاتي سلما لنطلع عليها !
 أم حنفى : يا ساتر يا رب ، الولد لخاله ، العبوا في الأرض لا في السماء .
 رضوان : في شرفة بيتنا وفي السلامك أصص ورد أحمر وأبيض وقرنفل ..
 عثمان : عندنا خروفان ودجاج ..
 أحمد : ماء .. ماء .. ماء ..

عبد المنعم : أنا في الكتاب ، من منكم في الكتاب ؟
 رضوان : أنا حافظ « الحمد » .
 عبد المنعم : الحمد ، كبة لمبه !
 رضوان : إخص ، أنت كافر .
 عبد المنعم : هذا ما يتغنى به العريف في الطريق ..
 نعيمة : قلنا ألف مرة لا تردد كلامه ..

عبد المنعم : (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي ياسين ؟
 رضوان : أنا عند ماما .
 أحمد : أين ماما ؟

رضوان : عند جدى الآخر !
 عثمان : أين جدك الآخر ؟
 رضوان : في الجمالية !.. في بيت كبير وسلامك .
 عبد المنعم : لماذا أمك في بيت ، وأبوك في بيت ؟

رضوان : ماما عند جدى هناك ، وبابا عند جدى هنا ..
 عثمان : لم لا يوجدان فى بيت واحد مثل بابا وماما ؟..
 رضوان : القسمة والنصيب ، هذا ما تقوله جدتى الأخرى !
 أم حنفى : قررتموه حتى أقر ، لا حول ولا قوة إلا بالله ! ارحموه والعبوا ..
 أحمد : نامى لأركبك ..
 رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب ..
 عبد المنعم : هاتوا سلما ، وأنا أقبض عليها ..
 أحمد : لا ترفع صوتك ، إنها تنظر إلينا بعينها وتسمع كل كلمة نقولها ..
 نعيمة : ما أجملها ، عرفت ! ، هى العصفورة التى رأيتها أمس فوق جبل
 الغسيل عندنا ..
 أحمد : الأخرى فى السكرية ، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدى ..؟
 عبد المنعم : يا حمار ، العصفورة تطير من السكرية إلى هنا وتعود قبل المساء .
 عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا ..
 محمد : نامى لأركبك ، أو أبكى حتى تسمعنى ماما ..
 نعيمة : نلعب الحجلة ؟
 عبد المنعم : بل نتسابق ..
 أم حنفى : من غير شجار بين السابق والمسبق .
 عبد المنعم : اسكتى يا جاموسة ..
 عثمان : ناع ع .. ناع ع .. ناع ع ..
 أحمد : ماء .. ماء .. ماء ..
 محمد : سأدخل السباق راكبا ، نامى لأركبك ..
 عبد المنعم : واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

* * *

احتفى السيد أحمد عبد الجواد بالمدعوين فأعطى نفسه لهم النصف الأول من
 النهار كله ، ثم توسط مائدة الوليمة التى ضمت : إبراهيم شوكت ، وخلييل
 شوكت ، وياسين وكال . ثم دعا بالرجلين إلى حجرة نومه فى جلسة عائلية ، فمضوا
 يتسامرون فى جو من المودة والمؤانسة وإن لم يخل من تحفظ من ناحية السيد وتأدب

من ناحية صهره ، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة في السن بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة . ودعى الأطفال إلى حجرة الجد ليقلوا يده ويلقوا هداياه النفيسة من الشيكولاتة والملمن ، فتقدموا إليه بترتيب أسنانهم : نعمة بنت عائشة أولا ، فرضوان بن ياسين ، فعبد المنعم بن خديجة ، فعثمان بن عائشة ، فأحمد بن خديجة ، ثم محمد بن عائشة . راعى السيد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وبتساماته على أحفاده ، منتهزا فرصة خلو الحجرة من مراقبين — عدا إبراهيم وخليل — ليتخفف بعض الشيء من تحفظه المأثور ، فهز الأيدي الصغيرة بترحاب ، وقرص الحدود الموردة بخنان ، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك ، وظل مراعى المساواة حريصا عليها حتى مع رضوان أحظى الصغار بمحبته .

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن ينفحصه بتغف ، مدفوعا بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحب الاستطلاع . وكان يجد لدة كبيرة في تتبع ملامح الأجداد والآباء والأمهات في السلالات الجديدة الصاخبة التي لم تكد تلقن احترامه فضلا عن مخافته ، وقد أسره جمال نعمة ذات الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين التي فاقت أمها نفسها حسنا ورواء ، فأتخفت الأسرة بقسمات غنية من الحسن بعضها مشتق من أمها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت ، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقها عثمان ومحمد مع ميل واضح إلى ملامح الأب — خليل شوكت — خاصة في عينييه الواسعتين البارزتين ذواتي النظرة الهادئة الخاملة ، وعلى خلاف هذا تبدى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة ، فبترتهما وإن تكن شوكتية ، إلا أن عينييهما هما عينا الأم أو الجدة الصغيرتان الجميلتان ، أما الأنف فينذر بمشابهة أنف الأم أو الجد على الأصح ، أما رضوان فما كان له إلا أن يكون جميلا حظي بعيني أبيه أو عيني هنية السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجية ، وأنف ياسين المستقيم . أجل تفرقت الملاحظة في وجهه أسرة . مضى زمن طويل مذ كان يتعلق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم ، يا لها من أيام ! ويا لها من ذكريات ! ياسين وخديجة وفهمي ثم عائشة وكال ، ما منهم إلا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه ، ترى هل يتذكرون ؟. لقد كاد هو ينسى ، على أن نعمة تبلو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلية

بالحياء والأدب ، أما أحمد فلم يكف عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاتة والملمن ، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر ، وأما محمد فهول إلى الساعة الذهبية والخاتم الماسي في جوف الطربوش وكتبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلا بالقوة . ومرت لحظات توزع السيد الارتباك والحيرة ، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط ، بل مهدد من كل جانب بالأحفاد الأعزاء .. وقبل العصر غادر السيد البيت إلى الدكان ، وبذهابه تمتعت الصالة — حيث اجتمع بقية أفراد الأسرة — بكامل حرمتها . ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور ، ففرشت بحصيرها وكتباتها ، وعلقت بسقفها الفانوس الكبير ، فعدت مجلسا ومقهى لمن تبقى من الأسرة في البيت القديم . وقد حافظت طوال اليوم — رغم امتلائها على هدوئها ، حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع في الجو من عرف الكولونيا التي تطيب بها ، استردت أنفاسها ، فتعالت بها الأصوات والضحكات ، ودبت فيها الحركة ، واتخذ المجلس هيئته كالعهد القديم ، فترعت أمينة على كنية أمام أدوات القهوة ، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة ، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكال ، وما لبث أن انضم إليهم إبراهيم شوكت ، وخليل شوكت — بعد ذهاب السيد — فجلس إبراهيم إلى يمين حماته ، وخليل إلى يسارها .

لم يكد إبراهيم يستقر على مجلسه ، حتى خاطب أمينة قائلاً بلهجة متوددة :
— بارك الله في اليد التي قدمت لنا أشهى الطعام وألذه (ثم وهو يردد عينيه البارزتين الخاملتين في الجلوس كأنما يلقي محاضرة) الطواجن .. الطواجن ! ..
معجزة هذا البيت ، ليس الطواجن بما يحويه من المأكول — وإن لذ وطاب — ولكن بتسييحه قبل كل شيء . التسييك هو كل شيء !! هو الصنعة ، وهو المعجزة ، دلوني على طواجن كالتي التهمناها اليوم ! ..

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام ، وهي بين التأييد له اعترافاً بمهارة أمها والاحتجاج عليه لتجاهله إياها ، فلما أمسك كى يمينه للمنصتين فرصة للإقرار برأيه ، لم تهالك من أن تقول :

— هذا حكم مسلم به وليس في حاجة إلى شهادة شاهد ، غير أني أذكر — وأحب أن أفكر أيضا — بأنك ملأت بطنك في بيتك مرارا من طواجن لا تقل

صنعة عن طواجن اليوم !.

ارتسمت ابتسامة — ذات معنى — على وجه عائشة وياسين وكال ، وبدا على الأم أنها تغالب حياءها ، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء حديجة ، ولكن خليل شوكت بادر قائلا :

— صدقت حديجة هانم ، إن لطواجها فضلا علينا جميعا ، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخى ..

فردد إبراهيم نظره بين زوجه وحماته ، وهو يتسم كالمعتذر ، ثم قال :
— معاذ الله أن أنكر هذا الفضل ، ولكنني بصدد التحدث عن المعلمة الكبيرة (تم وهو يضحك) وعلى أى حال ! فانا أنوه بفضل والدتي لا والدتي أنا !
وانتظر حتى خفت أصوات الصحك التي أثارها قوله الأخير ، ثم واصل تقريره متلفتا نحو الأم ، وهو يقول :

— نعود إلى الطواجن ، ولكن لم نقصر كلامنا على الطواجن ؟! الحق أن الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذة وفخامة ، خذوا مثلا : البطاطس المحشو ، الملوخية ، الأرز المقلقل بالكبد والقوانص ، المحاشي المتنوعة ، والله أكبر على الدجاج ولحمة المكتنز .. خبيرنى . أى غذاء تطعمينه يا حماقي ؟
أجابته حديجة فى تهكم :
— من الطواجن تطعمه !

— سأكفر طويلا عن إقرارى بالفضل لأهله ، ولكن الله غفور رحيم ، مهما يكن من أمر فلندع الله أن يكثر من أيام الأفراح .. مبارك عليك البكالوريا يا سى كال ، وعقبى للدبلوم إن شاء الله ..

قالت أمينة بامتنان ، وكانت مودة الوجه من الحياء والسرور :
— ربنا يفرحك بعبد المنعم وأحمد ، ويفرح سى خليل بنعيمة وعثمان ومحمد ، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح ياسين برضوان ..

كان كال يسترق النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل آخر ، وعلى شفثه ابتسامة ثابتة يدارى بها عادة ملله من الحديث ، الذى تنعدم متعمدة وتقضى للياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات . إن الرجل يحدث عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل . الطعام .. الطعام .. الطعام .. لم استحق هذا التقديس

كله ؟. هذان الرجلان العجيبان لا يندور أنهما يتغيران مع الزمن ، كأنهما بمنأى عن تياره . إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس ، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيما حول طرفي الفم ، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارا بقدر ما أكسبته مزيدا من الخمول ، ولكن شعرة واحدة — سواء في رأسه أم في شاربته المفتول — لم تشب ، وبدانته لم تنزل مدحجة قوية لم يعتورها ترهل ، إلى أن التشابه الذى جمع بين الشقيقتين إلا في أعراض لا يعتد بها : كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق ، ومماثلهما في الصحة والنظرة الخاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء حقا . وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كل منهما جاكته فلاح قميصه الحريري والأزرار الذهبية تلمع في عرا أكمامه . مظهر ينم على وجهة هى كل ما هنالك . في بحر السنين السبع التى وصلت بين الأسرتين ، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منهما كثيرا أو قليلا ، ولكن حديثاً واحدا ذا طعم لم يجز بينهما !.. فيم الانتقاد ؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفق بينهما وبين شقيقتيه ؟! إن الازدراء — من حسن الحظ — لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة . أوه .. يبدو أن حديث الطواجن لم ينته بعد ، ها هو سى خليل شوكت يتهاى ليلقى كلمته :

— لم يعد أخى إبراهيم الحق فيما قال ، يد لا عدمناها ، ومائدة جديدة بأن

ينادى بها المنادون ..

كانت أمينة في أعماقها تحب الثناء ، وكثيرا ما تعانى مرارة الحرمان منه ، لشعورها بالجهد الدائب الذى تبذله عن حب وطواعية في خدمة البيت وآله ، وكثيرا ما نهمت إلى سماع كلمة طيبة من السيد ، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففى اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر ، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عجب غير مألوف ملأها سرورا حقا ، ولكنه هيج لحد الارتباك حيائها ، فقالت تدارى مشاعرها :

— لا تبالغ يا سى خليل ، أنت لك أم من يألف طعامها يزهد في أى طعام

سواه !..

وبينا عاد خليل إلى توكيد الثناء ، اتجهت عينا إبراهيم بحركة عكسية إلى خديجة ،

فالتقى بعينها وهما تحدجان إليه كأنما توقعت نظرتة فاستعدت لها ، فابتسم كالطافر ، وقال يخاطب حماته :

— لا يقرّك بعض الناس على هذا الرأي يا حماتي ..

أدرك ياسين مرمى هذه الملاحظة ، فضحك ضحكة عالية ، وسرعان ما ضج المجلس بالضحك ، حتى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتز نصفها الأعلى بضحكة مكنومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنما تنظر في حجرها ، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتى هدأت العاصفة ، ثم قالت بتحد : — لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه ، ولكن حول حقى في الاستقلال بشئون بيتى ، ولا على من هذا ..

تجددت في النفوس ذكرى المعركة القديمة التى استعرت في العام الأول من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول « المطبخ » ، وهل يظل واحداً للبيت كله تحت إشراف الأم ، أو تستقل خديجة بطبيعتها كما أرادت . كان خلافا خطيرا هدد وحدة الأسرة الشوكية وترامت أنباؤه إلى بين القصرين ، حتى علم به الجميع ما عدا السيد الذى لم يجزأ أحد على إبلاغه إياه . لا هو ولا سائر الخلافات التى نشبت تباعا بعد ذلك بين الحماة وكنّتها ، وأدركت خديجة مذ فكرت في الكفاح أن عليها أن تعتمد على نفسها وحدها ، فزوجها على حد تعبيرها « رجل نائم » لا هو لها ولا عليها ، كلما حرصه على استخلاص حقها قال لها كالمداعب : « يا ست .. دعينا من وجع الدماغ » ، ولكنه إذا كان لم يؤيدها فإنه كذلك لم يشكها . فانبثرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حيال العجوز المبهجة فجأة لم تكن متوقعة وبعناد لم يخذلها حتى في ذلك الموقف الدقيق . عجبت العجوز لجراءة البنت التى تلقفتها على يدها من عالم الغيب وسرعان ما احتدم الخصام وجنّ الغضب ، وراحت تذكرها بأنه لولا فضلها عليها ما صبح ولو في الأحلام أن تظفر مثلها بزواج من آل شوكت ، ولكن خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقا لها دون اللجوء إلى حدة لسانها الماثورة ، لسابق منزلة العجوز من ناحية ، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى ، ثم هداها مكرها إلى أن تحرض عائشة على العصيان ، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضا وجبنا ، لا حبا في الحماة ولكن إشارا للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما — بغير حساب — في ظل الحضانة

الإجبارية التي فرضتها حمايتها على الجميع ، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة ، ثم ركبها العناد فواصلت « الجهاد » بلا توان أو تردد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارهاه بحق كيتها « العجربة » بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر : « أنت وشأنك . إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك ، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامي إلى الأبد ! » . ظفرت خديجة ببغيتها فاستردت أدوات جهازها النحاسية ، وهيا لها إبراهيم المطبخ كما رسمت ، ولكنها خسرت حمايتها وفتكت بأسباب المودة التي ربطت بينهما منذ درجت في المهد ، ولم تحتل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وتحليل حتى تم صلح ، ولكن أى صلح كان ؟.. كان صلحا لا يكاد يستقر حتى يصطدم بنقار ، ثم يعقبه صلح ، فنقار من جديد ، وهكذا .. وكل واحدة منهما تلقى التبعة على الأخرى ، وأمينة بينهما حائرة ، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج ، كأن الأمر لا يعنيه ، فإذا رأى أن يتدخل تدخل وانيا وقع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبال بتوبيخ أمه أو عتاب زوجها ، ولولا إخلاص أمينة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكواها إلى السيد أحمد ، ولكنها عدلت عن ذلك كارهاه ومضت تنفس عن صدرها في أحاديثها الطويلة مع كل من يلقاها من الأهل والجيران ، معلنة على رءوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء .

قال إبراهيم معقبا على كلام خديجة ، وهو يتسم ، كأنما ليخفف بابتسامه من وقع تعقبيه :

.. ولكنك لم تكتفى بالمطالبة بحقوقك ، بل طعنت بلسانك ما حلال لك الطعن ، هذا إذا لم تكن خانتني الذاكرة ..

رفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بنى في نعد ، وقالت وهي ترمي زوجها بنظرة تهكم وغيظ :

— ولم تخونك الذاكرة ؟! . هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك ؟! . ليت للناس جميعا ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال كذاكرتك ! . لم تخنك ذاكرتك ياسي إبراهيم ، ولكنها خانتني أنا ! ، والحق أني لم أتعرض لمقدرة نيتك ، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها ، فإني أعرف بنعم الله كافة واجباتي وأعرف كيف أؤديها

على خير وجه ، ولكنى كرهت أن أقبع في بيتي وأن يُعَيَّنِي الطعام من الخارج كزلاء
الفنادق ، وفضلاً عن هذا كله فإنني لم أطق — كما يخلو « لبعض الناس » أن أمضي
نهارى نائمة أو لاهية وغيرى يقوم بمهام بيتي .

أدركت عائشة من توها المقصود من « من بعض الناس » ، فضحكت ولما
تكمل خديجة كلامها ، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق :

— أفعل ما يخلو لك ودعى الناس — أو بعض الناس وشأنهم ، لا شيء الآن
يدعو إلى كدرك ، فأنت سيدة مستقلة عقبى لمصر — وتعملين من طلوع الفجر
إلى نزول الليل : في المطبخ ، والحمام ، وفوق السطح ، وتعينين في وقت واحد
بالأثاث والدجاج والأولاد ، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شقتك أو
حمل ابن من أبنائك ، رباه .. لم هذا العناء وقليل منه يغنى !؟

أجابت خديجة بحركة من ذقنها ، وهى تغالب ابتسامة دلت على أنها وجدت في
كلام عائشة ما استأنست إليه ، وعند ذاك قال ياسين :

— بعض الناس يخلقون للسيادة ، وبعضهم يخلقون للعبودية ..

فقال خليل شوكت ، وهو يتسم كاشفاً عن ثنيتيه المتراكبتين :

— خديجة هاتم مثال صالح لست البيت ، غير أنها تشجاهل حقها من الراحة .

فقال إبراهيم شوكت مؤمناً على قوله :

— هذا رأيي بالتمام ، صارحتها به مرارا ، ثم آثرت السكوت تفادياً من وجع

الدماغ ..

نظر كمال إلى أمه ، وكانت تملأ فنجان خليل للمرة الثانية واستحضر صورة أبيه
مقرونة بذكريات جبروته ، فعلت شفثيه ابتسامة ، ثم مد بصره إلى إبراهيم مدهوشاً
وهو يقول :

— كأنك تخافها !

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

— أنا أتفادى من النكد ما وجدت سبيلاً إلى السلامة ، وأختك تفادى من

السلامة ما وجدت سبيلاً إلى النكد !

هتفت خديجة :

— اسمعوا الحكم (ثم وهى تشير إليه كالمتهدية) أنت تفادى من اليقظة ما

وجدت سبيلا إلى النوم !
 فقالت لها أمها ، وهي تحدحها نظرة تحدير :
 — خديجة !
 فربت إبراهيم على منكب حماته ، قائلا :
 — عندما من هذا كثر !.. ولكن اشهدى نفسك !
 وكان ياسين يردد بصره بين خديجة القوية المتلثة ، وعائشة النحيقة الرقيقة بحركة
 متعمدة للفت الأنظار ، ثم قال كالمستكر :
 — حدثمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى الليل ، فأين أثر ذلك
 التعب ؟!.. كأنها هي الملاحية وكأن عائشة هي العاملة !..
 فقالت خديجة ، وهي تبسط راحة يمينها في وجهه مفرجة بين أصابعها
 الخمس :

— ومن شر حاسد إذا حسد !
 ولكن عائشة لم ترتع لبحرى الحديث الأخير ، فلاحت في عينها الزرقاوين
 الصافيتين نظرة اعتراض ، واندفعت للذود عن نخافتها متجاهلة العاية الواضحة من
 ملاحظة ياسين ، وهي تعانى شيئا من الغيرة فقالت :
 — لم تعد السمانة موضبة العصر (ثم مستدركة عندما شعرت بانخاء رأس
 خديجة نحوها) ، أو على الأقل فالنحافة موضبة كذلك عند كثيرات .. !
 فقالت خديجة بهكم :

— النحافة موضبة العاجزات عن السمانة .
 خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى سمعه ، فوثب من باطنه إلى
 مخيلته صورة القامة الفارعة والقدر المشوق ، فرقص قلبه بطرب روحاني وانثقت منه
 النشوات ، ثم احتضنته فرحة صافية نسي في حلمها الهادىء العميق نفسه ومكانه
 وزمانه . فلم يدر كم فيها لبث حتى انتبه على ظل سحابة من الأسى نجىء كثيرا ذيلًا
 لحلمه ، لا كما نجىء الغريب الدخيل أو العنصر المتنافر ، ولكنها تتسرب إلى الحلم
 الباهر كأنها خيط من نسجه أو نغمة من هارمونيته . تنفس تنفسا عميقا ، ثم جال
 ببصره الحالم في الوجوه التي يحبها من قديم ، والتي يبدو أنها تتباهى على نحو أو آخر
 بنسبها ، خاصة الوجهة الأشقر الذى هام رمنا باحتساء الماء من موضع شفتيه ..

استرجع هذه الذكرى في حياء — وما يشبه التأفف — فشعر بأن أى نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليق بأن يثير تعصبه وإن حظى بعطفه وحبه .
— لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصلت خديجة حديثها) .
انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى بزيادة وزنه ، لا تظن يابنى أن طلب العلم هو كل شيء .

أصغى كمال إليها باسماء في استهانة وهو يتفحص جسمها الذى تراكم لحمه وشحمه ، ووجهها الذى توارت بالاكتمار عيوبه ، معجبا بروح السعادة والفوز التى تكتنفها ، غير أنه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة رأيها ، أما ياسين ، فقال بتحد وسخرية معا :

— إذا فأنت راضية عني ، لا تكابري في هذا !
كان ثانيا ساقه اليمنى تحته طارحا الأخرى على الأرض ، وقد فتح — من الحرج — طوق جلبابه ، فبدت من فتحة فانتله الواسعة خصلات من شعر صدره الأسود الأثيث ، فألقت عليه نظرة نافذة ، ثم قالت :
— لكنك زدتها حبتين ، ثم أن شحمتك وصل إلى المخ ، وهذا شيء آخر .
نفخ ياسين كالإثاس ، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلا في إشفاق وعطف :

— خبرني عما تصنع بين زوجك — وهذه حالها — وبين والدتك ؟
أشعل إبراهيم سيجارة ، وأخذ نفسا ، ثم نفخه وهو يطم بوزة مشاركا أخاه خليل — الذى لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم — في تعفير جو الصالة ، ثم قال في عدم اكتراث :

— أذنا من طين وأذنا من عجين ، هذا ما تعلمته من التجربة !
فقالت خديجة ، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشئ بغیظها :
— لا دخل للتجربة في ذلك ، التجربة بريئة وحياتك عندي . المسألة /إن. رينا أعطاه طبعاً مثل دندورمة عم بدر التركي ، ولو تحركت مئذنة الحسين ما اهتزت له شعرة..!

رفعت أمينة رأسها ، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتى ابتسمت الابنة وخفضت عينها فيما يشبه الحياء . وإذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف :

— هذا طبع آل شوكت ، وهو طبع سلطاني . أليس كذلك ؟!
فقلت خديجة — بلهجة ذات مغزى — وهى تضحك لتخفف من وقع
كلامها :

— من سوء حظى ياسى خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطاني !
فبادرتها أمينة قائلة وقد نفذ صبرها :

— حمائك لا نظير لها فى النساء ، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة !!
فمال رأس إبراهيم يسرة ، وهو يحدج زوجه بنظرة من عل التمت بها عيناه
البارزتان ، ثم قال وهو يتنهد فى ظفر :

— وشهد شاهد من أهلها ، الله يكرمك يا حماق .. (ثم مخاطبا الجميع) ياهوه
أمى ست كبيرة ، وفى سن تستوجب الرعاية والحلم ، وزوجى لا تعرف عن الحلم
شيئا ..

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة :

— أنا لا أغضب بلا سبب ، ولم يكن الغضب من طبعى فى يوم من الأيام ،
وهاك أهلى فسلمهم عما تشاء !

ساد الصمت . كان أهلها لا يدرون ماذا يقولون ، حتى ندت عن كمال
ضحكة ، فلفتت إليه الأنظار ، فلم يتمالك أن يقول :

— أهلة خديجة أغضب حليلة عرفتها !

فتشجع ياسين قائلا :

— أو هى أحلم غضوب ، والله أعلم ..

انتظرت خديجة حتى هدأت نائرة الضحك التى أعقبت ذلك . ثم أومأت إلى
كمال وهى تهرز رأسها فى حسرة ، قائلة :

— خائنى الذى حملته على حجرى أكثر مما حملت أحمد وعبد المنعم .

فقال كمال كالمعتذر :

— لا أظننى أفسيت سرا ..

وسرعان ما اتخذت أمينة موقفا جديدا للدفاع عن خديجة التى بدت فى مركز
لا تحسد عليه . فقالت باسمه :

— جل من له الكمال ..

وجارها إبراهيم شوكت في لباقة قائلا :
— صدقت ، إن لزوجي مزايا لا يستهان بها ، لعنة الله على الغضب الذى
يصيب أول ما يصيب صاحبه ، لا شيء فى الدنيا يستحق فى نظرى الغضب !
فقال خديجة ضاحكة :
— يا بختك !.. لذلك تمضى الأيام — عيني عليك باردة — وأنت من التغير فى
حصن !

بدا على أمينة الاستياء — لأول مرة — بصورة جدية ، فقالت فى عتاب :
— ربنا يصون له شبابه ، هو وأمثاله !
تساءل إبراهيم ضاحكا ، وهو لا يخفى سروره بدعاء حماته :
— شبابه !؟

فقال خليل شوكت يحببه ، وإن وجه الخطاب لأمينة :
— إن التاسعة والأربعين فى آل شوكت تعد من مراحل الشباب !.
فعدت أمينة تقول فى إشفاق :

— يا بنى لا تتكلم هكذا ودعونا من هذه السيرة ..
ابتسمت خديجة لما بدا من أمها من إشفاق كانت هى على علم وإيمان بأسباب
وبواعثه ، ذلك أن الإشادة بالصحة جهرا فى البيت القديم — صراحة —
مكروهة ، لتجاهلها « العين » وشرها ، وهى نفسها — خديجة — لم تكن لتعالن
— بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل
شوكت ، حيث لا تحظى عقائد كثيرة — كالحسد مثلا — بإيمان عميق ، وحيث
يخوضون فى أمور شتى بلا خوف — كسير الجن والموت والمرض — يخول الإشفاق
والحذر دون الخوض فيها فى البيت القديم ، إلى هذا كله ، كانت العلاقة بين
الزوجين أوثق مما تبدو فى الظاهر ، فلم يكن ثمة ما يهددها من قول أو فعل ، كانا
زوجين موفقين ، يشعر كلاهما فى أعماقه بأنه لا غنى له عن الآخر رغم شتى
الماخذ ، وقد كان مرض إبراهيم يوما فرصة غريبة جلست مكنون ما يعمر صدر
خديجة من محبة ووفاء . أجل ! لم يكن النقرار ليسكت بينهما ، على الأقل من
ناحيتهما هى ، فلم تكن أمه هدفها الوحيد ، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يعيا أن
تكتشف فيه موضعاً كل يوم لا انتقاد . مثل : كثرة نومه ، قبوعه فى البيت بلا

عمل ، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل في الحياة ، ثرثرته التي لا تنتهى ، تجاهله لما ينشعب بينها وبين أمه من نراع وملاحاة .. حتى مرت أيام وأيام — على حد تعبیر عائشة — لم يكن لها من حديث إلا شكه ولسعه — ولكن رغم هذا كله — أو بفضل هذا ، من يدري ؟! . فالنقار نفسه يقوم أحيانا بوظيفة الشطة في تهيج شهوة الطعام — ظلت عواطفهما قوية ثابتة لا تتأثر مما يكدر الظاهر ، كأنها التيارات المائية العميقة التي لا يتحول مجراها بفورات السطح وتشنجاته ، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدر نشاطها حق قدره ، بعد أن لمس آثاره في رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقاة ملبسه وهندمة ابنه .. فكان يقول لها مداعبا : « الحق أنك لقيّة يا عجربة ! » رغم إرأى أمه في هذا النشاط الذى لم تتردد عن الجهر به في أوقات الخصام وما أكثرها ، فتقول لخديجة ساخرة : « هذه فضيلة الخدم لا الهوانم » ، فتبادرها خديجة قائلة : « أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب ، سيد البيت الحقيقى من يخدمه » ، فتقول العجوز مواصلة تهكمها : « لقنوك هذا الكلام فى بيتك كى يخفوا عنك أنك لم تكونى تصلحين فى نظهرم إلا للخدمة ! » ، فتصيح خديجة : « أنا أعلم بسبب حنقك على ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزنا فى بيتى » ، فتصرخ العجوز : « يارى اشهد . السيد أحمد عبد الجواد رجل طيب ، ولكنه أنجب شيطانة ، أنا أستحق ضرب الشبشب جزاء اختيارى لك » . فتمضى خديجة وهى تغغم ، حتى لا تبين المرأة كلامها : « أنت تستحقين ضرب الشبشب .. لا أجادلك فى هذا » .

نظر ياسين إلى عائشة ، وقال وهو يتسم فى خبث :
— ما أسعدك بنفسك يا عائشة ، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب ! .
فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها ، وقالت له وهى تهز كتفها مظهرة بالاستهانة :
— وقاع يسعى بوقية بين أختين !
— أنا ؟! .. حسبى الله ، فهو المطلع على حسن نيتى !
وهى تهز رأسها كالأسفة :
— لم تكن يوما ذا نيّة حسنة ! .

وقال خليل شوكت ، معلقا على كلام ياسين :
 — نحن نعيش في سلام ، وشعارنا : « عش ودع غيرك يعيش » !
 فضحكت خديجة حتى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة ، وقالت بلهجة لم تخل
 من تهكم :

— بيت سى خليل بيت أفراح ، لا يزال هو يلعب بأوتار العود ، والهانم تسمع أو
 تستعرض نفسها في المراة أو تحدث هذه أو تلك من صوحيباتها من النافذة أو
 المشربية ، ونعيمة وعثمان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائد ، حتى إن عبد المنعم
 وأحمد إذا ضاقا براقبتي فزا إلى شقة خالتهما فانضما إلى فرقة التخریب ۱..
 تساءلت عائشة باسمه :

— أهذا كل ما ترين في بيتنا السعيد ؟
 قالت خديجة بنفس اللهجة :
 — أو تغنين ونعيمة ترقص ۱..
 عائشة بمباهاة :

— حسبي أن جميع الجارات يحببنني ، وأن حماقي تحبني كذلك ..
 — لا أتصور أن أفتح صدري لإحدى أولئك النسوة الثائرات ، أما حماكتك
 فتحب من يملقها ويسجد لها ..

— يجب أن نحب الناس ، وما أسعد أن يحبنا الناس كذلك ، حقا من القلب
 للقلب رسول ، إنهم جميعا يخشونك كثيرا ما قلن لي : « أختك لا ترحب بنا ولا
 تتعب من تنقصنا ! » .. (ثم مخاطبة أمها وهي تضحك) ... لا تزال تسمى
 الناس بأسماء هزلية ، ثم تتندر بها في البيت ، فيحفظها عبد المنعم وأحمد ، ويرددانها
 في الحارة بين الغلمان فتذيع !.

عاود الضحك الصامت أمينة ، كذلك ضحكت خديجة في شيء من
 الارتباك ، كأنما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة ، على حين راح خليل يقول
 في ابتهاج غير خاف :

— بالجملة نحن تحت صغير ، فيه العواد والمطربة والراقصة ! حقا لا يزال ينقصنا
 جماعة المنشدين والمرددين ، ولكنني أتوسم في أولادى خيرا ، والمسألة مسألة
 وقت !

فقال إبراهيم شوكت ، موجها الخطاب إلى أمينة :
— أشهد أن بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة !
ضحكت أمينة حتى تورد وجهها الشاحب ، ثم قالت :
— رأيها وهي ترقص ، ما ألفتها !
قالت خديجة بحماس نطق بخنائها العائلي المأثور :
— ما أجملها ! ، كأنها صورة من صور الإعلانات .
فقال ياسين :
— ما أجملها عروسا لرضوان !
فقالت عائشة ضاحكة :
— ولكنها بكريّة الأسرة !.. آه .. لم يمكنني أن أغالط في عمرها كما يجلس
بالأمهات !

فتساءل ياسين بعدم اكتراث :
— لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنا من العريس ؟
فلم يجبه أحد ، حتى قالت أمينة :
— لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب !
فعادت خديجة تقول :
— ما أجملها يا ربي ! ، لم أر لجمالها مثيلا ..
فتساءلت عائشة ضاحكة :
— وأمها ؟!.. ألم ترى أمها ؟
فقطبت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجدية ، وهي تقول :
— هي أجمل منك يا عائشة ، لن تستطيعي المكافحة في هذا !.
ثم ما لبثت أن عاودتها سخرتها فقالت :
— وأنا أجمل منكما معا !.

هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال ! ، ماذا عرفوا من كنه الجمال ؟.
تعجبهم ألوان : بياض العاج ، وسبائك الذهب . سلوكي أنا عنه ، ولن أحدثكم
عن السمرة الصافية والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية .
كلا ! كل أولئك جميل ، ولكنه خطوط وشكول وألوان تخضع في النهاية للحواس

والقياس . الجمال هزة في القلب جارحة وحياة في النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثيه حتى تعانق السماوات .. حدثوني عن هذا إن استطعتم .. » .
— لم يلتصق نساء السكرية ود خديجة هائم ؟ .. ربما كان لها مزاي — كما يشهد بذلك زوجها — ولكن الناس عامة يستهويها الوجه الصبيح واللسان الحلو .. !
قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد ، بعد أن رأى الحديث يتحول عنها في سلام ، فرمته بنظرة كأنما تقول له : « تأنى أن أرحمك » .

ثم قالت وهي تنهد بصوت مسموع :
— حسبي الله ونعم الوكيل ، لم أكن أعلم أن لي هنا حماة أخرى .
ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع ، ولكن بلهجة جدية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقع ، فتقول :

— ليس عندي متسع من الوقت كي أضيعة في الزيارات ، البيت والأولاد يلتهمون وقتي كله ، خاصة وأن زوجي لا يهتم لا بالبيت ولا بالأولاد !
فال إبراهيم شوكت ، مدافعا عن نفسه :

— اتقى الله ولا تغالى شأنك في كل شيء ، الأمر وما فيه : أنه ينبغي لمن كان له زوجة كزوجتي أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر . الدفاع عن قطع الأثاث التي تكاد تنبري من كثرة النفوذ والمسح ، والدفاع عن الأولاد الذين تحملهم فوق ما يطيقون .. آخر العهد بذاك ، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة من عمره !

قالت خديجة بفخار :

— لو اتبعت رأيكم لاستبقيته في البيت حتى يبلغ سن الرشد ! ، كأن بينكم وبين العلم عداوة ، كلا يا حبيبي ، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوالهم . إنى أذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسى !

ياسين مستنكرا :

— أنت تذاكرينه ؟ !

— لم لا ؟ ! كما كانت نينة تذاكر كمال ، أجالسه كل مساء فيسمعني ما يحفظونه في الكتاب .

ثم وهي تضحك :

— وبذلك أيضا أستذكر مبادئ القراءة والكتابة التي أخاف أن أنساها بمرور

الزمن ..

تورد وجه أمينة حياء وسرورا ، فرنت إلى كمال كأنما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالى الخوالى فابتسم إليها ابتسامة ذكور « لتنشئ خديجة ابنها على ما نشأ عليه أخوها ، ليكن منهما من يتأثر كمال الذى يشق السبيل إلى المدرسة العليا ، ليكن منهما من يتشبه بـ ... ، آه ما أضعف الصدور المتصدعة عن تحمل الخفقات الواهة ، لو امتد به العمر لكان اليوم قاضيا أو فى الطريق إليها ، كم حدثك عن آماله أو آمالك ! ، أين مضى كل ذلك ؟ ، ليت عاش ولو فردا من غمار الناس . » ..
قال إبراهيم شوكت ، مخاطبا كمال :

— لسنا كما تهمنا أختك . لقد دخلت امتحان الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١ ، كانت الابتدائية على أيامنا شيئا عظيما على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد ، لم نواصل التعليم ، لأنه لم يكن فى نيتنا أن نتوظف ، أو بمعنى آخر لم نكن فى حاجة إلى الوظيفة ..
أعجب كمال إعجابا ساعرا بقوله « دخلت امتحان الابتدائية » ، ولكنه قال مجاملا :

— هذا أمر طبعى ..

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند ثورين سعيدين ؟ ، كلا كما تجربة ثمينة علمتني أنه من الجائز أن أحب — أى حب كان — من أحتقر .. أو أن أتمنى الخير كل الخير لشخص تثير مبادئه فى الحياة نفورى وتقزى ، لا أملك إلا أن أكره الحيوانية من صميم قلبى ، صار ذلك حقيقة وحقا مذ هفت على القلب نسمة السماء !
هتف ياسين فى حماس هزلى :

— لتحيى الابتدائية القديمة !

— نحن حزب الأغلبية على أى حال !

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه — وأخاه ضمنا — على حزب الابتدائية التى لم ينالاها ، ولكنه لم يجد بدا من التسليم ، على حين راحت خديجة تقول :
— سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتى ينالا الدبلوم العالى ، سيكونان عهدا .
جديدا فى ال شوكت ، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيدا : عبد المنعم إبراهيم

شوكت ، أحمد إبراهيم شوكت ، .. ألا يرن الاسم زين « سعد زغلول » ؟ !
فصاح إبراهيم ضاحكا :

— من أين لك هذا الطموح كله ؟

— لم لا ؟ .. ألم يكن سعد باشا محاورا بالأهر ؟ ! من الجراية إلى رئاسة الوزراء ،
وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها ، ليس شيء على الله بكثير !! .

تساءل ياسين متبهما :

— هلا قنعت بأن يكونا مثل عدلى أو ثروت ؟

فصاحت كالمستعيزة بالله :

— الخونة ؟ ! لن يكونا من الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار !

أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلا ، ومسح به وجهه الذى زادت حمرة عمقا
بحرارة الجو ونضح عرقا بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة ، ثم قال وهو أخذ في
تجفيفه :

— لو أن لشدة الأمهات فضلا فى خلق العظماء ، فأبشرى من الآن بما ينتظر

ابنك من مجد كبير !

— تريدنى على أن أتركهما وشأنيما ؟

قالت عائشة نزقة :

— لا أذكر أن نينة انتهرت أحدا منا فضلا عن ضربه ، ألا تذكرين ؟

فقالت خديجة كالآسفة :

— لم تلجأ نينة إلى الشدة ، لأن بابا كان هناك ! كان ذكره كافيا لإلزام كل

حده ، أما عندى ، أو عندك فالحال من بعضه ، فالأب غير موجود إلا بالاسم

(اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك ؟ إذا كان الأب أما ،

فعلى الأم أن تكون أبا .. !

ياسين مبتهجا :

— يقينى أنك نجحت فى أبوتك ! أنت أب .. هذا ما شعرت به طويلا ، ولكن

كانت تنقصنى معرفته !

فتظاهرت بالرضى قائلة :

— أشكرك يا بمبة كشر ..

« خديجة وعائشة ، صورتان متعارضتان .. تأمل جيدا ، أيهما تظن الأجاء .
 بأن تكون معبودتك على مثالها ؟ .. أستغفر الله ! معبودتي على غير مثال ،
 لا أتصورها ربة بيت . ما أبعد هذا عن التصور ! معبودته في ثياب البيت تنهه
 طفلا أو ترعى مطبخا ؟ ! يا للفرع ويا للتقزز ، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلة
 باهرة في حديقة أو سيارة أو ملهى ، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للعالم ، جنس
 مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلا قلبي ، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان
 العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي ، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان
 الجمال إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي ، هاك حياتي أكرسها
 لمعرفتك ، هل ثمة وراء ذلك ظمأ لعرفان ؟ » .

— يا ترى ما أخبار مريم ؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها ، فأحدث الاسم آثارا
 متباينة في كثير من الجالسين ، تغير وجه أمينة حتى نمت أساريره عن الامتعاض
 الشديد ، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاملا بتفحص أظافره ، وردت
 رأس كمال جملة من ذكريات هزت نفسه هزا ، أما خديجة فأجابتها بلهجة باردة
 — أى أخبار جديدة تتوقعين ؟ طلقت وعادت إلى بيتها !

انتهت عائشة — بعد فوات الفرصة — إلى أنها انزلت سهوا إلى ورطة ، وأنها
 أساءت إلى أمها بهفوة لسان . ذلك أن أمها آمنت منذ عهد بعيد بأن مريم وأم مريم
 لم تصدقا في حزنهما على فهمي ، إن لم تكونا شمتا بهن من أجل ذلك ، لما سبق من
 معارضة السيد في خطبة مريم للفقيد . وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظن ،
 فتابعها الأم عليه بلا تردد أو تفكير ، وسرعان ما تغيرت عواطفهما نحو جارتها
 القديمة حتى أوحى ذلك بالتكرار فالتقطية .

قالت عائشة بارتباك ، محاولة الاعتذار عما بدر منها :

— لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها ؟

فقالت أمينة بانفعال ظاهر :

— ما ينبغي لك أن تفكرى فيها .

كانت عائشة قد أعلنت شكها — عند ذلك التاريخ — في واقعية التهمة التي
 ألصقت بصديقتها ، معتلة بأن الخطبة وما دار حولها بقي طي الكتمان ، فلم يتناه

نبؤه إلى بيت مريم في حينه ، مما ينفي على الفتاة وآلها دواعي الشماتة .. ولكن أمها لم تر رأيها محتجة بأن مسألة خطيرة كهذه المسألة مما يتعذر منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها ، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلا خشية أن تهتم بمحابة مريم أو بفتور حماسها للذكرى شقيقها ، لكنها بإزاء انفعال أمها ، وجدت نفسها مسافة إلى تلطيف وقع هفوتها ، فقالت :

— لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله .. لعلها بريئة مما رميناها به .

فاشتد امتعاض أمينة على خلاف ما توقعت عائشة ، حتى لاحت في وجهها بؤادر غضب بدت غريبة عنها لما عرف عنها من حلم وهذوء ، وقالت بصوت متهدج :

— لا تحدثيني عن مريم يا عائشة .

وصاحت خديجة مشاركة أمها في عواطفها :

— قطعت مريم وسيرتها !

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس . وقد لبث ياسين متشاغلا بأظافره حتى انتهى ذاك الحديث الحامى ، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعا بقول عائشة « لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله .. » ، ولكن اندفاع أمينة إلى الرد عليها بذلك الصوت المتهدج غير المعهود أسكته . أجل أسكته وانطلق لسانه باطنيا بالشكر على نعمة السكوت . وكان كمال يتابع الحديث باهتمام وإن لم يبد أثره على وجهه ، وقد أكسبه حمل الحب عهدا طويلا — في ظروف حساسة غير مواتية — قدرة على التمثيل تحكم بها في كتمان عواطفه ومطالعة الناس — إن دعت الضرورة — بمظهر على نقيض مخبره ، فذكر ما سمع قديما عن « شماتة » آل مريم ، ومع أنه لم يأخذ التهمة مأخذ الجد إلا أنه تذكر عهد الرسالة السرية التي ذهب بها إلى مريم والرد الذى عاد به إلى فهمى ، ذلك سر قديم صانه ولم يزل مستمسكا بصونه رعاية لعهد أخيه واحتراما لرغبته ، وقد لذ له أن يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلا أخيرا ، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقا جديدا .. كان — على حد تعبيره — حجرا يحمل نقوشا مبهمة حتى جاء الحب فحل رموزها ، ولم يفقه أن يلاحظ غضب أمه ، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل العهد المشعوم ، لم تعد كما عهد ، أجل لم تتغير تغيرا خطيرا أو دائما ولكنها غدت عرصه

بين الحين والحين لنوبات لم تكن نظراً عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم لها ، ما عسى أن يقول في ذلك ؟ ، إن قلب الأم الجريح الذى لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها بضمن مطالعته ، شد ما يتألم لها ، ثم ما وراء عائشة وخديجة ؟ ، هل يمكن أن ترمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمى ؟ ، لا يتصور هذا ولا يطيقه ، إنها امرأة سليمة الطوية وفي قلبها متسع للصداقة والمودة ، تميل فيما يبدو — ولها عذرها — إلى تبرئة مريم ، ولعلها نحن إلى عهدنا بهذا القلب المفتوح للناس جميعا ، أما خديجة فقد ازدردتها الحياة الزوجية ، لم تعد إلا أما وربة بيت ، لا حاجة بها إلى مريم أو غيرها ، لم يبق لها من ماضيها إلا عواطفها الثابتة نحو أسرتها ، نحو أمها خاصة ، فهي تدور حيث تدور ، ما أعجب هذا كله !

— وأنت يا سى ياسين إلام تبقى أعزب ؟
وجه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين ، مدفوعا برغبة صادقة فى تنقية الجو مما شابه ، فأجابه ياسين مازحا :

— غادرنى الشباب وقضى الأمر !
فقال خليل شوكت بلهجة جدية ، دلّت على أنه لم يفطن إلى ما فى قول ياسين من مزاح :

— لقد تزوجت وأنا فى مثل سنك تقريبا ، ألسنت فى الثامنة والعشرين ؟
فتضايقت خديجة من ذكر سن ياسين الذى كشف بطريقة غير مباشرة عن سنّها ، فخاطبت ياسين قائلة بلهجة حادة :

— هلا تزوجت وأرحت الناس من حديث عزوبيتك ؟
فقال ياسين راميا — قبل كل شيء — إلى التودد إلى أمينة :
— مرت بنا أعوام أنست الإنسان رغائيه !
ارتد رأس خديجة إلى الوراء ، كأنما دفعته قبضة يده ، ثم رمته بنظرة كأنما تقول « غلبتني يا شيطان » ، ثم قالت وهى تتنهد :
— أه منك ! ، قل إن الزواج لم يعد يروقك وهو الأصدق !
فقال أمينة ممتنة لتودده :

— ياسين رجل طيب ، والرجل الطيب لا يمتنع عن الزواج إلا مضطرا ، الحق أن لك أن تفكر فى استكمال دينك ..

يا طالما فكر في استكمال دينه ، لا ليحرب حظه من جديد فحسب ولكن رغبة في رد الإهانة التي لحقت به يوم اضطر — بدافع من أبيه — إلى تطبيق زينب إنفاذا « لمشيتة » أبيها محمد عفت !! ثم كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير في الزواج حتى كاد يألف هذه الحياة الطليقة ويعتادها ، غير أنه قال لأميته ، وكان يؤمن بما يقول :

— لا بد مما ليس منه بد ، وكل شيء رهن بوقته ..
قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجة وصياح وضوضاء سماعت من ناحية السلم ، مختلطة بوقع أقدام متدافعة ، فاتجهت الأبصار متسائلة نحو باب السلم ، وماهى إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفى على عتبة الباب عابسة لاهثة ، وهى تصيح :
— الأولاد يا ستى ، سى عبد المنعم وسى رضوان متشابهكان ، رمونى بالحصى وأنا أخلص بينهما ..

قام ياسين وخديجة ، فهرعا إلى الباب ، ثم نفذا إلى السلم ، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها ، ياسين قابضا على يد رضوان ، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهى تلكمه برحمة فى ظهره ، ثم تتابعت البقية مهللة ، فجرت نعيمة إلى أبيها خليل ، وعثمان إلى عائشة ، ومحمد إلى جدته أمينة ، وأحمد إلى أبيه إبراهيم ، ثم جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتذره بأنه لن يرى بيت جده مرة أخرى ، حتى صاح بصوت باك ، وهو يشبر متهما إلى رضوان الذى جلس بين أبيه وكال :
— قال إنهم أغنى منّا ..

فصاح رضوان محتجا :
— هو الذى قال لى إنهم أغنى منّا ، وقال أيضا : إنهم يملكون بوابة المتولى بكنوزها !

فطيب ياسين خاطره ، وهو يقول ضاحكا :
— اعذره يا بنى ، إنه مزأع مثل أمه ..!
فقالت خديجة لرضوان ، وهى لا تتمالك نفسها من الضحك :
— تتشاجران على بوابة المتولى ؟! عندك يا سيدى باب النصر وهى قرية من بيت جدك ، فخذها ولا تتشاجر !
فقال رضوان ، وهو يهز رأسه بإباء :
—

— فيها أموات لا كنوز ، فليأخذها هو !
 عند ذلك علا صوت عائشة ، وهى تقول برجاء وإغراء :
 — صلوا على النبى ، أمامكم فرصة نادرة كى تسمعوا نعيمة وهى تغنى ، ما
 رأيكم فى هذا الاقتراح ؟..

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصلاة جميعا ، حتى رفع خليل نعيمة
 بين يديه ووضعها على حجره ، وهو يقول لها « أسمى هذا الجمهور صوتك .
 الله .. الله .. ، إياك والخليل ، أنا لا أحب الخجل » ، ولكن نعيمة غلب عليها
 الخجل ، فدفنت وجهها فى حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار
 الذهب ، وحانت من عائشة التفاتة ، فرأت محمد وهو يحاول عبثا أن ينزع الشامة
 من خد جدته ، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته ، ثم واصلت تشجيع
 نعيمة على الغناء ، وألح معها خليل حتى همست الصغيرة فى أذن أبيها بأنها لن تغنى
 إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره ، فسمح لها بما أرادت ، فزحفت على أربع حتى
 لبدت بين ظهره ومسند الكنية .. وعند ذلك شمل الصلاة سكوت باسم مترقب ،
 وامتدت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره ، ولكن صوتا رفيعا لطيفا بدأ
 يتكلم فيما يشبه الهمس ، ثم أخذ يتشجع رويدا رويدا ، حتى سرت فى نبراته الحرارة
 فعلا مغنيا :

حوّذ من هنا وتعال عندنا
 يا اللى أنا وانت نحب بعضنا

وراحت الأيدى الصغيرة تصفق على إيقاعه .

— آن لك أن تخبرنى عن المدرسة التى تنوى الالتحاق بها ..
كان السيد أحمد عبد الجواد متربعا على الكنية بحجرة نومه ، على حين جلس
كمال على طرفها المواجه للباب شابكا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة . ود
السيد لو يجيبه الفتى قائلا : « رأى رأيك يا أبى » . بيد أنه كان مسلما بأن
اختيار المدرسة ليس من الأمور التى يدعى لنفسه فيها حقا مطلقا ، وأن موافقة
الابن عامل جوهري فى الاختيار ، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدودا
جدا ، وقد استمد أكثره مما يثار أحيانا فى بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين
والحمامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن فى اختيار نوع دراسته تفاديا من
الإحفاق والفشل ، لهذا كله لم يستتشف أن يجعل الأمر شورى مسلما أمره إلى
الله ..

— نويت يا بابا بإذن الله ، وبعد موافقة حضرتك طبعاً ! الالتحاق بمدرسة
المعلمين العليا ..

ندت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج ، واتسعت عيناه الزرقاوان
الواسعتان ، وهو يتحدث ابنه بغرابة ، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار :
— المعلمين العليا !.. مدرسة المجانية !. أليس كذلك ؟.

فقال كمال بعد تردد :

— ربما ، لا أدري شيئا عن هذا الموضوع ..

فلوح السيد بيده مستهزئا ، كأنما أراد أن يقول له : « ينبغى أن تتجمل بالصبر
قبل أن تقطع برأى فيما ليس لك به علم » ، ثم قال بازدياء :

— هى كما قلت لك ، ولذلك يندر أن تجذب أحدا من أولاد الناس الطيبين ، ثم
أن مهنة المعلم .. أتدرى شيئا من مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك
بمدرستها ؟ ، هى مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس ، إلى عليم بما يقال عن
هذه الشئون ، أما أنت فغتر صغير لا تدرى من أمور الدنيا شيئا ، هى مهنة يختلط
فيها الأفندى بالمجاور ، خالية من كل معانى العظمة والجلال ، ولقد عرفت أناسا من
الأعيان والموظفين المحترمين يابون — الإباء كله — أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما

تكثر مكانته ..

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلا :

— فؤاد بن جميل الحمزاوى ، وهو من كنت تخلع عليه البالى من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق ، ولد ذكى متفوق ولكنه ليس أذكى منك ، وقد وعدت أباه بالمعونة فى تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية ، فكيف أنفق على أولاد الناس فى المدارس المحترمة وابنى يتعلم بالجان فى المدارس الحقيرة ؟! ..

كان هذا التقرير الخطير عن « المعلم ورسالته » مفاجأة مزعجة لكمال . لم هذا التحامل كله ؟. لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذى هو تلقين العلم ، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التى تخرجه ؟. لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو للفقر دخل فى تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته . كان يؤمن بذلك إيمانا عميقا لا يمكن أن يترزع ، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التى يطلع عليها فى مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم ، مثل : المنفلوطى ، والمولى الحى وغيرهما . كان يعيش بكل قلبه فى عالم « المثال » كما ينعكس على صفحات الكتب ، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأى أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه ، معتذرا عن ذلك بنهاية المجتمع المتأخر عليه ، وأثر « الجهلاء » من أصحابه فيه ، وهو ما أسف له كل الأسف ، بيد أنه لم يسهه إلا أن يقول ملتزما غاية ما يستطيع من الأدب والركة ، وكان فى الواقع يردد نصا من مطالعاته :

— العلم فوق الجاه والمال يا بابا ..

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس ، كأنما يُشهد شخصا غير منظور على خرق رأى الذى سمع ، ثم قال باستياء :

— حقا ؟ عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ ، كأن ثمة فرقا بين الجاه والعلم ! لا علم حقيقى يلا جاه ومال . ثم مالك تتكلم عن العلم كأنه علم واحد ! ألم أقل لك إنك غر صغير ؟ هنالك علوم لا علم واحد . للمصاعليك علومهم ، وللباشوات علومهم . افهم يا جاهل قبل أن تندم !.

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالى ، فقال بمكر :

— إن الأزهريين يتعلمون كذلك بالجان ويشغلون بالتدريس ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يختقر علومهم ..

فأوماً له بذقنه باحتقار ، وهو يقول :
 — الدين شيء ، ورجال الدين شيء آخر !
 فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذى لم يتعود إلا طاعته :

— ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم !
 فقال السيد بلهجة لم تغل من حدة :
 — لا تخط بين الأمور ، أنا أحترم الشيخ متولى عبد الصمد وأحبه كذلك ،
 ولكن أن أراك موظفاً محترماً أحب إلي من أن أراك مثله ، ولو سرت بالبركة بين الناس
 ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويد .. لكل زمان رجال ، ولكنك لا تريد أن
 تفهم !

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه ، فغض كمال بصره ، وعض على
 شفته السفلى ، وجعل يرمش ، ويحرك زاوية فيه اليسرى فى عصبية . يا عجباً !
 ألهذا الحاضر يصبر الناس على ما فيه ضرر يحقق لهم ؟. وأوشك أن ينفجر غاضباً ،
 ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة ، فكظم غيظه ،
 وسأله :

— ولكن ما الذى جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت
 بالعلم كله ؟! ما الذى لا يروقك فى مدرسة الحقوق مثلاً ؟. أليست هى المدرسة
 التى تخرج الكبراء والوزراء ؟. أليست هى المدرسة التى تثقف بعلومها سعد باشا
 وأضرابه من الرجال ؟.

ثم بصوت منخفض ، وقد عكست عيناه نظرة واجمة :
 — وهى المدرسة التى وقع اختيار المرحوم فهمى عليها بعد روية وتفكير ، ولو لم
 يعامله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء ، أليس كذلك ؟
 قال كمال بتأثر :

— جميع قولك حق يا بابا ، ولكننى لا أحب دراسة القانون !.
 ضرب الرجل كفا بكف ، وهو يقول :
 — لا يحب ! ، وما دخل الحب فى العلم والمدارس ؟!. قل لى ماذا تحب فى
 مدرسة المعلمين ؟ ، أريد أن أعرف أمارات الحسن التى فتنتك فيها ، أم أنت ممن

يحيون الرماة ؟ ، تكلم ها أنا مصغ إليك ..

ندت عنه حركة ، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأى ، ولكنه كان مسلما بصعوبة مهمته ، ومقتنعا في الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيدا من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش ، وفضلا عن هذا كله ، فلم يكن يستبين هدفا واضحا محمدا حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه ، فما عسى أن يقول ؟. في وسعه إذا تأمل قليلا أن يعرف ما لا يريد ، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه ، هذا ما لا يريد ، فما الذى يريد ؟. إن في نفسه أشواقا تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها ، ولعله غير متأكد من أنه سيطفر بها في مدرسة المعلمين ، وإن رجح عنده أن تكون — هذه المدرسة — أقصر سبيل إليها . أشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة : مقالات أدبية ، واجتماعية ، ودينية ، وملحمة عتر ، وألف ليلة ، والحماسة ، والمنفلوطى ، ومبادئ الفلسفة ، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التى كاشفه بها ياسين قديما ، بل والأساطير التى سكبتها في روحه أمه من قبل ذلك .. كان يحلو له أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم « الفكر » ، وعلى نفسه اسم « المفكر » ، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة .. هى كذلك !! وضحت معالمها أم لم تتضح ، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذ المدرسة إلا وسيلة إليها ، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبدا ، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرى بحبه . كيف كان ذلك ؟. ليس بين « معبودته » وبين القانون أو الاقتصاد من سبب ، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التى يستهويه النهل من منابعها ، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف إليها في هزة الطرب وأريج النشوة . إنه يجد هذا كله في نفسه ويؤمن به كل الإيمان ، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه ؟. لجأ مرة أخرى إلى المكر ، وهو يقول :

— إن مدرسة المعلمين تدرس علوما جليلة ، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظاات ، وكاللغة الإنجليزية !.

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم ، وإذا بمشاعر الاستياء والحقن تزايله فجأة .
تأمل — وكأنه يراه لأول مرة — نخافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه ،
فوجد في منظره غرابة تضاهي ما في آرائه من شذوذ ، وأوشكت روحه الساحرة أن
تضحك في باطنه ، ولكن عطفه وحبه أبيا عليه ذلك ، غير أنه تساءل فيما بينه وبين
نفسه : الحافة ظاهرة مؤقتة ، الأنف عندى مصدره ، ولكن من أين له هذا الرأس
العجيب ؟ ، أليس من المحتمل أن يعرض له شخص — مثلى — ممن ينتقبون عن
العيوب صيدا لمزاحهم ؟ ضايقتهم هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه ،
فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح ، قال :

— العلم في ذاته لا شيء ، والعبرة بالنتيجة ، القانون يفضي بك إلى وظيفة
القضاء ، أما التاريخ والعظات فمؤداها أن تكون معلما بائسا ، عند هذه النتيجة
قف طويلا وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلا في شيء من الحدة) لا حول ولا قوة
إلا بالله ، عظات وتاريخ وسخام ، هلا حدثتني بكلام معقول ؟!

تورد وجه كمال حياء وألما وهو يستمع إلى رأى أبيه في المعارف والقيم السامية التي
يقدسها ، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرنها به ، غير أنه لم يعدم عزاء فيما
ورد ذهنه — في لحظاته تلك — جليل دون شك ، إلا أنه ضحية زمان ومكان
ورفاق . ترى هل يجدى معه النقاش ؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بمكر
جديد ؟

— الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية ؟ إن الأوروبيين
يقدسونها ، ويقىمون التماثيل للنابعين فيها !

حوّل السيد وجهه عنه ، ولسان حاله يقول : « اللهم طوّلك يا روح » ، بيد
أنه لم يكن غاضبا حقا ، ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال ، ثم
أعاد إليه وجهه ، وهو يقول :

— بصفتي والدك ! أريد أن أطمئن على مستقبلك ، أريد لك وظيفة محترمة ،
هل يختلف اثنان في هذا ؟ ، الذي يهمنى حقا أن أراك موظفا مهابا لا مدرسا بائسا
وإن أقاموا له تماثالا كإبراهيم باشا أى أصعب ! يا سيحان الله ! . عشنا وشفنا وسعنا
العجب ! ما لنا نحن وأوربا ؟ أنت تعيش في هذا البلد ، فهل هو يقيم التماثيل
للمعلمين ؟ .. دلنى على تماثل واحد لمعلم ؟ ! (ثم بلهجة استنكارية) خبرنى

يا بنى : أتريد وظيفة أم تمثالا ؟!

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك ، قال فيما يشبه الحزن :

— فى رأسك أفكار لا أدرى كيف اندست إليه ، إني أدعوك إلى أن تكون واحدا من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلاهم ومراكزهم ، فهل عندك مثال تتطلع إليه لا أدريه ؟ ، صارحنى بما فى نفسك حتى يرتاح بالى وأدرك غرضك ، الحق أنى فى حيرة من أمرك !!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما فى نفسه وأمره الله ، قال :

— هل من العيب يا بابا أن أتطلع إلى أن أكون كالمنفلوطى يوما ما ؟

قال السيد بدهشة :

— الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى ؟! . رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرة فى سيدنا الحسين .. لكنه لم يكن معلما فيما أعلم ، كان أعظم من هذا بكثير ، كان من جلساء سعد وكتابه ، ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين ، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته ، كان هبة من الله .. هكذا يقولون عنه !! نحن نبحث فى مستقبلك والمدرسة التى ينبغى أن تدخلها ولندع ما لله لله ، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضا ، فستكون فى عظمة المنفلوطى وأنت وكيل نيابة أو قاض ، لم لا ؟!

كآل ، وهو يناضل فى استماتة :

— لست أتطلع إلى شخص المنفلوطى فحسب ولكن إلى ثقافته أيضا ، ولا أجد مدرسة هى أقرب إلى تحقيق غرضى ، أو فى الأقل إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين ، لذلك آثرتها ، ليس لى من رغبة خاصة فى أن أكون معلما ، بل لعلى لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر ..

الفكر !؟ .. وردد مقطع أغنية الحامولى « الفكر تاه اسعفينى يا دموع العين » . الذى طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه ، أهذا هو الفكر الذى يسعى وراءه ابنه ؟ ، سأله بدهشة :

— ما هى ثقافة الفكر ؟

لجئت به الحيرة ، فازدرد ريقه ، وقال بصوت منخفض :

— لعلى لا أعرفها ، (ثم يتسم متوددا) لو كنت أعرفها لما كان لى حاجة إلى

طلب تعلمها !

فسأله مستكراً :

— إذا كنت لا تعرفها فبأى حق اخترتها ؟ .. هه ؟.. هل تهيم بالضعة لوجه الله ؟

تغلب على ارتباكها بجهد شديد ، وقال مدفوعاً باستماتته في الدفاع عن سعادته :
— إنها أكبر من أن يخاطبها ، إنها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها !
تأملها ملياً في ذهول قبل أن يقول :

— أومن أجل هذا تريد أن تضحي بمستقبلك ؟. أصل الحياة ومآلها !؟ أصل الحياة آدم ، ومصيرنا إلى الجنة أو النار . أم جد جديد في ذلك ؟
— كلا ، أعلم هذا ، أريد أن أقول ..

فعاجله قائلاً :

— هل جنتك ؟ .. أسألك عن مستقبلك ، فتجيبني بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها ؟ .. وماذا تعمل بعد ذلك ؟ .. تفتح دكاناً لاستطلاع الغيب ؟!
خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهة نظر أبيه ، فقال مستنجداً شجاعته :

— اعذرني يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي ، أريد أن أواصل دراستي الأدبية التي بدأتها بعد الكفاءة ، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر ، أما المستقبل فأمره بيد الله !

فهتف السيد متهمكاً حانقاً ، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه :

— وأدرس أيضاً فن الحواة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين . لم لا ، اللهم غفرانك ، أكننت حقاً تدخر لي هذه المفاجأة ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله !

اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قلّ ، فحار في أمره ، وجعل يسائل نفسه : أأخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأي ؟ ، كلما مد له في حبل الصبر والتسامح لج الآخر في العناد وتمادى في الجدل .. وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعة الاستبدادية وبين تسليمه بحق « اختيار المدرسة » ، حرصاً على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانحياز من ناحية أخرى ، ولكنه انتهى على غير عادته — أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم — بتغليب الحكمة ، فعاد إلى النقاش وهو يقول :

— لا تكن غرا ، ثمة شىء فى عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة ، ليس المستقبل لهموا ولعبا ، ولكنه حياتك التى لن تكون لك حياة غيرها ، فكر فى الأمر طويلا ، الحقوق خير مدرسة لك ، إني أفهم الدنيا خير منك ، ولئى أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم فى ذلك ، أنت طفل أحمق ، ألا تدري ماهى النيابة وما هو القضاء ؟. هذه وظائف تهز الأرض هزا وفى وسعك أن تتبوأ واحدة منها ، كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون .. معلما ؟!

شد ما يتألم — لا غضبا لكرامة المعلم فحسب — ولكن غضبا لكرامة العلم أولا وأخيرا ، العلم الحقيقى فى نظره !. لم يكن حسن الظن بالوظائف التى تهز الأرض هزا ، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روجه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف ، فأمن — تبعاً لأقوالهم — بالأعظمة الحقيقية إلا فى حياة العلم والحقيقة ، واقتربت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه فى ذهنه بالزيف والتفاهة ، غير أنه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أيه ، وقال برقة وتودد :

— على أى حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا !

تفكر السيد مليا ، ثم قال متبرما يائسا :

— إذا لم تكن بك رغبة فى الحقوق ، وبعض الناس يعيشون التعاسة ، فاختر مدرسة محترمة : الحرية ، البوليس .. وشىء خير من لا شىء !

فقال كمال منزعجا :

— أدخل الحرية أو البوليس وقد نلت البكالوريا ؟

— ما حيلتى إذا لم يكن لك فى الطب نصيب ؟!

عند ذاك شعر بضوء أت من ناحية المرأة أقلق عينه اليسرى ، فمد بصره صوب الصوان ، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسرية إلى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء ، وقد زحفت من الجدار المواجه للفرش حتى غيبت جانب المرأة ، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان ، فتزحزح قليلا مبتعدا عن الضوء المنعكس ، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت — أو بشرت — فى الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث ، وتساءل واجما :

— ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها ؟

فقال كمال وهو يغض بصره حرجا لعجزه عن إرضاء أبيه :

— لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها !

ومع أن مبادرته إلى الرفض أحنقته ، إلا أنه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور ، لظنه أنها إنما تخرج « تجارا » ، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرا . لم يغب عن علمه أول الأمر أن متجرا كمتجربه — وإن هيا له حياة صالحة — فإنه أعز من أن يهوى هذه الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعى ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين ، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله ، على أن ذلك لم يكن السبب الجوهري لفتوره ، كان في الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم في الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه ، سواء في أصدقائه من الموظفين أو في بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله ، فأراد أبنائه على أن يكونوا موظفين وأعدهم لذلك ، كذلك لم يكن يخفي عليه أن التجارة لا تغطي برقع ما تغطي به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال . وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه ، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية « العقلية » موظفا أو ندا للموظفين ، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجرا وندا للموظفين معا ؟ ، ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته ؟ . آه يا لها من خيبة أمل ! . كم تمنى قديما أن يرى ابنا من أبنائه طبيبا ، وكما ناط بفهمي أمنيته حتى قيل له إن البكالوريا الآداب لا تؤدي إلى مدرسة الطب بفرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرا ، ثم علق أمله بكمال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق ، ولكنه لم يتصور قط أن تنحلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة « نابغة » الأسرة ، وبإصرار كمال على أن يكون معلما ! ، أى حية أمل ! . وبدا السيد حزينا حقا ، وهو يقول :

— لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك ، ولكن ينبغي أن تذكر دائما أنني لم أوافقك على رأيك ، فكر في الأمر طويلا ، لا تتعجل ، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة ، أعوذ بالله من الحلق والجهل والسخف !!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلت على شروعه في القيام ليأخذ أهفته لمغادرة البيت ، فنهض كمال في أدب وحياء ، وانصرف .

عاد إلى الصالة فوجد أمه وياسين جالسين يتحدثان ، وكان موزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه وإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين ، ثم لما بدا عليه أخيرا من ضيق وحزن ، فقص على ياسين خلاصة ما دار في الحجر من نقاش ، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة ، وسرعان ما صارحه بأنه من رأى السيد وأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة في هذه الحياة ، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيقة . تريد أن تجود بحياتك للعلم ؟ ما معنى هذا ؟! إنه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطى أو في نظرة من نظراته ، أما في الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر ، وأنت تعبش في الحياة لا في كتب المنفلوطى .. أليس كذلك ؟ الكتب تقرر أمورا غريبة وخارقة ، مثال ذلك ، أنك تقرأ فيها أحيانا « كاد المعلم أن يكون رسولا » ، ولكن هل صادفت مرة معلما يكاد أن يكون رسولا ؟ تعال معى إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك ، ودلنى على واحد منهم يستحق أن يكون آدميا لا رسولا ! وما هذا العلم الذى تريد ؟. أخلاق وتاريخ وشعر ؟ كل أولئك جميل للتسلية ، حاذر من أن تفلت من يدك فرصة الحياة الرفيعة ، كم أخسر أحيانا على معاكسة الظروف التى حالت بينى وبين مواصلة الدراسة !.

تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين ، ترى ما رأيها ؟.. لم تكن ممن يؤخذ رأيهم في مثل هذا الأمر ، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين ، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد في إلحاقه بمدرسة الحقوق ، الأمر الذى باتت تتطير منه فلم ترتع إليه ، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل ، قال لها :

— إن العلم الذى أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين ، ومن فروعه : الحكمة والأخلاق ، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته !

فتطلق وجه أمينة ، وقالت بحماس :

— هذا هو العلم حقا ، علم أبى ، علم جدك ، إنه أجل العلوم !

وفكرت قليلا وهو ينظر إليها من طرف خفى باسمها ، ثم عادت تقول بنفس الحماس :

—منذا الذى يحتقر المعلم يا بنى ؟. ألم يقولوا فى الأمثال « من علمنى حرفا صرت له عبدا » ؟
فقال مرددا حجة أيه الذى هاجم بها اختياره ، وكأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه :

— ولكنهم يقولون ، إن المعلم لا حظ له فى المناصب الرفيعة !
فلوحت بيدها باستهانة قائلة :

— المعلم موفور الرزق . أليس كذلك ؟ ، حسبك هذا ، إفى أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم ، كان جدك يقول : « إن العلم أعز من المال » !

أليس عجيبا أن يكون رأى أمه خيرا من رأى أبيه ؟. ولكنه ليس برأى ، إنه شعور سليم ، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التى أفسدت رأى أبيه . ولعل جهلها بشئون العالم هو الذى صان شعورها عن الفساد ، ترى ما قيمة شعور — وإن سما — إذا كان مصدره الجهل ؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره فى تكوين آرائه ؟.. ثار على هذا المنطق ، وقال يحاوره : إنه عرف الدنيا خيرها وشرها فى الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير ، وقد يلتقى الشعور الفطرى الساذج بالرأى الحكيم دون أن تهوى سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة . أجل ! إنه لا يشك لحظة فى ضدق رأيه وجلاله ، ولكن هل يدري ماذا يريد ؟ ، ليست مهنة المعلم بالتي تجذبه ، إنه يعلم أن يؤلف كتابا ، هذه هى الحقيقة ، أى كتاب ؟ ، لن يكون شعرا ، إذا كانت كراسة أسراره تحوى شعرا ، فمرجع ذلك إلى أن عايدة تحيل النثر شعرا لا إلى شاعرية أصيلة فيه ، فالكتاب سيكون نثرا ، وسيكون مجلدا ضخما فى حجم القرآن الكريم وشكله ، وستحديق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك ، ولكن عم يكتب ؟. ألم يحو القرآن كل شئ ؟ لا ينبغي أن يأس ، لينجدن موضوعه يوما ما ، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه ، أليس كتاب يهز الأرض خيرا من وظيفة وإن هزت الأرض ؟! كل المتعلمين يعرفون سقراط ، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه !؟

— مساء النور !..

لا تحيب ا ، هذا ما قدرته وما أنا به عليم . هي البداية دائما .. منذ قديم وإلى الأبد ، ها هي توليك ظهرها ، ابتعدت عن الحائط نحو جبل الغسيل ، تحبك المشابك ، ألم تحبكيها من قبل ؟ .. بلى ولكنك تدارين موقفك ، إني أفهم كل الفهم ، عشرة أعوام في المجون ليست بالحيرة القليلة ، متع عينيك بمنظرها قبل أن يستقر الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحا ، سممت واكتنزت ، زادت حسنا عما كانت أيام صباها . كالغزال كانت ولكنها لم تكن تملك هذه الأرواف العيلة ، رويدا .. لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم ، ما عمرك يا شاطرة ؟ زعم أهلك قديما أنك في سن خديجة . رأى خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات . امرأة أنى تؤكد هذه الأيام أنك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع : أيام كنت حلى في خديجة كانت صبية في الخامسة الخ ، ما قيمة العمر ؟ . هل أنت ستعاشرها حتى الكبير ؟ ، في الأيام القصيرة تستوى الشابة والنصف ، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة ، آه ، نظرت صوب الطريق ولحظتلك ، رأيت مقلتها وهي تلحظك كاللدجاجة ؟ ، لن أبرح موقفى يا مليحة ، فتى تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوته وماله ، أليس هو خيرا من ذلك الإنجليزي القديم ؟..

— هل التحية عندهم لا تستحق ردا ولو بمثلها ؟

ولتلك قذالها مرة أخرى ، مهلا .. ألم تبتسم ؟ ، بلى ومن سوى جمالها فجعله فتنة ، لقد ابتسمت ، مهدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنست التمهيد ، لا شك أنها تعلم بكل حركاتي ومناوراتي السابقة ، أن لى .. وأن لك .. من حسن حظى أنك لست من المصابات بداء الحشمة ، ذاك الإنجليزي .. نجيوليون ، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن ، ألا تسمعين حميمته ؟

— أليس للجار عندهم إكرام ؟ .. إني أشحنك تحية هني من صميم حقوق !
جاءه صوت رقيق خافت — بدا لتحول الوجه عنه كأنه أت من بعيد — وهو يقول :

— ليست من حقك .. على هذا النحو !

أجيب الطارق . رفعت سقطة الباب . لن تظهر بالمناعة حتى تلعق الزجر .
اثبت ، الثبات .. الثبات .. كما يهتف به المجاورون :

— إذا كان صدر منى ما أغضبك فلن أعفوه لنفسى ما حييت ؟
هى فى عتاب :

— إن سطح بيت أم على ، الداية ، فى مستوى سطحنا وسطحكم ، ما عسى
أن يظن الناظر إذا رأى موقفك منى وأنا أنشر الغسيل ؟..

ثم فى تساؤل هازى :

— أم تريد أن تجعل منى أحذية ؟!

بعد الشر عنك ؟ هل راعيت هذا الحذر فى موقفك مع جولون فى الزمن
القديم ؟ ، لكن مهلا ، إن جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدم وما تأخر من
ذنبك !

— لا أبقانى الله فى الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء ، لقد تواريت
تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس ، ولم أقرب من السور حتى ثبت عندى
خلو سطح أم على الداية ..

ثم وهو يتهد بصوت مسموع :

— وعذرى بعد ذلك أنى واليت صعود السطح أبدا كى أظفر بهذه الخلوة ..

فلما وجدت الساعة استخفى السرور ، وعلى أى حال ربنا يستر ..

— عجيبة !.. لم هذا التعب كله ؟

سؤال لا يبعث عليه الجهل ، يسألن عما يعرفن ، ارتضت أن تحاورك فاهناً
بحوارها ...

— قلت لنفسى : أن تحيها وترد تحيتك ألد من الصحة والعافية !

التفتت إليه برأس دلت حركته فى شبه الظلام على تكتم الضحك ، وقالت :

— لسانك أطول من جسمك ، ترى ماذا وراء كلامك ؟

— وراءه ؟!.. هلا اقتربت من السور ؟ ، عندى حديث طويل ، منذ أيام وأنا

أغادر البيت إلى الطريق ، لاحت منى التفاتة إلى الأرض فرأيت ظل يد تتحرك ،

فنظرت إلى فوق فرأيتك مطلة من السور ، رأيت منظرا جميلا لا يمكن أن ينسى ..

دارت على عقبها ولكنها لم تقترب خطوة ، ثم قالت فى لهجة تتم عن الاتهام :

— كيف تنظر إلى فوق ؟!.. ولو كنت جارا حقا كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك ، ولكنك سيء النية فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو منك الساعة !

حق إنه سيء النية ، أليس الفسق من سوء النية ؟. سوء نية من النوع الذي تحببته ، آه من النسوان ، يعد ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك ، بعد ساعتين سأهرب وتجدين في أثرى ، على أى حال ليلتنا فل ..
— ربنا يعلم بحسن نيتي ، نظرت إلى فوق لأنى لا أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه ، ألم تدركى هذا ؟. ألم تشعرى به ؟. جارك القديم يتكلم وإن تأخر به الزمن .

هاذئة :

— تكلم . أطلق الحرية للسانك الطويل ، ارفع صوتك ، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة أليك فرأتك ورأتنى ؟
لا تزوغى يا بنت اللبوة ، سيكون من المعجزات أن أطوى عقلك ، أتخافين امرأة أبى حقا ؟ ، آه .. إن ليلة فى حضنها تساوى العمر كله !
— سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها ، خيلنا فيما نحن فيه ..
— ما هذا الذى نحن فيه ؟
— إنه يحل عن الوصف !

— لا أجد شيئا مما تقول ، لعل هذا ما أنت وحدك فيه !
— لعله ، إنه لأمر مؤسف حقا ، أمر مؤسف أن يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له ، إنى أذكر أيام زيارتك لبيتنا . تلك ؟ الأيام التى كنا فيها وكأننا أسرة واحدة ، وأتحسر ..

غمغمت وهى تهز رأسها :

— تلك الأيام !

لم عدت إلى الماضى ؟. أخطأت خطأ كبيرا ، احذر أن يفسد عليك الألم جهدك كله ، ركز إرادتك كى تنسى كل شيء إلا الحاضر ..
— ثم رأيتك أخيرا فرأيت شابة جميلة كالزهرة ، تتطلع فى ظلام الليل فتنوره ، فكأنما أراك لأول مرة ، ساءلت نفسى أتكون هذه جارتنا مريم التى كانت تلعب مع

خديجة وعائشة ؟. كلا .. هذه فتاة اكتمل لها الحسن ونضج ، وشعرت بأن
الدنيا تتغير من حولي ..

قالت ، وقد عاود صوتها عبثه :

— فى تلك الأيام لم تكن عيناك تستبيحان التطلع إلى أحد !! كنت جارا
بمعنى الكلمة ، ولكن ماذا بقى من تلك الأيام ؟ ، تغير كل شيء ، عدنا
كالأغراب ، وكأننا لم نتبادل كلمة ، ولم نشأ معا نشأة الأسرة الواحدة . هذا
ما أراده أهلك .

— دعينا من هذا ، لا تحملينى هما إلى هم .

— اليوم تتطلع بعينيك .. فى النافذة ، وفى الطريق ، وها أنت تقطع على
السطح !

ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقاً تريدني ؟. كذبك ألد من الشهد يا نور
الظلام ..

— هذا قليل من كثير ، إنى أتطلع إليك أيضا من حيث لا تدريين ، وأراك فى
الخيال أكثر مما تتصورين ، أقول لنفسى الآن وأنا على يينة مما أقول إما القرب
وإما الموت !

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه ، ثم تساءلت :

— من أين لك هذا الكلام ؟

أشار إلى صدره ، وهو يقول :

— من قلبى !

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب حفيفاً يندثر بالتحرك

ولكنها لم تزايل موضعها ، وقالت :

— ما دام الأمر قد بلغ القلب ، فينبغى أن أذهب !

بحماس علا به صوته أولاً حتى انتبه إلى نفسه فخفضه :

— بل يجب أن تأتى ، أن تأتى إلى ، الآن وإلى الأبد .. (ثم بمكر) إلى

قلبي .. هو لك وما يملك !

وبلهجة وعظية عابثة :

— لا تفرط فى نفسك على هذا النحو ، حرام على أن أحرمك قلبك وما

يملك ..
إلى أى مدى ذهب بك الفهم ؟ ، إنى أخاطب فبك اللبوة التى أحبها ،
لست بلهاء وحق ذكرى جوليون ، تعالى يا بنت القديمة ، أخاف أن أضىء فى
الظلام من شدة النار التى تستعر فى جسدى ..
— هو وما يملك لك عن طيب خاطر ، سعادته فى أن تقبله وتملكيه ، وأن
تكونى له وحده !

قالت ضاحكة :

— أرايت يا مكر ؟ .. تريد أن تأخذ لا أن تعطى ..
من أين لك بهذا اللسان ؟ ، ولا زنوبة فى زمانها ، ملعونة الدنيا من غيرك ! ..
— أريد أن تكونى لى كما أكون لك .. أين الظلم فى هذا ؟ .
صمت ، ونظر متبادل بين الشبحين ، حتى قالت :
— لعلهم يتساءلون الآن عما أحرك !
فقال مستعظفا بمكر :

— ليس ثمة فى الدنيا من يهتم بأمرى !
عند ذاك غيرت لهجتها متسائلة بجد :
— كيف ابنك ؟ .. لا يزال عند جده ؟
ماذا وراء هذا السؤال الغريب ؟
— بلى ..

— ما عمره الآن ؟

— خمس سنوات ..

— وما أخبار والدته ؟

— أنها تزوجت أو ستزوج فى القريب العاجل ..

— خسارة ! .. لم لم تردها ولو إكراما لرضوان ؟

يا بنت اللبوة ! .. أفصحى عما ترومين ..

— أهذه رغبتك حقا ؟

وهى تضحك ضحكة خافتة :

— يا بهخت من وفق رأسين فى الحلال !

- وفى الحرام ؟! .
- لكننى لا أنظر إلى وراء ..
- ساد صمت بدا غريبا مليئا بالفكر .. حتى قالت بصوت جمع بين التحذير واللين :
- إياك وأن تقطع على السطح مرة أخرى .
- فقال بجرأة :
- أملك مطاع ، ليس السطح بالمكان المأمون ، ألم تعلمى بأن لى بيتا فى قصر الشوق ؟!
- هتفت مستكبرة :
- بيتك !. أهلا يا سى بيته !
- فسكت قليلا ، كأنما يحاذر ، ثم تساءل :
- خمنى فيم أفكر ؟
- لا شان لى بهذا ..
- صمت ، ظلام ، خلوة ، ما أقطع تأثير الظلام فى أعصابى ..
- إنى أفكر فى سورى سطحينا المتلاصقين ، بم يوحى منظرهما إليك ؟
- لا شئ ..
- منظر حبيبين متلاصقين ..
- لا أحب سماع هذا الكلام ..
- تلاصقهما يذكر أيضا بأنه ليس ثمة ما يفصل بينهما .
- هيه !.
- ندت عنها كاستدراج ملء بالوعيد ، فقال ضاحكا :
- كأنهما يقولان لى : اعبر !.
- تراجعت خطوتين حتى التصق ظهرها بملاءة منشورة ، ثم همست فى تحذير جدى :
- لا أسمع بهذا !
- هذا !.. ما هذا ؟
- هذا الكلام .

— والفعل ؟

— سأتركك غاضبة !

كلا وحياتك الغالية .. أتعنين ما تقولين ؟ ، أأنا أغبي مما أظن ؟ ، أم أنت
أمكر مما أتصور ؟ . لم تكلمت عن رضوان وأمه ؟ . هل تلوح بالزواج ؟ . ما أشد
رغبتك إليها ؟ . رغبة جنونية ..

قالت مريم بغتة :

— آه .. ما الذى يدعونى إلى البقاء ؟ .

ودارت حول نفسها ، ثم تطامن رأسها لتمر من تحت الغسيل ، فأرسل صوته
وراءها قائلا فى جزع :

— تذهبين دون تحية !

اشرب رأسها فوق حبل الغسيل ، ثم قالت :

— البيوت من أبوابها ، هذه تحيتى ..

واتجهت مسرعة نحو باب السطح فمرقت منه .

عاد ياسين إلى الصلاة فاعتذر لأميئة عن طول غيبته بحرارة الجو فى الداخل ،
ثم ذهب إلى حجرتة ليرتدى بذلته . كان كمال يتبعه عينيه فى دهشة وتفكير .
ونظر إلى أمه فألفاها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة
الفتجان ، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح ؟ .. هو
نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المناجيين حين مضى وراء أخيه
مستطلعا غيبته ، فعل ياسين ذلك ، هل هانت عليه ذكرى فهمى ؟ ، لا يستطيع
أن يتصور هذا ، كان ياسين يحب فهمى حبا صادقا ، وقد حزن عليه حزنا
شديدا ، لا يجوز أن يرتاب فى إخلاصه ، إلى أن هذه « الحوادث » كثيرا ما
تقع ، ثم إنه لم يدرك لم يربطون دائما بين فهمى ومريم ؟ ! لقد علم المرحوم بواقعة
جوليون فى حينها ، ثم مر زمن طويل بدا عليه أنه نسيها نسيا تاما وشغل عنها بما
هو أجمل وأخطر ، وما كانت تستحق غير ذلك وما كانت يوما كفتا له . إنه مما
يدعو إلى النظر حقا أن يتساءل : هل يمكن أن ينسى الحب ؟ . الحب لا ينسى ،
هذا ما يؤمن به ، ولكن من أدراه أن فهمى أحب مريم بالمعنى الذى يفهمه — أو
يشعر به — هو من الحب ؟ ، لعلها كانت رغبة قوية ، كهذه الرغبة التى

تستحوذ الساعة على ياسين ، بل كثلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وعاشت أحلامه ، أجل وقع هذا أيضا ، وعانى منها أَلَمِين : أَلَم الرغبة وأَلَم الندم ، وكانا في القوة متعادلين فلم ينقذه من شرهما إلا زواج مريم واختفاؤهما . يهيمه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم ؟ ، وإلى أى مدى ؟ ، لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلا مهما يكن ظنه بحيوانية ياسين وفنور حماسه للمثل العليا ، وعلى رغم نظرته المتسامحة للأمر كله شعر بامتعاض وقلق كما ينبغي لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئا في الوجود .

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملبسه وأخذ زنته ، فحياهما وانصرف ، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم — وهو على يقين من هويته — فدخل شاب يماثله في السن . قصير القامة ، وسيم الطلعة ، مرتديا جلبابا وجاكتة ، فقصد أمينة وقَبِلَ يدها ، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه .. كان في سلوكه — رغم ما أخذ به نفسه من التأدب — ألفة كأنما كان واحدا من أهل البيت ، وأكثر من هذا فقد أَلَت أمينة تحادثه وهي تدعوه بكل بساطة « يا فؤاد » ، وتسأله عن صحة أبيه جميل الحمزاوي ووالدته ، فيجيبها مستشعرا السزور ، والامتنان في حسن استقبالها ، وترك كمال صديقه مع والدته ، ومضى إلى حجرته ليرتدي جاكتته ، ثم يعود إليه فينطلقا معا .

٦

سارا جنبا إلى جنب صوب درب قمرز ، متجنين طريق النحاسين ، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداهما .. كمال بقامته الطويلة النحيلة ، وفؤاد بقامته القصيرة ، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما . تساعل فؤاد بصوت هادئ :

— أين تذهب هذا المساء ؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالي :

— قهوة أحمد عبده ..

كان كمال — عادة — يقرر ، وفؤاد يوافق رغم ما عرف عن الأخير من رجاحة العقل . ورغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين رفيقه ،

مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمة لتسريح النظر — على حد تعبيره — في مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر ، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثر بفارق طبقتيهما ، وكون الأول ابن صاحب الدكان والآخر ابن وكيله ، وعمق هذا التأثير أن فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدي ما يكلف به من شراء بعض حوائج بيت السيد أحمد ، وأن يكون صنيعه لكرم أمينة التي لم تكن ترضى عليه بأحسن ما عندها من مأكل — وكثيرا ما يصادف مجيئه أوقات الغداء — وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال ، فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى .. وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله ، إلا أن أثره النفس لم يقطع من الأعماق ، وقد قضت ظروف بالآ يجد كمال من رفيق تقريبا طوال العطلة الصيفية إلا فؤاد الحمزاوي ، ذلك أن رفاق صباه من أهل الحي لم يواصلوا التعليم إلى النهاية : منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة ، ومنهم من اضطر إلى مزاوله عمل من الأعمال البسيطة مثل صبي قهوة بين القصرين وصبي الكواء البلدي بخان جعفر . كان كلاهما من أقرانه في الكتاب ، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلما اتفق لهم اللقاء ، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضيفه طلب العلم عليه من امتياز ، مشبعة من ناحيته بالمودة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة ، أما أصدقاءه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العباسية : حسن سليم ، وإسماعيل لطيف ، وحسين شداد فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البر ، فلم يبق له من رفيق إلا فؤاد .

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق ، فهبطا إلى مستقرها الغريب في جوف الأرض تحت حى خان الخليلى ، واتجها إلى مقصورة خالية ، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تمتم فؤاد في شيء من الحياء :

— ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما !

وشى قوله برغبته في الذهاب إلى السينما ، ولعلها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكنه لم يفصح عنها ، لا لأنه لا يستطيع أن يشى كمال عن رأى فحسب ، وإنما لأن كمال هو الذى يقوم بنفقات السينما إذا ذهبا إليها معا ، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتى استقر بهما المجلس

بالقهوة .. حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة .
— سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن ،
فلنلعب الآن عشرة دومينو ..

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث ، ثم نادى كمال النادل ، طلب
شايأ أخضر ودومينو . بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة
طمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير ، فقد تشبث بسطح الأرض فاغرا فاه عن
أنياب بارزة على هيئة مدخل ذى سلم طويل ، وثمة فى الداخل صحن واسع مربع
الشكل مبلط بالبلاط المعصرانى تتوسطه فسقية رصت عل حافتها أصص
القرنفل ، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فرشت بالحصى المزركش
والوسائل ، أما جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة ، كأن
الواحد منها كهف منحوت فى الحائط ، لا نافذة بها ولا باب لها ، واقصر أثائها على
مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار فى كوة بأعلى الجدار
المواجه للمدخل . وكأن القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته ، فهى
تهوم فى هدوء غير مألوف لسائر المقاهى ، وضوء غير باهر ، وجو رطب ، وقد
انطوت كل جماعة على نفسها فى مقصورتها أو فوق أريكته ، تدخن النارجيلة وتحسو
الشاي وتهيم فى دردشة لا نهاية لها ، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلا أن
تقطعها فى فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم .

كانت قهوة أحمد عبده فى نظر كمال مجتلى للمتأمل وتخفة للحالم ، أما فؤاد
— وإن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها — فلم يعد يجد فيها إلا مجلسا كئيبا تغشاه
الرطوبة والهواء الفاسد ، ولكنه لم يكن يملك إلا أن يلبي كلما دعى إليها !
— أتذكر يوم أن رأنا أخوك سى ياسين ونحن فى مجلسنا هذا ؟

قال كمال باسم :
— نعم ، سى ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرنى أبدا بأنه أخى الأكبر ، بيد أنى

رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا فى البيت لا خوفا من أبى ، فإن أحدا عندنا لا
يجرؤ على مكاشفته بمثل هذا الأمر ، ولكن إشفاقا من إزعاج والدنى ، تصور أنها
ترتعب إذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها ، وتظن أن أغلبية رواد المقاهى
من الحشاشين وسيئى السمعة !

— وسى ياسين ، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهى ؟
 — إذا قلت لها هذا قالت لى : إن ياسين « كبير » ولا خوف عليه ، أما أنا
 صغير . الظاهر أنى سأظل معدودا فى الصغار فى بيتنا حتى يدركنى المشيب !
 جاء النادل بالدومينو ، وقد حين من الشاى على صينية فاقعة الاصفرار ، فتركها
 جميعا على المائدة وذهب ، تناول كمال قدحه من فوره وراح يتسببه من قبل أن تخف
 حرارته ، ينفخ السائل ثم يتمرزه ، وينفخ مرة أخرى ويمصمص شفثيه كلما لسعته
 الحرارة ، ولكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة فى عناد وجزع كأنه محكوم عليه بالفراغ
 منه فى دقيقة أو دقيقتين ، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتا أو يمد بصره إلى لا شىء
 وهو مستند إلى ظهر مقعده فى رزانة أكبر من سنه ، تلوح فى عينيه الواسعتين
 الجميلتين نظرة عميقة هادئة ، ولم يمد يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من
 مغالبة قدحه ، وعند ذاك أقبل يتحسبى الشاى فى تأن مستطعما مذاقه مستلذا .
 نكهته ، وهو يغمغم بعد كل حسوة « الله .. ما أطيبه ! » ، والآخر يحثه على الفراغ
 منه بصبر نافذ كى يأخذا فى اللعب ، وهو يقول منلرا :
 — لأهزمنك اليوم . لن يحالفك الحظ أبدا الدهر ..
 فبهتسم فؤاد مغمغما :

— سنرى ..

وأخذا يلعبان ..

كان كمال يولى المباراة اهتماما عصبيا ، كأنه يخوض معركة تتوقف على نتائجها
 حياته أو كرامته ، بينما مضى فؤاد فى نظم قطعه بهدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة
 شفثيه ، أقبل الحظ أم أدبر ، هش كمال أم عيس ، وقد خرج كمال — كعادته —
 عن طوره ، فهتف به : « لعب سخيف ، وخط سعيد » . فلم يزد الآخر عن أن
 ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقا ولا توحى بتحد . طالما قال كمال لنفسه وهو
 يتميز غيظا « لن يبرح حظي راكبا حظي » ، ولم يكن يلقي اللعب بالتشامخ الخليق
 باللهو والتسلية ، بل الحق لم يكن ثمة فارق — فى اهتمامه وحماسه — بين جده
 ولهو . على أن تفوق فؤاد فى المدرسة لم يكن دون تفوقه فى الدومينو ، كان أول
 فرقته بينما كان هو فى الخمسة الأوائل ، فهل ثمة دور للحظ فى ذلك أيضا ؟ ، كيف
 يعلل تفوق الشاب الذى ينطوى له فى الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغى

أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء ؟. لم يعلم رأيا يهون به من تفوق صاحبه ، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للمذاكرة وإنه لو كان عقله بالتفوق الذى يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت ، ويقول أيضا : إنه يتجنب الألعاب الرياضية وقد برز هو فى أكثر من نوع منها ، ويقول أخيرا : إن فؤاد يقتصر فى مطالعته على الكتب المدرسية ، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابا غير مدرسى فى العطلة لاحظ فى اختياره أن يكون مفيدا لدراسته اللاحقة ، أما هو فلا تحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة ، فما وجه الغرابة فى ذلك فى أن يسبقه الشاب فى الترتيب ؟. غير أن سخطه هذا لم يعرض صداقتهما للوهن ، كان يحبه ويجد فى رفقته مؤانسة. ومسرة إلى أنه لم يرض على الأقل فيما بينه وبين نفسه — بالإقرار بفضائله ومزاياه .

تواصل اللعب وانتهت العشرة — على غير ما أنذر به مطلعها — بانتصار كمال ! ، فتطلق وجهه ، وضحك ضحكة عالية ، ثم سأل غريمه : « عشرة أخرى ؟ » ، ولكن فؤاد قال باسم : « حسبنا اليوم ما كان » لعله كان مل اللعب ، أو لعله أشفق من أن تنجى نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فيقلب سروره غما ، فhez كمال رأسه كالمتعجب وقال :

— إنك كالسمك من ذوى الدم البارد !

ثم بلهجة المنتقد ، وهو يدللك أرنية أنفه العظيم بإبهامه وسبابه : — إني أعجب لك ، إذا غلبت لم تأبه للأخذ بشارك ، وتخب سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك فى مظاهرة أريد بها تحيته يرم ولى الوزارة ، وتبناك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتز لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أن جثمانه غير ثاو فى ضريحه القريب ! إني أعجب لك ..

شد ما يخنقه البرود ، إن ما يسمونه « العقل » لا يطيقه ، وكأنه يحب الجنون ويهيم به ، إنه يذكر يوم قيل لهما فى المدرسة : « إن ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك » . عادا يومذاك معا وفؤاد يردد ما قاله مدرس التاريخ الإسلامى ، وكان كمال يتساءل منزعجا : كيف أوتى صاحبه تلك القوة التى تحمل بها الخبر كأنه شأن لا يعنيه ؟! أما هو فلم يسلم لتفكير ، لم يستطع أن يفكر ألبتة ، وكيف لثائر أن يفكر ؟ ، سار كالترخ من هول الطعنة التى نفذت إلى صميم قلبه ، كان ييكن خيالا غضب وحلما تدد ، لم يعد الحسين بنجارهم ، بل لم يكن بنجارهم يوما من

الأيام ، أين ذهبت القبلات التي طبعت على باب الضريح في صدق وحرارة ؟ ، أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار ؟ ، لا شيء من هذا كله ، لم يبق إلا رمز في الجامع ووحشة وخيبة في القلب ، وبكى ليلئذاك حتى بلل وسادته ، تلك كانت الصدمة التي لم تحرك في صديقه العاقل إلا لسانه حين علق عليها مرددا أقوال مدرس التاريخ ، ألا ما أبشع العقل !

— هل علم والدك برغبتك في دخول مدرسة المعلمين ؟
قال كمال بحدة جاءت معبرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلف عن مناقشة أبيه معا :

— نعم !..

— وماذا قال لك ؟

فقال يروح عن صدره بمهاجمة محدثه عن طريق غير مباشر :
— وا أسفاه !.. إن والدى كأكثر الناس — من يهيمون بالمظاهر الزائفة ، الوظيفة .. النيابة .. القضاء .. هذا كل ما يهمه ، لم أدر كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقية بالنشيدان في هذه الحياة ! غير أنه ترك لي حرية التصرف .. جعلت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو ، وهو يقول في حذر وإشفاق :
— قيم جليلة بلا شك ، ولكن أين البيضة التي ترفعها إلى المنزلة اللائقة بها ؟
— لا يمكن أن أنهد عقيدة سامية لا شيء إلا أن من حولي لا يؤمنون بها ..
فعاد يقول في هدوء مسكن :

— روح جديرة بالإعجاب !.. ولكن ألا يحسن بك أن تقدر مستقبلك في ضوء الواقع ؟

فتساءل كمال بازدراء :

— ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة ، أكان يفكر جديا في أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال ؟
ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول : رغم ما في حجتك من وجهة فهي لا تصلح قاعدة عامة في الحياة ، ثم قال :

— ادخل الحقوق حتى تضمن عملا محترما ، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء !

— لم يجعل الله لأمريء من قلبين في جوفه ، ثم دعني أحتج على ربطك العمل
المحترم بالحقوق ! كأن التدريس ليس عملا محترما !!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة :

— لم أقصد هذا مطلقا ، ومنذا الذي يقول إن حفظ العلم ونشره ليس عملا
محترما ؟.. لعل كنت أردد رأي الناس وأنا لا أدري ، والناس كما أشرت إلى شيء من
هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ !

فهز كمال منكبيه استهانة ، وقال بإصرار :

— إن حياة تكسر للفكر لهي أجل حياة ..

هز فؤاد رأسه كالملوفاق دون أن ينبس ، وظل لاثدا بالصمت حتى سأله كمال :

— ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق ؟

ففكر قليلا ثم أجابه :

— لم أكن مثلك واقعا في غرام الفكر ، فكان عليّ أن أختار دراسة عالية على
ضوء المستقبل وحده ، فاخترت الحقوق ..

أليس هذا هو صوت العقل ؟. بلى إنه هو ، شدا ما يثير حنقه وتمرده ، أليس من
الظلم أن يمضي العطلة الطويلة وهو حبس هذا الحي ولا رفيق له إلا هذا
« العاقل » ؟ ، ثمة حياة أخرى تعارض حياة الحنى العتيق معارضة الضد للضد ،
وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض ، إلى تلك الحياة وإلى أولئك
الرفاق تهفو نفسه ، إلى العباسية ، إلى الطراز الطريف من الشباب ، وقبل كل شيء
إلى الأناقة الرفيعة والنغمة الباريسية والحلم البديع .. إلى معبودته ، اه .. إن نفسه
تنازعه إلى البيت ، إلى حجراته كي يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته ، يراجع تاريخا أو
يستعيد ذكرى أو يسجل نفثة . ألم يكن له أن يقوض هذا المجلس ويذهب ؟

— قابلت أناسا فسألوني عنك ..!

تساءل كمال ، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد :

— من ؟

فؤاد ضاحكا :

— قمر ونرجس !

قمر ونرجس ابتتا أبو سريع صاحب المقل ، قبو قرمز ، الأزقة المظلمة بعد

الغروب ، العبت المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج ، المراهقة
المحمومة ، ألا يذكر هذا كله ؟ ، ما لشفتيه تتقلصان تقززا ؟ ، ذلك التاريخ قديم
نسبيا ، قبل حلول الروح القدس ، لا يذكره إلا ويثور قلبه سخطا وألما وخجلا كما
ينبغي لقلب أترع بشراب الحب الطهور :

— كيف قابلتهما ؟

— في زحمة مولد الحسين ، فسرت إلى جانبهما دون تردد أو ارتباك ، كأننا أسرة
واحدة جاءت لتطوف بالمولد !

— يا لك من جرىء !

— أحيانا ، سلمت فلسما ، وتحادثنا مليا ، ثم سألتني قمر عنك !
تورد وجهه قليلا ، وهو يسأل :

— ثم ؟

— اتفقنا مبدئيا على أن أخبرك ، ثم نتقابل جميعا !
هز كال رأسه في نور ، ثم قال باقتضاب :

— كلا ..

فقال فؤاد في دهش :

— كلا ؟ ، ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو في فناء البيت المهجور . نضج
جسماهما ، وعمما قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة ، وعلى فكرة كانت قمر
مرتدية الملاية اللف ولكنها كانت سافرة فقلت لها ضاحكا : لو لبست البرقع ما
تجرات على محادثتك !

قال كال بإصرار :

— كلا ..

— لم ؟

— لم أعد أطيق القدرة !

ثم بحدة غمت عن ألم دفين :

— لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثياني الداخلية ملوثة !

فقال فؤاد بسذاجة :

— تطهر واغتسل قبل الصلاة !

فقال كمال ، وهو يهز رأسه للاستعارة الضائعة :

— إن الماء لا يظهر من الدنس ..

ذلك الصراع القديم ، كان يمضى فى لقاء قمر مصطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك ، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارا حارا طويلا ، لكنه يمضى مرة أخرى مغلوبا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد .. يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب ، ثم انبثق النور ، هناك وسعه أن يحب وأن يصلى معا ، كيف لا ؟! والحب من منبع الدين يقطر صافيا !. قال فؤاد فى شىء من الحسرة :

— انقطعت علاقتى بنرجس منذ مُنعت من اللعب فى الحارة !

فسأله كمال باهتمام :

— ألم تكن — وأنت المؤمن — تتعذب بتلك العلاقة ؟

فقال فؤاد ، وهو يقض البصر حياء :

— هنالك أمور ما منها بد ..

ثم متسائلا وكأنه يدارى حياه :

— أترفض حقا انتهاز هذه الفرصة ؟

— بكل تأكيد !!

— لوجه الدين وحده ؟

— أليس هذا كافيا ؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة ، وقال :

— كم تحمل نفسك ما لا يُحتمل ..

فقال كمال بإصرار :

— إني لكذلك وما ينبغي لى أن أكون غير ذلك ..

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصحت فى عيني كمال عن الإصرار والتحدى ،

فانعكست فى عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجوزمية التى تعكس

على سطح الماء لألاء ضاحكا ، ثم واصل كمال حديثه :

— إني أرى الشهوة غريزة حقيرة ، وأمقت فكرة الاستسلام ها ، لعلها لم تخلق

فيها إلا كى تلهمنا السعور بالمقاومة والتسامى حتى تلعو عن جدارة إلى مرتبة

الإنسانية الحققة ، إما أن أكون إنسانا وإما أن أكون حيوانا ..

فترث فؤاد قليلا ، ثم قال بهدوء :

— أظن أنها ليست شرا خالصا ، فهي الدافع إلى الزواج ، فالذرية !!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد في خاطر ، أهذا هو الزواج في النهاية ؟ ، لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة في جملتها وإن كان في حيرة لا يدري كيف يوفق الناس بين الحب والزواج ، إنها مشكلة لم يرتطم بها في حبه ، لأن الزواج بدا دائما — ولأكثر من سبب — فوق مرتقى أمانيه — ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلب الحل . ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحي من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته ، طريق بالعبادة أشبه ، بل هو العبادة نفسها ، فأى شأن للزواج في هذا ؟

— الذين يحبون حقا لا يتزوجون .

تساءل فؤاد بهش :

— ماذا قلت ؟ ..

فطن حتى قبل تسأول فؤاد إلى أن لسانه خان إرادته ، فبدا عليه الارتباك لحظة بخرجة ، وراح يتذكر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بتىء من الجهد — على حدائة العهد بسماعها — إلى كلماته عن الزواج والذرية ، فصمم على مداراة حقوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن ، فقال :

— الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون ، هذا ما عانيت .

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة ، غير أن عينيه العميقتين لم تنما عما وراءهما ، واكتفى بأن قال :

— هذه أمور خطيرة ، والحديث عنها الآن سابق لأوانه ، فلندعها مرهونة بأوقاتها ..

فرفع كمال منكبیه استهانة وثقة ، وقال :

— فلندعها ولنتنظر ..

فؤاد في واد وهو في واد ، على ذلك فهما صديقان ، لا يسعه أن ينكر أن الخلاف في نفسه يجذبه إليه على ما في ذلك من جهد تعانیه أعصابه المرة بعد المرة ، ألم يكن له أن يعود إلى البيت ؟ ، الوحدة ومناحاة النفس تتجاذبانه ، الكراسة

النائمة في درج مكتبه تهيج جيشان صدره ، لا بد للمكدود في مكابدة الواقع من
انتجاع بعض الراحة في الانطواء ..
— آن أن نعود ...

٧

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتى وقف أمام عوامة في نهاية
المثلث الأول من طريق امبابه ، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم تبعه على
الأثر السيد على عبد الرحيم .

كان الليل قد جثم في مجشمة وغشيت الظلمة كل شيء إلا أضواء متباعدة تطل
من نوافذ العوامات والذهبيات التي ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطا ،
وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية الطريق كالسحابة الناضحة بوهج
الشمس في سماء ملبدة بالغيوم الدكن .

كان السيد أحمد ينجي للعوامة للمرة الأولى على رغم اكتراء محمد عفت لها منذ
أربع سنوات — ذلك أن صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرمها السيد أحمد
على نفسه منذ مصرع فهمي — فتقدمه على عبد الرحيم ليدله على المعبر ، حتى إذا
قارب السلم ، قال محذرا :

— السلام ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له ، ضع يدك على كتفي وانزل على
مهمل ..

هبطا محذرين شديدين ، وخرير الماء المتلاطم على الشاطئ ومقدم العوامة يداعب
آذانهما ، وقد فغمت أنفيهما رائحة نباتية مازجها عرف الطمى الذي جاد به
الفيضان في ذلك الوقت من أول سبتمبر ، قال على عبد الرحيم وهو يتحسس زر
الجرس على جدار المدخل :

— هذه ليلة تاريخية في حياتك وحياتنا ، ينبغي أن نطلق عليها اسما مناسباً
احتفالاً بها . ليلة رجوع الشيخ ؟ .. ما رأيك ؟ ..

قال السيد أحمد ، وهو يشد قبضته على منكبه :

— لكنني لست شيخاً ، الشيخ الحقيقي كان أبوك ! ..

على عبد الرحيم وهو يضحك :

— سترى الآن وجوها لم ترها منذ خمس سنوات ..

قال السيد كالمتردد :

— لا يعنى هذا أننى أغير من سلوكى أو أحمى عن خطئى (ثم بعد لحظة سكوت) قد .. قد ..

— تصور كلبا يعد بالأ يقرب اللحم إذا ترك فى المطبخ !

— الكلب الحقيقى كان أبوك يا بن الكلب ..

رن الجرس ، ففتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبى عجوز ، تنحى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية للقادمين ، فدخل الرجلان ومالاً إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائى يتدلى من السقف ، وقد حلى جداراه المتقابلان بمراتين قام تحت كل منهما مقعد جلدى كبير وخوان ، وكان فى نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشئ بأصوات السمار التى اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد ، فدفعه على عبد الرحيم ودخل ، فنبه السيد ، ولكنه ما كاد يعبر عتبة حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف ، وقد أقبلوا نحوه مرحبين مهللين يكاد يظفر البشر من وجوههم ، وكان محمد عفت أسرعهم إليه فعانقه ، وهو يقول :

— طلع الدر عليا ..

ثم عانقه إبراهيم الفار ، قائلاً :

— أثنائى زمانى به! أرتضى ..

وتنحى الرجال جانباً ، فرأى جليلة ، وزبيدة ، وامرأة ثالثة وقفت متأخرة عنهما خطوتين ما لبث أن تذكر فيها زنوبة العوادة . آه .. الماضى كله قد جمع فى إطار واحد ، وتطلعت أساريره وإن بدا عليه شئ من الازتيك ، ولكن جليلة ضحكت ضحكة طويلة ، ثم فتحت ذراعها وعانقته ، وهى تقول بنبرات غنائية :

— كنت فىن يا حلو غايب ..

ولما أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالمترددة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور ، فمد نحوها ذراعها فشدت عليها ، وعند ذاك زوت ما بين حاجبيها المزجوجين فى عتاب ، قائلة بلهجة لم تخل من تهكم :

— من بعد تلتاشر سنة ..

فما تمالك أن ضحك من أعماق صدره ، وأخيرا رأى زنوبة بموقفها لم تبرحه ،
وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقا في رفع
الكلفة بينهما ، فمد لها يده مصافحا ، وهو يقول مشجعا وبجاءلا :
— أهلا بأميرة العوادات ..

ورجعوا إلى مجالسهم ، فشبك محمد عفت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى
مجلسه ، فأجلسه إلى جانبه ، وهو يتساءل ضاحكا :
— وقعت أم الهوى رماك ؟
فغمغم السيد أحمد :
— رماى الهوى فوقعت ..

أخذ المكان يستبين لعينيه اللتين غابتا عنه أول الأمر في حرارة اللقاء ومزاح
المرحيين ، فوجد نفسه في حجرة متوسطة الحجم ، طليت جدرانها وسقفها بلون
زمردى ، تطل على النيل بنافذتين وعلى الطريق بنافذتين ، وقد أغلق خصاص
نوافذها وفتح زجاجها ، يتدلى من سقفها مصباح كهربائى ذو غطاء مخروطى من
البللور يركز نوره على سطح خوان توسط الحجرة حاملا الأقداح وقوارير الويسكى ،
وقد فرش الأرض ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف ، وقامت في كل
حانب من الحجرة كنية كبيرة شطرت بنمرقة وغشيت بغطاء مركزش ، أما الزوايا
فقد احتلت بثلث ووسائد . جلست جليلة وزينة وزنوبة على الكنية المجاورة
للنيل ، واقتعد الرجال الثلاثة الكنية المواجهة لها ، بينما انتشرت على الشلت آلات
الطرب كالعود والدف والدربكة والصنج . أجال بصره في المكان مليا ، ثم تنهد
بارتياح ، وقال بتلذذ :

— الله .. الله ، كل شىء جميل ، لم لا تفتحون النافذتين المطلتين على النيل ؟
فأجابته محمد عفت :

— يفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية ، وإذا بليم فاستروا ..

فبادره السيد أحمد باسميا :

— وإذا استترتم فابتلوا !

فهتفت جليلة كالمتهجدية :

— أرنا شطارة زمان !

لم يقصد بقوله إلا المزاح ، والحق أن إقدامه على هذه الخطوة الثورية — بجيئه إلى العوامة — يعد طول الإحجام أورثه قلقاً وتردداً ، لكن ثمة شيء آخر ، تغير من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه ، فليست بصره ولبعين النظر ، ماذا يرى ؟ ، هاك جلييلة وزبيدة ، كلتاهما كالحمل — كما كان يقول قديما — أو لعلهما ازدادتا شحما ولحما ، ولكن ثمة شيء يكتنفهما ، لعله إلى متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحس ، إلا أنه وجه من وجوه الكبر بلا مرأى ، لعل أصحابه لم يفتنوا إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المراتين مثل ما انقطع ، ترى ألم يطرأ عليه هو أيضا مثل الذى طرأ عليهما ؟. انقبض قلبه وفتّر حماسه ، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو أفصح مرآة للإنسان ، لكن كيف السبيل إلى هذا التغيير حتى يقبض عليه ؟. ليست هنالك شعرة بيضاء واحدة في رأسيهما .. ولكن ما للشيب وروعوس الغواى ؟. وليس ثمة تجمعات كذلك . هل غلبت على أمرك ؟. كلا ، إليك نظرة هاتين العينين ، إنها تعكس روحا خائيا رغم ما يكتنفه من لآلئ براق يستخفى حيناً وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيما بين ذلك فتقرأ فيه نعى الشباب ، إنه الرثاء الصامت ، أليست زبيدة في الخمسين من عمرها ؟ وجلييلة جاوزتها بأعوام ، إنها لدته ولن تكابر في هذا مهما أنكره لسانها ، ثمة تغيير في قلبه أيضا ينذر بالنفور والتخلص ، لم يكن كذلك حين جاء ، جاء يجزى لاهثا وراء صورة لم يعد لها من وجود ، ليكن ، حاشا أن يستسلم للهزيمة .. اشرب ، واطرب ، واضحك ، لن يدفعك أحد على رغمتك إلى ما لا تود ..

قالت جلييلة :

— لم أكن أصدق أن عيني ستقعان عليك في هذه الدنيا !

وجد إغراء شديدا في أن يسألها :

— كيف تريننى ؟

فتدخلت زبيدة بينهما قائلة :

— كالعهد بك ، جمل ولا كل الجمال ، شعرة بيضاء تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذلك !

فقالت لها جلييلة محتجة :

— دعيني أجب أنا ، لأن سؤاله كان لي (ثم مخاطبة السيد) أراك كما كنت ، لا غرابة في ذلك ، ما « نحن » إلا أبناء الأمس القريب !
 فظن السيد إلى ما رمت إليه ، فقال متكلفا الجدة والصدق :
 — أما أنتما فقد ازددتما حسنا وروءا ، لم أكن أنتظر هذا كله .
 زبيدة ، وهي تتفحصه باهتمام :

— ما الذي غييك عنا ذلك العمر كله ؟ (ثم ضاحكة) كان يوسعك ، لو كان فيك خير ، أن تلقانا لقاء بريئا ، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش تحتنا ؟
 قال السيد إبراهيم الفار ، وهو يرعش ذراعه في الهواء ليحسر كم القفطان عنه :
 — لا أعلم له ولنا بأن ثمة لقاء بريئا يمكن أن يجمع بيننا وبينكن !
 زبيدة متأففة :

— أعوذ بالله منكم يا رجال ، لا تودون المرأة إلا مطية !
 فقهرته جليلة قائلة :
 — يا ست امك احمدي ربنا على ذلك ، أكنيت تكتنزين هذا الشحم كله لو لم تضمري في نفسك أن تكوني مطية أو حشية ؟
 فقالت لها زبيدة معاتبة :

— خلى بيني وبين المتهم كي أحقق معه ..
 قال السيد أحمد باسمها :
 — كنت محكوما عليّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل ..
 فعادت زبيدة تهاجمه قائلة في تهكم :
 — يا ولداه ! ، حرمت على نفسك اللذات كلها ، كلها يا ولداه ، حتى لم يبق لك منها إلا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتى مطلع الفجر كل ليلة !
 فقال السيد كالمعتذر :

— هذه أشياء لا بد منها للقلب الحزين ، أما الأخرى ..!
 زبيدة وهي تلوح له بيدها كأنما تقول له « آه منك آه » :
 — علمت الآن أنك تعدنا شرا من كافة الذنوب والخطايا ..
 محمد غفت هاتفا مقاطعا ، كأنما تذكر أمرا هاما كاد يفلت منه :
 — هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلم ، على حين تطل علينا الأفداح ولا تجد

من يعنى بها ١ ، املاً الأقداح يا على ، اربطى الأوتار يا زنوبة ؟ ، اخلع ملابسك يا
حضرة المحترم ، انت حاسب نفسك فى مدرسة ؟ ، انزع الجبة والطربوش ، لا تظن
أنك أعفيت من التحقيق ، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر الباباة ثم
نعود إلى التحقيق ، جلييلة أصرت على تأجيل السكر حتى يحضر سلطان الفرفشة
أو كما قالت ، هذه الولية تعزك إعزاز الشيطان للضال المزمّن ، بارك الله لك فيها
وبارك لها فيك ..

نهض السيد أحمد ليخلع الجبة ، قام على عبد الرحيم ليتولى — كعادته —
مهمة الساقى ، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار ، دندنت
زبيدة فى غمغمة ، سوت جلييلة بأناملها حصلات شعرها وطوق الفستان فيما بين
ثديها ، تابعت أعين بتشوق يدي على عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح ، تربع السيد
أحمد فى مجلسه وهو يحيل بصره فى المكان والناس حتى التقت عيناه اتفاقاً بمعنى زنوبة
فابتسمت الأعين تحية ، قدّم على عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس . قال محمد
عفت : صحتكم ومحبتك ، قالت جلييلة : نخب العودة يا سى أحمد ، قالت
زبيدة : نخب الهداية بعد الضلال . قال أحمد : نخب الأحابيب الذين فرق الحزن
بينى وبينهم .. شربوا عندما رفع السيد أحمد كأسه إلى شفثيه ، رأى من فوق سفح
الكأس وجه زنوبة مرفوعاً كذلك إلى كأسه فهزته نضارته ، قال محمد عفت لعلى
عبد الرحيم : املاً الثانى ، وقال له إبراهيم الفار : والثالث فى أثره حتى نثبت
الأساس ، قال على عبد الرحيم وهو يشمر : خادِم القوم سيدهم . وجد أحمد عبد
الجواد نفسه يتابع أنامل زنوبة وهى تربط الأوتار ، فتساءل عن عمرها لم قدره بين
الخامسة والعشرين وبين الثلاثين ، ساءل نفسه مرة أخرى عما جاء بها ..
العود ؟! .. أم أن خالتها زبيدة تهيبها سبيل الرزق ؟. قال السيد إبراهيم الفار : إن
النظر إلى ماء النيل يدوخه . فهتفت به جلييلة : يابن الدايمحة ! . سأل على عبد
الرحيم : إذا رميت امرأة فى حجم جلييلة أو زبيدة إلى الماء فهل تفرق أم تطفو ؟
فأجابه السيد أحمد بأنها تطفو إلا إذا كان بها ثقب ، ساءل السيد أحمد نفسه عما
يحدث لو نزعته به نفسه إلى زنوبة ، فأجابت نفسه بأن ذلك يكون فضيحة لو
أرادها الآن ، أما بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج ، وأما بعد زجاجة فيكون
واجباً .. اقترح محمد عفت أن يشربوا كأساً فى صحة سعد زغلول ومصطفى

النحاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة ، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأساً آخر في صحة مكدونالد صديق المصريين ، تساءل على عبد الرحيم عما عناه مكدونالد بقوله : « إنه يستطيع أن يحل القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بين يديه » . فأجابه أحمد عبد الجواد بأن ذلك يعنى أن الإنجليزي يشرب فنجان القهوة — في المتوسط — في نصف قرن ، تذكر السيد أحمد كذب ثار على التورة عقب مصرع فهمي وكيف ثاب رويدا إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغته الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد الشهيد نبيل ، ثم كيف انقلبت مأساة فهمي مع الزمن مفخرة يباهى بها وهو لا يدرى ! رفعت جليلة كأسها صوب السيد أحمد وهي تقول :

— صحتك يا جملي ، طالما كنت أسائل نفسي هل نسينا حقاً السيد أحمد ؟ ، ولكنني علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء ، لا تعجب فأنا أختك وأنت أخي ..

فسألها محمد : عفت بخث :

— إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدعين ، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما في زمانكما ؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله ، وقالت :

— بل أخوالك يا روح أملك ..

قالت زبيدة وهي تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر :

— بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة ..

سألها أكثر من صوت عما بدا لها ، على حين تتم السيد أحمد بصوت المستعبد :

— يا سائر استر ..

— بدا لي أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله ، فاعتل

بالحزن واختفى ..

قالت جليلة معترضة وهي تهز رأسها على أسلوب العوالم :

— إنه آخر من يدركه الكبير !

فسأل السيد محمد عفت السيد أحمد :

— أى الرايين أصح ؟

فقال السيد أحمد بلهجة ذات معنى :

— الرأى الأول يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن الرجاء ؟

قالت جلييلة بظفر وارتياح :

— لست ممن يخيب عندهم الرجاء :

هم بأن يقول « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، ولكنه خاف أن يدعى للامتحان أو أن يفهم قوله على أنه تقديم فى الامتحان ، على حين كان كلما أنعم النظر تمكن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يجر له فى خاطر قبل المجيء . أجل ثمة تغير لا ينكر ، مضى الأمس ، وليس اليوم كالأمس ، لا زبيدة يزيدة ولا جلييلة بجليلة ، وليس ثمة ما يستحق المغامرة ، ليقنع بالأخوة التى نُوِّهت بها جلييلة ، ولعمدتها حتى تظلل زبيدة نفسها ، قال برقة :

— من أين للكبر أن يدرك آدميا وهو بينكن !

تساءلت زبيدة وهى تقلب عينيها فى الرجال الثلاثة :

— أيكم الأكبر ؟

فقال السيد أحمد ببراءة :

— أنا ولدت فى أعقاب ثورة عراقى !..

فقال محمد عفت محتجا :

— قل كلاما غير هذا ، لقد بلغنى أنك كنت من جنود عراقى !..

فقال السيد أحمد :

— كنت جنديا من بطونهم ، كما يقال الآن : تلميذ من منازلهم ..

فتساءل على عبد الرحيم كالدهش :

— وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل خارج إلى المعركة ؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس فى فيها :

— لا تهربوا بالهزار ، إني أسألكم عن أعماركم ..

قال إبراهيم الفار بتحد :

— ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين ، فهل تكاشفاننا بعمركا ؟..

هزت زبيدة كتفها استهانة ، وقالت :

— أنا ولدت ..

ثم ضاقت عينها المكحولتان وهما ترفعان إلى المصباح في حال تذكر ، غير أن السيد أحمد عاجلها متعما ما توقفت عن إتمامه :

— عقب ثورة سعد باشا ١٩

ضحكوا طويلا حتى ألعبت لهم الوسطى ، ولكن جلييلة لم ترحب بالحديث فيما بدا ، فصاحت بهم .

— دعونا من هذه السيرة المقطونة ! ، ما لنا نحن والأعمار !. ليسأل عنها صاحب الأمر في سماواته ، أما نحن والمرأة منا شابة ما وجدت من يرغب فيها ، والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب فيه .. هتف على عبد الرحيم بغتة :

— هتفوني !

وسئل عما يئأ عليه ، فواصل الهاتف قائلا :

— سكوت ..

قال أحمد عبد الجواد : إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل أن يضل وحده في عالم السكر ، حثهم جلييلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجله ، آوى على عبد الرحيم في ركن وفي يده كأس مترعة وهو يقول لهم : انحنوا عن ساق غيري . قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية وفحصت في حقبيتها عن حق الكوكابين حتى اطمأنت إلى أنه في مكانه ، اغتم إبراهيم الفار فرصة خلو مكان زبيدة فجلس فيه ثم أسند رأسه إلى كتف جلييلة وهو يتنهد بصوت مسموع ، نهض محمد عفت إلى النافذتين المطلتين على النيل وأزاح الخصاص عنهما جانبا فلاح سطح الماء ظلمات متحركة عدا خطوط من الضياء الهادى رسمتها على الأمواج الأشعة المرسلة من مصابيح الذهبيات الساهرة ، لعبت زنوبة بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فأنجبت عينا السيد إليها مليا ثم قام ليملأ كأسه لنفسه ، عادت زبيدة فجلست بين محمد عفت وأحمد عبد الجواد وهى تضرب الأخير على سلسلة ظهره ، علا صوت جلييلة وهى تغنى :

« يوم ما عضتني العضة ... » .

هتف إبراهيم الفار بدوره : هنتوفى .. إشتراك محمد عفت وزبيدة فى غناء جليله عند جملة : « وجابولى طاسة الخضة » ، اشتكرت زنوبة فى الأغنية ، فعاود السيد أحمد النظر إليها وما يدرى إلا وهو ينضم إلى المغنين . جاء صوت على عبد الرحيم من ركن الحجرة مؤيدا . هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسندا إلى كتف جلييلة : مغنون ستة وسميع واحد هو أنا . قال السيد أحمد لنفسه دون أن يتوقف عن الغناء : سوف تلبى وهى من الرضى والسرور فى نهاية ، ثم ساءل نفسه أيضا : أليليلة عابرة أم معاشرة طويلة ؟ . قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص ، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثم غنوا معا :

« خدنى فى جيبك بقه .. بين الحزام والمنطقة » .

ساءل السيد أحمد نفسه : ترى أتعبل زبيدة أن يكون اللقاء فى بيتها ؟ .. انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقف ، جعل أحمد عبد الجواد كلما أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنوبة ليرى أثرها فيه ، اشتد المهرج والمرج ، ومضى الوقت منسرقا ..

— آن لى أن أذهب ..

قال على عبد الرحيم ذلك ، وهو ينهض متوجها إلى ملابسه . فصاح به محمد عفت ساخطا :

— قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع السهرة !

تساءلت زبيدة وهى ترفع حاجبيها :

— من هى المحروسة ؟

فقال إبراهيم الفار :

— رفيقة جديدة ، معلمة قد الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة ..

فسأله السيد أحمد باهتمام :

— من .. ؟

أجاب على عبد الرحيم ، وهو يحبك الجبة ضاحكا :

— صاحبتك القديمة سنية القللى ..

فاتسعت عينا السيد الزرقاوان ، وتجلت فيهما نظرة حاملة ، ثم قال باسم :

— اذكرنى عندها وأقرئها السلام ..

قال على عبد الرحيم ، وهو يقتل شاربه ويتأهب للذهاب :
 — سألت عنك واقتربت على أن أدعوك إلى قضاء سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل ، فقلت لها إن يكره اسم النبي حارسه قد بلغ السن التي تعد في أسرهم موجبة للدخول في وجه البركة وغيرها من وجوه الفسق ، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقى به في إحدى جولاته !..
 وضحك الرجل ملء شديقه ، ثم سلم وغادر الحجرة إلى الدهليز ، فتبعه على الأثر محمد عفت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجى . واستمروا يتحدثون ويتضحكون حتى غادر السيد على العوامة ، وعند ذاك غمز محمد عفت ذراع أحمد عبد الجواد ، وهو يتساءل :

— زبيدة أم جلييلة ؟

فقال السيد أحمد ببساطة :

— لا هذه ولا تلك !

— لم ؟ كفى الله الشر !!

فقال بلهجة القانع :

— خطوة خطوة ، سوف أكتفى ما بقى من هذه الليلة بالشراب وسماع

العود !..

ألمح عليه أن يقدم رجله خطوة أخرى ، ولكنه اعتذر فلم يثقل عليه ، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعى فاستردا مجلسيهما . قام إبراهيم الفار مقام الساق ، افتضحت أمارات السكر في وهج العيون وسلس الحديث وتحرر الأعضاء ، غنوا جميعا وراء زبيدة :

« البحر يضحك ليه .. »

لوحظ أن صوت السيد أحمد عبد الجواد علا حتى كاد يغطى على صوت زبيدة ، روت جلييلة تناتيش من مغامراتها . مذوق بصرى عليك شعرت بأن الليلة لن تمر بلا مغامرة ، ما أملك الصغيرة ، الصغيرة ؟ ، هى كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن . تحسر إبراهيم الفار على العصر الذهبي للنحاس على أيام الحرب ، فقال لهم بلسان ثقيل « كنتم تقبلون يدى من أجل رطل نحاس » فقال له السيد أحمد : « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى » . اشتكت زبيدة شدة السكر

فقامت تتمشي ذهابا وجيئة ، وعند ذاك جعلوا يصفقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويهتفون بها :

« تانا خطي العتبة .. تانا خطي العتبة » .

الخمر تشل العضو الذى يفرز الحزن ، غمغمت جليلة قائلة : « حسبنا » ، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضى إلى مخدعين متقابلين ، فمالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت ، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يتلقى جسمها العظيم ، راق زبيدة تصرف جليلة فاتبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف ، قال إبراهيم الفار : « إن لسان السرير قد نطق » . تناهى إليهم من المخدع الأول صوت وان يترنم محاكيا بحجة منيرة : « يا حبيبى تعالى » ، فقام محمد عفت وهو يحجب مترنما كذلك : « أدبنى جى » . نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلا ، فقال له السيد : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، فقام وهو يقول : « لا حياء فى العوامة ! » .. خلا الجور ، ها هى الساعة التى رصدتها طويلا ، نحت الصغيرة العود جانبا وتربعت وهى تسبل حاشية القستان على ساقها المتشابكتين . ساد صمت وتبدل نظر ثم مدت بصرها إلى لا شيء ، تكهرب الصمت فلم يعد يحتمل ، نهضت فجأة فسألها : إلى أين ؟ فغمغمت وهى تمرق من الباب : « الحمام » ، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره ، وهو يتساءل : « أليس ثمة حجرة ثالثة ؟ » لا ينبغي لقلبك أن يدق هكذا كأنما الجندى الإنجليزى يسوقك أمامه فى الظلام ، ليلة أم مريم هل تذكر ؟ لا تعد إلى ذكرها فهى ألم ، عادت من الحمام .. ما أنضرها ! ..

— أتضرب العود ؟

أجابه باسم :

— علمينى ..

— حسبك الدف فإنك من رجاله !

وهو يتنهد :

— تلك أيام خلت ، ما ألطفها ، كنت طفلة ! ، ما لك لا تجلسين ؟

تكاد تلمسك ، ما أحلى أول الصيد !

— خذى العود وأسمعينى ..

— شبعنا غناء وعزفا وضحكا ، عرفت الليلة أكثر من ذى قبل لماذا يفتقدونك في كل سهرة !

فابتسم ابتسامة وشت بسروره ، ثم قال بمكر :
— ولكنك لم تشبعي شربا ؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك ، فوثب كالجواد إلى المائدة ، ثم عاد بزجاجة مملوءة حتى النصف ، وكأسين ، وجلس وهو يقول : « لنشرب معا » . الشرهة اللذيذة تنفث عيناها شيطنة وسحرا ، سلها عن الحجرة الثالثة .. سل نفسك : ليلة أم معاشره .. وعن العواقب لا تسأل ، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه . لزنوبة العوادة .. بصحاف الفاكهة كانت تقف بين يديك .. لكن لتحل بك السعادة جزاء نضارتك ، أما الكبير فلم يكن أبدا من شيمى .. رأى كفها القابضة على الكأس قريبة من ركبته ، فمد راحته وربت عليها بلطف ، ولكنها سحبتها في صمت إلى حجرها دون أن تلتفت إليه ، فسأله نفسه ترى هل يحلو التدلل في هذا الوقت المتأخر خاصة إذا كان الداعي مثله وكانت المدعوة مثلها ؟ ، غير أنه لم يجد عن سنن الملاينة والملاطفة ، فسألها بلهجة ذات معنى :

— أليس ثمة حجرة ثالثة في العوامة ؟

قالت تهيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهي تشير صوب باب الدهليز :

— في الناحية الأخرى ..

تسأله وهو يقتل شاربه مبتسما :

— أليست تسع كلينا ؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه ، وإن لم يجاوز حدود الأدب :

— تسعلك وحدك إن طاب لك النوم !

فسألها كالدهاش :

— وأنت ؟

فقالت بنفس اللهجة :

— مستريحة كما أنا ..

تزعزع قليلا مقتريا منها ، ولكنها قامت فوضعت كأسها على المائدة ، ثم

مضت إلى الكنبه المقابله له ، فجلست راسمة على وجهها صورة الجذ والاحتجاج الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد وخزة فى كبرياته ، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة متكلفة حتى سألها :
— ماذا أغضبك ؟

فلازمت الصمت مليا ، ثم شبكت ذراعيها على صدرها :
— إني أتساءل عما أغضبك ؟
قالت باقتضاب :

— لا تسل عما تعلم ..
ضحك فجأة ضحكة عالية معلنا بها عن استهائته وعدم تصديقه ، وقام بدوره فملا الكأسين ثم قدم لها كأسها ، وهو يقول :
— روى مزاجك ..

فتناولت الكأس تأدبا ثم أعادتها إلى المائدة ، وهى تغمغم « أشكرك » فتراجع إلى مجلسه وقعد ، ثم رفع كأسه إلى شفتيه وتجرعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكا :
« كان فى وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة ؟ » ، لو أستطيع أن أرجع فى الزمن ربع ساعة إلى الوراء ، زنوبة .. زنوبة .. ولا شىء غير زنوبة فهل تصدق ذلك ؟ ، لا تشتت حيال الصدمة ، من يدري لعله دلال موضة ١٩٢٤ يا حمصانى ١٩١٠ ، ماذا تغير فى ؟ .. لا شىء .. لكنها زنوبة .. أليس ذلك هو اسمها ؟ ، لكل رجل حتما من امرأة تعرض عنه ، وما دامت زبيدة وجيليلة وأم مريم يسعين إليك فمن غير زنوبة — هذه الخنفساء — تعرض عنك ؟ !. تحمل حتى تحتمل ، ليس الأمر على أبى حال بكارثة ، آه ، انظر انظر ، ساقها مليحة مدملجة ، أساسها متين ، لم تظن أنها أعرضت عنك حقا ؟ ..

— اشربى يا حلوة ..

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم :

— عندما يروق لى الشراب ..

فسدد نحوها بصره ، ثم تساءل بلهجة ذات معنى :
— ومتى يروق لك .. ؟

فقطبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم تجب ..

تسأل السيد ، وكان يشعر في تلك اللحظة أنه يتدهور :

— ألم يصادف توددى القبول ؟

فطامنت من رأسها لتخفى وجهها عن عينيه ، وقالت برجاء حازم :

— هلا كفت عن هذا ؟

تملكه غضب فجائى فجاء كرد فعل لإحساسه بالتدهور ، فتسأل داهشا :

— لم تبغين إلى هنا ؟

قالت باحتجاج ، وهى تشير إلى العود المستلقى على الكنبه غير بعيد عنه :

— أجيء من أجل هذا ..

— فقط ؟ .. لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك إليه ..!

تساءلت باستياء :

— بالقوة ؟

فقال وهو يعانى سكرات الخيبة والحنق :

— كلا ، ولكنى لا أجد سببا للرفض !

فقالت ببرود :

— لعل عندى أسبابا ..

ضحك ضحكة عالية فاضية ، ثم غلبه الحنق ، فقال هازنا :

— لعلك تخافين على بكارتك !

رنت إليه بنظرة طويلة قاسية ، ثم قالت بحنق وتشف :

— أنا لا أرضى إلا بمن أحبه ..

هم بأن يضحك مرة أخرى ، ولكنه أمسك بعد أن ضاق صدره بهذه الضحكات الآلية المحزنة ، ومد يده إلى القارورة فصب منها فى كأسه بلا تدبر حتى امتلأت إلى النصف ، ولكنه تركها على المائدة ، وراح ينظر إلى المرأة فى حيرة لا يبرى كيف يخرج من المازق الذى دفع نفسه إليه .. الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا بمن تحبه ، هل يعنى هذا إلا أنها تحب كل ليلة رجلا ! ، هيات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة ! . السادة هناك فى الداخل ، وأنت هنا تحت رحمة عوادة متدللة .. اسلخها بلسانك .. اركلها بقدمك .. ادفعها أمامك إلى الحجرة قهرا . الأجدر أن تشيح عنها بوجهك وتغادر المكان فوراً ، فى أعيننا لعنة تذلل

الأعناق ، ما ألفت جيدها ، لا تمار في حلاوتها ، طاش الرأي ووجب الألم ..
— لم أكن أتوقع هذا الجفاء ..

وقطب مصمما وقد تجهج وجهه ، فنهض رافعا كتفيه في استهانة ، وهو يقول :
— ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقا فخاب ظني ، ولن ألوم إلا نفسي ..
سمع وسوسة شفتيها وهي تمتص ريقها مصبة الاحتجاج والانتقاد . ولكنه مضى
إلى ملابسه فأخذ يلبسها على عجل حتى انتهى منها في أقل من نصف المدة التي
تتطلبها عادة أناقته . كان مصمما غاضبا ، ولكن اليأس لم يبلغ به نهايته ، ظل جزء
من نفسه متمردا يأبى أن يصدق ما وقع أو يعز عليه أن يسلم به ، فتناول عصاه وهو
يتربص بين لحظة وأخرى أن يحدث شيء فيكذب ظنه ويصدق أمالي كبريائه
الجريح ، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجد الزائف ، أو أن تهرع
إليه مستنكرة غضبه ، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الذهب ، أجل كثيرا ما
تكون مصبة الريق التي نددت عنها مناورة يعقبها الاستسلام ، غير أن شيئا من ذلك لم
يحدث .

ولبثت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء ، متجاهلة إياه كأنها لا تراه ، فغادر
الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجي ثم إلى الطريق وهو يتندب في حزن وأسف
وغيظ . قطع الطريق المظلم مشيا على الأقدام حتى بلغ جسر الزمالك وجو الخريف
الطيب يتسلل في لطف إلى داخل ملابسه ، ومن هناك استقل تاكسي ، فتوى به
الأرض طيا وهو ذاهل من السكر والفكر ، حتى انتبه إلى ما حوله في ميدان الأوبرا
والسيارة تدور به في طريقها إلى العتبة الخضراء ، في أثناء دورانها حانت منه التفاتة
فلمح على ضوء المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتى غيبه عنه
منعطف الطريق ، ثم أغمض عينيه وهو يشعر بشكة تنفذ إلى أعماق قلبه ، ووجد
في باطنه صوتا كالأثنين يهتف في عالمه الصامت داعيا بالرحمة للفقيد العزيز ، فلم
يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشبع بالخمر ، وعندما رفع
جفنيه ، ذرفت عيناه دمعتين غزيرتين ..

لم يدرك ماذا ركب !! شيطان رجيم أم داء وبيل ؟! نام وهو يأمل أن يكون انتهى من
 سحق الليلة الماضية ، بسحق السكر دعاه ، وللسكر سحق لا ريب فيه يفسد
 لذاته ويقلب مسرانه ، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلب ،
 ورشاش الدش يترشش على جسده العارى تشتت فكره وخفق قلبه ، تخاليل لعينيه
 وجهها وطنت في أذنيه وسوسة شفتيها ورجع قلبه صدى الألم ، ثم تجر أفكارك
 الظامئة كفتى مراهق والطريق من حولك يحبك تمية الإجلال . يحيون فيك الوقار
 والورع وحسن الجوار ، ولو علموا أنك ترد تحياتهم في آلية وفكرك عنهم غائب
 مهموم في حلم جارية عالمة .. عوادة .. امرأة تعرض جسدها كل ليلة في سوق
 المضاجع .. لو علموا ذلك ، لأولئك بدل التحية ابتسامة هزء ورثاء . فلتقل الأفعى
 « نعم » وعند ذلك أعرض عنها بكل ازدراء وارتياح ، ماذا دهاني وماذا أروم ، هل
 أدركك الكبير ؟ أتذكر ما ابتلى جلييلة وزبيدة من عادييات الزمن ؟ تلك آثار بغيسة
 يجرها القلب ولا يدركها الحس ، لكن مهلا ، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك
 الوهم لقمة سائغة للانهيار .. ما هي إلا شعرة بيضاء ، لغير ذلك من البواعث
 أعرضت عنك العوادة الحقة .. الفظها كما تلفظ ذبابة اندست في فيك وأنت
 تشاءب ، وأأسفاه !! أنت تعلم أنك لن تلفظها ، لعلها الرغبة في الانتقام ولا شيء
 سوى ذلك . رد اعتبار ليس إلا . ينبغي أن تقول الجارية « نعم » ، ولك أن تهجرها
 بعد ذلك قرير العين . لا شيء فيها يستحق النضال . أتذكر ساقيا وجيدها وشهوة
 عينها ؟ . لو داويت كبائلك بلعقة من الصبر لفزت — من ليلتك — بالمتعة
 والبهجة ، ماذا وراء هذا القلق كله ؟! . إلى أتألم ، أجل ! إلى أتألم ، إلى مكروب بما
 نزل لي من مهانة ، أتوعدها بالازدراء ثم تخطر منها على القلب خطرة فتستمر
 عروقي .. استبق الحياة ولا تجعل من نفسك أضحوكة ، إلى أستحلفك بالأولاد من
 بقى منهم ومن ذهب .. هنية كانت المرأة الوحيدة التي هجرتك فجريت وراءها ،
 ماذا لقيت منها ؟ ألا تذكر !! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويجول ، ثم يعمل
 عصاه في المصاييح وطاقت الورد والمزامير والمدعويين ، حتى يغطي الصوت على
 الزغاريد .. ذاك رجل ؟! كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض . ما

أضعف أعداءك وما أقواهم ، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشي غير أنها تهد الجبال الرواسي ، ما أقطع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة ، ما أطف أماسيه خاصة ما يكون منها في العوامة . إن بعد العسر يسرا ..

فكر في أمرك وانظر في أى اتجاه تسير ، المكتوب لازم تشوفه العين ، الإقدام مر والنكوص مربعب ، كم كنت تراها وهي في ميعه الصبا فلم توقظ فيك نائما ومررت بها كأنها شيء لم يكن ، ماذا جد حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد ، ليست أجمل من زبيدة ولا جلييلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصطحبتها ، على ذلك فأنت تريدها وتريدها بكل قوة نفسك .. أه !! ما جدوى المكابرة ؟ لا أرضى إلا بمن أحبه !! أحبك برص يا بنت اللبوة .. تألم حتى تختنق ، ما أذل الإنسان مثل نفسه ، هل تذهب إلى العوامة ؟. ليست خير مكان لإذاعة الفضائح ، البيت ؟. هناك زبيدة !! أهلا أهلا !! أعدت أخيرا إلى عرينك ؟ بم تحبها ؟ لم أعد لذلك ، ولكنى أريد بنت أختك ! ياله من سخف ! دع الهذر . هل فقدت صوابك ؟ استعن بالفار أو بمحمد عفت . السيد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيق إلى .. زنوبة !.. أليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذي يسيمك الذل !.

كان الليل قد غشى الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها ، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب إغلاقها ، يسير في خطوات وثيدة وعيناه تتفحصان الطريق والنوافذ ، لاح وراء نافذتي زبيدة ضوء ، ولكنه لم يدر ماذا كان يدور وراءهما ، أوغل في الطريق وقتنا ثم عاد من حيث أتى ، فوصل مسيره إلى بيت محمد عفت بالجمالية حيث يلتقى الأصدقاء الأربعة قبل انطلاقهم إلى السهرة معا . قال السيد مخاطبا محمد عفت :

— ما أطف ليالى العوامة ، لا يزال قلبي يحن إليها !.

فقال محمد عفت ضاحكا في ظفر :

— هي رهن إشارتك في أى وقت تشاء ..

وعقب على عبد الرحيم على ذلك بقوله :

— حننت إلى زبيدة ، يا عكروت ..

فبادر السيد قائلا في جد :

— كلا ..

— جلييلة ؟

— العوامة ولا شيء عداها ..

فسأله محمد عفت بمكر :

— أتريدها سهرة قاصرة علينا ، أم ندعو إليها صديقات الزمان الأول ؟

فضحك السيد ضحكا أعلن بها هزيمته ، ثم قال :

— بل تدعوهم يابن الماكرة ، وليكن ذلك مساء الغد ، لأن الوقت تأخر بنا

الليلة ، ولكنى لن أجاوز الاستمتاع بالجالسة والمؤانسة ..

قال إبراهيم الفار « إحم » ، وقال على عبد الرحيم : « على روحى أنا الجانى » ،

وقال محمد عفت ساخرا : « سمه كما تشاء ، تعددت الأسماء والفعل واحد » .

ثم كان اليوم التالى كأنما اكتشف قهوة سي على لأول مرة . انجذب إليها قبيل

الأصيل ، وجلس على الأريكة تحت الكوة ، فأقبل عليه صاحب القهوة مرحبا ،

فقال له السيد وكأنه يبرر مجيئه إلى القهوة لأول مرة :

— كنت راجعا من بعض الأعمال ، فنازعتنى النفس إلى احتساء شايك

العذب .

زيارة لا يبدو أنها من السهل أن تتكرر .. رويدا رويدا !! ستفضح نفسك أمام

الناس ، ما جدوى هذا كله ؟! هل يسرك حقاً أن تراك من وراء الخصاص لتها من

تدهورك ؟! إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك ، أتعبت عينيك فى محجريهما

ودونحت دماغك ، لن تبدو لك ، والأدهى من هذا أن تتفرج عليك ساخرة من

وراء خصاص ، ماذا جاء بك ؟ تريد أن تملأ عينيك منها . اعترف ، تريد أن تقيس

أبعاد جسمها اللدن .. أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها .. أن تتابع أناملها المخضبة ،

فيم هذا كله ؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع من فقنها حسنا ورواء وشهرة ، أقضى

عليك أن تتعذب وتهون فى سبيل الشيء الحقير !. لن تبدو .. تطلع كيفما

شئت .. ألقت إليك الأنظار .. السيد أحمد عبد الجواد فى قهوة سي على يسترق

النظر من الكوة ، لشد ما تدهورت !! من أدراك أنها لم تفش شرك ؟! لعل التخت

يدرى ، ولعل زبيدة نفسها تدرى ، ولعل الجميع يدرون !! مد يده الحلاقة بالخاتم

الماسى إلى فصدته ثم توسل إلى فأصرت على صده .. هذا هو السيد أحمد عبد الجواد الذى تشيدون به ..! لشد ما تدهورت !! أقصى التدهور ما تحدر إليه ، بل ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما ينطوى عليه فعلك المشين من مذلة وهوان ، إذا عرف السر أصحابك وزيدة وجيللة ، فماذا أنت صانع ؟! حقا أنت ماهر فى مداراة الحرج بالنكته ، ولكن سوف تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة المرة .. هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدھا . لا تكذب على نفسك ، فأنت تريدھا حتى الممات . ماذا أرى ؟.. تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت فوقفت أمام بيت العائلة ، ثم ما لبث أن فتح الباب فخرجت عيوشة الدفافة ساحبة وراءها عبده القانونجى ، ثم تبعها بقية الجوقة ، فأدرك أنهم ذاهبون إلى فرح من الأفراح . وشعر الرجل شعورا عنيفا بخفقان قلبه وهو يتطلع إلى الباب في ترقب مشوق محزن . اشرب بعنقه فى غير ما حيلة متجاهلا ما حوله من الناس ، ثم رنت ضحكة وراء الباب ، ثم برز العود فى جراب بمبى يسبق صاحبه التى خرجت فى نشاط ثورى ضاحكة ثم وضعت العود على مقدم العربة ، وصعدت إليها بمعونة عيوشة ، وجلست فى الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبلو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبده الضرير . أصّر السيد على أسنانه حيننا وحنقا معا . أتبع العربة عينيه وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال موهلة فى الطريق ، مخلقة فى صدره إحساسا عميقا بالكآبة والهوان ، وتساءل : هل يقوم فيتبعتها ؟ غير أنه لم يحرك ساكنا ولم يزد على أن قال لنفسه : « كان المحبىء إلى هنا حماقة جنونية » .

ذهب فى المساء الموعد إلى العوامة بإمبابة ، لم يكن استقر على رأى فيما ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر فى ذهنه . ثم أخيرا ، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص .. حسبه أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها فى آخر الليل ، سوف يجس النبض من جديد وربما أعاد الكرة مستعينا هذه المرة بكافة ضروب الإغراء ، دخل العوامة كالوَجَل ، وعلى حال لو رآها على غيره وحده بواعثها لأغرقه ضحكا وسخرية . هنالك وجد الإخوان وجيللة وزيدة ولكنه لم يعثر للعوادة على أثر !! وقد استقبل استقبالًا حارا ، وما كاد يخلع جبته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج فى جوها بقوة مرونته . حدثت ونكتت ومازح وداعب مغالبا قلقه محاورا همه ، غير أن مخاوفه كمنّت تحت تيار المرح دون أن تتبدد كما

يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدر ، وما يرح بأمل أن يفتح باب فتأني منه أو أن يشير أحد إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعد بقرب حضورها ، وكلما مضى الوقت متاقلاً مثائباً شحب أمله وفتّر حماسه وغيم المأمول من صفوه .

ترى أيهما كان الطارئ : حضورها أول أمس ، أم تخلّفها اليوم ؟ ، لن أسأل أحداً ، الظواهر تنم على أن شرك لا يزال مصوناً ، لو علمت به زيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرس . ضحك كثيراً وشرب أكثر ، سأل زيدة أن تغنيه « أضحك من الفم وابكى من صميم قلبي » ، أوشك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد ، أوشك مرة أخرى أن يجس نبض زيدة نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة .

ولما قام على عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة ، قام معه على غير توقع من أحد ليعود إلى بيته ، وعبثاً حاولوا أن يثنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة ، فذهب مخلفاً وراءه دهشة ، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنوناً لم تقع .

ثم كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل ، وإنه ليسير في شارع خان جعفر ، إذ راها عابرة من حارة الوطاويط في طريق الجامع ! .. آه .. لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل ، وأعقبها على الأثر جمود شمل حركته النفسية كلها ، حتى خيل إليه — فيما يشبه الغيبوبة ، وخلافاً للواقع — أنه توقف عن السير ، وأن العالم من حوله صمت صمت القبور ، كمثل السيارات التي تتوقف محركاتها عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنها تسير بقوة القصور الذاتي في سكون شامل ، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدمه بمسافة غير قصيرة ، فتبعها على الأثر دون تدبر أو روية ، فمر بالجامع دون أن يعرج إليه ، ثم مال وراءها عن بعد إلى السكة الجديدة . ماذا يعني ؟ . إنه لا يدري !! كان يطيع رد الفعل طاعة عمياء ، لم يكن سبق له أن تعقب امرأة في الطريق ولا في أيام شبابه الأول فأخذ ينتابه الحرج والحذر ، ثم دهته فكرة ساخرة مفزعة معا : أن يهتك سر المطاردة الخفية ، ياسين أو كمال ! . على أنه حرص على ألا تقصر المسافة بينه وبينها عما كانت عليه مذ بدأت المطاردة ، وراحت عيناه ترتويان من هيمة جسمها اللطيف بنهم وظماً وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والألام ، حتى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ

من معارفه يدعى يعقوب ، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة للتدبر وتضاعف شعوره بالحرج والخجل : ألا يعود من حيث أتى ؟ ، أم هرب بالدكان دون أن يلتفت نحوها ؟ . أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث ؟ .

كان يقترب من الدكان رويدا ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة ، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلا خطورتها ، وهي أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلا أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبى دعوته ! .. مضى متمهلا فوق الطوار حتى بلغ الدكان ، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفوا ، فالتفت عيناه بعيني يعقوب .. وإذا بالخواجاء يتف به :
— أهلا بالسيد أحمد ، تفضل ..

ابتسم السيد متوددا ثم عرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجاء إلى كوب خروب ، فقبل الدعوة قبول الكرام ، وجلس على طرف كنية جلدية من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان . لم يد عليه أنه فطن إلى وجود ثالث في الدكان حتى جلس فترأت أمام عينيه زنوبة وهي واقفة حيال الخواجاء تقلب بين يديها قرطا فتظاهر بالدهش ، والتفت عيناهما وهو على تلك الحال .. ابتسمت فابتسم ، ثم بسط راحته على صدره محييا ، وهو يقول :
— صباح الخير .. كيف حالك ؟
، فقالت وهي تعاود النظر إلى القرط :
— بخير ربنا يكرمك ..

كان الخواجاء يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلافها عليه ، فانتهر السيد فرصة انشغالها ليمأ عينيه من صفحة خدها ، ولم يغب عليه ما في المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى ، لعل وعسى .. غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدر بما أضمر ، فردت القرط إلى صاحبه وهي تعلنه بأنها عدلت نهائيا عن المبادلة ، وطلبت إليه إصلاح الأسورة ، ثم حيته ، وحيث السيد بإحناءة من رأسها وغادرت الدكان ! . حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داع إليها . فيما بدا له ، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق . ولبث مع الخواجاء يعقوب يتبادلان حديث الجملات المألوف حتى شرب كوب الخروب ، ثم استأذن في الانصراف وذهب .

ذكر — في خجل شديد — صلاة الجمعة التي أوشكت أن تفوته ، ولكنه تردد في المضي إلى الجامع ، لم تواته الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع ، ألم ينقض نزقه وضوءه ؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن ؟. عدل عن الصلاة محزوناً متأثراً ففسار في الطرقات ساعة على غير هدى ، ثم عاد إلى البيت معاودا التفكير في ذنبه ، على أن رأسه — حتى في تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم — لم يغلق بابه دون زنوبة !. قال مخاطباً محمد عفت ، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء :

— أريد منك خدمة ، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العومة !.

ضحك محمد عفت ، وقال له :

— إن كنت تريدها فلم هذا اللف والدوران !. لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعها على الرحب والسعة ..

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج :

— أريد أن تدعوها وحدها !..

— وحدها !؟. يالك من رجل أناني لا تفكر إلا في نفسك ، والفار وأنا ؟! .. بل لنجعلها ليلة من ليالي العمر ، ولنضع زبيدة وجلييلة وزنوبة أيضا !. تسأل أحمد عبد الجواد فيما يشبه الاستنكار :

— زنوبة !؟ ..

— لم لا !؟. إنما احتياطي لا بأس به ، يرجع إليه عند الضرورة .. ما المني !. كيف تمنعت بنت القديمة ولم !؟.

— أنت لم تدرك بعد غايتي ، الحق أني لا أنوي المجيء غدا !. قال محمد عفت في استغراب :

— تطلب أن أدعو زبيدة !. وتقول إنك لن تحيى غدا !. ما هذه الألفاظ !! ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكها ، ثم لم يجد بدا من أن يقول كاليائس :

— لا تكن بغلا ، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها ، كي تبقى زنوبة في البيت وحدها !

— زنوبة يابن أم أحمد ؟!

ثم وهو يسترسل في الضحك :
 — لم كل هذا التعب ؟ ، لم لم تطلبها أول ليلة في العوامة ؟! ولو أشرت إليها
 بأصبعك لطارت إليك ، ولزقت فيك بالغراء !
 ابتسم ابتسامة فارغة ، رغم شعوره الأليم بالامتعاض ، ثم قال :
 — نفذ ما أمرت به ، هذا ما أريد ..
 قال محمد عفت وهو يقتل شاربته :
 — ضُغف الطالب والمطلوب !
 فقال أحمد عبد الجواد جادا جدا :
 — ليكن هذا سرا بيننا ..

٩

طرق الباب في ظلام دامس وفي خلاء من المارة ، وكانت الساعة تدور في
 لتاسعة ، فتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح ، ثم جاءه صوت ارتج له فؤاده
 ارتجاجا يتساءل قائلا : « من ؟ » فقال بهدوء « أنا » ، وهو يدخل بغير
 سبذان ، ثم رد الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلم
 مادة ذراعها بالمصباح ، حدجته بنظرة داهشة ، ثم غمغمت :
 — أنت !

فوقف صامتا مليا ، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإشفاق والقلق ، ولما لم
 يأنس منها اعتراضا أو غضبا تشجع قائلا :
 — أهذا هو استقبالك لصديق قديم ؟
 فولته كشحها ، ومضت ترقى في الدرج ، وهي تقول :

— تفضل ..

تبعها صامتا ، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها في البيت ، وأن
 مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شاغرا .. تبعها حتى دخلا إلى
 الدهليز ، فعلقت المصباح بمسمار مثبت في الجدار على كُتب من الباب ، ثم
 دخلت وحدها حجرة الاستقبال ، فأوقدت المصباح الكبير المدلى من السقف —

زادته هذه الحركة اطمئنانا إلى استنتاجه — ثم خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت ..

مضى إلى الحجرة ثم جلس في الموضع الذى كان يجلس فيه في العهد القديم على الكنية الوسطى ، فترع طربوشه وحطه على التفرقة التى تشطر الكنية ، ومد ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله .. إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب ، هذه الكنيات الثلاث ، وهذه المقاعد ، وهذا البساط الفارسى ، وهذه الأخونة الثلاثة المطعمة بالصدف ، كل شيء كان بصفة عامة كما كان !! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان ؟ ، إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت ، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة في هذه الحجرة ، في هذا الموضع بالذات !! وجملة ما دار فيه ، لم يكن أحد يومذاك مثله خلو بال وثقة بالنفس ؟ ترى متى تعود ؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها ؟ إلى أى درجة سيرتفع غرورها ؟ ، وهل أدركت أنه جاء من أجلها هى لا من أجل حالتها ؟ ، إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام !.

سمع وقع شهب خفيف ، ثم بدت زنوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر ، ملتفة بوشاخ مرصع بالترتر ، أما رأسها فحاسر ، وأما شعرها فمجدول في ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها .. استقبلها واقفا باسماء متفائلا بالزينة التى تبدت فيها ، فحيته بابتسامة ، وأشارت إليه أن يجلس ، ثم جلست على الكنية التى تتوسط الجدار الذى إلى يمينه ، وهى تقول بصوت لم يخل من دهش :

— أهلا وسهلا ، أى مفاجأة !

فابتسم السيد متسائلا :

— من أى نوع يا ترى هذه المفاجأة ؟

قالت وهى ترفع حاجبها في حركة غامضة لم تنم عما إذا كانت ستتكلم جادة أم

ساخرة :

— سارة طبعاً !

ما دمنا قد أطينا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلياً أن نتحمل الدلال بكافة

أنواعه : ثقيله وخفيفه ..

تفحص جسمها ووجهها — فى هدوء — كأنما ينقب فيهما عما لوعه وعبث بوقاره ، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن ينبس ، ولكن فى حركة نمت عن تساؤل مشرب بأدب ، كأنما تقول له : « نحن فى الخدمة » .

فتساءل السيد فى مكر :

— هل يطول انتظارنا للسلطنة ؟. ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها ؟.

فحدجته بنظرة غريبة وهى تضيق عينها ، ثم قالت :

— السلطنة ليست فى البيت ..

فتساءل متظاهرا بالدهشة :

— أين هى يا ترى ؟

فقالت وهى تميز رأسها ، راسمة على شفتها ابتسامة غامضة :

— علمى علمك ..

فكر فى إجابتها قليلا ، ثم قال :

— ظننتها تطلعك على خط سيرها ؟.

فلوحت بيدها كالستنكرة ، وقالت :

— إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى !، وإن

شعت فأنت أحق منى بالاطلاع على خط سيرها !

— أنا ؟.

— لم لا ، ألسنت صديقها القديم ؟

قال ، وهو يحدجها بنظرة باسممة عميقة ناطقة :

— الصديق القديم والغريب سواء ، ترى هل يطلع أصدقاؤك القدماء على خط

سيرك ؟

رفعت منكبها الأيمن وهى تمط بوزها ، قائلة :

— ليس لى أصدقاء ، لا قدماء ولا حديثون ..

فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول :

— هذا كلام لمن لا عقل له ، أما من له ولو شىء من العقل فلا يتصور كيف

يمكن أن تكونى بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك ...

— إن هى إلا تصورات الكرماء أمثالك !، ولكنها لا تعدو التصورات الخيالية ،

الدليل على هذا أنك صديق قديم لهذا البيت ، فهل راق لك يوماً أن تبهني قسطاً من صداقتك ؟

قطب في ارتباك ، ثم قال بعد تردد :
 — كنت وقتذاك ، أعني أنه كانت ثمة ظروف ..
 ففرقت بأصابعها ، وقالت ساخرة :
 — لعلها نفس الظروف التي حالت بيني — يا عيني — وبين الآخرين !
 ألقى بظهره إلى مسند الكنية في حركة سريعة تمثيلية ثم مد نظره إليها من فوق أنفه العظيم ، وهو يهز رأسه كالمتعبد بالله منها ، ثم قال :
 — أنت عقدة ، وها أنا أعترف بأنني لا قبل لي بك !
 فدارت ابتسامة بعثها الشئ ، ثم تظاهرت بالدهشة ، وهي تقول :
 — لا أفهم مما تعنى شيئاً ، الظاهر أنك في واد وأنى في واد ، المهم أنك قلت إنك حثت لمقابلة خالتي ، فهل من رسالة أبلغها إياها عند عودتها ؟..
 ضحك السيد ضحكة قصيرة ، ثم قال :
 — قول لها إن أحمد عبد الجواد جاء ليشكوى إليك ، فلم يجده !
 — تشكوى أنا ! ، ماذا صنعت ؟
 — قولي لها إنني جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان !

— يا له من قول خليق برجل يجعل من كل شيء مادة للمزاح ودعابته !
 فاعتدل في جلسته ، وقال جاداً :
 — معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة ؟! إن شكواي صادقة ،
 ويغفل إلى أنك واقفة على سرها ، ولكنه دلال الحسان ، وللحسان الحق كل الحق في التدلل ، ولكن عليهن مراعاة الرحمة أيضاً .
 فمصصمت بشفتيها قائلة :
 — عجب !..

— لا عجب ألبتة !! أتذكرين ما كان بالأمس في دكان يعقوب الصائغ ؟ ، هل يستحق ذلك اللقاء الجاف من كان يعتز بمثل مودتي لكم وقدم عهدي بكم ، ؟
 وددت لو استعنت بي مثلاً فيما كان بينك وبين الصائغ ، ووددت لو أتحت لي

الفرصة كى أضع خبيرى فى خدمتك ، أو أن تتواضعى درجة أخرى فتسمحى لى بأن أنهض بالأمر كله كما لو كانت الأسورة أسورى أو كانت صاحبها صاحبتى !..
ابتسمت ، وهى ترفع حاجبها فى شىء من الارتباك ، ثم قالت باقتضاب :
— تشكر ..

تنفس الرجل تنفسا عميقا ملأ به صدره العريض ، ثم قال بخماس :
— مثلى لا يقنع بالشكر ، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه ، وأنت تقولين له : « على الله ؟ » ، الجائع يريد الطعام ، الطعام الشهى اللذيذ .
شيكّت ذراعها على صدرها وهى تتظاهر بالدهش ، ثم قالت ساخرة :
— أنت جائع يا سى السيد ؟ عندنا ملوخية وأرناب تستاهل فمك ..
وهو يضحك عاليا :

— عال ، اتفقنا ، ملوخية وأرناب ، تضاف إليها زجاجة ويسكى ، ثم نحلى بشىء من العود والرقص ، ونتمدد ساعة معاً حتى نهضم ..
فلوحت له بيدها كأنما تهتف به « إلى الراء » ، وقالت :
— الله الله ، سكتنا له دخل بحماره .. بعدك !
ضم أصابع يمينه الخمس ، حتى صارت كضم مزموه ، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة ، وهو يقول بلهجة وعظمية :
— يا بنت الحلال لا تضيعى الوقت الغالى فى الكلام ..
وهى تهز رأسها فى زهو ودلال :
— بل قل لا تضيعى الوقت الغالى مع الكهول !..
مسح السيد صدره العريض بكفه فى حركة توحى بالتحدى الباسم ، ولكنها هزت منكبيها ضاحكة ، وهى تقول :

— ولو ...
— ولو ؟ ، يا لك من طفلة ، حرام على النوم إن لم أعلمك ما يبغى أن تعلميه ، هاتى الملوخية والأرناب والويسكى والعود وزنار الرقص ، هيا .. هيا ..
ثنت سبابه يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر ، ثم أرعشت حاجبها الأيمن ، وهى تتسائل :

— ألا تخاف أن تكيسنا السلطانة على غفلة ؟

— لا تخافى ، لن تعود السلطانة الليلة ...

فحدجته بنظرة حادة مريبة ، وتساءلت :

— من أدراك بذلك ؟

انتبه إلى عثرة لسانه ، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك ، ولكنه تخلص منه قائلاً
في لباقة :

— السلطانة لا تبقى في الخارج حتى هذه الساعة إلا لضرورة تستدعى بقاءها
حتى الصباح !

جعلت تحدق في وجهه طويلاً دون أن تنبس ، ثم هزت رأسها في سخرية
ظاهرة ، ثم قالت بصوت ملىء بالثقة :

— يا لمكر الكهول ! ، يضعف فيهم كل شيء إلا مكرهم ! ، هل حسبتى
غفلانة ؟ ، كلا وحياتك ، إلى أعلم كل شيء ..

عاد إلى العبث بفردة شاربه في شيء من الضيق ، ثم سأها :

— ماذا تعلمين :

— كل شيء !

وتريث قليلاً لتزيد من ارتباكها ، ثم استطردت :

— أتذكر يوم جلست على قهوة سى على لتسترق النظر من نافذة القهوة ؟ ،
يومها عيناك حفرت جدار بيتنا من شدة النظر ! ، ولما ركبت العربة الكارو مع أفراد
التخت ساءت نفسى : ترى هل يتبعنا مهلاً وراءنا كما يفعل الصبية ؟ ، ولكنك
عقلت وانتظرت فرصة أحسن !

قهقه الرجل حتى اشتدت حمرة وجهه ، ثم قال بتسليم :

— اللهم اعف عنا ..

— ولكنك نسيت عقلك أمس ، عندما رأيته أمام خان جعفر فتبعته حتى
دخلت ورأى دكان يعقوب ..

— عرفت هذا أيضاً يا بنت أخت زبيدة ؟

— نعم يا زين العشاق ، بيد أنى لم أكن أتصور أنك ستدخل ورأى الدكان ،
ولكنى ما لبثت أن وجدتكم جالسا فوق الكنبه ولا عفريت النسوان نفسه ، ولما
تظاهرت بالدهشة لرؤيته كدت أطلق لسانى فيك بما قسم ، ولكن الموقف أملى

على الأدب ..

تساءل ضاحكا ، وهو يضرب كفا بكف :

— ألم أقل إنك عقدة ؟

فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز والسرور :

— وما أدري ليلة إلا والسلطانة تقول لي : استعدي ، إننا ذاهبان إلى عوامة محمد عفت ، فمضيت لأستعد ، ولكنني سمعتها تقول بعد ذلك : إن السيد أحمد هو الذي اقترح الدعوة ! لعب في عبى الفار ، وقلت لنفسي : السيد أحمد لا يقترح شيئا لوجه الله ، وفهمت القولة ، فلم أذهب معتلة بصداع !

— يا لي من مسكين ! ، وقعت في مغالب من لا يرحم ، هل عندك مزيد ؟ ..

— لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع ...

— ما أحلى هذا الكلام ! قلّد الوعّاظ ، يا أفسق خلق الله !

وهو يضحك عاليا :

— الله يسامحك ...

ثم متسائلا في سرور غير خاف :

— فهمت القولة هذه المرة أيضا ، ولكنك بقيت ، فلم تغادري البيت أو نخفي

نفسك ..

ونفض قبل أن يتم جملة فاتجه نحوها ، وجلس إلى جانبها ، ثم تناول طرف

الوشاح المرصع بالترتر فقبّله ، وهو يقول :

— اللهم إني أشهد بأن هذه المخلوقة الجميلة ألد من أنغام عودها ، لسانها

سوط ، وجها نار ، وعاشقها شهيد ، وسوف يكون لهذه الليلة شأن في التاريخ

كله ..

أبعدته عنها بكفها قائلة :

— لا تأخذني في دوكة ، هو ! ، عد إلى مجلسك ..

— لن يفصل بيننا شيء بعد الآن ...

جذبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلا ، ثم وقفت على بعد ذراع

منه تمنع فيه نظرا صامتا ، وكأنما تراجع نفسها في أمور ذات شأن ، ثم قالت :

— لم تسألني عما جعلني أتخلف عن الذهاب إلى العوامة — يوم دعانا محمد

عفت — بناء على اقتراحك ..

— كى تزيدي النار اشتعالا !!

ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة ، ثم صمتت مليا ، ثم قالت :

— فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة ، أليس كذلك يا زين الفساق ؟ .. ستظل الحقيقة سرا حتى أرى أن أفشيئه عندما يخلو لى ..

— أقدم حياتى ثمنا له .:

ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة ، ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة جاءت فى أعقاب سخرياتها ، كما يحيى الهدوء فى أعقاب زوبعة ، وبشر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد ، فاقتربت منه خطوة ومدت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجدله بعناية ، ثم قالت بنبرات لم يسمعها من قبل :

— إذا قدمت حياتك ثمنا لهذا ، فماذا يبقى لى أنا ؟

وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة فى العوامة ، وكأنما كان يفوز بامرأة لأول مرة فى حياته ، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين ، ثم قال بخنان وامتنان :

' — أنا نشوان يا ست الكل نشوان لحد يعجزنى عن الوصف ، دمت لى إلى الأبد ، إلى الأبد ، لا عاش من رد لك رجاء أو طلبا ، أتمنى نعمتك على وهى مجلسنا ، الليلة ليست كالليالى الأخرى ، وهى تستحق أن نحتفل بها حتى مطلع الفجر ..

قالت وهى تلعب بأناملها بين راحتيه :

— ليست هذه الليلة كالليالى الأخرى حقا ، ولكن ينبغى أن نقنع منها بالقليل ..

القليل ! ، هل ثمة صد بعد هذا اللطف كله ؟ ، لم يعد بك صبر .

مضى يربت كفيها ، ثم بسط راحتيها ، ونظر بافتتان فى لون الحناء الوردى الذى يصبغهما ، وما يدرى إلا وهى تسأله بصوت ضاحك :

— هل تقرأ الكف يا سيدنا الشيخ ؟

ابتسم ، وقال مداعبا :

— أنا من المشهود لهم فى قراءته ، ألتجئ أن أقرأ لك كفك ؟

أحنت رأسها بالإيجاب . فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهراً بالتفكير ، ثم قال باهتمام :

— في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك ..

تساءلت ضاحكة :

— في الحلال يا ترى ؟

ارتفع حاجباه وهو يعين النظر في كفها ، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح :

— بل في الحرام !

— أعوذ بالله ! ، ما عمره ؟

نظر إليها من تحت حاجبيه ، ثم قال :

— غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو في عنفوان الشباب ! .. فتساءلت بمكر :

— أهو كريم يا ترى ؟

آه ، لم يكن الكرم مما يركبك عندهن قديما .

— لم يعرف البخل قلبه ..

فكرت قليلا ثم عادت تتساءل :

— هل يرضيه أن أبقى كالتابعة في هذا البيت ؟

العجل وقع هاتوا السكاكين ..

— بل سيجعلك سيدة قد الدنيا ! ..

— أين يا ترى سأقيم في كنفه ؟

زبيدة نفسها لم تكلفك شيئا من هذا ، سيقولون فيك ويعيدون ..

— شقة جميلة ..

— شقة !؟ ..

عجب للهجتها المستنكرة ، فسألها داهشا :

— ألا يعجبك هذا ؟

قالت وهي تشير إلى راحتها :

— ألا ترى ماء يجرى ؟ .. انظر جيدا ..

— ماء يجرى !.. أتودين السكنى فى حمام ؟
 — ألا ترى النيل .. عوامة أو ذهبية !؟..
 أربعة جنيهات أو خمسة شهريا دفعة واحدة ، غير النفقات الأخرى ، آه ! ، لا
 تعتنقوا أولاد السفلة !..
 — لماذا تختارين مكانا بعيداً عن العمران ؟..
 اقتربت منه حتى مست ركبتيها ركبتيه ، وقالت :
 — لست دون محمد عفت جاهها ، ولست دون السلطانة حظا ما دمت تحبني
 كما تقول ، وفي وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك ، إنها حلمى فحققه لى ..
 أحاط وسطها بذراعيه ، ولبت صامتا ليستشعر فى هدوء مسها ولينها ، ثم قال :
 — لك ما تشائين يا أُملى ..
 فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخديه ، ثم قالت :
 — لا تظن أنك تعطى دون أن تأخذ ، اذكر دائما أنه من أجلك سأغادر هذا
 البيت الذى عشت عمرى فيه إلى غير رجعة ، واذكر أننى إذا أطالك بأن تجعلنى
 سيّدة فما ذلك إلا لأنه لا يلىق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقل من
 سيّدة ... !
 شددت ذراعاه حول وسطها حتى التصق صدرها بوجهه ، ثم قال :
 — إني أدرك كل شيء يا نظرى ، سيكون لك ما تحبين وأكثر ، أحب أن أراك كما
 تحبين أن ترى نفسك ، والآن هيئى لنا مجلسنا ، أريد أن أبدأ حياتى من الليلة ..
 أمسكت بساعديه ، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار ، وقالت برقة :
 — عندما نجتمع فى عوامتنا على النيل ..
 قال لها محذرا :
 — لا تثيرى جنونى ، هل تستطيعين أن تقاومى صولتى ؟
 فتراجعت وهى تقول بلهجة تجمع بين التوسل والإصرار :
 — ليس فى البيت الذى عملت فيه وصيفة ، انتظر حتى يجتمعنا المسكن
 الجديد ، مسكنك ومسكنى ، عند ذاك أكون لك إلى الأبد ، ليس قبل ذلك
 وحياتك عندي وحياتي عندك !..

« خير إن شاء الله » ..

هذا ما رده أحمد عبد الجواد في نفسه وهو يطالع ياسين مقبلاً نحوه في الدكان ... كانت زيارة غريبة وغير متوقعة ، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه ، يوم جاءه ليشاوره فيما ترامى إليه من اعتزام المرحومة أمه الزواج للمرة الرابعة ، والحق أنه أيقن أنه لم يجه لتبادل التحية والسلام ولا للحديث في شأن عادي مما يمكن أن يحدثه به في البيت ، أجل إن ياسين لا ينبغي إلى مقابلته في الدكان إلا لشأن خطير . صافحه ، ثم دعاه إلى الجلوس ، وهو يقول :

— خير إن شاء الله ..

جلس ياسين على كرسي قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه ، مولياً بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوي أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن ، ونظار إلى أبيه في شيء من ارتباك وكند حدسه ، فأغلق الرجل دفتره كأن يسجل فيه أرقاماً واعتدل في جلسته متأهباً لما يجيء ، وقد بدت إلى يمينه الخزانة نصف مفتوحة ، وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرياسة معلقة في الجدار تحت إطار البسملة القديم . ولم يكن قصد الدكان اعتباطاً ولكن عن تدبر وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله ، إذ أن وجود جميل الحمزاوي به ومن يتفقد وجودهم من الزبائن خليف بأن يجيء له درعا واقياً من الغضب إذا جاءت دواعيه ، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدم العمر والمعاملة الطيبة التي يحظى بها بوجه عام ..

قال ياسين بأدب بالغ :

— اسمح لي بقليل من وقتك الغالي ، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك ، ولكني لا يمكن أن أخطو خطوة دون استئارة برأيك ، واعتماد على رضاك ..
ابتسم باطن السيد أحمد هازناً من هذا الأدب الجم ، وجعل يتأمل فتاه الضخم الجميل الأنيق في حذر ، ملقياً عليه نظرة إجمالية شملت شاربه المجذول علي طريقته — هو — وبذلتة الكحلية وقميصه ذا البنيقة المنشبة والباليون الأزرق والمنشة العاجية والحذاء الأسود اللامع ، ولم يكن ياسين قد مس مظهره

— تأديبا في محضر أبيه — إلا في نقطتين ، فأخفى طرف منديله الحريري الذى يطل من جيب جاكته الأعلى ، وعدل طربوشه الذى يعوجه عادة إلى اليمين . يقول : إنه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استشارة برأيه !! مرحى .. هل استنار به وهو يسكر ؟ ، وهو يسبح على وجهه في وجه البركة الذى حرّمه عليه ؟ . هل استنار به ليلة وثب على الحارية فوق السطح ؟ . مرحى !! مرحى !! ماذا وراء هذه الخطبة المنبرية ؟

— طبعا ، هذا أقل ما ينتظر من رجل عاقل مثلك ، خير إن شاء الله ؟ .
التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوى ومن معه ، ثم قرب الكرسى من المكتب ، واستجمع شجاعته ، قائلا :

— اعترمت — بعد موافقتك ورضاك — أن أكمل نصف دينى ..
مفاجأة حقيقية ! . غير أنها مفاجأة سارة على غير ما توقع ، ولكن مهلا !!
لن تكون سارة حقا إلا بتروط ، فلينتظر حتى يسمع الأهم من الحديث !!
أليس ثمة ما يدعو إلى القلق ؟ ، بلى ! تلك المقامة البالغة في الأدب والتودد ، إنباره الدكان مكانا للحديث لدواء لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفطن ، أما الزواح في ذاته فطالما تمناه له ، تمناه حين ألمح على محمد عفت ليرد إليه زوجته ، وتمناه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وينت الحلال ، بل لعله لولا إشفافه من أن يخرج مع أصدقائه كما أخرج من قبل مع محمد عفت لما تردد من تزويجه مرة أخرى ، فلينتظر ! وعسى ألا يتحقق شيء من مخاوفه ..
— اعترام جميل أوافق عليه كل الموافقة ، فهل وقع اختيارك على أسرة معينة ؟
خفض ياسين عينيه لحظة ، ثم رفعهما قائلا :

— وجدت بغيتى ، بيت كريم خبرناه بطول الجوار ، وكان ربه من معارفك المحمودين ..

رفع السيد حاحيه منسائلا دون أن ينبس ، فقال ياسين :

— المرحوم السيد محمد رضوان !

— لا ... !

ندت عن السيد أحمد قبل أن يتألك نفسه ، نلت عنه في تأفف واحتجاج حتى شعر بأنه ينبغى أن يبرر تأففه واحتجاجه بسبب وجهه يدارى به حقيقة

مشاعره ، ولم يعوزه ذلك ، فقال :

— أليست كريمة مطلقاً ؟! . فهل ضاقت الدنيا حتى تتزوج من ثيب ؟! ..
لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض ، كان يتوقعه منذ اللحظة التى عزم فيها على
الزواج من مريم ، غير أنه كان قوى الأمل فى التغلب على معارضة أبيه التى لم يتصور
أن تكون إلا صدًى لتفضيل البكر على الثيب أو تجنباً لامرأة عسية بأن تذكره بمأساة
ابنه الراحل ، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين فى النهاية بهذين المأخذين
الواهيين ، بل كان يعتمد كل الاعتماد على موافقته فى التغلب على المعارضة الحقيقية
التي يتوقعها عند امرأة أبيه .. تلك المعارضة التى وفى أمام التفكير فيها حائراً حتى
خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كى يتزوج كما يحلو له مواجهها الجميع بالأمر
الواقع ، ولولا أن إغصاب أبيه كان فوق طاقته لفعل ، إلا أنه عز عليه أن يتجاهل
عواطف أمه الثانية — بل أمه الأولى — قبل أن يبذل قصاره لاستئثارها واقتناعها
برأيه ، قال :

— لم تضق بى الدنيا ، ولكنها القسمة والنصيب .. أنا لا أبحث عن المال أو
الجاه ، وحسبى الأصل الطيب والخلق القويم ..
إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقدة المؤسفة ، فهو صدق رأيه الذى لا
يكذب أبداً . هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان ، إنسان — أو حيوان — تسير
المتاعب بين يديه ومن خلقه ، ولو جاء نبأ سعيد أو زف إليه بشرى سارة لما كان
ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه ، لعله مما لا يعيبه ألا يبحث فى الزوجة عن المال أو
الجاه أما الخلق فمسألة أخرى ، ولكن البغل معذور ويبدو — وهذا طبيعى — أنه
لا يدرك شيئاً عن سيرة أم الفتاة التى يرومها زوجة ، تلك سيرة يعرفها هو وحده
معرفة الفاعل ، ولعل آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به ، فما العمل ؟! أجل قد تكون
الفتاة مهذبة ، ولكن من المؤكد أنها لم تظفر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة ، ومن
المؤسف أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه — ذاك — ما دام لا يسمعه أن يقرن القول
بالدليل ، خاصة وأنه رأى خليق بأن يقابل — ممن يسمعه لأول مرة — بالإنكار
والانزعاج ، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلحق إليه . فيدفع ياسين إلى البحث
والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو — أبيه — فتكون الفضيحة التى
ليس وراءها فضيحة .

المسألة إذن دقيقة حرجة ، ثم إن ثمة شوكة حادة تكمن في تضاعفها — هي — تاريخ قديم يتصل بفهمي ، ألا يذكر ياسين ذلك ؟ ، كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلع إليها قديما أخوه الراحل ؟ ، أليس هذا سلوكا بغیضا ؟ ، بل إنه كذلك وإن كان لا يشك في إخلاص الشاب لأخيه الراحل ، إن منطق الحياة القاسي يقيم عذرا لأمثاله ، إن الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك ! قطب الرجل ليشعره بتضايقه ، ثم قال :

— إن قلبي لم يرتح لاختيارك ، لا أدري لماذا ، كان المرحوم السيد محمد رضوان رجلا طيبا حقا ، ولكن الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته ، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظن بأحد ، كلا !! ولكنه كلام يقال ، ربما رده بعض الناس ، هه ؟ ، الأهم عندي أن الفتاة مطلقة ، لماذا طلقت ؟ ، هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها ، لا يصح أن تأمن مطلقة حتى تستقصي كل شيء عنها ، لعل هذا ما أردت قوله ، والدنيا ملأى بنات الناس الطيبين . قال ياسين متشجعا بأسلوب أبيه ، الذي اقتصر على النقاش والنصح :

— بحثت بنفسي وبواسطة آخرين ، فتبين لي أن الحق كان على الزوج ، إذ كان متزوجا وأخفى عنهم ذلك ، فضلا عن عجزه عن الانفاق على بيتين في وقت واحد وسوء خلقه !

سوء خلقه ! ، إنه يتكلم — بلا حياء — عن سوء الخلق ، البغل يمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة . قال :

— إذن فرغت من البحث والتقصي !

قال ياسين بحياء ، وهو يتهرب من عيني أبيه الحادتين :

— تلك خطوة بدئية ..

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه :

— ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أئمة لنا ؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه ، وهو يقول :

— لم يكن من الممكن أن يغيب عني هذا ، ولكنه وهم لا أصل له ، فإني أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا أياما معدودات ثم نسى نسيانا تاما ، وأكاد أجزم بأنه ارتاح فيما بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبته كما

توهم ..

ترى : أيقول ياسين الحق ، أم يدافع عن موقفه ؟ ، كان نحيي المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شغونه ، فليته كان صادقا ! ، أجل ، ليت له كان صادقا إذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوما عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقما عليه استبداده وتعنته ، تلك الآلام التى نهشت قلبه ، هل يريد ياسين أن يعفيه منها ؟

سأل ياسين بلهفة لم يقطن الشاب إلى عمقها :

— أأنت حقا على يقين مما تقول ؟ ، هل صارحك به ؟

ولثاني مرة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلا يوم مصرع فهمى ، وهو يقول له :

— كاشفنى الحقيقة عارية عن كل تخفيف ، الحقيقة الكاملة ، هذا يهمنى فوق ما تتصور ، (وكاد يعترف له بألمه ، ولكنه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه) .. الحقيقة الكاملة يا ياسين !

فقال ياسين دون تردد :

— إلى على يقين مما أقول ! ، خبرته بنفسى وسمعت به أذنى ، لا شك في ذلك مطلقا ..

في ظروف أخرى لم يكن هذا القول — ولا أبلغ منه — كافيا لإقناعه بصدق ياسين ، لكنه كان في الحق متعطشا إلى تصديقه ، فصدقه وآمن به ، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل . لم تعد مسألة الزواج — في تلك اللحظة على الأقل — مما يكرهه ، ولأذ بالصمت مليا هائجا بالسلام الذى غمر قلبه ، ورويدا رويدا مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال ، فعاد يفكر في مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله ، قال :

— مهما يكن من أمر فإنى أود أن تولى المسألة تفكيراً أعمق ، وحذراً أشد ، لا تتعجل ، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة ، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة ، وإلى على استعداد لأن أختار لك بنفسى مرة أخرى إذا وعدتني وعد رجل

صديق ألا تجعلنى أندم على تدخلى لما فيه صلاحك ، هه ؟ ، ما رأيك ؟ .
صمت ياسين متفكراً ، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف
بالخرج ، حقا أن الرجل يتحدث بحلم عجيب ، ولكنه لم يخف قلقه وعدم
ارتياحه . فإذا أصر على رأيه بعد ذلك فقد يجرحهما النقاش إلى شقاق غير
مستحب ، ولكن هل ينكص تفاديا من هذه العاقبة ؟ ، كلا ! لم يعد طفلا !
سيتزوج بمن يشاء كما يشاء ، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه ! . قال :
— لا أريد أن أجشمك تعباً جديداً ، شكراً لك يا بابا ، غاية ما أتمنى أن أحظى
بموافقتك ورضاك ..

لوح السيد يده في نفاد صبر ، وقال بلهجة لم تخل من حدة :

— تأنى أن تفتح عينيك على ما فى رأيى من حكمة ! ..

فقال ياسين برجاء حار :

— لا تغضب يا بابا ، أستحلفك بالله ألا تغضب ، إن رضاك بركة ، ولا أطيق

أن تضن على بها ، دعنى أجرب حظى وادع لى بالتوفيق ..

اقتنع أحمد عبد الجواد بأن عليه أن يسلم بالأمر الواقع ، فسلم به فى حزن
ويأس .. أجل ! ربما كانت مريم — رغم استهتار أمها — فتاة شريفة وزوجة
صالحة ، ولكن لا شك كذلك فى أن ياسين لم يوفق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا
أفضل البيوت .

الأمر لله ، مضى الزمن الذى كان يملئ فيه إرادته املاء فلا يجد راداً لها ، وياسين
اليوم رجل مسئول ولن ينجى من محاولة فرض رأيه عليه إلا العصيان .. فليسلم بالأمر
الواقع ، وليسأل الله السلامة ..

عاود النصيح والتبصير فلجأ ياسين كرة أخرى إلى الاعتذار والتودد حتى لم يعد
ثمة زيادة لمستزيد .. غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنه نال موافقة أبيه ورضاه ، على
أنه كان يعلم أن الأزمة الخطيرة حقا هى التى تنتظره فى البيت ، وكان يعلم أيضاً أنه
سيترك البيت حتماً ، لأن مجرد التفكير فى إمكان ضم مريم إلى الأسرة ضرب من
الجنون ، فرجاً أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقداً ، إذ لم يكن من
اليسير عليه أن يستهن بامرأة أبيه أو يتنكر لعهداها وفضلها عليه ، لم يكن يتصور أن
تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآله ، ولكن تعقدت الأمور

وضاقت السبل حتى لم يبق من منفذ إلا الزواج . والعجب أنه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التي رسمت للإيقاع به ، سياسة قديمة تلتخص في كلمتين : التودد والتمتع . ولكن الرغبة في الفتاة كانت قد تسربت إلى دمه ولم يعد بد من إروائها بأى سبيل ولو كان الزواج ، وأعجب من ذلك أنه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعا — عدا والده بطبيعة الحال — ولكن رغبته طغت فلم يصده ذلك عن فكرته أو يزهده فيها ، وقال لنفسه : لم أكرب قلبى على ماض فات لست مسعولا عنه ، سنبدأ معا حياة جديدة ، ومن هنا تبدأ مسؤوليتى ، وإن تقضى بنفسى لا حذ لها ، وإذا حدث أن خيبت ظنى نبذتها كما ينبذ الخداء البالى .. والحق أنه لم يستلهم فيما عزم فكره ولكنه استخدمه في تبرير رغبته الجائعة التي لا تزدرج ، فأقبل على الزواج هذه المرة كبديل من مخادنة امتنعت عليه ، غير أن ذلك لا يعنى أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذ ذريعة مؤقتة لقضاء لبانة ، فالحق أيضا أن نفسه — رغم تقلباتها التي لا تنفك عنها — كانت تهفو إلى حياة الزوجية والبيت المستقر ..

مر هذا كله بخاطره وهو متخذ مكانه — إلى جنب كمال — بمجلس القهوة ، ذلك المجلس الذى يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه ، ومضى يحيل طرفه بين كنباته وحصره الملونة والفانوس الكبير المدلى من سقفه في كثير من الأسى . وكانت أمينة مترعة كعادتها على الكنبه القائمة بين بلى حجرة نوم السيد وحجرة المائدة ، عاكفة على المحمرة رغم دفء الجو لتصنع قهوتها ، وقد تلفعت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجى ثم عن ضنورها ، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن ، كماء الشاطئ إذا استكن شف عما فى باطنه . شد ما شعر بالأسف والخرج وهو يأخذ أهيته للإفصاح عما فى ضميره ، ولكن لم يكن من الإفصاح بد ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يلحظ لها طعما :

— والله يا نينة لدى مسألة أريد أن أستشيرك فيها ..

وتبادل مع كمال نظرة دلت على أن الأخير على علم سابق بموضوع الحديث ، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقل عن اهتمام ياسين نفسه . قالت أمينة :

— خير يا بنى ..

قال ياسين باقتضاب :

— قررت أن أتزوج ..

فتجلى في عينها العسلتين الصغيرتين اهتمام باسم ، ثم قالت :

— خير ما قررت يا بنى ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر مما طال .

ثم لاحت في عينها نظرة متسائلة ، ولكنها بدل أن تفصح عن تساؤلها ، قالت
وكأنما تستدرجه إلى الاعتراف كأن ثمة سر :

— خاطب والدك أو دعنى أخاطبه ، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة
خيراً من الأولى ..

قال ياسين في رزانة بدت لها أكثر مما يستدعى الأمر :

— خاطبت أبى بالفعل ، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديداً لأنى
اخترت بنفسى ، وقد وافق أبى ، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضاً .

تورد وجهها حياءً وسروراً بما أولاها من أهمية ، فقالت :

— ربنا يوفقك إلى ما فيه الخير ، عجل حتى تعمر لنا الدور المهجور ، ولكن
من بنت الحلال التى قررت أن تتخذها زوجة ؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى ، ثم قال في عناء :

— جيران تعرفينهم !..

ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكر وهى تمد نظرها إلى لا شيء ، محركة سبابتها
: كأنما تحصى من فى مخيلتها من الجيران ، ثم قالت :

— إنك تحيرنى يا ياسين ، هلا تكلمت وأرحتنى !

قال وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :

— جيراننا الأقربون !.

— من ؟!

ندت عنها فى إنكار وانزعاج وهى تحملق فى وجهه ، فخفض رأسه وأطبق
شفتيه متجههم الوجه ، فعادت تقول بصوت متهدج ، وهى تشير بإبهامها إلى

الوراء :

— أولئك ؟! ، مستحيل ، هل تعنى ما تقول يا ياسين ؟!

فأجاب بالصمت المتجههم حتى زعقت :

— خبر أسود .. أولئك الذين شتموا بنا فى أجل مصاب ؟!

فلم يتالك أن هتف بها :

— أستحلفك بالله ألا ترددي هذا القول ، إنه وهم باطل ، ولو اقتنع به قلبي لحظة واحدة ..

— طبعاً تدافع عنهم ، ولكنه دفاع لا ينطلي على أحد ، لا تتعب نفسك في إقناعي بالجمال ، ياربي !! أى ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة ١٩ ، كلهم نقائص وعيوب ، فهل من فضيلة واحدة تبرر هذا الاختيار الجائر ؟ ، قلت إنك نلت موافقة أهلك ، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئاً ، قل إنك خدعته ..

قال ياسين بتوسل :

— هدئي روعك ، ليس أكره عندي من إغضابك ، هدئي روعك ولتتكلم في هدوء ..

— كيف أسمع لك وأنا ألتقي منك هذه اللطمة القاسية ١٩ ، قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحاً سخيفاً ، مريم ١٩ ، الفتاة المستهترّة التي تعرف من أمرها ما نعرف جميعاً .. هل نسيت تاريخها الفاضح ؟ .. هل نسيت حقاً ؟ ، أتريد أن نجيء بهذه الفتاة إلى بيتنا ١٩ ؟

قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب والاضطراب :

— لم أقل هذا قط ، هذا أمر لا أهمية له ، المهم عندي حقاً أن تنظري إلى المسألة كلها نظرة جديدة خالية من التحامل ..

— أى تحامل يا هذا ١٩ ، هل ادعيت عليها بالباطل ؟ . تقول إن أباك وافق ، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز ؟ ، ماذا جرى لأولاد الناس الطيبين يا ربي ١٩ ؟

— هدئي روعك ، دعينا نتحدث في هدوء ، ماذا يجدي هذا الهياج ١٩ ؟

صاحت بحدة لم تكن من طباعها في الزمن الأول :

— إن روعي لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلق بالكرامة :

ثم بصوت باك :

— وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالي .

ياسين وهو يزدرد ريقه :

— أختي ؟ ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، إن هذا الأمر لا يمس ذكراه في أى

شيء ، صدقيني فإنني أدري بما أقول ، لا تقلقي مرقده !
 — لست أنا التي أقلق مرقده ، إنما يقلق مرقده حقا أخوه الذي يتطلع إلى هذه
 الفتاة ، أنت تعلم هذا يا ياسين !! ولا تستطيع أن تنكره ..
 ثم في أنفعال شديد :
 — لعلك كنت تتطلع إليها حتى في ذلك الزمن البعيد !
 — نينة !!

— لم تعد لي ثقة في شيء ، كيف تبقى لك ثقة في شيء بعد هذا الغدر ؟! هل
 ضاقت الدنيا وأقفرت حتى لم تجد من فتياتها زوجة إلا الفتاة التي أدمت قلب
 أخيك ؟ ، ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصة الجندي
 الإنجليزي ؟! ..

بسط ياسين ذراعيه في توسل ، قائلا :
 — فلنؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر ، سأثبت لك فيما بعد أن المرحوم ليبي
 نداء ربه وليس في قلبه أي أثر لهذه الفتاة ، أما الآن فلم يعد الجو صالحا للكلام ..
 صاحبت به غاضبة :
 — هيات أن يصلح عندي جو لهذا الكلام ، إنك لا ترعى ذكرى فهمي .. !
 — ليتك تتصورين ما يحدثه في كلامك من حزن !
 صاحبت ، وقد بلغ بها الغضب منتهاه :
 — أي حزن ؟! ، إنك لم تحزن على أخيك ! ، من الغباء من حزن عليه أكثر
 منك !

— نينة ..!
 وهم كمال بالتدخل في الحديث ، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها ، وهتفت :
 — لا تدعني نينة ، لقد كنت لك أما حقا ، ولكنك لم تكن لي ابنا ولم تكن
 لابني أخا !
 لم يعد يحتمل البقاء ، فنهض محزونا مكثبا ، وغادر الصالة إلى حجرته ، وما
 لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزنا وكآبة فقال له :
 — ألم أحذرك ؟!
 فقال ياسين مقطبا :

— لن أبقى في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن !..

فقال كمال بجزع :

— يجب أن تعذرها ، أنت تعلم أن والدتي لم تعد كما كانت ، إن أبى نفسه يغضى عن بعض هفواتها أحيانا ، ما هى إلا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها ، هذا رجائى إليك ..

قال ياسين ، وهو يتنهد :

— لن أحاسبها يا كمال ، لن أبيع جميل الأعوام بإساءة ساعة ، إنها معذورة كما قلت ، ولكن كيف أطلعها بوجهى صباح مساء ، وهذا ظننا لى ؟
ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكابة :

— لا تصدق أن مريم أدمت قلب المرحوم ، لقد استأذن المرحوم يوما فى أن يخطبها فرفض أبوك ، وتناسى المرحوم الأمر حتى نسيه فانهى كل شىء ، فما ذنب الفتاة فى ذلك ، وما ذنبى أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ ؟

قال كمال برجاء :

— لم تعد الحق فيما قلت ، وسوف تقتنع نينة به عاجلا ، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء فى البيت مجرد هفوة لسانية ..
فقال ياسين وهو يهز رأسه فى حزن :

— أنا أول من يعز عليه هجر هذا البيت ، ولكنى سأتركه عاجلا أو آجلا ما دام انتقال مريم إليه مستحيلا ، فلا تنظر إلى مسألة ذهابى إلا من هذه الزاوية ، سأنتقل إلى بيتى بقصر الشوق ، ومن حسن الحظ أن شقة أُمى لا تزال خالية ، وسأقابل والدى فى الدكان وأوضح له أسباب ذهابى متحاشيا كل ما يعكر صفوه ، لست غاضبا ، سأترك البيت أسفا عليه كل الأسف ، أسفا على فراق أهله وأولهم نينة ، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها فى وقت قريب ، ليس فى هذه الأسرة قلب أسود ، وقلب والدتك أنصعها بياضا .:

ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه ، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه ، وتردد قليلا قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه ، فالتفت إلى كمال ، وهو يقول :

— سأتزوج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير ، ولكنى — علم الله —

مقتنع كل الاقتناع بأنى لم أسىء إلى ذكرى فهمى ، أنت أعلم يا كمال بما كان من حبي له ، كيف لا ؟ ، إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج ، فهو أنا ... !

٩١

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثم انصرفت . كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيد محمد رضوان لأول مرة في حياته ، وكانت الحجرة — على طراز الحجرات ببيت أبيه — واسعة الأركان ، مرتفعة السقف ، فيها مشربية تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان تطلان على العطفة الجانبية التي يفتح عليها مدخل البيت ، وقد فرشت أرضها ببسط صغيرة ، واصطفقت في جوانبها الكنبات والمقاعد ، وأسدت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رمادى باهت من القدم ، وعلى الجدار المواجه للباب علفت البسملة في إطار أسود كبير ، بينما توسطت الجدار الأيمن — فوق الكنب الرئيسية — صورة للمرحوم السيد محمد رضوان تمثله في أوسط العمر ..

اختار ياسين أول كنبه صادفته إلى يمين المدخل ، فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيد محمد رضوان الذى بدا وكأنه يبادل النظر بعيني مريم ! . ابتسم ابتسامة راضية وراح ينش لا شيء بمنشته العاجية ... ثمّة مشكلة قد واجهته مذ فكر في المجيء لخطبة مريم ، هى خلو البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه . ، فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة — على حد تعبيره — الأمر الذى أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة ، غير أنه كان مطمئنا من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بد وأن تكون قد مهدت له السبيل عند أمها ، بحيث أن مجرد إعلان زيارته سيثبى بما جاء من أجله ، ومن ثم يهيب له جوا طيبا لإنجاز مهمته .

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة ، فوضعتها على المنضدة أمامه ، وتراجعت وهى تحبوه بأن ستها الكبيرة في الطريق إليه .. وستا الصغيرة ترى هل علمت بحضوره ؟ ، وما صدق ذلك في نفسها الرقيقة ؟ ، سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق ، ولتفعل بنا القوة ما تشاء ! ، من كان يظن لأمانة هذه القدرة على

الغضب ؟، كانت في وداعة الملاك . قاتل الله الحزن !! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكان بأنه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه . ترى : هل تطلعه أمينة على تاريخ مريم ؟، غضب الشكلي شيء مخيف ، ولكن كمال وعد بأن يحملها على السكوت .. في قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة في هذا الجو العاصف !! هو موت الفكهاني وحلول ساعاتي محله ، إلى القبر !.. سمع نحنة عند الباب ، فاتجه بصره إليه وهو ينهض ، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهي تدخل بجنبها ، إذ أن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها ، ولمح عن غير قصد الخطوط التي تحد تفاصيل جسمها الجسيم ، فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التي كادت قممها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذها ، فكأنها كرة منطاد !! وأقبلت نحوه في خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم ، ثم مدت له يداً بضّة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض ، وهي تقول :

— أهلا وسهلا ، شرفت ونورت ..

فصافحها ياسين بأدب ، ولبث واقفا حتى جلست على البكنبة المجاورة . فجلس .. كان يراها عن كذب لأول مرة ، إذ أن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم في السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها — كما يفعل مع غيرها من النساء — كلما لمحها عن بعد في الطريق ، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد . وكانت ترتدي فستانا قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين ، وحتى القدمان وارتبها في جورب أبيض رغم دفء الجو ، بينما امتد كماً الفستان على ذراعها وساعديها حتى المعصمين ، ولفت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت في احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذي قارب الخمسين — فيما علم — وإن تبدت في صحة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب . ولاحظ فيما لاحظ أنها تطلعه بوجه طبيعي لم يمسه زخرف أو زواق رغم ما عرف عنها من حب التبرج وإتقان التزين ، الأمر الذي نصبها من قديم مرجعا لكل ما يتعلق بالذوق النسائي من ملابس وزواق في الحى كله . وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلما عنّ لأحد أن ينتقد إفراطها في التبرج ، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب في

السنوات الأخيرة رامية إياها بقله الحياء وتجاهل ما يستوحبه عمرها من احتشام .
— حطوة عزيزة يا ياسين أفندى ..

— الله يكرمك !!

كاد ينختم جملته بقوله « يا تيزة » ولكن إحساسا غريزيا خوَّفه في اللحظة الأخيرة من النطق بها ، خاصة وأنه لاحظ أنها لم تدعه ييا « ابني » كما كان المنتظر ، وعادت المرأة تسأل :

— كيف حالكم ؟ ، والدك وأم فهمي وخديجة وعائشة وكال ؟

أجاب ، وهو يشعر بخياء لسؤالها عن الذين ناصبوا العداء بلا سبب وجيه :
— كلهم بخير ، سألت عنك العافية ..

لا شك أنها تفكر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في بيت أبيه ثقب وفاة فهمي فاضطرها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كله . ياله من جفاء !! بل يا لها من عداوة صامتة !! لم يكن إلا أن أعلنت امرأة أبيه يوما أن « شعورها » يتحدثها بأن مريم وأمها لم يصدقا في حزنهما على فهمي !. لم كفى الله الشر ؟. قالت إنه من غير المعقول أن يكون رفض السيد لخطبة مريم لم يبلغهما في حينه عن طريق أو آخر أو حتي استنتاجا ، ومن غير المعقول أن يعلما به ولا يضطغناهم عليهم !. ورددت كثيرا أنها سمعت أن مريم تندب فهمي في المأتم فتقول : « أسفى على شبابك الذى لم تتمتع به » فترجمتها إلى « أسفى على شبابك الذى وقف أهلك فى سبيله فلم تتمتع به ! » . وزادت على ذلك ما شاء لها حزنها وفهرها ، ولم تنفع معها حيلة في تحويلها عن « شعورها » ، وسرعان ما تغير سلوكها نحو مريم وأمها حتى كانت القطيعة !.. قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والخرج :

— لعن الله الشيطان !.

فقالت بهيجة مؤمنة على قوله :

— ألف لعنة !.. طالما ساءلت نفسى عما جنيت حتى الآن ما لاقت من

الست أم فهمي ، ولكنى أعود فأدعو لها بالصبر .. المسكينة !

— جزاك الله كل خير على نبل خلقك وطيبة قلبك ، حقا إنها مسكينة وفى

حاجة إلى الصبر !!

— ولكن ما ذنبى أنا ؟!

— لا ذنب لك ، إنه الشيطان لعنة الله عليه ..

هزت المرأة رأسها هزة الضحية البريئة ، وصمتت قليلا ، حتى حانت منها التفتاة إلى فنجال القهوة الذى بدا كالمنسى على صينية القهوة ، فقالت وهى تومىء إليه :

— ألم تشرب قهوتك بعد ؟

فرفع ياسين الفنجال إلى فيه ، وحسا الحسوة الأخيرة ، ثم أعاده إلى الصينية ، وتحنح قليلا ، ثم أنشأ يقول :

— شد ما ساءنى ما انتهت إليه صداقة الأُسرتين ، ولكن ما باليد حيلة ، على أى حال ينبغي أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن ، والواقع أننى لم أكن أحب أن أتير أسيف الذكريات ، فما لهذا جئت ، إنما جئت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة ..

هزت المرأة رأسها هزة كأنما تطرد الذكريات الأسيفة ، ثم ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد ، كانت تهز رأسها وابتسامتها كآلة الموسيقى المصاحبة للمغنى إذا غرت عزفها تمهيدا لدخول المغنى فى طبقة جديدة من النغم ، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة :

— أنا نفسى لا تخلو حياتى من ذكريات أسيفة تتصل بنحياتى الماضية .. أعنى تجربتى الأولى فى الزواج الذى لم يوفقنى الله فيه إلى بنت الحلال ! ، ولكنى لا أريد أن أرجع إلى ذلك ، الواقع أننى جئت بعد أن عزمتم — متوكلا على الله — على فتح صفحة جديدة مستبشراً الخير كله فيما اعتزمت ..

التقت عيناهما على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل .. ترى : هل كان موقفا فى الإشارة إلى زواجه الأول ؟. ترى ألم يترام إلى سمع هذه المرأة شيء عن الأسباب الحقيقية لفشل ذلك الزواج ؟ لا تشغل بالك ، إن ملاحظتها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حد ، ملاحظتها الجميلة !! أليس كذلك ؟. بلى ، لولا فارق السن لكانت أجمل من مريم ، كانت بلا مراء أجمل من مريم فى شبابهها الزاهب ... كلا ! إنها أجمل من مريم رغم فارق السن ..! إنها لكذلك !..

— أظنك فطنت إلى مقصدى ، أعنى إلى أننى جئت طالبا يد كرىمتك مريم هاتم ..

أضياء الوجه الرقراقى ابتسامة بثت فيه حيوية جديدة ، وقالت :
— لا يسعنى إلا أن أقول أهلا وسهلا ، نعم الأسرة ونعم الرجل ، أمس أوقعنا
سوء الحظ فيمن لا خلاق له ، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقا بإسعادها ،
وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده ، ونحن — مهما فرق بيننا سوء التفاهم —
أسرة واحدة من قديم الزمن ..

اغبط ياسين حتى راحت أصابعه تسوى الباييون بلمسات سريعة غير
مقصودة ، ثم قال وقد تورد وجهه الأسمر الجميل :

— أشكرك من صميم قلبى ، جزى الله عنى لسانك الحلو ، نحن أسرة واحدة كما
قلت رغم أى شىء ، ومريم هاتم فتاة يزدان بها حيننا كله أصلا وخلقا ، أرجو أن
يعوضها الله من صبرها خيرا وأن يعوضنى بها من صبرى خيرا .

غمغمت « آمين » وهى تنهض ، ثم أقبلت بحسبها المفتخر نحو المنضدة ،
فتناولت صينية القهوة وهى تنادى باسمينة ، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادم
الذى جاءت على عجل ، ولقت عنقها فجأة لتقول له « آتسنا » فباغتته وهو
يحملق فى رديها الثقيلتين ! ! . وشعر لتوه بأنه « ضبط فى حالة تلبس » فبادر
بخفض عينيه ليوهمها بأنه كان ينظر إلى الأرض ، ولكن بعد فوات الأوان ! ! . وارتبك
وجعل يسأل نفسه عما عسى أن تظن به ، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى
مجلسها فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنما تقول له « رأيتك » . لعن عينيه
اللتين لا تعرفان الحياء ، وتسأل عما يمكن أن يكون قد دار فى رأسها .. أجل إنها
تحاول أن تبدو كأنها لم تر شيئا ، ولكن هيئتها — بعد ابتسامتها — تقول له أيضا
« رأيتك ! » . لينس الهفوة فهذا خير حل ، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يوما
ما ؟ متى يحىء هذا اليوم ؟ ! ! . للألم مزايلا لا يجود بها الزمان إلا فى النادر ، يا لها من
امراة ! ! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هى أن يمزق الصمت ،
قال :

— إذا حاز طلبى القبول ، فستجدنى رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة ..
ضحكت ضحكة قصيرة ، فبدا وجهها فى إشراقها لطيفا شابا ، وقالت :
— كيف لا يجوز القبول يا ياسين أفندى ؟ ! . أصل وجوار على رأى المثل ..
قال ، وقد تورد وجهه :

— إنك تأسريني بلطفك !
— ما عدوت الحق ، والله شهيد !
ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير :
— هل تمت موافقة البيت ؟
تجلت في عينيه نظرة جد لحظة ، ثم ضحك ضحكة فاترة من أنفه ، وقال :
— دعينا من البيت وسيرته !
— لم كفى الله الشر ؟
— ليس البيت على ما يرام !
— ألم تشاور السيد أحمد ؟
— أئى موافق ..
فضربت يدا على يد ، وقالت :
— فهمت ، أم فهمى ؟! أليس كذلك ؟! إنها أول من تبادر إلى ذهني وأنت
تفاتحنى بالموضوع ، طبعاً لم توافق ، هه ؟ ، سبحان الذى لا يتغير ، امرأة أهلك
امرأة غريبة !
هز كتفيه استهانة ، وهو يقول :
— لا يقدم هذا ولا يؤخر ..
قالت متشككية :
— طالما ساءلت نفسى عما جنيت ؟ ، أى إساءة أسأت بها إليها !
— لا أحب أن أقدم على حديثنا حديثاً آخر لا يجنى منه الإنسان إلا وجع
الدماع ، ليكن ظنها ما يكون ، المهم أئى ماض إلى هدى ، ولا يعينى إلا موافقتك
أنت ..
— إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك ..
— شكراً .. لدى بيتى بقصر الشوق بعيداً عن الحى كله ، أما بيت أئى فقد
غادرته من أيام ..
ضربت صدرها بيدها هاتفه :
— طردتك !
قال ضاحكاً :

— كلا لم يبلغ الأمر إلى هذا الحد ، المسألة وما فيها أن اختياري آلمها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أختي (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى) ، ومع أنني لم أجد في معارضتها وجه حق مقنع ، فإنني رأيت من اللياقة أن أعد للزوجية بيتا جديدا ..

سألته ، وهي ترفع حاجبيها وتهز رأسها فيما يشبه الشك :

— لم لم تنتظر في بيتك حتى يمين ميعاد الزواج ؟

فضحك ضحكة تسليم ، وقال :

— آثرت الانتعاد خوفا من تقادم الخلاف !

فقلت كالمتهكمة :

— ربنا يصلح الحال ..

وقامت مرة أخرى قبل أن تتم جملتها ، فالتجعت إلى النافذة المطلة على العطفة الجانبية وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كاف لإضاءة الغرفة ، وجد نفسه على رغمة وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبة . رآها وهي تعتمد على الكنية بركبتها ثم تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعها فرأى منظرا عجبا ترك في نفسه أثرا داما . تساءل وهو يشعر بجفاف حلقة : لم لم تدع الخادم لتفتح النافذة ؟ ، كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظره — اللذين باغتهما منذ قليل في حالة « تلبس » — هذا المنظر الذي لا يخفى عنها مغزاه ؟ ، لم وكيف وكيف ولم ؟ . كان فيما يتصل بالنساء مرهف الحس سيء الظن ، فلاح له شيء كالشك يتردد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يخفى ، ولكنه بادر فأغمض عينيه متأثرا بخطورة الموقف . إما أن يكون مجنونا وإما أن تكون — هي — المجنونة ، أو لا هذا ولا ذاك ؟ . من له بمن يتشله من حيرته ! . استقام حسمها المائل ، فوقفت ، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها . فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة — قبل تحولها — متظاهرا بالاستغراق في تفحصها ، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنية طقطقة تنبيه يجلوها ، وعند ذاك التقت عيناهما ، فرأى في عينها نظرة باسمة مأكرة أشعرته بأنه لم تحف عنها خافية ، وكأنها تقول له بأفصح لسان « رأيتك ! » . لبث حيناً مضطرب النفس والخاطر ، ولم يكن على بينة من شيء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرض

نفسه أمامها للاتهام ، وبداله أنه سيخاسب على كل حركة تدر منه ، وأن أى هفوة قد تنقلب فضيحة .

— ما زال الجو مائلا إلى الحرارة والرطوبة ..

جاء صوتها هادئا طبيعيا ، ودل — إلى ذلك — على رغبتها في إزاحة الصمت ، فقال بارتياح :

— أجل إنه كذلك ..

عاودته الطمأنينة ، غير أنه ما لبث أن تخايل لعينيه المنظر الذى رآه عند النافذة ، وجد نفسه على رغمه يجتثره ويثبه في جاذبيته ، ويتمنى لو كان عثر على مثله في إحدى مغامراته . لو كان لمرم مثل هذا الجسم ! . ألا في مثله فليتنافس المتنافسون . ولعلها ظنته — لصمته — لا يزال مشغولا بما أثارته من حديث خلافه مع امرأة أبيه ، فقالت فيما يشبه الدعابة :

— لا تشغل بالك ، لا شئ في هذه الدنيا يستحق شغلة البال !

ثم لوحث يديها ورأسها — واهتز جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصة — كأنما لتحثه على الاستهانة بالهموم ، فابتسم مطاوعا وهو يغمغم : « نطقت بالحق » . غير أنه كان يبدل قصاراه لملك نفسه . أجل فقد حدث أمر جلل . لم يكن في ظاهره إلا تلك الحركة الشاملة التى أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحته عليها ، إلا أنها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار ، وقد نددت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمت طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى ؟ . لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديرة حقا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم ! . أى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر ، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيدة مصون ! ، ولم يكن إزعاجه إلا لحظة عابرة ، فسرعان ما حل محله إحساس بسرور شهوانى ماکر ، وراح يتذكر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل ، على زنوبة ؟ . جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببیت آل شوكت ؟ . آه .. هذه هى ! . وخيل إليه أنها رغم سننها أشهى من مريم وألد ، وغلبته فطرته فحدثه نفسه بأن يجس النبض وألا يقف إن أمكن عند حد ! . وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره ، وبأنه سيسلك طريقا وعرا لم

يطرق من قبل ، ولكنه لم يعتد يوما أن يزجر النفس عن هوى .. أين يتأدى به هذا السلك ؟. هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها !. كلا ! إنه لا يضمر ذلك قط ، ولكن تصوروا كلبا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعفف ؟.. يبد أنها مجرد أفكار وتخيلات وفروض ! فلا تنتظر !.. وتبادلا ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما ، أما ابتسامتها فكانت فيما بدا تحية مضيف لضيف ، وأما ابتسامته فقد انفغمت على فم حائر بهمسات الاعتداء المخبث .

— نورت بيتنا يا ياسين أفندى ..

— يا ستي بيتك لا ينقصه النور ، أنت تنورين البلد وما فيها ..

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء ، وهي تتمم :

— الله يكرمك يا ياسين أفندى !..

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمى موعدا آخر لمواصلة الحديث ، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن في الانصراف .. بل راح يحدجها بنظرات ربية تطول حيناً وتقصر حيناً دون انقطاع وفي صمت مرب . النظرات معان لا تخفى على ذى عينين ! لا بد من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتى يرى رد الفعل .. اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط أللنبي ، خذى هذه النظرة النارية وخبريني إن كنت صادقة عن أى مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يدعى براءتها ؟. انظر ها هي ترفع عينها وتخفضهما كالشاردة وعلى حال بينة من الفهم المريب ، تستطيع الآن أن تقول إن الفيضان وصل إلى أسوان وأنه لا مناص من فتح الخزان ، وأنت تخطب إليها ابنتها ؟ مجنون من لا يؤمن بالمجنون بعد اليوم ، أنت الآن أشهى شئ إلى نفسى ، وليكن بعد ذلك الطوفان .. منظره لا يوحى باليأس أبدا !

— هل تقيم في قصر الشوق بمفردك ؟

— نعم ..

— قلبي عندك ..

جملة قد تصدر عن شيطان ، وقد تصدر عن ملاك ، ترى هل تنصت مريم الآن وراء الباب ؟

— أنت جربت الوحدة بنفسك في بيتك هذا ، إنها شئ لا يحتمل !..

— حقا لا يحتمل !

وفجأة امتدت يدها إلى خمارها فنزعته من حول رأسها وعنقها وهي تقول كالمعتذرة « لا تؤاخذنى الدنيا حارة » . فبدأ رأسها فى منديل يرتقالى وأسفر عنقها الوضىء . رنا إلى عنقها مليا فى قلق متزايد ، ثم لحظ الباب كالمستائل عمن عسى أن يكون رابضا وراءه .. أغيثوا الذى جاء بخطب البنت فوقع فى الأم . وقال ردًا على اعتذارها :

— خذى راحتك ، أنت فى بيتك ، ولا غريب فى البيت ..

— ليت أن مريم كانت فى البيت لأزف إليها الخبر !

خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم ، وتساءل :

— وأين هى ؟

— عند جماعة من معارفنا فى الدرب الأحمر .

وداعا يا عقلى ! . خاطب بنتك يريدك وأنت تريدينه ، ليرحم الله من يحسنون الظن بالنساء ، لا يمكن أن يكون فى رأس هذه المرأة عقل ، جارة العمر ولا تعرفها إلا اليوم ! .. مجنونة .. مراهقة فى الخمسين ! ..

— متى تعود مريم هائم ؟

— قبيل المساء ..

قال بحبث :

— أشعر بأن زيارتى قد طالت ..

— لم تطل زيارتك ، أنت فى بيتك ..

فسألها بحبث أيضا :

— ترى هل أطمع فى أن تردى لى الزيارة ؟

فابتسمت ابتسامة عريضة ، كأنما تقول له « إلى أدرك ما وراء هذه الدعوة » ، ثم أطرقت فى حياء وإن لم يغب عنه ما فى حركتها من تمثيل ، ولكنه لم يبالها ، وراح يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقته من البيت ، وهى مطرقة صامتة بآهة . ترى ألم تشعر بأنها تسىء إلى ابتها أبلغ إساءة ، وأنها تعتدى عليها أنكر اعتداء ؟ !

— متى تنكرمين بالزيارة ؟

غمغمت وهى ترفع وجهها :

— لا أدرى ماذا أقول !
 فقال بتوكيد وثقة :
 — أقول أنا بالنسبة عنك ، مساء الغد ، ستجدينى فى انتظارك !
 — ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها !
 — سنعمل حسابها معا .. فى بيتى !
 وقام من فوره وهم بأن يتقدم نحوها ، فأشارت إليه وهى تلتفت نحو الباب
 محذرة ، ثم قالت وكأنها لا تقصد إلا التفادى من صولته :
 — غدا مساء .. !

١٢

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة . كانت إذا نشر الظلام ستاره ،
 تتلفع بملاءتها ، وتمضى إلى الجمالية ، فىلى بيت هنية .. وهنالك تجد ياسين فى
 انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة فى الشقة . ولم يجز لمريم ذكر بينهما إلا حين
 قالت له مرة :
 — لم أستطع أن أخفى عن مريم نبأ زيارتك ، لأن خادمتنا تعرفك ، ولكنى قلت
 لها : إنك فأنحتى برغبتك فى خطبتها بعد تذليل العقبات التى تعترض سبيلك فى
 محيط الأسرة !

ووجد نفسه مذهولا عن مناقشتها ، فأبدى موافقته واستحسانه . واستقبلا معا
 حياة حافلة بالمتع ، وجد ياسين ذات « الكنز » ملبية بين يديه ، فانطلق انطلاق
 الجواد الجامح ، ولم تكن الحجرة التى أثبت على عجل واقتصاد بالمكان الصالح
 لمطارحة الغرام ، ولكنه لم يأل عن تهيئة الجو الخلاب بتوفير الطعام والشراب حتى
 يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذلك النهم الغريزى الذى لا يعرف حدا أو
 اعتدالا . وما لبث أن أدركه الملل قبل أن يتم الأسبوع الأول دورته . هى نفس
 الحلقة التى تدور فيها شهوته حتى غدا الدواء نوعا من الداء بيد أنه لم يؤخذ على
 غرة ، كلا ! . ولم يضر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادىء الأمر أى نية حسنة ولا
 قدر لها أى دوام ، بل لعله لم يبلغ من وراء المغازلة فى حجرة الاستقبال إلا ضجعة
 عابرة ، غير أنه وجد من المرأة تعلقا به وحرصا عليه وأملا فى أن يكون قنع بها راضيا

وعدل عن مشروع الزواج ، فلم ير بدا من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمنا بأن الزمن وحده كفيل بإرجاع كل شيء إلى أصله ! . وما أسرع أن رجع كل شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو ، بل ربما أسرع مما قدر ، وكان جاراها وهو يظن أن جدة محاسنها خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهرا ، ألا يارما كذب الظن ! .. أما عن مظهرها الشهى فبحسبه أن جعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالحماقات ، ولكن الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء تورد الخدين الكاذب ، وإن القناطر المنقطرة من اللحم البشرى المتحبكة تحت طيات الثياب — على حد قوله — غيرها إذا تجردت للعيان ، وليس كاللحم البشرى مسجل لأثار العمر الحزينة ، حتى قال لنفسه « الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس ! » لم يكن عجيبا بعد ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه أنها « مرض » ، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها . وعادت مريم — بعد محمود النزوة الجنونية — إلى سابق مكانتها من نفسه ، كلا ، لم تكن بارحتها ، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر ، عجبا ! لم تعد رغبته في مريم بمجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها ، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدها مصيرا محبوبا ومرغوبا فيه أيضا ! . واستوصى بالصبر — كارها — على أن تثوب بهيجة إلى رشدتها ، أن تقول له يوما « حسينا لعبا وهلم إلى عروسك » ولكنه لم يجد لأمله صدى في نفسها ، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى ، وما تزداد إلا إغراقا وتهالكا ، وشعر بأنها تمتلئ مع الزمن إيمانا بحقها عليه كأنه بات محور حياتها وملك يمينها .

أجل ! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو ، وإلى هذا تكشففت نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقنعتة جميعا بأن سلوكها الشاذ معه في أول مقابلة لم يكن أمرا مستغربا ، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها في عينيها الزايرتين حتى ضاق بها كل الضيق وصمم على التخلص منها في أول فرصة تسنح ، وإن حرص على تجنب الفظاظلة أن تبعثر العراقيل في طريق مريم . قال لها مرة :

— ألا تتساءل مريم عن سر اختفائي ؟

فقلت وهي تطمئننه بحركة من رأسها :

— إنها على بينة من معارضة أسرتك .

فقال بعد تردد :
 — أصارحك بأننا كنا نتحدث أحيانا فوق السطح ، وإني ردّدت لها مرات
 بأنني مصمم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين .
 فحدجته بنظرة نافذة ، وهي تتساءل :
 — ماذا تريد ؟
 قال متظاهرا بالبراءة :
 — أريد أن أقول إنها سمعت منى ذلك التوكيد ، وأنها علمت بعد ذلك بزيارتك
 لك ، فينبغي أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائي !..
 فقالت بغير مبالاة أدهشته :
 — لن يضيرها ألا تقتنع ، فليس كل كلام بمفض إلى خطبة ولا كل خطبة
 بمفضية إلى زواج ، إنها تعلم علم اليقين ..
 ثم بصوت منخفض :
 — ولن يضيرها أن تفقدك ، إنها شابة في عز جمالها ، ولن تعدم خاطبا اليوم أو
 غدا !..

كأنها تعتذر عن أنانيتها ، أو تلمح إلى أنها هي — لا ابنتها — التي يضيرها
 فقده ، فلم يزد قولها إلا ضيقا ومللا ، إلى أنه أخذ يتوجس خيفة من معاشر امرأة
 تكبره بعشرين عاما ، متأثرا بما يتردد بين العامة من أن مخادنة الكهلات تذبل
 الشبان ، حتى شحنت ساعات اللقاء — من ناحيته — بالتوتر والحذر فمقتها
 مقتا .. وإنه لعلّ ذلك إذ صادف مريم يوما في السكة الجديدة ، فتقدم منها دون
 تردد ، وسلم عليها ، وسار إلى جانبها كأنه من ذوى قرباها ، كانت قلقة عابسة ،
 فأخبرها بأنه كان يقنع والده بالموافقة حتى ظفر بها ، وأنه يعد مسكنه بقصر الشوق
 ليكون صالحا لهما ، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله ، ثم قال لها : « أخبري
 والدتك بأنني سأجىء غدا لمقابلتها للاتفاق على عقد القران ! » ومضى سعيدا
 بانتهاز الفرصة التي سنحت على غير ميعاد ، غير عاىء — في غمرة السعادة —
 بما سيكون موقف بهيجة منه . وفي مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة في ميعادها إلى
 قصر الشوق ، ولكنها جاءت هذه المرة منفعة كسيرة النفس ، بادرت هاتفة قبل أن
 ترفع برقعها :

— بعنتى غيلة وغدرا ..
ثم انخطت على الفراش ، وهى تنزع برقعها فى نرفزة ، وتقول :
— لم يطف بخاطرى أنك تضمر لى هذا الغدر كله ، ولكنك جبان غادر
كسائر الرجال ..
قال ياسين برقة المعتذر :
— ليس الأمر كما تتصورين ، الحق أنى قابلتها صدفة ..
فصاحت بوجه مكفهر :
— كذاب ! كذاب ! وحق من هو قادر على أن يرينى فيك ما أشتى . هل
تظننى أصدقك ما حييت بعد ما كان (ثم وهى تحاكيه محاكاة كاريكاتورية) الحق
أنى قابلتها صدفة ! ، أى صدفة يا عمر ١٩ ، وهى صدفة حقاً ، فلم كلمتها فى
الطريق أمام الرائح والغادى ؟ ، أليس هذا فعل الغادر السيئ النية ؟ (ثم وهى تعود
إلى المحاكاة الكاريكاتورية) الحق أنى قابلتها صدفة ! ..
فقال فى شىء من الارتباك :
— وجدتني معها فجأة — وجهها لوجه — فامتدت يدي بالسلام عليها ! ، ما
كان بوسعى تجاهلها بعد ما كان من تحادثنا فوق السطح .
فصاحت به بوجه مصفر من الغضب :
— فامتدت يدي بالسلام عليها ! اليد لا تمتد إلا إذا مدّها صاحبها ، قطعت
اليـد وصاحبها ، قل إنك مددت يدك إليها لتخلص منى ..
— لم يكن من السلام بد ، أنا إنسان وفى وجهى دم !
— دم ١٩ ، أين هو ذاك ؟ ، دم يلطشك يا غادر يا ابن الغادر ..
ثم بعد أن ازدردت ريقها :
— ووعدك إياها بالجميـء للاتفاق على عقد القران ، هل أفلت منك أيضاً كما
أفلتت يدك ؟ .. تكلم يا سى دم ..
قال بهدوء عجيب :
— إن كل الحى يعلم الآن بأنى هجرت بيت أنى لأتزوج من ابنتك ، فلم يكن
من المستطاع تجاهل ذلك وأنا أحدثها ..
فصاحت بحدة :

— كان بوسعك أن تتحلل من الأعذار ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذلك ،
لست ممن يعيهم الكذب ، ولكنك أردت التخلص مني ، هذه هي الحقيقة ..
قال وهو يتحاشى نظرتها :
— ربنا يعلم بحسن نيتي !
فحدجته بنظرة طويلة ، ثم سأله في تحد :
— أتعني أنك تورطت في وعدك لها على غير رغبة منك ؟
أدرك خطورة التسليم بذلك ، فغض بصره ولاذ بالصمت ، فقالت وهي تزفر من
الغيظ :
— أرايت أنك كذاب كما قلت لك ؟
ثم صارخة :
— أرايت ؟ أرايت يا غادر يا ابن الغادر !؟
قال بعد تردد :
— إن سرا لا يمكن أن يخفى إلى الأبد ، تصوري ماذا يقول الناس لو كشفوا سر
علاقتنا ، بل تصوري ماذا تقول مريم !
فصرفت بأسنانها من الحنق ، وقالت :
— يا لك من خنزير ! لم تذكر هذه الاعتبارات يوم وقفت أمامي سائل اللعب
كالكلب ؟، أه يا جنس الرجال ، جهنم الحمراء عقوبة تافهة لكم !
ابتسم خفيفا ، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجبن ، ثم قال بتودد ورقة :
— لقد قضينا وقتا طيبا سوف أذكره دائما بكل خير ، حسبك غضبا واستياء ،
ما مريم إلا ابنتك ، وإنك أول من يروم سعادتها ..
وهي تمز رأسها بتهكم :
— أنت الذي ستسعدنا ؟، اسمعي يا حيطان ، المسكينة لا تدرى أى إبليس
ستزوج ، أنت دائر ابن دائرة ، وربنا يكفيها شر ما وقعت فيه ..
قال بهلوه الذي التزمه من أول الأمر :
— عند ربنا الصلاح ، إلى أرغب رغبة صداقة في بيت مستقر ، وزوجة بنت
حلال !!
قالت هازئة :

— أقطع ذراعى إن صدقت ، سوف نرى ، لا تظن بأموئى الظنون ، إن سعادة ابنتى مقدمة عندى على كل اعتبار ، ولولا أنذ خدعتنى وغدرت بى ما كان يهمنى أن أهديك إليها على الخداء !

سأعل ياسين نفسه : ترى هل مرت الأزمة بسلام ؟ ، وانتظر أن تلبس برقعها وتودعه ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، ومضى الوقت — وهى بمجلسها من الفراش ، وهو بمجلسه على الكرسي قبالتها — لا يدري كيف ، ولا متى تنقوض هذه الجلسة الغريبة المتوترة ، واسترق النظر إليها ، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعته به إلى العطف عليها ، هل تعود مرة أخرى إلى المهاترة ؟ ، غير مستبعد !! ولكنها — فيما يبدو — تفكر فى موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحنى أمام مقتضياته ، وما يدري إلا وهى تنتزع الملاعة عن نصفها الأعلى وتغمغم « الجو حار » ثم ترحزحت حتى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه ، ومدت ساقها غير عابئة بالخداء الذى انغرز كعباه فى طيات اللحاف ، ثم واصلت شرودها ، ترى : ألا يزال لديها ما تقول ؟ سأها بلهجة بالغ فى رقتها :

— هل تسمحين لى بأن أزورك غدا .. ؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها ، ثم حدجته بنظرة كاللعة ، وقالت :

— على الرحب والسعة يابن القديمة !

ابتسم قائنا وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه ، وعادت هى تقول بعد هنيهة : — لا تظننى بلهاء ، كنت موطنة النفس على توقع هذه النهاية عاجلا أو آجلا ، ولولا أنك تعجلتها بطريقة .. (ثم بتسليم وازدراء معا) .. ما علينا .. لم يصدقها ، ولكنه تظاهر بتصديقها ، ومضى يقول : إنه كان واثقا من ذلك ، وأنه يرجو أن تعفو عنه وتشمله برضاها ، ولكنها لم تعن بالإصغاء إليه ، وترحزحت — مرة أخرى — إلى حافة الفراش ، فطرححت ساقها على الأرض ، وقامت فأخذت تحبك ملائتها ، وهى تقول : « أستودعك الله » .. فقام صامتا وتقدمها إلى الباب وفتحته ، ثم تقدمها مرة أخرى إلى الخارج ، وما يدري إلا وصفعة تموى على قفاه ، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفه منطرحة على موضع الصفعة ، التفتت نحوه ويدها على الدرابزين ، وقالت :

— تعيش وتأخذ غيرها ، آذيتنى أكثر من هذا ، ألا يحق لى أن أشفى غليلى ولو

بصفعة يا ابن الكلب ١٩.. !

— يا سيد أحمد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تبذر نقودك هذه الأيام بلا حساب ..

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق . وكان الرجل لا يزال قوى البنية جيد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره ، أما رأسه فقد رصعه المشيب ، ولم تؤثر السنون في نشاطه شيئا فلم يزل يومه ينقض على حركة دائبة في خدمة الدكان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيام منشئه الأول . وقد اكتسب مع طول العهد حقوقا ثابتة واحتراما جديرا بنشاطه وأمانته ، فنزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق ، ولم يكن عطف الرجل عليه الذى تمثل أخيرا فى معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحقوق إلا مضاعفا لإخلاصه وموجبا عليه مصارحته عندما نجب المصارحة لدفع ضرر أو تحقيق منفعة . على أن أحمد قال بلهجة مطمئنة ، ولعله كان يشير إلى الرواج الذى لم تزل تشمل السوق بسكرته :

— الحال معدن ، والحمد لله ..

فقال جميل الحمزاوي باسم :

— رينا يزيد وبيارك ، غير أنى لا أزال أكرر القول عليك بأنك لو كنت اتخذت من النجار خلقهم كما اتخذت حرفتهم ، لكنت الآن من كبار الأغنياء ..
ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهز منكبيه استهانة . ربح كثيرا وأنفق كثيرا ، فكيف يأسف على ما جنى من لذات العيش ؟ لم يفقد يوما حاسة التوازن بين دخله ومنصرفه ، ولم يخل رصيده من الستر ، وقد تزوجت عائشة وتزوجت خديجة ، وطرق كمال باب المرحلة النهائية من حياته الدراسية ، فماذا عليه لو تمتع بعد ذلك بطيبات الحياة ؟ على أن الحمزاوي لم يعد الحق فى ملاحظته على تبيذه . فالحق أنه يبدو — هذه الأيام — أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد ، تشعبت وجوه نفقاته : فالهدايا تستنزف مالا لا يستهان به ، والعوامات تستحلب دسمه ، ومخيلته تستأديه القرابين ، وفى الجملة فإن زنوبه تدفعه إلى الإسراف دفعا ، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكر ، لم يكن كذلك فى الأيام الخالية ، حقا كان ينفق عن

سعة !! ولكن امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حد الاعتدال أو تضطره إلى ركوب الإسراف . كان بالأمس مستشعرا قوته ، ولم يكن يبالي كثيرا أن تجاب كل مطالبه الحبيبة ، ولم يكن يبالي إن تدللت عليه أن يتدلل عليها تيها بفجورته . اليوم أذل حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالى ، وكأنه لم يعد يروم من مطلب في هذه الحياة وراء استيقاء مودتها واستماله قلبها ، وبها لها من مودة متعزة ، وبها له من قلب عصبي ! ولم يكن في واقع حاله ليغيب عن فطنته ، شعر به شعور الألم والحزن ، وذكر به أيام عزته في لفقة وأسى وإن لم يقر بأنها ذهبت وتولت ، ولكنه لم يحرك أصبعاً للمقاومة الجدية ولم يكن ذلك في طوقه ! . وقال مخاطباً جميل الحمزوى فيما يشبه السخرية :

— لعله من الظلم أن تعدنى تاجرا !.. (ثم فى تسلیم) .. الله هو الغنى ..
وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزوى ، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتى رأى قادما يزحم الباب على سعته ويتجه إليه متبذرا . كانت مفاجأة وذكر لتوه أنه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد ، ثم نهض مرحبا مدفوعا بأدبه وحده ، وهو يقول :

— أهلا وسهلا ، بجارتنا المكرمة ..
فمدت له أم مريم يدها ملفوفة فى طرف ملاءتها قائلة :
— أهلا بك يا سيد أحمد ..

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسي الذى جلست عليه يوما يعتبر الآن من التاريخ ، ثم قعد وهو يتساءل .. لم يكن راها منذ جاءت لمقابلته فى هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمى محاولة استدراجه إلى بيتها مرة أخرى . عجب يومئذ لجرأتها — ولم يكن أفاق من الحزن — فقابلها بجفاء وشيعها ببرود . ترى ما الذى جاء بها اليوم ؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدها كالعهد بها : حسامة وأناقة ، يفوح من أعطافها الطيب ، وتتألق عيناها فوق البرقع . غير أن تبرجها لم يجد فى إخفاء ديب الزمن ، فلاح أمارات الكبر تحت عينيها ، وذكر بها جلييلة وزبيدة ، شد ما يستبسل أولئك النسوة فى معركة الحياة والشباب ، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول ! . وقربت بهيجة الكرسي من المكتب ، ثم قالت بصوت خافت :

— لا تؤاخذنى يا سى السيد على هذه الزيارة ، فللضرورة أحكام ..
 فقال أحمد — من فوره — وقد كان يبدو رزينا جادا :
 — أهلا وسهلا ، إن زيارتك تشريف لنا وتكريم ..
 فقالت باسمه ، وقد نمت نبرات صوتها على الامتنان :
 — تشكر ، والحمد لله على أنى وجدتلك بخير وعافية !!
 فشكرها بدوره ، ودعا لها بالصحة والعافية ، فعادت تشكر له شكره ودعاءه
 وتدعو له من جديد ، ثم سكنت لحظات ، وقالت باهتمام :
 — جئتك لأمر هام ، قيل لى : إنه بلغ إليك فى حينه ، وأنه نال موافقتك ،
 وأعنى طلب ياسين أفندى ليد ابنتى مريم ، فهل صحيح ما قيل لى ؟ هذا ما جئت
 من أجل التحقق منه ..
 خفض أحمد عبد الجواد عينيه أن تقرأ فيهما الحق الذى اشتعلت به جوانحه وهو
 يتابع كلامها ، ولم يخذع بتظاهرها بالاهتمام بموافقتها ، فلتحاول خداع غيره ممن
 يجهلون خباياه ، أما هو فيعلم علم اليقين أن موافقتها وعدمها عندها سواء ، بل ألم
 تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه ؟ .. ولكنها جاءت لتحمله على الإقرار
 بالموافقة ، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه ، رفع إليها عينين هادئتين ، وقال :
 — حدثنى ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق ، كانت مريم ولم تزل ابنتنا ..
 — الله يبارك لى فى عمرك يا سى السيد . هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس ..
 — أشكر حسن ظنك ..
 فقالت بحماس :
 — ويسر لى أن أصارحك بأننى أجّلت إعلان موافقتى حتى أتأكد من موافقتك
 أنت !

قارحة !. لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى ياسين !
 — أكرر الشكر ، يا ست أم مريم ..
 — لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندى ، دعنى أتأكد أولا من موافقة
 والدك ، فإن كل شئ يهون إلا سخطه !
 الله .. الله !. لم تكذب تسرق البغل حتى نشطت لرمى الأحابيل حول صاحبه ..
 — ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول النبيل !

فواصلت حديثها في حماس مظفر ، قائلة :
 — إنك يا سى السيد زجلنا ، وخير من يفخر به حيننا كله !
 مكر النساء ، ودلال النساء ، ما أضيقه بهما معا ، هل خطر لها بيال أنه ينمرغ
 في التراب مناشدة لعطف عوادة زهد فيها السكارى ؟!

قال في تواضع :

— أستغفر الله ..

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلا ، حتى خاف أن يبلغ الموجودين
 بالناحية الأخرى من الدكان ، فحرك رأسه نحوهم بخدرا :
 — لشد ما حزنت عندما أنبأني بأنه هجر بيت والده ..

فبادرها قائلا وقد تجهم وجهه :

— الحق أن سلوكه أغضبني . فعمجت كيف تأتى له أن يرتكب تلك الحماقة ،
 كان ينبغي أن يستشيرنى أولا . ولكنه حمل متاعه إلى قصر الشوق ، ثم جاء يعنذر
 إلى !! عبث صبياني ياست أم مريم . وقد ويخته ولم أكثرث لخلافه المزعوم مع أمينة .
 ذلك تعلل سخيف حاول به أن يبرر حماقة أسخف منه !!

— هذا ما قلته له وحياتك ، ولكن الشيطان شاطر ، وقلت له أيضا : إن ست
 أمينة معذورة ، ربنا يصبرها على ما ابتلاها به .. وعلى أى حال فمثلك يرجى منه
 الصفيح يامى السيد..

فأشار بيده إشارة قصيرة ، كأنما تقول «دعينا من هذا» فقالت متوددة :

— لكننى لا أقنع إلا بالصفح والرضى..

أف ، ليته يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه منهم جميعا ، هى وابنتها والبغل
 الكبير..

— ياسين ابنى على كل حال ، وفقه الله إلى الهداية..

أمالت رأسها إلى الورااء قليلا ، وأبقت على وضعه مليا ريثما تستمتع بلدة النجاح
 والازتياع ، ثم عادت تقول في نبرات لطيفة :

— ربنا يجبر خاطرك ياسيد أحمد ، ساءلت نفسى وأنا فادمة إليك . ترى :
 أيكسفننى ويردنى خائية ، أم يعامل جاراته القديمة بما تعود أن يعاملها به فى الأيام
 الخالية ؟. الحمد لله فأنت دائما عند حسن الظن بك ، مد الله فى عمرك ومتعل

بالصحة والعافية !!

نظن أنها ضحكت على ذقنه ، يخق لها هذا ، ما أنت إلا أب خائب مات خير
أبنائه ، وخاب الإبن الثانى ، وركب الثالث رأسه ، كل هذا على رغمنى يا قارحة..
— إنى عاجز عن شكرك..

وهى تخفض رأسها :

— مهما قلت فيك فهو دون ما تستحق ، طالما أقررت لك به فيما مضى..
آه ، ذلك الماضى !. أوصدى ذلك الباب وحياة البغل الذى جئت تسجلين
حق ملكيته !. وبسط راحته على صدره آية على الشكر ، فراحت تقول بلهجة
حالة :

— كيف لا ، ألم أعزك إعزازا لم يحظ به إنسان قبلك ولا بعدك ؟
هذا هو المطلوب ، كيف لم يظن إليه من أول لحظة ؟! لم تيجئى من أجل
ياسين ولا من أجل مريم ، ولكن من أجل أنا ، بل من أجل نفسك ! أنت أنت لم
يغير الزمن منك شيئا ، إلا شبابتك ، ولكن رويدك !! هل تستطيعين أن تردى
الأس الذى ولى ؟. مر بقولها دون تعليق مكتفيا بابتسامة شكر ، فابتسمت
ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها من ثقبوب البرقع ، وقالت فيما يشبه العتاب :
— يبدو أنك لا تذكر شيئا..

أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن بمس إحساسها فقال :

— لم يبق فى الرأس عقل أتذكر به ..

فهتفت بإشفاق :

— لشد ما أغرقت فى الحزن ، الحياة لا تحمل هذا ولا تسيفه ، وأنت — ولا
تؤاخذنى على ما سأقول — رجل ألف الحياة المليحة ، فالحزن إذا أثر فى الإنسان
العادى قيراطا يؤثر فيك أربعة وعشرين قيراطا..

موعظة يراد بها منفعة الواعظ ، ليت أن ياسين كان يعتصم بمثل شعبى ، لماذا
أتقزز منك ؟. أنت دون شك أطوع من زنوبة وأقل نفقة بما لا يقاس ، ولكن يبدو
أن قلبى أصبح مولعا بالمتاعب . قال بدهاء ومسكنة معا :

— من أين للقلب المحزون أن يضحك ؟

اندفعت تقول بحماس وكأنها شامت برق أمل :

— اضحك يضحك قلبك ، لا تنتظر حتى يضحك هو ، هيات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم ، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية ، ابحث عن مسرات زمانك الأول وأحبابه ، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إعراضك الطويل عنها ؟
طرب الفؤاد على رغمه وتاه هذا ما ينبغي أن يقال حقا لأحمد عبد الجواد ، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكوس في ليالى الطرب ، أين العوادة لتسمع هذا المديح عليها تخفف من غلوائها ؟ لكن يردده من أنت عنه راغب !. قال بصوت لا أثر فيه للطرب :

— ولى ذلك الزمان ..

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكارا ، وقالت :

— لم تزل شبا و رب الحسين !.. (ثم وهى تبسم في حياء) جمل له طلعة البدر !. لم يول زمانك ولن يولى أبدا ، لا تكبر نفسك قبل الأوان ، أو دع الحكم على ذلك للأخريين فلعلهم يرونك بغير العين التى ترى بها نفسك..
قال بأدب ، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته في إيهاء الحديث :
— اطمئنى ياست أم مريم إلى أننى لا أقتل نفسى حزنا ، فإننى أتسلى عن الهم بشئى ضروب، التسلية..
تساءلت وقد فتر حماسها قليلا :

— أيكفى هذا للترفيه عن رجل مثلك ؟
فقال بقناعة :

— لا تتطلع النفس إلى شئ وراءه..
بدا أنه تنغص صفوها ، وإن تظاهرت بالارتياح وهى تقول :

— أحمد الله على أننى وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه..
لم يعد ثمة قول يقال ، فنهضت وهى تمد له يدها ملفوفة في طرف الملاعة ، فتصافحا ، ثم قالت وهى تهم بالذهاب :
— فلك بعافية..
ودهبت وهى تحول عنه عينين لم يجد التصنع في إخفاء ما غشيها من حيبة..

طوت سوارس شارع الحسينية ، تم أخذ حوادها المهزولان يخبان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهمها بسوطة الطويل . كان كمال جالسا في مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق ، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه — في غير جهد — شارع العباسية ممتدا أمام عينيه ، في اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى ، أرضه مستوية ملساء ، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحيبة بعضها يزدان بمحذاق غناء :

كان يضمم للعباسية إعجابا كبيرا ويكن لها حبا وإجلالا يبلغان حد التقديس ، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح النسيم على ربوعها ، وكل أولئك سمات لا يعرفها حيه العتيق الزبائط . وأما الحب والإجلال فمرجعهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحى حبه ومثوى قصر معبودته .

منذ أعوام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف وحواس مشحونة حتى حفظها عن ظهر قلب ، فحيثما مد بصره ارتد إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم ، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست — في جملتها — جوهر حياته ومعقد أحلامه ، فحيثما ولى وجهه فثمة مناد يدعو القلب للسجود .

وأخرج من جيبه خطابا تلقاه من البريد أول أمس ، وكان مرسله حسين شداد ينبئه فيه بعودته — وصديقيه حسن سليم وإسماعيل لطيف — من المصيف ، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعا في بيته الذى تسير به سوارس إليه .. نظر إلى الخطاب بعين حاملة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة ، لا لأن مرسله شقيق معبودته فحسب ، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعا في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته ، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمست له سبب أو آخر أو حتى عفوا ، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعا في نفس المكان الذى نخل فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قدسى تنفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه . ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة « عدنا إلى

القاهرة مساء أول أكتوبر « أى أنها شرفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدري ، كيف لم يدر ؟! . كيف لم يظن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة ؟! . كيف جاز للوحشة التى غشيتها طوال الصيف أن تمد ظلها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة ؟! . هل رانت الكتابة المتواصلة على حساسيته ببطقة من البلادة والجمود ؟! . على أى حال فالساعة يرف قلبه وتعلق روحه فى أجواء من السمر والسعادة !! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها فى هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطيايف فى دنيا الملائكية !! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوية ونشوة الجور وسكرة الطرب !! الساعة — أو حتى فى هذه الساعة — يطوف به طائف الألم الذى يلزم مسرة الحب عنده ملازمة الصدى للصدوت . قديما كانت تحمله سوارس فى هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب نخال لم يس ، ماذا كان يجد من مشاعر وأمال وخوف ورجاء ؟. لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجردة ، ينكرها ما عرف للحب قدره ، ونحن إليها كلما نبا به ألم ، ولكنها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير ، لذلك بات يؤرخ بالحب حياته ، فيقول : كان ذلك قبل الحب « ق. ح » ، وحدث ذلك بعد الحب « ب. ح » .

وقفت العربية عند الوالية ، فأعاد الخطاب إلى جبيه ، وغادرها متجها إلى شارع السرايات وعيناه تتطلعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلي صحراء العباسية . بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخما عاليا ، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهى مؤخره بمديقة رحيبة تراءت رءوس أشجارها العالية من وراء سور رمادى متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معا ويرسم مستطيلا هائلا ممتدا فى الصحراء التى تكتنفه من الجنوب والشرق . كان منظره مطبوعا على صفحة نفسه ، يستأسره جلاله وقفتته أى فخامته ، ويرى فى عظمتة تحية مزجاة عن جدارة بصاحبه ، وتلوح لعينيه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر ، فيلمح فى تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه ، وهى معان تؤكد لها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة فى الأفق ، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جدارا أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تساره بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت ظلا

الحبيب ونفحة من روحه وانعكاسا لملاحه ، ناشرة بجملتها — وبما عرف من أن باريس كانت لأهل القصر منفى — جواً من الجمال والحلم تواءم مع حبه في سموه وفداسته وبذخه وتطلعه إلى المجهول .

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهى وسائق السيارة جالسين فوق أريكة على كئيب من الباب كعادتهم في العصارى ، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب ، وقال له « حسين بك ينتظرك في الكشك » فدخل مستقبلاً مزيجاً من عرف الفل والقرنفل والورد التي نضدت أصصها على جانبي السلم المفضى إلى الفرائدا الكبيرة التي تطالع القادم على بعد يسير من الباب ، ثم مال يمينه إلى ممر جانبي يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتى مشارف الحديقة فيما يلي الفرائدا الخلفية للقصر .

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشی في هذا المحراب الكبير ، ولا أن يطأ أديماً وطئته قدماها من قبل ، إنه يكاد من إجلال يتوقف ، أو يمد يده إلى جدار البيت تبركا ، كما كان يدها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنه لم يكن إلا رمزا ، ترى : في أى مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة ؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعت بلفتها الفاتنة ؟ ليت ينجدها في الكشك كى تجزى عين عن طول التصبر والتشوق والتسهد !!

ألقي على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفى الذى ترامت وراءه الصحراء ، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلج منها أعمالى الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المبطة للسور من كافة نواحيه ، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلها تكتنفها ممرات الفسيفساء ، ثم سار في ممشى وسيط يفضى إلى كشك قائم وسط الحديقة ، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شداد ، وضيغاه : حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسا على كراسى خيزران حول مائدة مستديرة خشبية انتشرت عليها أكواب حول دورق ماء . سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فأذنه بانتباههم إلى مقدمه ، وما لبثوا أن قاموا للقاءه فعانقهم واحدا واحدا بعد فراق دام الصيف كله ، حمدا لله على السلامة ، أنت أوحشتنا جدا ، شدا ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل ، بل أنت بيننا كأوروى بين ملونين ، عما قليل يعود كل شىء إلى أصله ، كنا نتساءل لم لا تلوننا شمس

القاهرة ؟. منذا يجزؤ على التعرض لشمس القاهرة إلا من رام ضربة شمس !. ولكن ما سر هذه السمرة المكتسبة ؟.. أذكر أننا تلقينا تفسيراً لهذا في بعض دروسنا ، أجل لعله في الكيمياء ، لقد درسنا الشمس خلال علوم شتى كالجغرافيا الفلكية والكيمياء والطبيعة ، ففي أى من أولئك نجد تفسيراً لسمرة المصيف !. هذا سؤال متأخر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانوية !. إلينا إذن بأخبار القاهرة ، بل عليك أنت أن تحدثنا عن رأس البر ، وعلى حسن وإسماعيل أن يحدثنا بعدك عن الإسكندرية ، انتظروا فلكل وقت حديثه ..

لم يكن الكشك إلا مظلة خشبية مستديرة تقوم على عمود ضخمة ، وأرضه رملية تحرق بها أصص الورد ، ويفتخر أرائه على المائدة الخشبية والكراسى الخيزران ، وقد جلسوا وراء المائدة على حمة بصف دائرة مولين وجوههم شطر الحديقة . بلوا سعداء باللقاء وكان الصبف يفرق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيفان عادة في الإسكندرية ، ومضوا يتضحكون لأقل سبب ، وأحيانا لمجرد تبادل النظر كأنما يجتريون ذكريات مزاح ماضية . وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصانا حريرية وينطلون رماذية . كمال وحده بدا في بدلة رصاصية خفيفة ، إذ كان يعتبر رحلة العباسية ذات سمعة رسمية على خلاف حبه الذى يجول فيه مكتفيا بلبس الجاكيت فوق الجلابب . كل شئ من حوله كان يخاطب قلبه فيهره من الأعماق . هذا الكشك الذى تلقى فيه رسالة الحب ، وهذه الحديقة التى خصت وحدها بسره ، وهؤلاء الأصدقاء الذين تبعهم للصداقة وتبعهم مرة أخرى لاقتنائهم بسيرة حبه ، كل شئ يخاطب حبه وقلبه ، يتساءل متى تحب ؟، وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوقتان ؟، وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شداد ما وسعه ذلك ، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب ، لأن أخوته لمعبودته أضفت عليه سحرا من السحر وسرا من السر ، فبات يكن له — إلى الحب — إكبارا وتقديسا ودهشا . وكان حسين يشبه شقيقته إلى حد كبير بعينييه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السواد ولفتاته وسكناته الجامعة بين السمو واللطافة ، فلم يكن ثمة فارق جوهرى بينهما إلا في أنفه الأفتنى الممتلئ وبشرته البيضاء التى غشيتها سمرة المصطاف . ولما كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك العام — مع ملاحظة

أن الأولين كانا في السابعة عشرة والأخير في الحادية والعشرين — فقد تحدثوا عن الامتحان وما تفرع عنه من شئون المستقبل ، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف ، وكان إذا تحدث تطاول بعنقه كأنما ليدارى قصر قامته وضآلة حجمه — على الأقل بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة — غير أنه كان مدبج الخلق مفتول العضلات ، وفي نظرة عينيه الضيقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبب الحاد وحاجبيه الكتيفين وفمه العريض القوى ما يكفى لتحذير من تحدثه نفسه بالتهجم عليه . قال :

— نتيجتنا هذا العام مائة في المائة ، لم يحصل شيء كهذا من قبل — على الأقل — فيما يخصنى أنا . كان ينبغي أن أكون في السنة النهائية من التعليم العالى كحسن الذى دخل معى مدرسة فؤاد الأول في يوم واحد وسن واحدة ، وقد سألتى أبى ساخرا لما رأى رقمى في الجريدة بين التاجحين « ترى هل يمد الله في عمرى حتى أراك من حملة الدبلوم ؟! » .

قال حسين شداد :

— لست متأخرا إلى الحد الذى يبرر يأس والدك ..

قال إسماعيل ساخرا :

— صدقت فقضاء عامين في كل فصل ليس بالشيء الكثير ..

ثم موجهها الخطاب إلى حسن سليم :

— أما أنت فلعلك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس ؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق ، فأدرك أن إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة ، غير أن حسين شداد سبقه إلى الرد على إسماعيل قائلا :

— لا داعى لأن يشغل نفسه ، سوف يحصل حقا على وظيفة في النيابة أو في

السلوك السياسى !

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء ، ولاح في وجهه الحسن الدقيق القسمات التحفز للفتنال ، فتساءل متحديا :

— من أين لى بما يجعلنى أطمعن إلى رأيك ؟!

وكان يعتز بجتهاد وذكائه ويريد الجميع أن يقرؤا له بهما ، ولم يكن أحد يمارى في

ذلك ، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنه نجل سليم بك صبرى المستشار
بمحكمة الاستئناف ، وإن تمتعه بهذه الأوبة ميزة يفوق أثرها كل ما للذكاء والاجتهاد
من أثر ، بيد أن حسين شداد تحاشي ما يهيجه ، فقال :
— فى تفوقك الضمان الذى تسأل عنه ..

ولم يتركه إسماعيل لطيف كى يستمتع بإطراء حسين له ، فقال :
— وهناك والدك ، وهو فيما أعتقد أهم من التفوق بكثير !..

ولكن حسن قابل الهجوم باستمالة غير متوقعة ، إما لأنه مل مناجزة إسماعيل
الذى لم يكده يفتقر عنه يوما طيلة اصطيفاهما بالإسكندرية ، وإما لأنه بات يرى فى
صاحبه متساكسا « محترفا » لا يصلح أن يأخذ أقواله دائما مأخذ الجد . على أن
رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدل يبلغ أحيانا حد الشغب دون أن يوهن
من قوتها . تسأل حسن سليم وهو يرمى إسماعيل متهمكا :

— وأنت كيف انتهى سعى الساعين لك ؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية ، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر
التدخين الذى كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانوى ، وقال :
— نتيجة لا تسر ، لم تقبلنى الطب ولا الهندسة لنقص المجموع ، فلم يبق أمامى
إلا التجارة والزراعة ، فاخترت أولاهما ..

لاحظ كمال فى تأثير كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست فى
الحسبان ، غير أنه وجد فى إثارة لها ، مع قدرته على دخول الحقوق التى لا نزاع فى
مكانتها ، وجد فى ذلك مثالية تعزى بها على حزنه ووحشته . ضحك حسين شداد
ضحكته اللطيفة التى تجلو جمال ثغره وعينييه ، وقال :

— آه لو اخترت الزراعة !، تصوروا إسماعيل فى حقل يقضى عمره بين

الفلاحين !..

قال إسماعيل بقناعة :

— لا على من هذا لو كان الحقل فى عماد الدين ..

عند ذاك نظر كمال إلى حسين شداد متسائلا :

— وأنت ؟

مد حسين بصره إلى بعيد متفكرا قبل أن يجيب ، فأتاح لكمال فرصة كى

يتوسمه ، شد ما تفتته فكرة أنه شقيقها ، أى أن بينهما ما قام يوما بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة ، تصور يعز عليه أن يعتنقه ، لكنه يجالسها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها ، بلمسها ؟! ويؤاكلها !. ترى كيف تتناول طعامها ؟، هل تتمطق ؟، هل تأكل الملوخية والمدمس مثلا ؟، ما أبعد هذا عن التصور أيضا !، المهم أنه شقيقها ، وأنه — كمال — يلمس يده التي تلمس يدها ، لو أتبع له أن يشم أنفاسه التي تماثل ولا شك أنفاسها ؟!، أجاب حسين شداد :

— مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة ..

ألا يتحمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوى صديقا ؟، لم لا ؟، لا شك أن الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقا ما دام حسين سيلتحق بها ، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوى ..

قال إسماعيل لطيف ساخرا :

— لم أكن أعلم أن من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة !، حدثنا عن هذا من فضلك ..

قال حسين شداد جادا :

— جميع المدارس عندى سواء ، ليس فى هذه المدرسة أو تلك ما يجذبنى إليها ، حقا أريد أن أتعلم ، ولكنى لا أريد أن أعمل ، ولن أجد فى مدرسة من مدارسنا ما أنتغيه من علم لا يراد به عمل ، ولكنى لم أظفر فى بيتنا بشخص يوافقنى على رأى ، ولا أرى مناصا من أن أجازهم إلى حد ما ، وساءلتهم أى مدرسة تختارون ؟، فأجاب أبى : وهل يوجد غير الحقوق ؟، فقلت إذن لتكن الحقوق !

إسماعيل لطيف محاكيا لهجته وحركاته :

— بصفة مؤقتة ..

ضحك عام ، ثم استطرد حسين شداد قائلا :

— أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس ، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتى أن أقطع دراستى المحلية كى أسافر إلى فرنسا ولو بحجة دراسة القانون فى معاهدها ، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد ، وهنالك أفكر وأرى وأسمع .. إسماعيل لطيف مصرا على محاكاة لهجته وحركاته ، وكأنما يتم ما ظن أن الآخر سكك عنه :

— وأذوق وألمس وأشم ..!

واصل حسين شداد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً :

— ثق بأن مقصدي غير ما تحلم به !

صدقه كمال بكل قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب ، ولكن لأنه يؤمن بأن الحياة التي يتطلع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليقة « وحدها » باستهواء النفوس ، هيئات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها ، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالأرقام والمظاهر . طالما أثار حسين أحلامه ، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال ، حلم عامر بثمار الروح والفكر والسمع والبصر !! كم طاف في نومى أو في يقظتى ، ثم بعد شدة التطلع وطول السعى انتهى المطاف في وبه إلى مدرسة المعلمين !! وسأل حسين :

— أتعنى حقاً ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل !؟

فقال حسين شداد وفي عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حاملة :

— لن أكون مضارباً في البورصة كأي ؛ لأنى لا أطيق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها ، ولن أكون موظفاً ، لأن الوظيفة عبودية في سبيل الرزق ، ورزقى موفور . أريد أن أحيى في الدنيا سائحا ، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر .، وأنقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل ..

قال حسن سليم معترضاً ، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف داراها بتحفظه الأرستقراطي :

— ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائماً ، إنى مثلاً في غنى عن السعى إلى الرزق ، ولكن يهمنى بلا شك أن أشغل وظيفة سامية ، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل ، وأن العمل السامى هدف يراود لذاته .

وقال إسماعيل لطيف ، مصدقاً على قول حسن :

— هذا حق ، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنياء (ثم ملتفتاً إلى حسين شداد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهى في حدود طاقتك ..

وقال كمال مخاطباً حسين أيضاً :

— السلك السياسى حقيق بأن يهوى لك العمل السامى والسياحى معا !

ولكن حسن سليم قال بلهجة ذات معنى :

— إنه باب ضيق !

فقال حسين شداد :

— للسلك السياسى مزاي رائعة بلا ريب ، إلا أنه فى العالـب وظيفة شرفية فلا يتعارض كثيرا مع رغبتى عن عبودية العمل ، وهو سياحة وفراغ يتيحان لى ما أحب من الحياة الروحية والجمالية ، ولكننى لا أظننى بالغه ، لا لأنه باب ضيق كما قال حسن ، ولكن لأنى أشك فى أنى سأواصل التعليم النظامى حتى نهايته ..
إسماعيل لطيف ، وهو يضحك متخابثا :

— يغلب على ظنى أنك تريد فرنسا لأمر لا شأن لها بالثقافة ، وحسنا تفعل ..

ضحك حسين شداد وهو يهز رأسه سلـبا ، ثم قال :

— كلا أنت تفكر بأهوائك ، إن لرغبتى عن التعليم المدرسى أسبابا أخرى ، أولها : أننى غير مكترث لدراسة القانون ، ثانيا : أنه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدنى بما أريد الإلمام به من شتى المعارف والفنون ، كالمسرح والتصوير والموسيقى والفلسفة . ما من مدرسة إلا وستسحق رأسك بالتراب كى تعثر فيه — إن عثرت — على ذرات من التبر ، فى باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات فى شتى الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان ، إلى ما يتبها لك من الحياة السامية الجميلة ..

ثم مستطردا بصوت خافت ، وكأنه يخاطب نفسه :

— وربما تزوجت هناك كى أقضى العمر سائحا فى عالمى الواقع والخيال !

لم يبد على وجه حسن سليم أنه يولى الحديث اهتماما جديا ، أما إسماعيل لطيف . فرفع حاجبيه الكثيفين ، تاركا عينيه تفحصان عما يضطرب فى صدره من مكر وسخرية .. كمال وحده الذى بدا متأثرا متحمسا ، إنه يستشرف نفس الآمال مع شىء من تعديل لا يمس الجوهر ، لاتهمه السياحة ولا الزواج فى فرنسا ، ولكن من له بهذه المعارف التى لا تقيد بنظام أو امتحان ؟. إنها أجدى بلا جدال من التراب الذى سيسحق به رأسه فى المعلمين كى يفوز فى النهاية بذرات من التبر ، باريس ؟! ، غدت حلما جميلا منذ علم بأنها احتضنت عهدا غضا من عمر معبودته ، لا تزال تدعو حسين بسحرها ، وتفتن خياله هو بشتى وعودها ، كيف الشفاء من لوعة الآمال ؟.

قال بعد تردد وإتفاق :

— نجيل إلى أن أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المعلمين العليا !

تحول إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق ، وسأله :

— ماذا اخترت أنت ؟ ، لا نقل مدرسة المعلمين ! ، رياه ، نسيت أن بك لوثة قرية الشبه بلوثة حسين !.

ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخرية العظميين ، وقال :

— التحقت بالمعلمين للسبب الذي ذكرت ..

فنظر حسين شداد إليه باهتمام ، ثم قال باسم :

— لا شك أن ميولك الثقافية أتعبتك كثيرا قبل أن يقع اختيارك ..

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة تمت عن الاهتمام :

— إنك مسئول لدرجة كبيرة عن تأكيد ميوله هذه ، بل الحق أنك تتكلم كثيرا وتقرأ قليلا ، أما المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجد ويقرأ لحد العمى ، انظر إلى تأثيرك السيء فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر !..

استطرد حسين حديثه متجاهلا مقاطعة إسماعيل :

— هل ثبت لديك أن في المعلمين ما تود ؟!

قال كمال بحماس ، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساعل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار :

— حسبي أن تتاح لي دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للاطلاع غير المحدود ، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة — فيما أظن — لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس ..

فكر حسين شداد قليلا ، ثم قال :

— عرفت كثيرا من المعلمين الذين خالطتهم عن كتب في دروس الخصوصية ، لم يكونوا مثالا طيبا للرجل المثقف ، ولكن لعل النظام الدراسي العتيق هو المسئول عن ذلك ..

فقال كمال بحماس لم يفتر :

— حسبي الوسيلة ، الثقافة الحقّة تتوقف على الإنسان لا المدرسة !

وتساءل حسن سليم :

— أتنوى أن تصير معلما ؟

ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب ، فإن كمال لم يطمئن إليه كل الاطمئنان ، إذ أن التزامه الأدب كان طبعا مأثورا عنه فلا يزايله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره في العراك ، وذلك نتيجة طبيعية لمرزاقته من ناحية ، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى ، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقا من الاستنكار أو الازدراء ، لذلك حرك منكبيه استهانة ، وقال :

— لا مفر من ذلك ما دامت مصمما على تعلم ما أروم من العلم !

وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفى .. رأسه وأنفه ، وعنقه الطويل وقامته النحيلة ، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة في التلاميذ عامة وفي أشقيائهم خاصة ، فما ملك أن غمغم :

— تلك لعمري كارثة !

أما حسين شداد ، فعاد يقول في لطف وشي بميله إلى كمال :

— الوظيفة شيء ثانوي عند ذوى الأهداف البعيدة ، على أنه لا ينبغي أن ننسى

أن نخبة من ناهي مصر قد تخرجوا في المدرسة ..

انقطع حديث المدرسة عند ذاك ، فساد الصمت ، وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة ، غير أن الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبرد ، وسنحت منه نظرة ، فرأى دورق الماء المثلج على المائدة ، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منته بالسعادة في مثل ظرفه هذا ، أن يملأ كوبا ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعا منه يكون قد اتفق أن لمسته شفتاها وهي تشرب مرة ، فقام إلى المائدة ، وملأ من الدورق كوبا وشربه ، ثم عاد إلى مجلسه مركزا انتباهه في نفسه وهو يترقب ، كأنما كان ينتظر — فيما لو حالفه الحظ فأصاب الهدف — أن يتغير شأنه ، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها ، أن ينتشى بنشوة إلهية يرقى بها في معارج السماوات السعيدة ، ولكنه ، أجل !! ولكنه قنع في النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل ، ثم راح يتساءل في قلق : متى تجيء ؟.. هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية ؟.. وعادت عيناه إلى الدورق ، فطافت

به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحرى عن الماء المثلوج الذى لا يقدم شيء خلافة فى سراى شداد !. وكان إسماعيل قد أشار — وهو بصدد الحديث عن ذلك — إلى النظام الاقتصادى الدقيق الذى تخضع له السراى من السطح إلى البدروم ، وتسأل : أليس ذلك نوعا من البخل ؟، غير أن كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين ، فدفع عنها التهمة مستشهدا ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما : المنيفا ، والفيات التى يكاد يختص بها حسين ، فكيف تنهم بعد ذلك بالبخل ؟!، هنالك قال إسماعيل — ولم يكن يعوزه طول اللسان — إن البخل أنواع ، وإنه لما كان شداد بك مليونيرا بكل معنى الكلمة ، فإنه رأى لزما عليه أن يخيط نفسه بمظاهر الجاه ، ولكنه اكفى بما يعد فى « يبقته » من الضروريات ، أما القاعدة المتبعة التى لا ينجح عنها فرد من الأسرة ، فهى ألا يتساح فى إنفاق ملهم واحد فى غير موضعه وبلا موجب .. الخدم يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقل الطعام ، وإن كسر أحدهم طبقا خصم ثمنه من مرتبه . حسين شداد نفسه فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعود بعثرة النقود بلا ضرورة ، أجل ربما ابتاع له أبوه كل عيد عددا من الأسهم أو السندات ، ولكنه لا يعطيه قرشا فى يده .. أما زوار النحل العزيز ، فلا يقدم لهم إلا الماء المثلوج !.. أليس هذا بخلا ، وإن يكن بخلا أرستقراطيا ؟! ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق ، وتسأل كما تسأل قديما فى ارتياح : أمن الممكن أن ترتقى إلى أسرة معبودته هنة من الهنات ؟. أبى قلبه أن يصدق هذا إباء من ينزه الكمال عن المآخذ وإن هانت بهيد أنه خيل إليه أن ثمة شعورا بما يشبه الارتياح يعاينه هامسا فى أذنه « لا تفزع .. أليس هذا النقص إن صبح مما ينرها ولو درجة إليك ، أو يرفعك ولو درجة إليها ؟! » ، ومع أنه وقف من أقوال إسماعيل موقف التحفظ والارتياح ، فإنه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدرى فى « رذيلة » البخل ، فيقسمها إلى نوع دنى ، وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تمد الحياة الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقة ، فمن الإسراف كل الإسراف تسميته بخلا أو اعتباره رذيلة ، كيف لا ، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيارات واتخاذ كافة مظاهر البذخ والبهنية ؟. كيف لا ، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهرة من الخبائث والضعفة ؟!.

استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهي تقبض عى ذراعه وتهزه . ثم سمعه وهو يقول مخاطبا حسن سليم :

— حذار ، ها هو مندوب الوفد يرد عليك !

أدرك من فوره أنهم طرّقا حديث السياسة وهو عنهم ساه ، حديث السياسة .. ما أشقه وما ألدّه ، دحاه إسماعيل « مندوب الوفد » فلعله يتهمك ، فليتهكم ما شاء له أن يتهمك ، الوفد عقيدة تلقاها عن فهمي واقتسرت في قلبه باستشهاده وتضحيته . نظر إلى حسن سليم ، وقال باسم :

— أيها الصديق الذى لا تبهره إلا العظمة ، ماذا قلت عن سعد ؟

لم يبد على حسن سليم أنه اكترث لحديث العظمة ، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك ، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف — ولعله رأى آية المستشار أيضا — فى سعد زغلول الذى يكاد هو من حب وإخلاص أن يقدره . لم يكن سعد زغلول إلا مهرجا شعيا فى نظر حسن سليم ، وكان يردد هذا الوصف فى تقزز وازدراء مثيرين خارقا المعتاد من أدبه ودماثته ، ثم يمضى فى السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية ، منوها فى الوقت نفسه بعظمة عدلى وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا فى نظر كمال إلا « خونة » أو إنجليز مطربشين !. أجاب حسن سليم بهدوء :

— كنا نتحدث عن المفاوضات التى لم تستمر إلا ثلاثة أيام ، ثم قطعت ! فقال كمال بحماس :

— يا له من موقف وطنى جدير بسعد حقا ، طالب بحقوقنا الوطنية مترفعا عن المساومة ، ثم قطع المفاوضات حين وجب قطعها ، وقال قوله الخالدة : « لقد دعونا إلى هنا لكى نتنحّر ، ولكننا رفضنا الانتحار ، وهذا كل ما جرى » .

قال إسماعيل لطيف ، وكان يجد فى السياسة مادة للعب :

— لو قبل أن ينتحّر لتوّج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها إلى بلاده !

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك ثم قال :

— ماذا أفدنا من هذه المأثورة ؟. ليست الوطنية عند سعد إلا نوعا من البلاغة

التي تستهوى العامة ، « لقد دعونا إلى هنا لكى نتنحّر الخ الخ » ، « يعجبني الصديق فى القول الخ الخ » .. كلام فى كلام ، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم

يعملون في صمت ، وقد حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث ..

احتدم الغيظ في قلب كمال ، ولولا ما يكنه لحسن من احترام لشخصيته وسنه لانفجر ، وعجب كيف يتابع « شاب » مثله أباه — وهو من جيل قديم على أى حال — في انحرافه السياسى !

— أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شىء ، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات ، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة ، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات ، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب ، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف !! تخلل حسن شداد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول :

— أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد ..!

لم يعبا حسن بمقاطعة حسين شداد ، فقال مخاطبا كمال :

— إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد ، لا بالخطب

والتهريج الشعبى الرخيص ..

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شداد ، وهو يتساءل سائرا :

— ألا ترى أن من يتعب نفسه في الكلام عن إصلاح هذا البلد كالتنافخ في قرية

مثقوبة ؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردد عن مخاطبته وجها

لوجه ، قال منفسا عن غيظه :

— أنت لا تهتمك السياسة في شىء ، لكن مزاحك يفصح أحيانا عن موقف

« قلة » من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم ، تراهم يائسين من نهوض الوطن ، يأس الاحتقار والتعالى لا يأس الطموح والتطرف ، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لا عتزلوها كما تفعل أنت !

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة ، ومد يده إلى ذراع كمال ، فشد عليها

قائلا :

— أنت مجادل عنيد ، يعجبني حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به ، على أننى

كما تعلم محاييد ، لا من الوفدين ولا من الدستوريين ، لا استهانة كإسماعيل لطيف ،

ولكن لاعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر والقلب ، ينبغي أن تعلق عليها حتى تتراءى لك الحياة ميدانا لانهائيا للحكمة والجمال والتسامح ، لا معترك صراع وكيد ..

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته ، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأى ، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه ، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياة ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته ، فإنه لم يحنق عليه لذلك ولم ير فيه نقیصة ولكن وسعها عفوه وحلمه وتسامحه ، قال بحاربه :

— الحياة هي هذا كله ، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال ، فأى وجه تتجاهله من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن ، لا تحتقر السياسة أبداً ، فالسياسة هي نصف الحياة ، أو هي الحياة كلها إذا عُدَّت الحكمة والجمال مما فوق الحياة ..

حسين شداد كالمعتذر :

— فيما يتعلق بالسياسة ، أصارحك بأننى لا أثق فى جميع أولئك الرجال ..
سأله كمال كالتودد :

— ماذا نزع ثقتك من سعد ؟

— بل دعنى أسألك عما يجعلنى أضع ثقتى فيه .. سعد وعدلى وعدلى وسعد ، ما أسخف هذا كله ، على أنه إذا كان سعد وعدلى سيين عندى فى الناحية السياسية فإننى لا أراهما كذلك كرجلين ، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلى من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة ، أما سعد — وإياك أن تغضب — فما هو إلا أزهرى قديم !..

آه ، شد ما يحز فى نفسه أن يند عن حسين أحيانا ما يشئ بتعالیه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن فى نهاية كأنه يتعالى عنه هو أو — وهو الأدهى والأمر — كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعا ، أجل ، إنه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب « عنهما » معا ، ولكن أكان ذلك عن خطأ فى التصوير أم عن مجاملة ؟. ومن عجب أن موقف حسين هذا لم يغضبه من ناحية دلالة العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالة الخاصة به ، فلم يستتر عداوته الطبقيّة ولا إحساسه الوطنى .. انهمزت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيفة تم عن الصراحة وحسن

الطوية ، وتراجعت أمام حب لا تنال منه الآراء والأحداث ، على الضد من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شداد منه ، فكان — رغم صداقتهما — يبيع غضبه لوطنه — ولم يشفع له عنده تأدبه في الخطاب وتحفظه في إظهار مشاعره ، بل لعله أنس فيهما « حكمة » تضاعف من مسؤوليته وتؤكد تعصبه الأرستقراطي الموجه ضد الشعب ، قال مخاطبا حسين :

— أفي حاجة أنا أن أذكرك بأن العظمة شيء غير العمامة والطربوش أو الفقر والغنى . . يبدو لي أن السياسة تضطربنا أحيانا إلى مناقشة انديهبات ..
قال إسماعيل لطيف :

— إن ما يعجبني في الوفدين — أمثال كمال — هو شدة تعصبهم !

ثم وهو يحيل بصره في الجالسين :

— أما ما يسوءني منهم ، فهو شدة تعصبهم أيضا !

قال حسين شداد ضاحكا :

— أنت سعيد الحظ ، لأنك مهما أبديت في السياسة من رأى ، فلن يعترض

سيلك معقب ..!

هنا سأل حسن سليم حسين شداد قائلا :

— تزعم أنك تربأ بنفسك عن السياسة ، فهل تصر على ذلك حتى إذا تعلق

الأمر بالخدو السابق ؟

اتجهت الأعين نحو حسين في تحد باسم لما هو معروف عن تشيع والده شداد بك للخدو السابق ، الأمر الذي أبعد من أجله أعواما قضاها في باريس ، ولكن حسين قال في غير مبالاة :

— لا تعينني هذه الأمور في كثير أو قليل ، كان والدي ولا يزال من رجال

الخدو ، ولكنني لست مطالبا باعتراف آرائه ..

سأله إسماعيل لطيف ، وفي عينيه الضيقتين يريق ضاحك :

— أكان والدك من الذين يهتفون « الله حي .. عباس حي » ؟

فقال حسين شداد ضاحكا :

— لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم ، والحق الذي لا ريب فيه ، أنه لم يعد بين أبي

وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء ، فضلا عن ذلك فليس ثمة حزب — كما

تعلمون — يدعو اليوم إلى عودة الخديو ..

قال حسن سليم :

— أمسى الرجل وعهده في ذمة التاريخ ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين ، وهما ، أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم !

لم يكذ يتلقى الضربة كإل حتى جاوبه قائلا :

— الحاضر في كلمة واحدة ، أن ليس في مصر من يتكلم باسمها إلا سعد ، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال ..

وشبك ذراعيه على صدره ، ومد ساقيه حتى مس طرف حذائه رجل المائدة ، وهم بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت غير بعيد يتساءل « ألا تريدن يا بدور أن تحببي أصدقاءك القدماء ؟ » فانعقد لسانه ، ووثب قلبه وثبة عنيقة رجعت صدره رجبا أفرعه أول الأمر وآله ، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقته سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثير ، ثم وجد أن كل خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء ، قام مع الأصدقاء كما قاموا ، واستندار نعمهم إلى وراء ، فرأى على بعد خطوة من الكشك عابدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعوام الثلاثة ، وهما يتطلعان إليهم بأعين هادئة باسمه .. ها هي ذى بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد ، ها هو « الأصل » الذي تملأ « صورته » روحه وجوارحه ويقظته ، ونومه ، ها هي قائمة أمام عينيه شاهدا على أن الألم الذي لا حد له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم الملموم في السماء ، إن كل أولئك ربما رجعت في آخر الأمر إلى آدمي لطيف تترك قدماه انطباعاتهما على أرض الحديقة !. ورنا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كله حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسي والنفس ، فعاد كأنه روح مجردة تسبح في فراغ نحو معبودها .. على أن إدراكه لها هي نفسها لم يكن حسيا بقدر ما كان روحيا ، تمثل في نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية ، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت ، كأن قوة انفعاله الروحي استأثرت بكل حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدركة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء ، لذلك كانت دائما أطوع لذاكرته منها إلى حواسه ، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئا ،

ولكنها تتراءى فيما بعد في ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدرى الخمرى وشعر عميق السواد مقصوص « ألا جرسون » ذى قصة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيهما نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته ، كان يرى هذه الصورة بذاكركته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفنى في سماعها فلا نذكر منها شيئا حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام ، فتتردد في أعماق الشعور في لحن متكامل . وتساءلت أحلامه وأمانيه :- ترى هل تغير من طريقته المألوفة فتمد يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرة في الحياة ؟. لكنها حينهم بابتسامة وتحنية من رأسها ، وهى تتسائل بذلك الصوت الذى يزرى بأحب الألحان إليه :

— كيف حالكم جميعا ؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة العودة ، عند ذاك عشت أناملها الرشيقة برأس بدور وهى تقول لها :

— صافحى أصدقائك !

فكنت بدور / شفتيها داخل فيها وعضت عليهما وهى تردد عينها بينهم فى حياء حتى استقرتا على كمال ، فابتسمت وابتسم !. قال حسين شداد ، وكان على علم بما بين الطفلة وكال من مودة :

— إنها تبسم لمن تحبه !

— أتحبين هذا حقا ؟ (ثم وهى تدفعها نحوه) إذن سلمى عليه ..

مد لها كمال يديه متورد الوجه من السرور ، فأقبلت نحوه ، فرفعها بين يديه حتى أقرها فى حضنه ، وراح يقبل خديها فى حنان وتأثر شديد ، كان بهذا الحب سعيدا فخورا ، ليست التى بين يديه إلا قلدة من جسد الأسرة ، فهو يضم الكل إذ يضم الجزء إلى صدره ، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة ؟.. والسحر كل السحر فى هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها ، كأن المطمئنة إلى صدره عائدة نفسها فى طور من أطوار حياتها الماضية ، كانت يوما مثل بدور سنا وحجما وجودا فتأمل !.. فليتهاه هذا الحب الطاهر .. ليسعد بعناق جسم تعانقه هى .. ويتقبل وجنة تقبلها هى .. وليحلم حتى يشرد منه العقل والقلب . إنه يدري لم يحب بدور ولم يحب حسين ولم يحب القصر وحديقته

وخدمه ، إنه يحبها جميعا إكراما لعابدة ، أما الذى لا يدريه فهو حب عابدة نفسها !.. رددت عابدة عينها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف ، ثم سألتها :
— كيف وجدتما الإسكندرية ؟

فقال حسن :

— رائعة !..

على حين تسأل إسماعيل :

— ماذا يجذبكم إلى رأس البر دواما ؟

فقالت بصوت رخيم مشربة نبراته بعذوبة موسيقية :

— صيفنا مرات فى الإسكندرية ، ولكن الاصطيف لا يطيب لنا إلا فى رأس

البر ، هنالك الهدوء والبساطة وألفة لا تجدها إلا فى بيتك !

فقال إسماعيل ضاحكا :

— من سوء الحظ أن الهدوء لا يطيب لنا ..

ما أسعده بهذا المنظر .. هذا الحديث .. هذا الصوت ، تأمل أليست هذه هى

السعادة !؟. فراشة كنسمة الفجر تقطر ألوانا بهيجة وترشف رحيق الأزاهر .. هذا

أنا ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد !..

قالت عابدة :

— كانت رحلة ممتعة ، ألم يحدثكم حسين عنها ؟

قال حسين بلهجة انتقادية :

— بل كانوا يتناقشون فى السياسة !

فالتفتت ناحية كمال قائلة :

— هنا شخص لا يحلو له إلا حديثها ..

من عينها نظرة تلقى إليك كالرحمة ، صفاؤها يجلو روحا ملائكيا ، بعث كما

يبعث عبّاد الشمس فى ضوئها المشرق ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد !..

— لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم ..

فقالت باسمه :

— لكنك اغتصمت الفرصة ..

ابتسم فى تسليم ، وعند ذاك حولت عينها إلى بدور هاتفة :

— أنتوين أن تنامى بين ذراعيه ١.. كفاك سلاما ..
 غلب الحياء بدور ، فدفنت رأسها في صدره ، فجعل يربت على ظهرها في
 حنان ، غير أن عايده توعدها قائلة :
 — إذن سأتركك وأرجع وحدى ..

فرفعت بدور رأسها ومدت لها يدها وهي تغمغم « لا » ، فقبلها كمال وأنزلها إلى
 الأرض ، فجرت إلى عايده وقبضت على يدها ، ألقت عايده عليهم نظرة شاملة ثم
 لوحت بيدها تحية وذهبت من حيث أتت . عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث
 كيفما اتفق ، هكذا كانت تقع زيارات عايده في كشك الحديقة ، مفاجأة سعيدة
 قصيرة ولكنه بدا قانعا ، وشعر بأن تصبره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرا ، لم
 لا ينتحر الناس ضنا بالسعادة كما ينتحرون فرارا من الشقاء ؟ ، ليس من الضروري أن
 تسبح كما يود حسين أن يسبح كي تلقى متع الخواص والعقل والروح ، فمن الجائر
 أن تفوز بكل أولئك في لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك ! ، من أين لبشر أن يؤق
 القدرة على إحداث هذا كله ١٩ أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام
 وتصادم الطبقات ؟ .. ذابت كلها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودي ، ما
 الفاصل بين الحلم والحقيقة وفي أيهما تراني أهيح الساعة ؟

— موسم الكرة سيبدأ عما قريب ..

— كان الموسم الماضي موسم الأهلي دون شريك !

— هزم المختلط بالرغم من أن فريقه يضم أبطالا أفذاذا ..

انبرى كمال للدفاع عن المختلط — كما دافع عن سعد — صاذاً عنه هجمات
 حسن سليم . كان أروعهم من لاعبي الكرة على تفاوت في الحدق والحماس ، فكان
 إسماعيل أمهرهم إلى حد أنه برز بينهم كالمخترق بين الهواة ، على حين كان حسين
 شداد أضعفهم ، أما كمال وحسن فكانا بين ذلك ، وقد اشتدت المناظرة بين كمال
 وحسن ، ذاك يرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظ وهذا يردّها إلى تفوق لاعبي الأهلي
 الجدد .. واستمر الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه . تساءل كمال : لم يجد نفسه
 دائما في الجانب المضاد للجانب الذي يتف فيه حسن سليم ؟ ، الوفد الأحرار ،
 المختلط الأهلي ، حجازي مختار ، وفي السينما يفضل شارلي شابلن فيفضل الآخر
 ماكس لنذر !

غادر المجلس قبيل المغيب ، وفيما هو يسير في الممر الجانبى المفضى إلى الباب الخارجى إذ سمع صوتا يهتف :
— ها هو ذا ..

رفع رأسه مسحورا فرأى عابدة فى إحدى نوافذ الدور الأول ، مجلسة بدور على حافة النافذة بين يديها وهى تشير لها إليه ، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس ، يتطلع بوجه باسم إلى الطفلة التى لوحت له بيدها الصغيرة ، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذى استقرت فى هيئته ورموزه آماله فى الحياة وما بعد الحياة ، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرا ، لوحت له بدور بيدها مرة أخرى ، فسألتها عابدة :

— تذهبين إليه ؟

حنّت الصغيرة رأسها بالإيجاب ، فضحكت عابدة من هذه الرغبة التى لن تتحقق ، على حين مضى هو يتوسمها متشجعا بضحكتها — غارقا بروحه فى حور عينيها وملتمقى حاجبها مسترجعا صدى ضحكتها المترعة ونبرات صوتها الدافئ حتى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام ، ولما كان الموقف يلى عليه أن يتكلم ، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة :

— هل ذكرتني فى المصيف ؟

قالت عابدة وهى تتراجع برأسها قليلا :

— سلها هى ، لا شأن لى بما بينك وبينها !

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة :

— هل ذكرتها أنت ؟

آه ، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمى ، قال بحماسة :

— لم تغب عن ذاكرتى يوما واحدا ..

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت عابدة فى وقفها ورفعت بدور بين يديها ، ثم قالت معلقة على كلامه وهى تهم بالذهاب :

— يا له من حب عجيب !

وغابت عن النافذة ..

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكال ، وحتى كال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلث الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤانستها حتى يمجن وقت النوم . وكان ياسين قد خلف وراءه فراغا ، ومع أن أمينة حرصت دائما على ألا تعود إلى ذكره فإن كال شعر لغيا به بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد في مجلس القهوة من متعة . وكانت القهوة — قديما — شراب المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسم . فانقلب اليوم — عند الأم — كل شيء فيه ، فأسرفت في حسوها إسرافا وهي لا تدري حتى صار صنع القهوة وحسوها سلوة وحدتها ، فرمما احتست خمسة أو ستة — وأحيانا عشرة — فناجيل تباعا ، وكان كال يتابع إفراطها بقلق ويحذر من عواقبه ، فترد عليه بابتسامة كأنما تقول له « وماذا أفعل إذا لم أشرب ؟ » ثم تقول له بلهجة الوائق المطمئن « لا ضرر من القهوة » ... جلسا متقابلين ، هي على الكنية الفاصلة بين حجرقي النوم والمائدة ، وهو على الكنية المتوسطة لحجرقي نومه ومكتبه ، وكانت عاكفة على المجرمة التي دفنت الكنجة حتى نصفها في جمراتها ، وكان صامتا شارد النظرة ، وفجأة سأله :

— فم تفكر يا ترى ؟ دائما ترى وكأنك مشغول الفكر بأمر ذي بال .

أنس من صوتها ما يشبه العتاب ، فقال :

— العقل يجد دائما ما يشغله !

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسليتين كالمسائلة ، ثم قالت في شيء من الحياء :

— مفضي زمن كنا لا نجد وقتا يتسع لحديثنا !

حقا ؟ ، ذلك ماض مضى ، عهد الدروس الدينية وقصص الأنبياء والشياطين ، عهد تعلقه بها لحد الجنون ، انقضى ذلك العهد ، فم يتحدثان اليوم ؟ ، إلا تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على الإطلاق ، ابتسم كأنما يعتذر بابتسامته عن صمته السابق واللاحق معا ، ثم قال :

— نحن نتكلم كلما وجدنا للكلام موضوعا .

فقلت برقة :

— ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم ، ولكنك تبدو غائبا دائما أو كالغائب ..

ثم بعد تفكير :

— أنت تقرأ كثيرا ، في عطلتك تقرأ كما تقرأ في وقت دراستك ، لم تستوف يوما حظك من الراحة ، أخاف أن تكون أتعبت نفسك أكثر مما ينبغي ..

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرحب بهذا التحقيق :

— اليوم طويل جدا ، وقراءة ساعات لا يمكن أن تتعب إنسانا ، ليست إلا نوعا من التسلية وإن تكن تسلية مفيدة ..

فقالت بعد تردد :

— أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيرا من الصمت

والشرود ...

كلا ليست القراءة ، القراءة ملاذ من التعب لو تعلمين ، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم منه وقت القراءة نفسه ، شيء لا علاج له لا عندها ولا عند غيرها من البشر ، إنه مرض قلب يتعبد حائرا ولا يدري ماذا وراء عنائه يروم !

قال بمكر :

— القراءة كالقهوة لا ضرر منها ! ، ألا تحبين أن أصير « عالما » كجدي ؟

فشاعت البهجة والفخر في الوجه المستطيل الشاحب ، وقالت :

— بلى ، إني أود ذلك بكل قلبي ، ولكنني أحب أن أراك دائما منشرح

الصدر ..

قال باسم :

— إني منشرح الصدر كما تحبين ، فلا تشغلي البال بمحض أوهام .

كان يلاحظ أن رعايتها له ازدادت في السنوات الأخيرة أكثر مما ينبغي ، وأكثر مما

يود ، وأن تعلقها به وحدها عليه وإشفاقها مما يضره — أو مما تتوهم أنه يضره —

باتت شغلها الشاغل إلى حد ضايقه واستفزه للود عن حريته وكرامته ، بيد أنه لم

تغيب عنه أسباب هذا التطور الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها بفقدته ، فلم

يجاوز أبدا في ذوده عن حريته حدود اللطف والأدب :

— يسرني أن أسمع هذا منك وأن يكون حقا وصدقا ، لست أبغى إلا

سعادتك ، ولقد دعوت لك اليوم في سيدنا الحسين دعاء أرجو أن يمن الله باستجابته !

— آمين ..

ونظر إليها وهي ترفع الكنيسة تملأ فنجانها للمرة الرابعة ، فانفجر ركنها فيه عن ابتسامة خفيفة .. ذكر كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم المستحيل ، ها هي اليوم تزوره كلما زارت القرافة أو السكرية ، ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعته نظير هذه الحرية الضئيلة ! ، هو نفسه له أمانيه التي في حكم المستحيل فأى عُمن تقتضيه كى تتحقق ؟ ، ألا إن أى ثمن وإن جل — يهون في سبيل ذلك ، عاد يقول ضاحكا ضحكة مقتضية :

— إن لزيارة الحسين ذكريات لا تنسى ..

تحسست ترقوتها يديها ، وهي تبتسم قائلة :

— وأثر باق لا يزول ..

فقال كمال في شيء من الحماس :

— لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديما ، أصبح من حقلك أن تزورى خديجة وعائشة أو سيدنا الحسين كلما أردت ، تصورى أى حرمان كنت تمنين به نفسك لو لم يفك أى قيودك !

رفعت إليه عينها فيما يشبه الارتباك أو الخجل ، كأنما كبر عليها أن تذكر بامتياز نالته نتيجة لشكلها ، ثم أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول « ليتنى بقيت كما كنت وبقي لى فقيدى » ، غير أنها تحاشت الإفصاح عما جاش به صدرها إشفافا من تكدير صفوه ، وقنعت بأن تقول وكأنها تعتذر عما حظيت به من حرية :

— ليس بخروجى بين حين وآخر فرجة أستمتع بها ، إلى أزور الحسين لأدعو لك ، وأزور أختيك لأطمئن عليهما ولأحل مشكلات لا أدرى من كان غيرى يحلها !

فابتده المشكلات التى تعنى ، ولما كان يعلم أنها زارت السكرية اليوم ، فقد نسأل :

— هل من جديد فى السكرية ؟

قالت وهي تنهد :

— العادة ..!

هز رأسه أسفا ، وهو يتسهم قائلا :

— مخلوقة للنقار ، هذه هي خديجة ..

قالت أمينة بحزن :

— قالت لى حماها : إن أى محادثة معها مخاطرة غير محمودة العواقب ..

— الظاهر أن حماها — نفسها — قد خرفت !.

— لها من الكبر أعذار ، ولكن ما عذر أختك ؟

— ترى أثرت على الحق أم أثرت الحق عليها ؟

وضحك ضحكة ذات مغزى ، فتهدت أمينة مرة أخرى ، وقالت :

— أختك حامية الطبع ، وسرعان ما تضيق حتى بالنصيحة الخالصة ، وبإيلى

إذا جاملت حماها مراعاة لسنها ومكانتها ، هنالك تسألنى وعيناها تحمازان « أنت

معى أم على ؟ » ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، معى أم على ؟! هل نحن فى حرب

يابنى ؟ ومن الغريب أن يكون الحق أحيانا على حماها ولكنها تهادى فى الخصام

حتى ينقلب الحق عليها هي ..!

هيات أن يسخطه عليها شيء ، كانت ولا تزال أمه الثانية ومورد حنان

لا ينضب ، أين منها عائشة الجميلة السادرة التى تشبعت بالشوكتية حتى ذؤابتها !

— وعم أسفر التحقيق ؟

— بدأ الشمجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف ، دخلت الشقة وهما

يتجادلان فى عنف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطبيب ، فتدخلت بينهما

بالسلام ، ثم عرفت سبب هذا كله ، كانت معترمة أن تنفض الشقة ، ولكنه ظل

نائما حتى التاسعة فأصرت على إبقاؤه حتى استيقظ غاضبا ، وركبه عناد مفاجيء

فأنى أن يغادر الفراش ، وسمعت والدته الزعق ، فجاءت على عجل ، وما لبثت النار

أن اشتعلت ، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهى حتى شب آخر بسبب أحمد الذى

عاد من الطريق مطين الجلباب ، فضرته وأرادت أن يستحم من جديد ، فاستغاث

الولد بأبيه ، وتصدى الرجل لحمايته ، فكان الشجار الثانى فى نصف نهار !

وهو يضحك :

— وماذا فعلت ؟

— بذلت ما فى وسعى ولكنى لم أسلم ، فلامتنى طويلا على وقوفى موقف الوسيط ، وقالت لى : كان ينبغي أن تنضمى إلى كـ انضمت أمه إليه !

ثم وهى تتند لثالث مرة :

— قلت لخديجة : ألا تذكرين كيف كنت تريننى أمام والدك ، فقالت بحدة : « هل تظنين أنه يوجد رجل مثل ألى فى هذه الدنيا ؟! » .

وردت مخيلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وحرمة سنية هانم ، وهما يسيران جنبا إلى جنب ، من الفراندا إلى السيارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر ، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساويين ، يتحادثان فى غير كلفة وهى تتأبط ذراعه ، حتى إذا بلغا السيارة تنحى البك جانبها حتى تركب هى أولا . هل يتأتى لك أن ترى والديك فى مثل هذه الصورة ؟! يا لها من حاضرة مضحكة ! . يتحركان فى جلال خليق بالمعبودة التى أنجبها ، ولو أن الهانم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترتدى معطفا نفيسا آية فى الذوق والأناقة والغندرة ، وتنطلق سافرة الوجه ، وجه مليح وإن يكن دون الوجه الملائكى بما لا يقاس ، وتشر فيما حوفا شذى عطرا وروعة أسرة ، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف ياتلفان ، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان . شغفا بمعرفة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات ، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبد الرانى إلى كبار الكهنة والسدنة ؟ . قال بهلوه :

— لو تطبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة ..

ابتسمت أسانيرها فى سرور ، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة ، وهى أن طباعها لم تستطع على دمائنها أن تضمن لها السعادة دواما ، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفيتها لتدأرى بها أفكارها السوداء التى تشفق من إطلاعه عليها :

— هو وحده الهادى ، ربنا يزيد طباعك حلاوة حتى تكون من الذين يحبون الناس

ويحبهم الناس ..

فبادرها متسائلا :

— كيف تحبيني ؟

فقالت بإيمان :

— أنت كذلك ، وأكثر ..

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة؟!، ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلا ، هل يمكن أن تخيلها مسهدة طريحة حب وجوى؟، وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون ، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصا لا يدرك الكمال إلا بالحبيب ، اصبر ولا تلو قلبك من الألم ، حسبك أن تحب ، حسبك منظرها الذى يشعشع بالنور وروحك ، وأنغام نبراتها التى تسكر بالتطريب جوارحك ، من المعبودة ينبثق نور تنبذى فيه الكائنات خلقا جديدا ، الياسمين والليلاب من بعد صمت يتاجيان ، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء ، معالم الحى العتيق تنطق عن حكمة الأجيال ، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراصر ، الحنان يفيض من الجحور ، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب ، عصافير الغبطة ترقزق فوق القبور ، الجمادات تنبى في صمت التأملات ، قوس قزح يتجلى في الحصيرة التى تطرح عليها قدميك ، هذه دنيا معبودتى !

— كنت مارة بالأزهر فى الطريق إلى الحسين ، فقابلتني مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكرتنى بالماضى ، هل جد جديد يا بنى ؟
قال :

— الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام !
قالت بحدة ، وفى عينها نظرة غضب تبرق :
— الإنجليز .. الإنجليز !.. متى تنزل عليهم نعمة الله العادل ؟
انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية ، لولا أن أقنعها فى النهاية بأنه لا يجوز أن يغيضوا شخصا أحبه فهمى !. وعادت تتساءل فى قلق ظاهر :
— ماذا تعنى يا كمال ؟. هل نعود إلى أيام البلاء ؟
فقال بامتعاض :

— لا يعلم الغيب إلا الله !.
فاعتراها ضيق بدا فى تقلصات وجهها الشاحب ، وقالت :
— اللهم فنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار ، هذه هى الخطة المثلى ، أما أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعاياذ بالله !.
— هدنى من روعك ، لا محيد من الموت ، الناس يموتون بسبب أو بآخر ، وبلا سبب على الإطلاق !

قالت فى استياء :

— لا أنكر أن قولك حق ، ولكن لهجتك لا تعجبني !

— كيف تريدني أن أتكلم ؟

قالت بصوت مؤثر :

— أريد أن تعلن موافقتك على أنه من الكفر أن يعرض الإنسان نفسه للتهلكة ..

قال فى تسليم ، وهو يدارى ابتسامة :

— أوافق ..

فرمقته بارتباب ، وقالت بتوسل :

— وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان ..

— بالقلب أتكلم ..

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثال ، أنت تتطلع بحماس إلى المثل الأعلى فى الدين والسياسة والفكر والحب ، الأمهات لا يفكرن إلا فى السلامة ، أى أم ترضى أن تدفن ابنا فى كل خمسة أعوام ، لا بد للحياة المثالية من قرايين وشهداء ، .. الجسم والعقل والروح قرايينا ، فهمى ضحى بحياة واحدة فى سبيل ميتة رائعة ، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه ؟. قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطم قلب هذه الأم العيسة ، ميتة تستنزف جرحا وتضمّد جروحا ، يا له من حب .. أجل ، ولكنه ليس الذى بينى وبين بدور وأنت تعلمين ، الحب العجيب حقا هو حبنى لك ، هو شهادة للدنيا ضد المشائمين من خصومها ، علمنى أن الموت ليس أفظيع ما نخاف وأن الحياة ليست أبهج ما نبتغى ، وأن من الحياة ما يغلظ ويفر حتى يلتمس الموت ، ومنها ما يرق ويثرى حتى يهفو إلى الخلود ، ومناداتها لك ما أطربها ، بصوت لا تدرى كيف تصفه ، لا رفيع النبرة ولا غليظها ، مثل « فا » السلم الموسيقى المنبعثة من مكان ، رنينه فى صفاء النور ، ولونه لو تخيلت له لونا فى زرقة السماء العميقة ، دافئ الإيمان ، داعية إلى السبهاء ..

— يوم الخميس القادم سأعقد زواجى متوكلا على الله ..
 — ربنا يوفقك !
 — سيكون التوفيق من نصيبى إذا رضى عنى أبى ..
 — إنه راض عنك ، والحمد لله ..
 — سيقتصر الحضور على الأهل ، ولن تلقى هنالك ما يضايق حضرتك .
 — عظيم عظيم !!
 — وددت لو كانت نينة فى الحاضرين ، ولكن ..
 — ما علينا ، المهم أن تمر الليلة فى هدوء ..
 — لم يرغب عنى هذا بطبيعة الحال ، أنا أعرف الناس بطبعك ، ولن يعدو اليوم
 كتابة العقد وشرب الشربات ..
 — عظيم ، ربنا يهديك إلى سواء السبيل ..
 — كلفت كمال أن يبلغ والدته تحياتى وأن يرجوها عنى ألا تحرمنى من دعائها
 الطيب كما عودتنى من قديم ، وأن تعفو عما كان ..
 — طبعا .. طبعا !!
 — أرجو أن تكرر على سمعى أنك راض عنى .
 — إبنى راض عنك ، والله أسأل أن يكتب لك التوفيق والفلاح إنه سميع
 الدعاء ..

هكذا سارت الأمور ضد مشيئة السيد أحمد ، واضطر إلى مجاراتها أن ينصدع ما
 بينه وبين ابنه ، وكان قلبه فى الحلق أرق من أن يتصدى لياسين بخصام جدى فضلا
 عن القطيعة ، فقبل أن يسلم يده ابنه البكر إلى بنت بهجة ، وأن يبارك
 — بنفسه — العلاقة التى ستضم خليلته السابقة إلى صميم أسرته !. بل لم يقبل
 تدخل أمينة حين أعربت له عن رجائها فى أن يمتنع « إخوة فهمى » عن شهود زواج
 ياسين من مريم ، فقال لها بلهجة حاسمة « فكرة سخيفة ، من الناس من يتزوج من
 أرملة أخيه على حبه والوفاء له ، ومريم لم تكن زوجة فهمى ولا حتى خطيبته ، وذلك
 تاريخ قديم مضى عليه ستة أعوام ، لست أنكر أنه لم يوفق فى اختياره ولكنه حسن

النية بقدر ما هو بغل ، ولم يسيء إلى أحد كما أساء إلى نفسه ، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها ، وفتاة مطلقة ، الأمر لله وذنبه علي جنبه .. سكنت أمينة كأنما سلمت بحجته ، فإنها وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيد إلا أنها لم تكن من القوة بحيث تجعلها تراجع أو تجادله ، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأن ياسين دعاها إلى حضور زواجه ، وأنها تفكر في ادعاء المرض لتتخلف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها .

وجاء يوم الخميس ، فذهب السيد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمد رضوان ، حيث وجد ياسين وكال — الذى سبقه إليه — ، استقبله ، ثم لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت و خليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة ، ولم يكن في البيت من آل مريم سوى بضع نساء ، فاطمأن السيد أحمد إلى مرور اليوم بسلام ! . وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى معالم مألوفة في البيت ، مر بها من قبل في ظروف جد مختلفة ، فهجمت عليه ذكريات الماضي ممددة في نفسه ألوانا من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذى جاء يمثله كوالد وقور للعريس ، راح يلعن في سره ياسين الذى أوقعه — وأوقع نفسه وهو لا يدري — في هذا المأزق ، غير أن الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه ويمنيها قائلاً : إنه ليس على الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأم ، وأن يجبد ياسين في مريم زوجا صالحة — بكل معنى الكلمة — وأن يقيه نزق أمها ، ثم سأل الله السترا ! .

وكان ياسين أخذ زينتته ، بادی السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه ، وسره — على وجه الخصوص — أن لم يتخلف أحد من إخوته عن الحضور ، وكان يشفق من أن تؤثر الأم في بعضهم فيتخلف ! . أكان في وسعه أن يستغنى عن مريم إكراما لهم ؟ كلا ، أحبها ، ولم تجعل هي من سبيل إليها إلا الزواج فلم يكن من الزواج بد ، لم لا ؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو مما يكثر لعواقبها ، ثم إن مريم أول امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر ، وهو إلى هذا متفائل جدا بزواجه ويرجو أن تستقر به حياة زوجية دائمة ، أليس كذلك ؟ . بلى وهو يشعر أنه سيكون زوجا طيبا وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان في مقبل الأيام بيتا سعيدا ينمو فيه وينضج ، لقد دار كثيرا وأن له أن يستكن ، في غير الظروف التى اكتنفت زواجه لم

يكن يتردد عن أن يحتفل به احتفالا شاملا لشتى ألوان البهجة والسرور ، ليس كهلا ولا فقيرا ولا هو ممن « يدعون » كراهية الليالى الملاح حتى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذى هو بالمآتم أشبه ، ولكن مهلا ، فللضرورة أحكام ، وليرج نقشفه هذا تحية للذكرى فهمى .

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة — بعد فراق طال أعواما — مؤثرا على تحفظه ولم يخل من حرج بين . تبادلن القبلات والتهانى ، وتحادثن طويلا فشرقن وغربن ، ولكنهن تجنبن الماضى ما استطعن إلى ذلك سبيلا . وكانت اللحظات الأولى أخرجها جميعا . فتوقعت كل واحدة منهن ترديدا للذكرى ماضية على نحو يثير عتابا أو ملاما ، ماذا دعا إلى تقاطعهن أو لم تعكر الجو ، ولكنها مرت بسلام ، ثم وجهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشافة عائشة التى لا زالت نحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة ، ثم سألت مريم وأمها عن « الوالدة » ، فكان الجواب أنها بخير ولم يزدن حرفا . ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعطش إلى حب الناس دواما ، ولولا إحساس بالإشفاق لسأقت الكلام إلى الذكريات الماضية واضحكت ملء فيها ، أما خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحصة ، ومع أن مريم ظلت سنوات لا تتخطر لها على بال فإن أبناء زوجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرة ، وراحت تذكر عائشة بواقعة « الإنجليزي » وتتساءل عما أعمى ياسين وأصممه ! . على أن شعور خديجة العائلى المرهف الذى يتقدم سائر مزايها ، لم يسمح لها بلوك شيء من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجها نفسه ، حتى نهبت أمها إلى ذلك قائلة « سواء رضينا أم لم نرض فستصبح مريم من أسرتنا ! » .. ولا عجب ، فما زالت خديجة حتى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعد آل شوكت « أغرابا » للدرجة ما .

وجاء المأذون فى مطلع المساء ، ثم عقد الزواج ، ودارت أكواب الشربات ، وانطلقت زغرودة واحدة ، وتلقى ياسين التهانى والدعوات الصالحات ، ودعيت العروس إلى مقابلة « سيدها الكبير » وآل زوجها ، فجاءت محاطة بأمها وخديجة وعائشة وقبلت يده وصافحت الآخرين وعند ذلك قدم السيد لها هدية الزواج ، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرد ، واستمرت الجلسة العائلية وقتا غير قصير ، وحوالى التاسعة أخذ الحاضرون فى الانصراف تباعا ، ثم جاء حنطور

فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذى جهز دوره الثالث لاستقبال العروس ، وظن الجميع أن الستار قد أسدل على الزواج الثانى لياسين بخيره وشره ؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمد رضوان حفلا آخر لزواج جديد ، عد بحق مفاجأة غريبة فى بيت السيد أحمد والسكرية وقصر الشوق بل فى حى بين القصرين جميعا !! فعلى حين غرة — ودون سابق إنذار — لم يدر الناس إلا وهبيجة تعقد زواجها على ييومي الشربلى .. عجب الناس لهذا الزواج كل العجب ، وكأنما كانوا يفتنون — لأول مرة — إلى أن دكان ييومي الشربلى تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشريات البيت العتيقة مباشرة ، فوققوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون ، وحق للناس أن يعجبوا ، فالعروس أرملة رجل عرف فى حياته بينهم بالطيبة والتقوى ، وهى معدودة من « سيدات » الحى المحترمات رغم ولعها بالتبرج ، فضلا عن بلوغها الخمسين من عمرها ، بينما كان الزوج من العامة ذوى الجلايب يبيع الخروب والتمرهندي فى دكان صغير ، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجا رسخت قدمه فى الحياة الزوجية عشرين عاما ، أنجب خلالها تسعا من الإناث والذكور !. كل ذلك أثار القيل والقال !! فخاض الناس — دون تورع — فى مقدمات الزواج التى لم يشعر بها أحد ، متى وكيف بدأت ثم كيف نضجت حتى انتهت بالزواج !؟ وأى الطرفين كان البادىء الداعى وأيهما كان المستجيب الملبى !؟ ..

قال عم حسنين الحلاق ، وكان دكانه يقع فى الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنه كثيرا ما كان يرى ست بهيجة واقفة أمام دكان ييومي تشرب الخروب ، ربما تبادلا حديثا قصيرا ، فلا يظن — لحسن نيته — إلا خيرا .. وقال أبو سريع صاحب المقل ، وكان دكانه يتأخر ميعاد إغلاقه عن بقية الدكاكين : « بأنه — أستغفر الله — لاحظ مرات أن قوما يتسللون ليل إلى داخل البيت ، ولكنه لم يكن يعلم أن ييومي بينهم !. وتكلم درويش بائع الفول ، وتكلم القولى اللبان ، ومع أنهم تظاهروا بالبراءة للأب المعيل وانتقدوا — بمراة — الرجل الأخرق الذى تزوج امرأة فى سن أمه ، فإنهم فى قرارة النفس نفسوا عليه حظه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة « غير المناسبة » ، ثم طال الحديث بعد ذلك عن تقدير « ميراثه » المنتظر فى البيت ، وعن العنائم المحتملة من نقود وحلى !.

أما بيت السيد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق فقد زلزلوا زلزلا شديدا ، يا للفضيحة !.. هكذا هتفت ألسنتهم ، وغضب السيد أحمد غضبا أروع آل بيته فتجنبوا مخاطبته أياما متتابعات ، أليس من حق ييومي الشربتي أن يدعى قرابته من الآن فصاعدا ؟ ، ملعون ياسين وملعونة شهواته ، ييومي الشربتي أصبح « عمه » وأنف الجميع في الرغام ، وصاحت خديجة عندما تلقت النبا « يا خير أسود » ، ثم قالت لعائشة « منذأ يلوم نينة بعد الآن ؟ ، إن قلبها لا يكذبها أبدا » ، وأقسم ياسين — بين يدي أبيه — على أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه ، وأنه أحزنها حزنا فاق كل تصور ، ولكن ما حيلتها ؟! ولم تقف الفضيحة عند هذا الحد ، فإنه ما كادت زوجة ييومي الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها ، فعادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذريتها جميعا ، ثم انقضت على ييومي في دكانه ، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستجدون بالمارة حتى نجمهر الناس أمام الدكان السابله وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال ، فخلصوا بين الزوجين وجروا المرأة جراً إلى الطريق ، فوقفت تحت مشرقة بهيجة مشقوقة الجلباب ممزقة الملاعة منقوشة الشعر دامية الأنف ، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحملة أطرافه بالرصاص المنقوع في السم ، والأدهى من هذا كله أنها برحت موقفها رأسا إلى دكان السيد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها ، وتوسلت إليه بلهجة خطابية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها في الرجوع عن غبه ، فاستمع السيد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره ، ثم أفهمها بركة — ما استطاع — أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصور ، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلي من الحزن ، على أنه رغم حقه فكر طويلا وهو بين الحيرة والتساؤل فيما دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب ، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعز عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى ييومي الشربتي دون حاجة إلى تعريض نفسها وأهلها لشتى القلاقل بالاقتران منه ، لم أقدمت على هذه الحماسة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابئة بعواطف ابنتها وأهلها الجدد كأنما قد أصابها مس ؟. ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذى جعلها تفرع إلى الزواج ، بل والتضحية بكثير مما تملك جريا وراء سعادة كان

يضمناها لها الشباب الذى تخلى عنها ؟. تأمل هذه الفكرة فى حزن واكتئاب ، وذكر
مدلته بين يدي زنوبة العوادة التى أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى
العوامة ، تلك المذلة التى زعزعت ثقته بنفسه وحملته — على طمأنينته الظاهرة —
على التجهم للزمان الذى سبق فتجهمه .

على أى حال لم تتمتع بهيجة بزواجها طويلا !!
مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دملا فى ساقها ، ثم تبين بالكشف الطبى
أنها مصابة بمرض السكر فنقلت إلى قصر العيني ، وترامت الأخبار عن خطورة
حالتها أياما ، ثم وافاها الأجل المحتوم .

١٧

أمام سراى آل شداد وقف كمال متأبطا حقيبة صغيرة ، فى بدلة رمادية أنيقة ،
وحذاء أسود لامع ، وقد استقام طريقه فوق رأسه الكبير .. بدا طويلا نحيفا ،
وبرز عنقه من فوق بنيقة القميص غير عاىء بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم .
وكان الجو لطيفا تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب دسمبر ، وكان فى السماء
سحاب متفرق ناصع البياض يتحرك وانيا فيحجب شمس الصباح حينما بعد حين .
وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج ، حتى خرجت منه الفيات
يسوقها حسين شداد ثم دارت فى شارع السرايات ووقفت أمامه ، وأخرج حسين
شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال :

— ألم يجيئنا بعد ؟

نفخ فى البوق ثلاثا ، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب :

— تعال اجلس إلى جانبي ..

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم « صبرا » . وترامى إليه صوت
بدور من ناحية الحديقة ، فالتفت ضوبه فراها مقبلة تركض وفى أثرها عابدة ..
أجل العبودة ، تخطر بقوامها البديع فى فستان سنجالى قصير على أحدث موضحة ،
توارى أعلاه تحت دراعة من الحرير كحلية اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين
الصفائيتين ، وكانت هالة شعرها الأسود تحديق بقذلتها وعارضها وتنوس بمركبة
مشيتها نوسانا تموجيا ، أما أسلاك قصبتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان

الاسط. ، وفي وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى فى طابع من الحسن أنيق ملائكى كأنه سفير سام لدولة الأحلام السعيدة . تسمر فى موضعه تحت تأثير التيار المعنطيسى ، على حال بين اليقظة والنوم ، ولم يبق من الدنيا فى وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان ، وجعلت هى تقترب فى خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة مجسمة حتى سطعه من أعطافها عبير باريسى ، ولما التقت الأعين لمعت فى ناظرها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معا فرد عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه ، عند ذاك خاطبها حسين قائلا :

— اجلسى أنت وبدور فى المقعد الخلفى ..

تأخر كمال خطوة ففتح باب السيارة الخلفى ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية ، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسية ، وانتظر حتى دخلت بدور فالمعبودة ، ثم أغلقه واندس إلى جانب، حسين ، ونفخ حسين مرة أخرى وهو ينظر صوب القصر ، فما لبث أن جاء البواب حاملا سلة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين ، فقال الأخير ضاحكا وهو ينقر بأصبعه على السلة والحقيبة :

— ما جدوى رحلة بلا طعام !؟

وزجرت السيارة وهى تتحرك ، ثم انطلقت إلى شارع العباسية وحسين شداد يقول مخاطبا كمال :

— عرفت عنك أشياء كثيرة ، اليوم يتاح لى أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك ، ويبدو لى أنك رغم نحافتك أكل ، فهل ترانى مخطئا ؟ . فقال كمال باسم ، وكان سعيدا منشراحا فوق مطعم البشر :

— انتظر حتى تعرف بنفسك ..

سيارة واحدة تحملهما معا ، مشاركة من نوع ما تعز فيما عدا الأحلام ، تهمس الأمانى : لو جلست أنت فى المقعد الخلفى وجلست هى فى المقعد الأمامى للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب ، لا تكن طماعا جحودا واسجد حمدا وشكرا ، استنقذ رأسك من شتى الفكر وخلص نفسك من تيار الوجد وعش بكل وعيك فى الساعة الراهنة ، أليست ساعة بالعمر أو أكثر ؟ .

— لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه !

نظر كمال إليه كالمسائل دون أن ينبس . بيد أن قلبه خفق في سرور وحياء لهذا الامتياز الذى خص به وحده ، على حين استطرد حسين قائلا بلهجة المعتذر :

— السيارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع ..

فقال كمال بصوت خافت :

— هذا واضح ..

فعاد الآخر يقول باسم :

— وإذا لم يكن من الانتخاب بد فانتخب من يتسألك ، ولا شك أن ميولنا متقاربة في هذه الحياة ، أليس كذلك ؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التى غمرت قابه :

— بلى ..

ثم وهو بضحك :

— غير أنى قانع بالرحلة الروحية ، أما أنت فيبدو أنك ان تقنع حتى تصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض ..

— ألا تهفو نفسك إلى السياحة فى جنبات الأرض الواسعة ؟

فكر كمال قليلا ، ثم قال :

— يخيّل إليّ أنى مطبوع على حب الاستقرار وكأنى أجفل من فكرة الرحلات ، أعنى من الحركة والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع ، وددت لو كان من الميسور أن يطوف بى العالم حيث أنا !

ضحك حسين سداد ضحكته اللطيفة المنبعثة من القلب ، وقال :

— بـقف فى منطاد ثابت إن استطعت ، وانظر إلى الأرض وهى تدور من تحتك !
تملى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة مليا ، فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين هذين اللونين من الأرستقراطية : أحدهما يمتاز باللطف والبشاشة ، والآخر يتسم بالتحفظ والكبرياء ، وكلاهما بعد ذلك جليل . وقال كمال :

— من حسن الحظ أن الرحلات الفكرية لا تقتضى التنقل حتما ..

فرفع حسين شداد حاجبيه فيما يشبه الشك ، غير أنه عدل عن متابعة الموضوع قائلا بابتهاج :

— المهم الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معا ، وأن ميولنا متقاربة فى هذه الحياة ..

وما يدرى إلا والصوت العذب يجيء من الوراء قائلا :

— وبالاختصار فإن حسين يحبك كما تحبك بدور ..!

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحب الملوّنة بالصوت الملائكى في قلبه فطيرته نشوة وطربا ، كالتغمة الساحرة التى تند فجأة في تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف والمتخيل من الأنغام ، فتترك السامع بين العقل والجنون . المعبود يعث بألفاظ الحب سادرا ، يلقيها عليك غافلا عن أنه يلقي مغنسيوما على قلب يحترق ، استرجع صداها لتستعيد زين الحب في أوتار ثغره ، والحب لحن قديم غير أنه يفضح جديدا عجا في ترنيمة خالقة ، يا إلهى ؟! إننى أفنى من فرط السعادة . قال حسين معلقا على قول أخته :

— عابدة تترجم أفكارى بلغتها النسائية الخاصة ..

انطلقت السيارة إلى السكاكينى فألى شارع الملكة نازلى ثم إلى شارع فؤاد الأول ، ومنه مرقت إلى الزمالك في سرعة عدها كمال جنونية :
— في السماء غيم ، ولكننا في حاجة إلى مزيد منه لنضمن نهارا سعيدا في سفح الهرم .

وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا قائلا :

— انتظري حتى نصل إلى الهرم ، وهنالك اجلسى معه كيفما يخلو لك ..
فسأها حسين ضاحكا :

— ماذا تريد بدور ؟

— تريد يا سيدى أن تجلس مع صاحبك ..

صاحبك !، لم لم تقولى « كمال » ؟ هلا أسعدت الاسم بما لا يطمح إليه صاحبه ؟ ، وخاطبه حسين قائلا :

— أمس سمعها بابا وهى تسألنى : هل يجيء معنا أنكل كمال إلى الهرم ؟ ، فسألنى من يكون كمال ؟ ولما أجبته سأها : « أتحين أن تتزوجى أنكل كمال ؟ » فأجابته بكل بساطة « نعم ! » .

فالتفت كمال إلى الوراء ، ولكنها تراجعت حتى التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها في كتف أختها ، فتزود كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثم أعاد رأسه ، وهو يقول بلهجة الرجاء :

— لعلها عند الجد لا تنسى كلمتها !

ولما بلغت السيارة طريق الجيزة ضاعف حسين من سرعتها فعلا أزيها وساد الصمت ، رحب كمال بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملى سعادته ، كان أمس حديث الأسرة فاختاره ربه زوجها للصغيرة ، يا أغاريد الزهور والسعادة ، احفظ عن ظهر قلب كل كلمة تقال .. املاً نفسك بعبير باريس ، زود أذنك بالهديل والبغام ، علك تعود إليها إذا عادت ليالى السهاد ، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء ودرر الأدباء ، فما بالها تهزك حتى الأعماق وفي فؤادك تفجر ينابيع السعادة !. هذا الذى جعل السعادة سرا تتيه فيه العقول والأفهام . أيها المجدون اللاهثون وراء السعادة إني وجدتها فى الكلمة الفارغة والرطانة الغامضة والصمت أيضا وفى لا شيء ، ربه ما أعظم هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعانق أعاليها فوق الطريق فتنتشر سماء من الخضرة اليانعة ، وهذا النيل الجارى مكتسبا من وشى الشمس غلالة من اللآلىء ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرة ؟ ، فى رحلة إلى الهرم وأنا فى السنة الثالثة ، فى كل رحلة عاهدت نفسى بالعودة إليه منفردا ، ورايك تجلس من ترى بوحيا كل شيء جديدا وجميلا حتى مجرى الحياة الأثرية فى الحى العتيق ، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه ؟ .. نعم : أن تواصل السيارة انطلاقها على هذه الحال التى نحن عليها إلى الأبد ، ربه أهذا هو الجانب الذى طالما أعيأك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب ؟ ، هبط عليك من وحى الساعة يكتنفه المحال ، اسعد بالساعة المتاحة ، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيرا ، وعمّا قليل تقف عند قدميه كالتملة عند أصل الشجرة الفارعة ..

— نحن ذاهبون إلى زيارة قراة جدنا الأول !

فقال كمال ضاحكا :

— لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية ..

فقال حسين ساخرا :

— وطن أجّل مخلفاته قبور وجثث !.. (وهو يشير صوب الهرم) انظر إلى

الجهد الضائع ..

قال كمال بحماس :

— ذلك الخلود !..

— أوه .. سوف تنشط كمعادتك للدفاع ، أنت وطني لحد المرض ، لن نختلف في هذا ، ربما كان أحب إلى أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر .. فقال كمال وهو يوارى ألمه تحت ابتسامة رقيقة :

— ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أم الأرض وطنية ! ..

— نعم ، الوطنية مرض عالمي ، لكنني أحب فرنسا نفسها ، وأحب في الفرنسيين مزايا لا تمت إلى الوطنية بسبب ..

هذا محزن مؤسف حقا بيد أنه لا يثير حفيظته ، لأنه صادر عن حسين شداد .. إسماعيل لطيف يخفقه أحيانا باستهائته .. حسن سليم يقضبه أحيانا بتكبره .. أما حسين شداد فيحظى برضاه علي أي حال من الأمر .

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صف طويل من السيارات الفارغة ، ولاح خلق كثير من هنا وهناك ، تفرقوا جماعات صغيرة ، ومنهم من امتطى حمارا أو جملا أو تسلك الهرم ، غير باعة ومكاريين وجمالين ، أرض واسعة لا تحد إلا أن الهرم انطلق في وسطها كارد خرافي ، أما تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة ، رهوس أشجار وخط مياه وأسطح عمارات ، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كله ؟ ، والبيت القديم ؟ ، أين أمه وهي تسقى الدجاج تحت سقيفة الياسمين ؟ .

— فلنترك كل شيء في السيارة لننتجول أحرارا ..

غادروا السيارة ، ومضوا صفا واحدا بدأ من السيارة بعابدة فحسين ثم بلور ، وأخيرا كمال الذي أمسك بيد صديقه الصغيرة ، وطافوا بالهرم الأكبر متصفحين أركانه ثم أوغلوا في الصحراء . وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم ، غير أن الهواء هفا لطيفا منعشا ، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء ، وانتشرت تجمعات السحب في آفاق السماء ترسم في اللوحة العلية صورا تلقائية تعبث بها يد الهواء كيفما اتفق . قال حسين وهو يملأ رئتيه بالهواء :

— جميل .. جميل ..

ورطنت عابدة بالفرنسية ، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنها تترجم قول أخيها ، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها ، فخففت من غلوائه في التعصب للغته القومية من ناحية ، وفرضت نفسها على ذوقه كأمانة من أمارات

الحسن النسائي من ناحية أخرى . قال كمال بتأثر ، وهو يتأمل ما حوله :
— جميل حقا ، سبحان الله العظيم !

فقال حسين ضاحكا :

— إنك تجد دائما وراء الأمور إما الله وإما سعد زغلول ..

— أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول !

— ولكن دأبك على ذكره يضيف عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال

الدين ، (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حى الدين ؟!

أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما ؟ ، وهل يمكن أن تشاركه عابدة في
سخريته ؟ ، ترى ما رأيكما في الحى القديم ؟ ، وبأى عين تنظر العباسية إلى بين
القصرين والنحاسين ؟ ، هل مسك الخجل ؟ ، مهلا إن حسين لا يكاد يبدى أى
اهتمام بالدين ، المعبودة فيما يبدو أقل اهتماما منه ، ألم تقل يوما إنها تحضر دروس
الدين المسيحى فى الميردى ديه وأنها تشهد الصلاة وتترنم بأناشيدها ؟ ، ولكنها
مسلمة ! ، مسلمة رغم أنها لا تعرف عن الإسلام شيئا يذكر ! ، مارأيك فى هذا ؟ ،
أحبها ، أحبها لحد العبادة ، وأحب دينها رغم وخز الضمير ، أعترف بهذا مستغفرا
ربى !.

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آى الجمال والجلال ، ثم قال :

— هذا ما يستهوينى حقا ، أما أنت فمجنون بالوطنية ، قارن بين هذه الطبيعة

الجليلة وبين المظاهرات وسعد وعدلى واللوريات المحملة بالجنود !

فقال كمال باسما :

— الطبيعة والسياسة كلتاها شيء جليل ..

تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بتداعى المعانى أمراها ما :

— كدت أنسى ، لقد استقال زعيمك !

فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب ، فقال الآخر بقصد إغاظته :

— استقال بعد أن ضيع السودان والدستور ، هه ؟!

قال كمال بهدوء لم يكن ينتظر منه فى غير هذه الظروف :

— كان قتل سيرلى ستاك ضربة موجهة إلى وزارة سعد ..

— دعنى أكرر على سمعك ما قاله حسن سليم ، قال : إن هذا الاعتداء مظهر

للكراهية التي يضمهرها البعض — ومنهم القتلة — للإنجليز ، وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهييج هذه الكراهية !.

كظم كمال الغيظ الذي أثاره « رأى » حسن سليم في نفسه ، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة :

— هذا هو رأى الإنجليز ، ألم تقرأ برقيات الأهرام ؟ ، فليس عجيبا أن يردده الأحرار الدستوريون ، إن من مفاخر سعد أن يثير العداوة ضد الإنجليز ..
تدخلت عايذة متسائلة ، وفي عينيها نظرة عتاب أو تحذير مازجتها ابتسامة جذابة :

— رحلة أم سياسة ؟

فأشار كمال إلى حسين ، وهو يقول معتذرا :

— إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع ..

فقال حسين ضاحكا ، وهو يتخلل شعره الحريري الأسود بأصابعه الرشيقة :

— رأيت أن أقدم تعزيتي في استقالة الزعيم ، هذا كل ما هنالك !

ثم متسائلا بلهجة جدية :

— ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم في حيكم على عهد

الثورة ؟

— كنت دون السن القانونية !

فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة :

— على أى حال تعد واقعة دكان البسبوسة اشتراكا في الثورة !

وضحكوا جميعا ، حتى بدور اشتركت في الضحك محاكاة لهم ، فصدر عنهم

أوركسترا رباعى مكون من بوقين وكان وصفارة ، وبعد هنيهة صمت ، قالت عايذة

كأنما لتدافع عنه :

— كفاية أنه فقد أخاه !..

فقال كمال مدفوعا بشعور الفخار الذى دب في قلبه ، واستزادة من عطفهما :

— أجل ، فقدنا خير أسرتنا ..

فعادت تسائله باهتمام :

— كان في الحقوق .. أليس كذلك ؟ ، كم كان يكون عمره لو عاش حتى

الآن ؟

— كان يكون في الخامسة والعشرين .. (ثم بلهجة أسيفة) .. كان نابغة بكل معنى الكلمة ..

فقال حسين ، وهو يفرقع بأصبعيه :

— كان !.. هذه هي الوطنية ، كيف تتعلق بها بعد ذلك ؟!

فقال كمال باسم :

— سوف نكون جميعا في خبر كان ، ولكن شتان بين مينة ومينة !

فرقع حسين بأصبعه مرة أخرى دون تعليق ، يبدو أنه لا يرى في قوله معنى ، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم ؟ ، لم يعد به ما يسر ، شغل الشعب بعداوته الحزبية عن الإنجليز ، سحقا لهذا كله ، يخلق بمن يتسم الفردوس ألا يكرب صدره بهموم الأرض ، ولو إلى حين ، أنت تمشي في معية عايدة في صحراء الهرم ، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناء الهرم ، معبود وعابده يسيران معا فوق الرمال ، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلى بعد الحصى ، لو كان مرض الحب معديا ، ما باليت بالآمه ، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل هالة شعرها ويسرى في أعماق صدرها .. ألا ما أسعد الهواء ! ، أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مرددة بلسان الزمان : ليس أقوى من الموت إلا الهوى ، تراها على بعد أشبار منك ولكنها في الحق كالأفق تخاله منطبقا على الأرض وهو في ذروة السماء يخلق .. كم منيت النفس بأن تمس في هذه الرحلة راحتها ، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها ، لم لا تكون شجاعا فتتهوى إلى انطباعة قدمها فتلتثمها ؟ .. أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابا يقي من آلام الحب في ليالي الفكر ؟ ، وا أسفاه !! كل الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون ، فرغل أو جُنّ ..

شعر باليد الصغيرة تجذب يده ، فنظر إليها ، فرفعت نحوه ذراعها داعية إياه إلى حملها ، فانحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أن عايدة قالت معترضة :

— كلا ، بدأ التعب يساورنا ، فلنسترح قليلا ..

على صخرة عند رأس المنحدر المفضي إلى أبى الهول جلسوا على نفس الترتيب الذى ساروا عليه ، مد حسين ساقيه غارزا كعبيه في الرمال ، جلس كمال واضعا

رجلا على رجل ضاماً بدور إلى جنبه ، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها
فتناولت مشطها وراحت تسرح شعرها وترتب خصلاته بأناملها .

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال ، فسأله منتقدا :
— لماذا تلبس الطربوش في هذه الرحلة ؟

فنزح كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلاً :

— ليس من المألوف عندى أن أسير بدوني ..

فضحك حسين قائلاً :

— إنك مثال طيب للرجل المحافظ !

تساءل كمال : ترى هل يعنى بقوله مدحاً أم ذماً ؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح ،
ولكن عايدة مالت إلى الأمام قليلاً ملتفتة نحوه لتلقى نظرة على رأسه فنسي ما كان
بسييله ، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق ، إن رأسه يبدو الآن حاسراً
فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة ، وها هما العينان
الجميلتان ترنوان إليه ، فأى أثر يعكسه عليهما ؟ تساءل الصوت الموسيقى :

— لماذا لا ترى شعر رأسك ؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل ، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوى وجميع
الرفاق بالحى العتيق ، ياسين لم ير يطلق شعره وشاربه حتى توظف ، هل يتصور أن
يلقى أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصفف ؟

— ولم أريه ؟

فتساءل حسين مفكراً :

— ألا يكون أجمل ؟

— ليس هذا بذى بال ..

حسين ضاحكاً :

— تخيل إلى أنك خلقت لتكون معلماً .

مدح أم ذم ، على أى حال ليهنا رأسك بالرعاية السامية .

— أنا خلقت لأكون طالباً ..

— جواب جميل .. (ثم رفع طبقه صوته متسائلاً) .. لم تحدثنى عن مدرسة

المعلمين حديثاً شافياً ، كيف وجدتتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين ؟

— أرجو أن تكون مدخلا لا بأس به للعالم التي أتطلع إليها ، وتراني أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معاني للكلمات المحيرة مثل « أدب » و « فلسفة » و « فكر » ..

— هذه هي الثقافة الإنسانية التي نتطلع إليها ..
فقال كمال بحيرة :

— ولكنها خضم مضطرب فيما يبدو ، ينبغي أن نعرف الحدود ، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو أوضح ، إنها مشكلة ..
لاح الاهتمام في عيني حسين الجميلتين وهو يقول :

— الأمر بالنسبة إلى لا يعد مشكلة ، إلى أقرأ قصصا ومسرحيات فرنسية مستعينا بعائدة على فهم الصعب من نصوصها ، وأستمع معها أيضا إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو ، وقد طالعت أخيرا كتابا يلخص الفلسفة الإغريقية في يسر وسهولة ، لست أبغى إلا السياحة للعقل والجسم ، أما أنت فتريد أيضا أن تكتب ، وهذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف ..

— الأدهى من ذلك أنني لا أدري فيم أكتب على وجه التحديد ١.
تساءلت عائدة بلهجة باسمية :

— أتريد أن تكون مؤلفا ؟

فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التي عزت على البشر :
— ربما ! ..

— شاعرا أم ناثرا .. (وهي تميل إلى الأمام لتتمكن من رؤيته) .. دعني أخمن بفراستي ..

استفدت الشعر في مناجاة طيفك ، الشعر لغتك المقدسة فلا أمتنه ، غاضت دموعي يناعيه في سواد الليالي ، ما أسعدني في مرمى ناظريك وما أتعسني ، إلى أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس ..

— شاعر ، أجل أنت شاعر ..

— حقا ؟ كيف عرفت هذا ؟

اعتدلت في جلستها ، فندت عنها ضحكة خافتة كأنها وسوسة الأمانى ، ثم

قالت :

— الفراسة بداهة ، فكيف تطالب بتفسير لها ؟

— إنها تعبث !

قال حسين ذلك وهو يضحك ، فبادرت تقول :

— كلا ، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكنه ..

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة ، البستان مغناها ، رحيق الزهر شرابها ، الشهد نفثها ، وجزء الأدمى الطائف بعرشها .. لسعة ، .. لكنها قالت « كلا » . عادت تسأله :

— هل قرأت من القصص الفرنسية شيئا ؟

— بعض ما ترجم عن ميشيل زيفاكو ، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين ..

فقالت بحماس :

— لن تكون مؤلفا حتى تتقن الفرنسية ، اقرأ ليزاك وجورج صاند ، ومدام دي ستال ولوتي ، واكتب بعد ذلك قصة ..

فقال كمال باستنكار :

— قصة ؟! ، إنها فن على الهامش ، إنما أتطلع إلى عمل جدي ..

فقال حسين جادا :

— القصة في أوربا عمل جدي ، ثمة كتاب يتفرغون لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين ، لست أهرف بما لا أعرف ، ولكن أستاذ اللغة الفرنسية أكد لي ذلك ..

هز كمال رأسه الكبير في شك ، فاستطرد حسين قائلا :

— حاذر أن تغضب عايده ، إنها قارئة معجبة بالقصة الفرنسية ، بل إنها بطلة من بطلاتها !

فمال كمال إلى الأمام قليلا ، ومد إليها بصره ليقرا أثر قول حسين فيها مغتتا الفرصة المتاحة ليملاً بعينه من منظرها البهيج ، ثم تسأل :

— كيف كان ذلك ؟

— إن القصة تستغرقها استغراقا غريبا ، فرأسها مغمم بحياة خيالية ، مرة رأيتها

تختال أمام المرأة ، فسألتها عما بها ؟ فأجابتنى « هكذا كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندرية ! » .

قالت عايدة وهى تقطب تقطبية باسمه :

— لا تصدقه ، إنه أغرق منى فى الخيال ، ولكنه لا يرتاح حتى يرمىنى بما ليس فى ..

أفروديت ؟ .. ما أفروديت يا معبودتى ؟ ، يحزننى وحق كمالك أن تتخيلى نفسك فى صورة غير ذاتك !
قال بإخلاص:

— لا عليك من هذا ، إن أبطال المنفلوطى وريدر هجارد يستأثرون بخيالى ..!

فضحك حسين ضحكة رائعة ، وهو يهتف :

— ما أحرى أن نجتمعنا كتاب واحد ! ، لماذا نبقى على الأرض ما دمنا نهفو هكذا إلى الخيال ؟ ، عليك أنت أن تحقق هذا الحلم ، لست كاتباً ولا أريد أن أكون كاتباً ، ولكن فى وسعك أنت أن نجتمعنا إذا شئت فى كتاب واحد .

عايدة فى كتاب تكون أنت مؤلفه ! ، صلاة أم تصوف أم جنون ؟
— وأنا ؟

علا صوت بدور فجأة متسائلاً فى احتجاج فضج ثلاثتهم بالضحك ، وقال حسين فى لهجة تنبيه :

— لا تنس أن تحجز مكاناً لبدور ! .

فقال كمال وهو يضم الصغيرة بساعده فى حنان :

— ستكونين فى الصفحة الأولى ..

تساءلت عايدة وهى ترمى بناظرها إلى الأفق :

— ماذا تكتب عنا ؟

لم يدر ماذا يقول ، فدارى ارتياكه بضحكة وانية ، ولكن حسين أجاب عنه

قائلاً :

— كما يكتب المؤلفون ، قصة غرامية غنية تنتهى بالموت أو الانتحار ! .

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون .

— أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل وحده ؟

فالت عابدة ذلك ضاحكه .

البطل أعجز من أن يتصور معبوده فانيا ، وتسأل :

— هل حتم أن تنتهى بالموت أو الانتحار ؟

فأجاب حسين ضاحكا :

— هى النهاية الطبيعية لقصة غرام عنيف !.

فرارا من الألم أو ضئاً بالسعادة تراءى الموت أمنية . قال كالساخر :

— شئ مؤسف حقا ..

— ألم تكن تعرف هذا ؟، يبدو أنك لم تجرب الغرام بعد ..!

من لحظات الحياة الحية لحظة يقوم البكاء فيها مقام البنج فى العملية الجراحية ،

وعاد حسين يقول :

— المهم عندى ألا تنسى أن تحجز لى مكانا أيضا فى كتابك ولو كنت بعيدا عن

الوطن ..

حدجه كمال بنظرة طويلة ، ثم سأله :

— ألا تزال تراودك فكرة السفر ؟

فانساب الجد فى لهجة حسين شداد ، وهو يقول :

— كل ساعة ، أريد أن أحيا ، أريد أن أسيح على وجهى طولاً وعرضاً وارتفاعاً

وعمقا ، ثم ليأت الموت بعد ذلك ..

وإن جاء قبل ذلك ؟، هل يمكن أن يحدث هذا ؟، ما للحزن يكاد أن

يقتلك ؟، أنسيت فهمى ؟، الحياة لا تقاس بالطول والعرض دائماً ، كانت

حياتك لحظة ولكنها كانت كاملة ، أو فما جدوى الفضيلة والخلود ؟، لكنك حزين

لسبب آخر ، كأنما عز عليك أن يهون فراقك على الصديق المشتوق إلى السفر ،

كيف تكون دنياك من بعده ؟، كيف تكون إذا حال رحيله بينك وبين القصر

الحبيب ؟، ما أكذب ابتسامة اليوم ، إنها الآن قرية ، صوتها فى أذنك وعيبرها فى

أنفك فهل تستطيع أن توقف عجلة الزمن ؟، هل تعيش يقية العمر حائماً من بعيد

حول القصر كالجائنين ..

— إن أردت رأى فأجل سفرك حتى تتم دراستك ..

فالت عابدة بحماس :

— هذا ما قاله له بابا مرارا ..

— هو الرأى الصواب ..

فتساءل حسين متهمكا :

— أمن الضرورى أن أحفظ المدنى والرومانى كى أتذوق جمال دنياى ؟

عادت عايذة تخاطب كمال قائلة :

— شدم ما يسخر أبى من أحلامه ، إنه يتمنى أن يراه قضائيا أو عاملا معه فى دنيا

المال ..

— القضاء .. المال !. لن أكون قضائيا ، حتى إذا نلت الليسانس وفكرت

جديا فى اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسى وجهتى ، أما المال فهل تطمعون

فى مزيد منه ؟ ، إننا أغنى مما يطيق الإنسان ..

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم مما يطيق ، قدما تخيلت أن تكون تاجرا

كأبيك وأن تملك خزانة كخزانته ، لم تعد الثروة من أحلامك ، ولكن ألا تتمنى أن

تكون قادرا على تجريد نفسك للمغامرات الروحية ؟ ، ما أتعس حياة تستغرقها

مطالب الرزق .

— إن أسرتى جميعا لا تفهم آمالى ، يروننى طفلا مدللا ، قال خالى مرة متهمكا

على مسمع منى « لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد فى الأسرة خيرا من هذا » ، لم

هذا كله ؟ ، لآلى لا أعبد المال ولأتنى أوتر الحياة عليه ، أرأيت ؟! ، إن أسرتنا تؤمن

بأن أى نشاط لا يؤدى إلى أى زيادة فى الثروة ضرب من العبث الباطل ، وتراهم

يحملون بالألقاب كأنها الفردوس المفقود ، أتدرى لم يحبون الخديو ؟ ، طالما قالت لى

ماما : « لو بقى أفندينا على العرش لنال أبوك الباشوية من زمن بعيد » ، والمال

العزير يهون وينفق بلا حساب فى استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته .. (ثم وهو

يضحك) .. لا تنس أن تسجل هذه الغرائب إذا فرغت يوما لتأليف الكتاب

الذى اقترحته عليك .

لم يكذب يفرغ من حديثه حتى بادرت عايذة تخاطب كمال قائلة :

— أرجو ألا تتأثر فى تأليفك بتحمل هذا الأخ العاق حتى لا تظلم أسرتنا !

فقال كمال بلهجة ساجدة :

— معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يدي !، وفضلا عن ذلك فليس فيما قال

ما يشين ..

فضحكك عايذة في ظفر ، على حين ارتسمت على شفتي حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالدهش . وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنه لم يكن صادقا كل الصديق في حملته على أسرته ، أجل لم يشك في قوله أنه لا يعبد المال وأنه يؤثر الحياة عليه ، وأنى — إلى ذلك — أن يرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتساع أفق صاحبه أولا ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنه خيل إليه أن ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد ، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده ، كأنما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله ، أو لعله كان يسخر منها حقا ، ولكنه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشك في أنها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجاراته له في انتقادها . عاد حسين يتساءل في هدوء باسم :

— أينما سيكون بطل الكتاب ، أنا أم عايذة أم بدور ؟

هفت بدور « أنا » ، فقال لها كمال وهو يشد عليها « اتفقنا » .. ثم أجاب

حسين :

— سيقى هذا سرا حتى يولد الكتاب !

وأى عنوان ستختار له ؟

— حسين حول العالم !

فضبح ثلاثتهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية « البربرى

حول العالم » التى كانت تمثل فى الماجستيك ، وسأله حسين بالمناسبة قائلًا :

— ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد ؟

— كلا ، فى السينما الكفاية الآن ..

قال حسين مخاطبا عايذة :

— إن مؤلف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة

مساء !

فقال له عايذة متهمكة :

— على أى حال فهو خير من الذين يسمح لهم بالطواف حول العالم !

ثم التفت صوب كمال ، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفا :
 — أمن العيب حقاً أن يتمنى أب أن ينشأ ابنه على مثاله في النشاط والجاه ؟! ،
 أمن العيب أن نسعى في الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية ؟
 ابقى حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب والقيم العالية كى تسمو
 جميعا بلثم موطء ، قدميك ، كيف أجيب. وفي الجواب الذى تودين انتحارى ؟ ،
 يا وىج قلبك من مرام لا يرام !
 — لا عيب فى هذا أبدا .. (ثم بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج
 الشخص !

فاستطردت قائلة :

— وأى مزاج لا يوافق هذا ؟! ، والعجيب أن حسين لا يزهد فى هذه الحياة
 الرفيعة طموحا إلى ما هو أرفع منها ، كلا يا سيدى ، إنه يحلم بأن يحيا بلا عمل ، فى
 فراغ وبطالة ! ، أليس هذا بعجيب ؟! ..

تساءل حسين ضاحكا فى سخرية :

— ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم ؟
 — لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلع إليها ، أين أنت من أولئك يا تنبل ؟
 التفت حسين ناحية كمال قائلا بصوت لم يخل من أثر للغيط :

— القاعدة المتبعة فى أسرتنا هى العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوى النفوذ
 فتأمل من وراء ذلك فى رتبة البكوية ، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإتماء الثروة
 ومصادقة النخبة الممتازة حتى تنال الباشوية ، وأخيرا أن تجعل غايتك العليا فى الحياة
 التودد إلى الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تنال بالعمل أو اللباقة ، أتدرى
 كم كلفتنا زيارة الأمير الأخيرة ؟ .. عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت فى ابتياع
 أثاث جديد وتحف نادرة من باريس !

فعارضته عابدة قائلة :

— لم ينفق ذلك المال توددا للأمير من حيث هو أمير فحسب ، ولكن لكونه
 شقيق الخديو ، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصدقة لا التودد والزلفى ، وهو بعد
 شرف لا يمارى فيه عاقل .

ولكن حسين تمدادى فى عناده قائلا :

— ولكن بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعدلى وثروت ورشدى وغيرهم ممن لا يمكن أن يتهموا بالإخلاص للخدو !.. أليس فى ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأن الغاية تبرر الوسطة ؟..

— حسين !..

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل ، بصوت نم عن الكبرياء والاستياء والتأنيب ، كأنما أرادت أن تنبهه إلى أن هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو فى الأقل أن يجهر به على مسمع من « غريب » فاحمر وجهه خجلا وألما وفترت السعادة التى حلق فى أجوائها ساعة بالاندماج فى هذه الأبرة الحبيبة ، وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفى عينيها نظرة موحية بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر فى جبينها ، كانت بالجملة غضبى ولكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب ، ولم يكن رآها من قبل منفعة ، ولم يكن يتصور أنها تنفعل ، فرنا إلى وجهها فى دهش وارتباغ ، وامتلا إحساسا بالحرج حتى ود لو يتنحل عذرا يتنحى به عن متابعة الحديث ، ولكن لم يمض على ذلك ثوان حتى أفاق من غشيتها وراح يتملى جمال الغضب الملكى فى الوجه الملائكى ، ويتنوق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهم السماء ، ثم عادت كأنما لتسمعه هو :

— إن صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو .. عند ذلك رغب كمال صادقا فى أن يبدد هذه السحابة ، فسأل حسين مداعبا :

— إذا كان هذا رأيك فكيف تحتقر سعد لأنه كان أزهرى ؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول :

— إلى أكره التودد إلى الكبراء ، ولكن لا يعنى هذا أن أحترم العامة .. إلى أحب الجمال وأزدرى القبح ، ومن المؤسف أن الجمال قل أن يوجد فى العامة !.. ولكن عابدة تدخلت فى الحديث قائلة بصوت معتدل :

— ماذا تعنى بالتودد إلى الكبراء ؟ إنه سلوك يعاب على من ليس منهم ، ولكن أظننا من الكبراء أيضا ، وليس توددنا إليهم دون توددهم إلينا ..

فتطوع كمال للإجابة عن حسين قائلا بإيمان :

— هذا حق لا مرأ فيه ..

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول :

— حسينا جلوسا ، هلموا نواصل السير ..

نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أوى الهول في جو ظليل انتشرت تجمعات السحب في آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونا أبيض ناصعا يقطر صفاء وملاحة ، والتقوا في طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالا ، فقال حسين : مخاطبا عابدة ، ولعله أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر :

— إن الأوربيات يتفرسن في فستانك باهتمام ، مبسطة ؟

فافتت ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح ، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء لطيف :

— طبعى ..!

فضحك حسين وابتسم كمال ، ثم قال الأول يخاطب الآخر :

— عابدة تعد مرجعا للذوق الباريسى في حيننا جميعه ..

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم :

— طبعى ..

فكافأته عابدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام ، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذى تركه النزاع الأرستقراطى البديع ! .. العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها . فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة ، المعبود الذى يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقربين ، فما وجه العجب في هذا ؟! ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة ، فلعله اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه ، أعجب به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه ، كل أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامى . انظر إليها ، إن الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الوانى ولكنها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشى تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة ، وإذا التفت إلى الوراء فرأيت آثار القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال ، فاعلم أنها تقيم معالم للطريق المجهول يتهدى بها السالكون إلى سباحات الوجد وإشراقات السعادة ، في زيارتك السالفة لهذه

الصحراء كان نهارك ينقضي في اللعب والوثب سادرا عن نفحات المعاني لأن برعمة قلبك لم تكن تفتحت .. أما اليوم فأوراقها ندية برضاب الهوى تقطر بهجة وتنز ألما فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامي .. حياة القلب وأنشودة النور ..

— جعت ..

ندت الشكوى عن ثغر بدور ، فقال حسين :
— أن لنا أن نعود ، ما رأيكم ؟! على أى حال أماننا مسافة طويلة سيجمع ..

نهايتها من لم يجمع ..
ولما بلغوا السيارة أخرج حسين الحقيبة والسلة المملوءتين بالطعام ، فوضعهما على مقدمة السيارة وراح يزيح الغطاء عن سلته ، غير أن عابدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم ، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطوا الحقيبة والسلة في وسطها ، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى . بسط كمال جريدة كانت في حقيقته وطرح عليها الطعام الذى جاء به ، دجاجتين وبطاطس وجبنا وموزا وبرتقالا ، ثم تابع يذى حسين وهو يستخرج من السلة طعام « الملائكة » ، فإذا به : سندوتشات أنيقة ، وأكواب أربع ، وتمر موز .. ومع أن طعامه كان أدهم فإنه بدا — فى ناظره على الأقل — عاطلا عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء ، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عما إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة ، فأخرج كمال من الحقيبة سكاكين وشوكا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح ، وهنا نزع عابدة سدادة التمر موز وراحت تملأ الأكواب الأربع ، فإذا بها تمتلئ بسائر أصفر كالذهب ، فلم يملك كمال أن يسأل داهشا :

— ما هذا ؟

فضحكت عابدة ولم تجب ، أما حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه :

— بيرة ..!

— بيرة ؟

هتف كمال كالحائف ، فقال حسين بتحد وهو يشير إلى السندوتشات :

— ولحم خنزير !..

- أنت تعبت في ١. لا أصدق هذا ..
- بل صدق وكل ، يا لك من جحود ١ ، جئناك بأنفس ما يؤكل وألذ ما يشرب ١.
- أنفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج ، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول ، وكان أشد ما يزعجه أن هذا الطعام والشراب جهز في البيت ، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم ١
- ألم تذق شيئا من هذا من قبل ؟
- سؤال في غير حاجة إلى جواب .
- إذن ستذوقه لأول مرة ، والفضل لنا ١
- هذا محال ..
- له ؟
- له ١. سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضا ..
- رفع حسين وعائدة وبدور أكوأبهم وشربوا جرعات ثم أعادوها ، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له « رأيت أنه لم يحدث لنا شيء ١ » ، ثم قال حسين :
- الدين ١. هه ؟ كوب البيرة لا يسكر ، ولحم الخنزير كله لذة وفوائد ، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام ١
- تقلص قلب كمال لوقع هذا الكلام ، بيد أنه لم يخرج عن رفته وهو يقول معاتبا :
- حسين . لا تجدف ..
- ولأول مرة منذ افتتحت المأدبة تكلمت عائدة فقالت :
- لا تسمى بنا الظن ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلا ، ولعل مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيتنا ، أما لحم الخنزير فلديذ جدا ، جرّه ولا تكن حنبليا ، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيما هو أهم من هذا كله ..
- ومع أن كلامها لم يختلف في جوهره عن كلام حسين ، فإنه نزل على قلبه المتألم بردا وسلاما ، وإلى هذا فقد صادف منه نفسا حريصة كل الحرص على ألا تكدر لهم صفوا أو تخدش لهم شعورا ، فابتسم في تسامح رقيق ، ومضى يتناول طعامه وهو يقول :
- دعوني آكل الطعام الذي آلفه ، وأكرموني بالمشاركة فيه .

ضحك حسين ، ثم قال مخاطبا كمال وهو يشير إلى أخته :
 — اتفقنا في البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا ، ولكن يخيل إليّ
 أننا لم نحسن تقدير ظروفك ، على هذا فإننى سأتحلل من ذلك الاتفاق إكراما لك ،
 ولعل عايذة أن تقتدى بى ..

فنظر كمال نحوها برجاء ، فقالت باسمه :

— إذا وعدتني بالألا تسيء الظن بنا .. !

فقال كمال بابتهاج :

— لا عاش من أساء بكم الظن ..

أكلوا بشهوة عظيمة ، حسين وعايذة أولا ثم تشجع كمال بهما فتابعهما ، وكان
 يقدم الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم
 أقبلت على الفاكهة ، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين
 وعايذة وهما يأكلان كيف يتناولن طعامهما ، أما حسين فكان يلتهم الطعام
 دون مبالاة كأنه منفرد ، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذى يمثل فى عيني كمال
 الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها ، وأما عايذة فقد كشفت عن أسلوب
 جديد من الرشاقة والأناقة والتهديب فى طبيعتها الملائكية سواء فى قطع اللحم أو
 القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ ، ومضى هذا
 كله يسيرا هينا لا أثر للتكلف أو القلق فيه ، الحق أنه انتظر هذه الساعة بتشوف
 وإنكار كأنما كان فى شك من أنها تأكل الطعام كسائر البشر .. ومع أن معرفته
 لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينى أيما إزعاج فإنه وجد فى « غرابته » وخروجه
 عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابة تربطه بأكله ، فارتاح لها خياله
 الحائر المتسائل ، وتناوبه شعوران متناقضان ، قلق بادية الأمر وهو يراها تقوم بهذه
 الوظيفة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، ثم داخله شيء من الارتياح لما قربت هذه
 الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة !. على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام
 عند هذا الحد ، فوجد لها تدفعا إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدى سائر الوظائف
 الطبيعية الأخرى ؟ ، لم يسعه أن يقول لا ، ولم يهن عليه أن يقول نعم ، فأضرب عن
 الإجابة وهو يعانى إحساسا لم يعرفه من قبل تضمن — فيما تضمن — احتجاجا
 صامتا على نوايس الطبيعة !.

- إلى معجب بشعورك الدينى ومثاليته الأخلاقية ..
نظر كمال إليه في حذر المرتاب ، فقال حسين بتوكيد :
- عن صدق تكلمت لا عن دعاة ..
ابتسم كمال في حياء ، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلا :
- بالرغم من هذا ، فإن احتفالكم بشهر رمضان يفوق كل وصف ، أنوار
نضاء ، قرآن يتلى في بهو الاستقبال ، المؤذنون يؤذنون في السلامك ، هه ؟
— إن أنى يحى ليالى رمضان حبا وكرامة واستمساكا بالتقاليد التى اتبعها
جدى ، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم ..
قالت عايدة باسمه :
- وأنا ..
فقال حسين بمجد أريد به السخرية :
- عايدة تصوم يوما واحدا من الشهر ، وربما أفلست قبيل العصر !
فقالت عايدة على سبيل الانتقام :
- وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يوميا ، الوجبات الثلاث المعتادة
ووجبة السحور !
فقال حسين ضاحكا ، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة
سريعة :
- أليس غريبا ألا نعرف عن ديننا شيئا ذا بال ١٩ ، لم يكن عند بابا وماما
معلومات تستحق الذكر ، وكانت مريتنا يونانية ، وعايدة تعرف عن المسيحية
وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام ، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيين ..
(ثم مخاطبا عايدة) .. إنه يقرأ القرآن والسيرة ! ..
فقالت بلهجة ربما دلت على شيء من الإعجاب :
- حقا ١٩. برافو ، ولكن أرجو ألا تسيء في الظن أكثر مما ينبغي ، فإنى أحفظ
أكثر من سورة ..
فغمغم كمال كالحالم :
- بديع ، بديع جدا ، مثل ماذا ؟
فكفت عن الأكل حتى تتذكر ، ثم قالت باسمه :

— أعني أنى كنت أحفظ بعض السور ، لا أدري ماذا تبقى منها .. (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئاً أعياء طلابه) مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد الخ ..

ابتسم كمال ، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً ، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة ، ثم قالت :

— لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما فى الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود ..

فقال كمال بعد تردد :

— إن نساءنا لا تستهوين النحافة ..

فوافقته حسين على رأيه قائلاً :

— ماما نفسها من هذا رأى ، ولكن عابدة تعد نفسها ببارسية ..

عفا الله عن استهانة معبودتى ، شد ما أزعجت نفسك المؤمنة ، كما أزعجتنا من قل خطرات الشك التى صادفتها فى مطالعتك ، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشك من نقد وغضب ؟ هيات ، نمسك لا تنطوى لها إلا على الحب الخالص ، حتى عيوبها فأنت تحبها ، عيوبها ؟! ، لا عيب لها ولو كان ما بها خفة فى الدين واجترأ على المحرمات ، تلك عيوب لو وجدت فى غيرها ، أخشى ما أخشاه ألا تروق فى عيني حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة فى الدين واجترأ على المحرمات ، هل مسك القلق ؟ ، استغفر الله لنفسك ولها ، وقل إن هذا كله عجيب ، عجيب كائى الهول ، ما أشبه حبك به أو ما أشبه بحبك ، كلاهما لغز وخلود !!

أفرغت عابدة آخر ما فى الترموث فى الكوب الرابع ، ثم قالت لكمال بإغراء :

— هلا غيرت رأيك ؟. ما هى إلا شراب منعش ..

فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر ، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعها إلى

فيه ، وهو يقول :

— أنا بدل كمال .. (ثم وهو يتأوه) .. يجب أن نمسك وإلا متنا امتلاء ..

فرغوا من الطعام ، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات ، فخطر لكمال أن يوزعها على الغلمان الذين يتجولون فى المكان ، غير أنه رأى عابدة وهى

تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموت إلى السلة ، فلم ير بدا من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته اذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لآل شداد !. ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول :

— لدينا مفاجأة سارة لك ، أحضرنا معنا فونوغرافا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم ، ستسمع أسطوانات أوربية من مختارات عائدة وأخرى مصرية مثل « حرر فر » ، و « بعد العشى » ، و « حود من هنا » .. ما رأيك في هذه المفاجأة ؟..

١٨

انتصف ديسمبر ، غير أن الجو لم يجاوز حد الاعتدال إلا قليلا على رغم أن الشهر هل بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارس . وكان كال يقترب من سراى آل شداد في خطوات متعددة سعيدة طارحا معطفه المطوى على ساعده الأيسر وقد دل مظهره الأنيق — خاصة مع ملاحظة ميل الجو إلى الاعتدال — على أنه جاء بمعطفه استكمالا لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيلة لتقلب الجو ، وكانت شمس الضحى ساطعة أفرجع عنده أن مجلس الأصدقاء سينعقد في كشك الحديقة — لا في الثوى حيث يجتمعون في الأيام الباردة — وأن الفرص بالتالي ستسنع لرؤية عائدة التي لا يتاح لقاءها إلا في الحديقة ، على أن الشتاء إذا كان يحرمه من لقاءها في الحديقة ، فإنه لم يحل دون رؤيتها في النافذة المشرفة على الممر الجانبى للحديقة أو في الشرفة المطلة على مدخل القصر ، في هذه أو تلك ، وعند مقدمه أو حال منصرفه ، ربما لمحها وهي معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها ، فيرفع نحوها عينيه حانيا رأسه في ولاء العابد ، فتد نحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضىء له أحلام اليقظة وأحلام المنام . على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر ، ثم من النافذة وهو يقطع الممر الجانبى ولكنه لم يجدها لا في هذه ولا في تلك ، فاتجه — وهو يمين النفس باللقاء في الحديقة — نحو الكشك حيث رأى حسين جالسا بمفرده على غير العادة . تصافحا وقلبه يشرق بهجة المودة التي تبعثها في نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح ، أليف روحه وعقله ، واستمع إليه وهو يرحب به في لهجته المرحاة الصافية قائلا :

— أهلا بالمعلم !. الطربوش والمعطف !، لا تنس في المرة القادمة الكوفية والعصا ، أهلا .. أهلا ..

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة ، و طرح المعطف على كرسي وهو يتساءل :

— أين إسماعيل وحسن ؟

— إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم ، أما حسن فقد تلفن لي صباحا بأنه سيتأخر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات .. أنت تعلم أنه طالب مثالي مثل حضرتك ، وهو مصمم على نيل الليسانس هذا العام ..

جلسا على كرسيين متقابلين موليين القصر ظهرهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها ، جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنها ستخلو في الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معا الذي يدعو إليه حسن سليم ، والملاحظات التهكمية اللاذعة التي يبعثها إسماعيل لطيف دون حساب ، استطراد حسين قائلا :

— أنا على العكس منكما طالب ردىء ، أجل إني أستمع إلى المحاضرات مفيدا من قدرتي على تركيز الانتباه ، غير أنى لا أكاد أطبق مراجعة كتبى المدرسية ، قالوا لي كثيرا : إن دراسة القانون تتطلب ذكاء نادرا ، الأخرى أن يقولوا : إنها تتطلب : غباء وصبرا . حسن سليم طالب مجد شأن الذين يحذوهم الطموح ، طالما تساءلت عما يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهو ، وهو لو شاء — كأمثاله من أبناء المستشارين — لقنع من العمل بما يكفل له النجاح اعتمادا على نفوذ أبيه الذى سيضمن له فى النهاية نيل الوظيفة التى يتطلع إليها ، فلم أجد تفسيراً لذلك إلا كبرياءه الذى يجب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعا لا هودة فيه ، أليس كذلك ؟ ، ما رأيك فيه ؟

قال كمال فى صدق :

— حسن شاب جدير بالإعجاب لخلقته وذكائه ..

— سمعت أبى يقول مرة عن أبيه سليم بك صبرى : إنه مستشار فذ عادل ، فيما عدا القضايا السياسية ..

صادف هذا الرأى هوى فى نفس كمال ، لما سبق إلى علمه من تشيع سليم بك

صبرى إلى الأحرار الدستوريين ، فقال ساخرا :

— معنى هذا أنه قانونى بارع ، ولكنه غير أهل للقضاء .

فضحك حسين ضحكة عالية ، وقال :

— نسيت أننى أخاطب وفديا ..

فقال كمال وهو يرفع منكبيه :

— لكن والدك ليس وفديا !. تصور أن مجلس سليم بك صبرى للفصل فى قضية عبد الرحمن فهمى والنقراشى !

هل صادف قوله عن سليم بك صبرى ارتياحا فى نفس حسين ؟ نعم هذا يبدو جليا فى العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء ، ولعله راجع إلى المنافسة التى تقوم عادة — مهما اتسمت بالتهذيب وآداب اللياقة — بين الأنداد ، وقد كان شداد بك مليونيرا ومن رجال المال ذوى المكانة والجاه فضلا عن صلته التاريخية بالخدو عباس ، غير أن سليم بك صبرى مستشار فى أكبر هيئة قضائية وفى بلد تفتتها المناصب إلى حد التقديس ، فلم يكن بد من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشرر أحيانا . ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف ، فقد تجردت جدائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد ، وشجبت الخضره اللبانة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم ، وبدت الحديقة غارقة فى الحزن حيال زحف الشتاء ، لم قال وهو يشير أمامه :

— انظر إلى فعل الشتاء ، هذه آخر جلسة لنا فى الحديقة ، ولكنك من هواة الشتاء ..

إنه يهوى الشتاء حقا ، ولكن عابدة أحب إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معا ، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة ، غير أنه قال موافقا :

— الشتاء فصل جميل وقصير ، وفى البرد والغيم والرياح حياة يستجيب لها القلب ..

— يخيل إلى أن هواة الشتاء يكونون عادة من ذوى النشاط والاجتهاد ، فهكذا أنت ، وهكذا حسن سليم ..

ارتاح كمال إلى هذا الشتاء ولكنه أراد أن يخص — من دون حسن سليم —

بأكثره ، فقال :

— ولكنني لا أعطى واجباتي المدرسية إلا نصف نشاطي فحسب ، الحق أن حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير ..
هز حسين رأسه مستحسنا ، وقال :

— لا أظن أن ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تكرسه للعمل يوميا .. على فكرة : أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانا ، خبرني ماذا تقرأ الآن ؟..

ابتهج كمال بهذا الحديث الذي كان — بعد عايده — أحب شيء إلى نفسه وأجاب قائلا :

— أستطيع أن أقول لك الآن : إن مطالعاني أخذت تتبع نوعا من النظام ، لم تعد قراءة حرة كيفما اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية ، أصبحت أتلصص سبيلي على قدر من الضوء لا بأس به ، فعمدت أخيرا إلى تخصيص ساعتين لكل مساء للقراءة في دار الكتب وهناك أنظر في دائرة المعارف باحثا عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة ، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة ، سجلا في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني ، إنه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفا واستطلاعا ..!

كان حسين يصغى إليه بانتباه واهتمام طارحا ظهره على مسند الكرسي الخيزران ، واضعا يديه في جيبى جاكته الكحلية الإنجليزية ، وعلى شففيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانية صافية ، قال :

— جميل جدا ، بالأمس كنت أحيانا تسألني عما ينبغي أن يقرأ ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا ، هل وضع لك الطريق ؟

— رويدا .. رويدا ، يغلب على ظني أني سأنتجه نحو الفلسفة !

ارتفع حاجبا حسين كالتسائل ، ثم قال باسما :

— الفلسفة ؟. إنها كلمة مثيرة ، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل !.

طالما اعتقدت أنك ستنتجه نحو الأدب ..

— لا لوم عليك ، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عيني ، إن مطلبي الأول الحقيقة ، ما الله ، ما الإنسان ، ما الروح ، ما المادة ؟! الفلسفة هي التي تجمع

كل أولئك في وحدة منطقية مضیئة كما عرفت أخیرا ، هذا ما أروم معرفته من كل قلبی ، وهذه هی الرحلة الحقيقية التي تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانویا ، تصور أنه سیمكننی أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعا ...
نور الشوق والحماس وجه حسین وهو یقول :

— هذا بدیع حقا ، لن أتوانی عن مرافقتك فی هذا العالم الساحر ، بل لقد طالعت بالفعل فصولا عن الفلسفة الإغريقية وإن لم أخرج منها بشيء یعتقد به ، لست أحب الاندفاع مثلك ، ولكنی أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بین هذا وذاك سیلا ، والآن دعنی أصارحك بأنی أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بینك و بین الأدب من أسباب ، فأنت لا تقنع بالاطلاع ولکنك تريد أن تفكر وأن تكتب ، ولن یتاح لك — فیما أعتقد — أن تكون فیلسوفا وأديبا فی آن ..!
— لن یقطع ما بینی و بین الأدب ، إن حب الحقيقة لا یناقض تذوق الجمال ، ولكن العمل شيء والراحة شيء آخر ، وقد عزمتم علی أن أجعل الفلسفة عملی والأدب راحتی ..

فضحك حسین فجأة ، ثم قال :
— هكذا تتلمص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة !
فلم یملك کمال أن یضحك قائلا :
— ولكنی أمل أن أكتب يوما عن « الإنسان » فیشملکم ضمنا !
— لا یهمنی الإنسان بقدر ما یهمنی أشخاصنا ، انتظر حتی أشکوک إلى عایدة !

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق ، فانقلب نشوانا كما قد ثمل روحه بلحن معربد بالطرب ، هل یرى حسین حقا أنه أتى من الأمر ما یتسأهل علیه مؤاخذه عایدة ؟ ، ما أجهل حسین ! ، کیف غاب عنه أنه ما من شعور یتشعره أو فكرة یتأملها أو شوق یتشرفه إلا وآفاقها تترقق بهاء عایدة وروحها !
— انتظر أنت ، وسوف تثبت لك الأيام أنني لن أنخلی عن عهدی ما حیث ..
ثم متسائلا بعد قليل بلهجة جدیة :

— لم لا تفكر فی أن تكون كاتبا ؟. كل الظروف الراهنة والآتیة تنهى لك التفرغ لهذا الفن !

فهر حسين كتفيه استهانة ، وقال :
 — أكتب ليقرأ الناس ؟ ، ولم لا يكتب الناس لأقرأ أنا ؟
 — أيهما أعظم شأننا ؟
 — لا تسألني أيهما أعظم شأننا ، ولكن سلني أيهما أسعد حالا ، إلى أمد
 العمل لعنة البشرية ، لا لأني كسول ، كلا ، ولكن لأن العمل مضیعة للوقت
 وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة ، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد ..
 حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجد ، ثم قال :
 — لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل ؟ . إن ساعة من الفراغ
 المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل ..
 — يا للتعاسة ! ، إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة ، هل
 حسبتي أطيع الفراغ المطلق ؟ ، كلا وأسفاه ، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضار ،
 ولكني امل يوما أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة ..
 هم بالتعليق على قوله ، ولكن جاء صوت من ورائهما يتساءل « فيم تحدثان
 يا ترى » ، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تتردد في مسمعيه حتى تعزف أوتار
 قلبه مجاورة إياها من الأعماق كأنها عناصر مؤلفة في لحن واحد وسرعان ما خلعت
 نفسه من متوالب الفكر فغمرها فراغ مطلق — ترى أهو الفراغ المطلق الذي يحلم به
 حسين — هو ذاته لا شيء ؟ ولكنه السعادة كلها ..
 والتفت إلى وراء ، فرأى عايذة قادمة على بعد خطوات تتقدمها بدور حتى
 وقفتا أمامهما ، كانت ترتدى فستانا كمونيا وسترة صوفية زرقاء ذات أزهار
 مذهبة ، وقد تجلبت بشرتها السمراء في عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر .
 وهرعت بدور إليه فتلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره كأنما ليواري في عناقها ما
 اعتراه من هيمان ، وعند ذاك جاء خادم مسرعا فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب
 « التليفون » . فقام حسين مستأذنا ، ومضى نحو السلامك والخادم يتبعه ..
 وهكذا وجد نفسه معها على انفراد — وجود بدور لم يكن ليغير من هذا
 المعنى — لأول مرة في حياته ، تساءل في إشفاق : ترى أتبقى أم تذهب ؟ ولكنها
 تقدمت بخطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه ،
 فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده ، ولكنها هزت رأسها بالرفض باسمه ، فقام واقفا

ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة ، ولبث يرت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبذل كل قوته كى يملك عواطفه ويتغلب على انفعاله .. مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور ، فبدا المكان فيما لمحت عيناه من أرضه وسماؤه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتها ، بدا كل أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد ، لم يدرك — على وجه اليقين — إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظره أم خيالة ملوحة خيال ذاكرته ، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطبا بدور فيما يشبه التحذير : « لا تضايقيه يا بدور ! » فكان جوابه أن ضم بدور إلى صدره قائلا : « إن تكن هذه هي المضايقة فما أحبها إلى نفسى ! » ، ورنا إليها وفي عينيه أشواق ، وراح يتملى منظرها آمنا هذه المرة من الرقواء منعما فيها التأمل كأنما يستكنه أسرارها ويطلع على صفحة مخيلته ملاعها ورموزها ، فتاه فى سحر المنظر حتى بدا ذاهلا أو غائبا ، وما يدرك إلا وهى تتساءل :

— ما لك تنظر إلى هكذا ؟ ..

فأفاق من غشيته ، وتجلى فى عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة :

— هل تريد أن تقول شيئا ؟

هل يريد أن يقول شيئا ؟ ، إنه لا يدرك ماذا يريد ، حقا إنه لا يدرك ماذا يريد ،

وتساءل بدور :

— هل قرأت فى عيني هذا ؟

أجابت ونفراها يفتر عن ابتسامة غامضة :

— نعم ..

— ماذا قرأت فىهما ؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة ، وهى تقول :

— هذا ما أردت معرفته ..

أيوب لها بسره المكنون قائلا بكل بساطة « أحببك » وليكن ما يكون ! لكن ما جدوى البوح ؟ ، وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة — كما هو الراجح — إلى الأبد ؟ ! . وانتبه — وهو يتأمل — إلى النظرة التى

تلوح في عينيها الجميلتين ، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعثرها ارتباك أو خجل ، نظرة كأنما تهبط عليه من عل بالرغم من أنها في مستوى نظره ، فلم يرتج لها وزادته ترددا ، ماذا وراءها يا ترى ؟. وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة ، وربما العبث كأنما هي بالغ ينظر إلى طفل ، ولعلها لم تحل كذلك من تعال لا يمكن أن يبرره فارق السن وحده إذ لم تكن تكبره إلا بعامين على أكثر تقدير ، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقيها هذا القصر الشاخب بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين ؟، ولكن لم لم يلحقها في عينيها من قبل ذلك ؟، ربما لأنها لم تنفرد به من قبل أو لأنه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلا هذه الساعة ، وآله ذلك وأحزنه حتى فطرت نشوته أو كادت . ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها ، فتناولها في حضنه ، وإذا بعائده تقول :

— يا للعجب !، لماذا تحبك بدور كل هذا الحب ؟

فقال وهو ينظر في عينيها :

— لأني أكن لها مثله وأكثر ..

فتساءلت كالمرة :

— أهذا قانون يركن إليه ؟

— الحكمة السائرة تقول « من القلب للقلب رسول » ..

فجعلت تنقر المضددة بأتملتها وهي تتساءل :

— هب فتاة جميلة أحبها كثيرون ، فهل تحبهم جميعا ؟، أرى كيف يصدق

قانونك في هذه الحال ..

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كل شيء حتى أحزانه :

— يكون من أمرها أن تحب أصدقهم حبا لها !..

— وكيف تفرزه من الآخرين ؟..

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد !

— أحييك مرة أخرى إلى الحكمة السائرة « من القلب للقلب رسول » !

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر ، وقالت في تحد :

— لو صح هذا ما خاب محب صادق في حبه !، فهل هذا صحيح ؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستقيم إلى المنطق وحده ، فلو صح منطق

لوجب أن يكون أسعد الناس بحبه ومحبيه ، ولكن أين هو من ذلك ؟! ، الحق أن تاريخ حبه الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولوذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل « من القلب للقلب رسول » ، فكان يتعلق بالأمل الخلب في إصرار اليائس حتى تعيده الحقيقة إلى وعيه ، ها هو الساعة يتلقى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كاللدواء المر ليتداوى بها مستقبلا من كواذب الآمال ، ويعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون ، ولما لم يحرج جوابا على سؤالها الذي تحدته به ، هتفت معبودته ومعذبتة بلهجة المنتصر :

— غلبت .. !

واستحكم الصمت مرة أخرى ، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافة وزقزقة العصفور ، غير أنه تلقاها هذه المرة بوجد فاطر وقلب خائب ، ولاحظ أن عينها تتفحصانه بإمعان لا داعي له ، وأن نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث ، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدت لذكر ، فشعر بغمز في قلبه وبرودة ، وتسائل هل قدر له أن ينفرد بها لتتقوض أحلامه دفعة واحدة ؟! ، ولاحظت قلقة ، فضحكت ضحكة لاهية ، وقالت في دعابة وهي توميء إلى رأسه :

— لا يبدو أنك شرعت في تربية شعرك ؟

فقال باقتضاب :

— كلا ..

— ألا يروقك ذلك ؟

وهو يطم بوزه باستخفاف :

— كلا ..

— قلنا لك إنه أجمل ..

— هل ينبغي للرجل أن يكون جميلا ..؟

فقال باستغراب :

— طبعا الجمال محبوب ، سواء في الرجال والنساء ..؟

هم بأن يردد بعض محفوظاته مثل « جمال الرجل في أخلاقه » الخ ، ولكن غريزة

من غرائزه أوجت إليه بأن مثل هذا القول — مع صدوره عن شخص في صورته —
أن يلتقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية ، فقال وهو يعانى وخزا في قلبه داراه
بضحكة مصطنعة :

— لست من رأيك ...

— أو لعلك تنفر من الجمال كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير !

فضحك ضحكة يعالج بها يأسه وقهره ، فعادت تقول :

— الشعر الطبعي غطاء طبيعي أعتقد أن رأسك في حاجة إليه ، ألا تعلم أن
رأسك كبير جدا ؟.

ذو الرأسين !. أنسيت ذلك النداء القديم ..؟ يا للتعاسة !

— هو كذلك ...

— لمه ؟.

أجاب وهو يهز رأسه في إنكار :

— سليه بنفسك فإننى لا أدرى ..

ضحكت ضحكة خافتة ، أعقبها صمت ، معبودك جميل فاتن ساحر ،
ولكنه ذو جيروت كما ينبغي له ، ذق جيروته وتلقن شتى أنواع الألم . ولم ترحمه فيما
بدا ، لم تزل عيناها الجميلتان تصعدان البصر في وجهه ونصوبان حتى نبتتا
على .. ، أجل علم أنفه !.. هنالك وجد فشعيرة في أعماقه حتى قف شعره وغض
البصر وهو خائف يترقب ، وسمعها تضحك ، فرفع عينيه وهو يتساءل :

— ماذا يضحكك ؟

— ذكرت أمورا مثيرة طالعتها في مسرحية فرنسية معروفة ، ألم تقرأ « سيرانو دى
برجراك » ؟ .

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حده ، قال بهدوء
واستهانة :

— لا داعى للمدارة ، أنا أعرف أن أنفى أكبر من رأسى ، ولكن أرجو ألا
تسأل مرة أخرى « لمه ؟ » سليه بنفسك إن شئت !..

وإذا بدور تمد يدها فجأة فتقبض على أنفه ، فأغرقت عابدة في الضحك وهى
تميل برأسها إلى الوراء ، ولم يملك هو أيضا إلا أن يضحك ، ثم سأل بدور مدارة

لإرتياكه :

— وأنت يا بدور ، هل هالك أنفى ؟!..

وترامى إليهم صوت -حسين وهو يهبط سلم الفراندا ، فغيرت عايده من لهجتها فجأة ، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير :

— إياك أن تزعل من مزاحى ..!

عاد حسين إلى الكشك ، فجلس على كرسيه داعيا كمال إلى الجلوس فاقتدى به — بعد تردد — واضعا بدور على حجره ، غير أن عايده لم تلبث بعد ذلك إلا قليلا فأخذت بدور وحينها ، ثم انصرفت وهى تلاحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص ، وكأنما تكرر تحذيره من الزعل ، لم يجد من نفسه أى رغبة فى استئناف الحديث فاكفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا ، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهها أكثر مما عنده ، وهو رغبته فى السفر إلى فرنسا ومعارضة أبيه التى يأمل فى التغلب عليها قريبا ، أما الذى كان يشغل قلبه وفكره معا فهو ذلك المظهر الجديد الذى تبدت به عايده فى الدقائق التى جمعت بينهما على انفراد أو على شبه انفراد ، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة ، أجل القسوة !. فقد عشت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يعمل المصور ريشته فى الخلقة الآدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة فى قبحها وصدقها معا . ذكر ذلك المظهر ذاهلا ، ومع أن الألم كان يسرى فى روحه كما يسرى السم فى الدم ناشرا فيها ظلا ثقيلا من القنوط والكآبة ، فإنه لم يجد فى نفسه سخطا أو غضبا أو احتقارا له ، أليس هو صفة جديدة من صفاتها ؟. بلى ، لعله أن يكون غريبا كوليها بالرطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير ، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها ، خليقة بأن تشرف بهذا الانتساب وإن عدت فى غيرها نقيصة أو استهتارا أو معصية ، ولا ذنب لها هى أن نشأ عن صفة من صفاتها ألم فى قلبه أو بأس فى نفسه ما دام العيب عيبه هو لا عيبها هى ، وهل كانت هى التى كبرت رأسه أو غلظت أنفه ؟. أو هل تراها جارت بدعاباتها على الصدق والواقع ؟. لم يحدث شئ من هذا فانتفى عنها الملام وحق عليه الألم ، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفى كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون

إيماناً بأنه قضاء عادل مهما يكن من قسوته ، وأنه صادر عن معبود كامل لا مظنة في صفة من صفاته أو إرادة من إرادته .. هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة التي صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألماً وعذاباً ولكن دون أن ينال ذلك من قوة حبه وافتنانه بالحبيب !.. الساعة يخطف بمعرفة ألم حديد ، ألم الرضى يحكم قاس قضى عليه بعدم الأهلية ، كما عرف من قبل — عن طريق الحب أيضاً — ألم الفراق وألم الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس ، وكما عرف أيضاً ألماً يختم وألماً يستلذ وألماً لا يسكن مهما قدم له من قرايين التأوهات والدموع ، كأنما أحب ليتفقه في معجم الألم ، ولكنه على التماع الشرر المتطاير من ارتطام الاله يرى نفسه ويعرف أشياء ، ليس الله والروح والمادة — فحسب — ما يجب أن تعرفه ، ما الحب ؟.. ما البغض ؟.. ما الحمال ؟.. ما القبح ؟.. ما المرأة ؟.. ما الرجل ؟.. كل أولئك يجب أن تعرف أيضاً ، أقصى درجات الهلاك تماس أولى درجات النجاة ، اذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكراً أنك همت بالإفضاء إليها بمكنون سرى ! اذكر باكية أن أحذب نوتردام ملأً حبيبته رعباً وهو يخنو عليها مواسياً ، وأنه — أحذب نوتردام — لم يستثر عطفها البريء إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة ، « إياك أن ترعل من مزاحي » !.. حتى راحة اليأس ترضن بها عليك ، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علناً نخرج من جحيم الخيرة ونطمئن في قبر اليأس ، هيئات أن يقتلع اليأس جذور الحب من قلبي ، ولكنه على أى حال مناجاة من كواذب الآمال !.. والتفت حسين نحوه ليسأله عن سر صمته ، ولكنه لمح — فيما بدا — شخصاً قادماً ، فأدار رأسه ثم هتم :

— ها هو حسن سليم قد أقبل ، كم الساعة الآن ؟
فالتفت كمال إلى الوراء ، فرأى حسن مقبلاً نحوه الكشك ..

٩٩

عادر حسن كمال سراى آل شداد والساعة تدور في الواحدة ، وهم كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب القصر ، ولكن الآخر قال له برجاء :
— هلا تمشيت معي قليلاً من الوقت !..
فلبى كمال الدعوة عن طيب خاطر ، وسارا في شارع السرايات جنباً إلى

جنب .. كمال بقامته الطويلة ، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه ، لم يكن يخلو من تساؤل !! خاصة وأن الوقت لم يكن أنسب الأوقات للمشى الذى ليس وراءه هدف ، وما يدرى إلا وحسن يلتفت إليه متسائلا :

— فيم كنتما تتحدثان ؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلا :

— فى أمور شتى كالعادة ، سياسة .. ثقافة الخ ..
فكانت مفاجأة حقا أن يقول له بصوته الهادىء المتزن :

— أعنى أنت وعابدة ..!

فاستولت الدهشة على كمال ، حتى لبث ثوانى لا يتكلم ، ثم تمالك نفسه فسأله :

— كيف عرفت هذا ولم تكن معنا ؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح فى وجهه أى تغيير :

— جمعت فى أثناء حديثكما ، فترأى لى أن أذهب إلى حين حتى لا أقطعه عليكما ..

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه فى موقفه ؟. واشتدت به الحيرة وخالطه شعور بأنه مقبل على حديث مثير ذى شجون ، قال :

— لا أدرى ماذا حملك على ذلك التصرف ، ولو لمحتك ما تركتك تذهب ..

— لللياقة أحكام !. أعترف بأننى شديد الحساسية فى هذه الناحية ..

آداب أرستقراطية !.. أين أنت من إدراكها .

— لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تدقق أكثر مما ينبغى ..

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفثيه ، ثم بدا كالمنتظر ، ولما طال به الانتظار عاد يتساءل :

— نعم ؟.. فيم كنتما تتحدثان ؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب ؟!. وفكر لحظات فى توجيه هذه الملاحظة إليه ، غير أنه دقق فى اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذى يكره له — احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنه — حتى

قال :

— المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله . غير أنى أتساءل عن مدى التزامى بالإجابة !

فبادره حسن قائلا بلهجة المعتذر :

— أرجو ألا تيمنى بلهجة المتعطف أو بدس أنفى فى خاص شئونك ، فإن لدى من الأسباب ما يبرر هذا السؤال ، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلنى أحدثك عنها من قبل ، غير أنى اعتقدت — اعتمادا على ما بيننا من صداقة — أنك لن تضيق بسؤالى . أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه .. !

خف التوتر ، ولعله سر لتلقى هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات ، الشخص الذى طالما رآه مثالا للأرستقراطية والنبيل والكبرياء ، فضلا عن أنه كان أرغب منه فى استفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلق بمعبودته . لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللف والدوران حول ما يحب وما لا يحب وما يلبق وما لا يلبق ، وربما كان أفضى إليه بكل شيء وهما يتصاحكان ، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبدا ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة ، فلا بأس من أن يؤدى بمن تحفظه .. ! قال :

— أشكرك على حسن ذلك ، وثق بأنه لم كان تمة ما يستحق أن أحبك به ما كتمته عنك ، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت فى شؤون عادية وهذا كل ما هنالك ، غير أنك أيقظت حب الاستطلاع فى نفسى فهل لى أن أسألك — ولو من باب العلم بالشيء — عن الأسباب التى تراها مبررة لسؤالك ؟ .. لست ألح بطبيعة الحال ، بل إنى على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالى إذا لم يصادف منك قبولا .. !

قال حسن سليم بهدوئه واتزانه المألوفين :

— سأحدثك عما تسأل عنه ، ولكن أرجو أن تنتظر قليلا ، يبدو أنك لا تود إخبارى عما دار بينكما من حديث ، وهذا حقك لا ريب فيه ، بل لا أجد فيه إخلالا بواجب الصداقة ، ولكنى أود أن ألقت نظرك إلى أن كثيرين يخدعون بحدث عابدة ويفسرونه تفسيراً لا يمت للواقع بسبب ، وربما أحدثوا لأنفسهم

بسبب ذلك متاعب لا داعي لها !..
أفصح عما تريد قوله ، فى الجو نذر تجهم لا يلبث أن ينقلب إعصارا فيعصف
بقلبك المطعون ، كأن به موضعا سليما لم يطمعن !. أنت أنت المخدوع يا
صاح ، ألا تدري أنه الحياء وحده الذى يمنعى من أن أفضى إليك بما كان ؟!
فلتصعقنى الصواعق إن أرحت لك بالاً !.

— لم أفهم مما قلت حرفاً !..
علا صوت حسن قليلاً ، وهو يقول :
— لسانها يوجد فى يسر بالطف الكلام ، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أن وراءه
عاطفة ما ، ولكنه محض كلام لطيف تخاطب به كل من يحدثها سرا أو
جهراً !. وكم خدع كثيرين !..

برح الخفاء ، صاحبك مصاب بالداء الذى هصرك !. من يكون حتى يدعى
العلم بالبوطن ؟! ، شد ما يثير حنقى !. قال باسماء وهو يتظاهر بعدم الاكتراث :
— يبدو أنك واثق مما تقول ؟!

— إنى أعرف عايدة حق المعرفة ، نحن جيران منذ بعيد ..
الاسم الذى يهاب النطق به فى السر فضلاً عن الجهر ينطق به هذا الشاب
المفتون بلا مبالاة ، كأنه اسم فرد من غمار الملايين !. هذه الجرأة فيه تخفضه
فى قلبه درجات وترفعه فى خياله درجات ، وجملة « نحن جيران منذ بعيد »
حزت فى قلبه كالخنجر فاطاحت به كما تطيح النوى بالغريب . سأله بلهجة
مؤدبة وإن لم يخل مدلولها من سخرية :

— ألا يجوز أن تكون خدعت أيضاً كالآخرين ؟..
فراجع رأس حسن فى كبرياء ، وهو يقول فى يقين :
— لست كالآخرين !..

شد ما أحنقه غطرسته ، شد ما أحنقه جماله وثقته بنفسه ، هذا الابن المدلل
للمستشار الخطير الذى ترتقى الشبهات إلى أحكامه السياسية !. وندت عن
حسن « هه » كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريره ، أراد أن يمهد بها
لانتقال من طبقة صوتية متغطرة إلى طبقة أخرى لطيفة ، ثم قال :
— إنها فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة ، ولو أن مظهرها وحديثها وأنسها تجر

عليها الظنون أحيانا !

فبادره كمال قائلا بحماس :

— إن مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كل ظن !.

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له « أحسنت » ، ثم قال :

— هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة ، غير أن ثمة أمورا تحير بعض الأفهام ، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح : إن البعض يسيء فهم اختلاطها في الحديقة بأصدقاء أخيها حسين ، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية ، والبعض الآخر يقف متسائلا حيال محادثتها لهذا وملاطفتها لذلك ، وآخرون يتوهمون وراء الدعابة اللطيفة — تصدر عنها عفوا — سرا خطيرا ، هل أدركت ما أعنى ؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق :

— إنني أدرك ما تعنى طبعاً ، ولكنني أخشى أن تكون مغالياً في ظنونك ، عني أنا شخصياً لم يساورني شك قط في أي تصرف من تصرفاتها ، لأن أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة ، ولأنها من ناحية أخرى لم تتلق تربية شرعية خالصة حتى تطالب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها ، وأظن أن هذا هو رأي الآخرين أيضاً ..

هز حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه في « الآخرين » ، غير أن كمال لم يعن بالتعليق على ملاحظته الصامتة ، كان سعيداً بالدفاع عن معبودته ، سعيداً بالفرصة التي تهيأت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها ، أجل لم يكن صادقاً في حماسه — لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن ، فطالما آمن بأن معبودته فوق منال الشبهات — ولكن حزناً على الأحلام السعيدة التي قامت على افتراض وجود « سر » وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة ، إن حسن يبدد تلك الأحلام كما بددها حديث اليوم تحت الكشك ، ومع أن قلبه المكسوم كان يجاهد سرا للاستمسك ولو بخيط واه من خيوط الأمل ، فإنه جارى حسن سليم مجارة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومدارة لهزيمته وإبطالا لادعاء الآخر بأنه « العارف » وحده لحقيقة المعبودة !. عاد حسن يقول :

— لا غرابة في أن تدرك هذا فإنك شاب لبيب ، الواقع كما قلت إن عابدة

بريئة ولكن .. معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربما بدت غريبة في عينيك ، وربما كانت مسئولة لحد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها ، أعنى شغفها بأن تكون « فتاة أحلام » كل من يتصل بها من الشباب !.. لا تنس أنه شغف برىء ، فإننى أشهد بأننى لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها ، ولكنها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية كثيرة التحدث عن بطلاتها مفعمة الرأس بالخيال !

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد أن يعبر بها عن أنه لم يسمع جديدا فيما قال صاحبه ، ثم قال مدفوعا برغبة فى إغاظته :

— عرفت هذا كله من قبل ، دار حديثنا يوما — أنا وحسين وهى — عن الموضوع ذاته !

تمكن أخيرا أن يخرجهم عن وقاره الأرسقراطى ، فنطقت أساريره بالدهش وتساءل كالمنزعج :

— متى كان ذلك ؟. لا أذكر أننى حضرت هذا الحديث !. هل قيل أمام عابدة أنها تود أن تكون « فتاة أحلام » كل شاب ؟..

. رفق كمال ما طرأ عليه من تغير بعين الظفر والارتياح ، غير أنه أشفق من التماذى ، فقال بحلج :

— لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذى يؤدى إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسية وإغراقها فى الخيال !.

استرد حسن هدوءه واتزان ، ولزم الصمت مليا كأنه يحاول أن يستجمع فكره الذى نجح كمال فى تشتيته إلى حين ، وبدأ كالمتردد لحظات حتى شعر كمال بأنه يود أن يعرف كل شئ عن الحديث الذى دار بينه وبين عابدة وحسين ، متى وقع ؟. ماذا جعلهم يطرقون هذه الشؤون الحساسة ؟ وما تفصيل ما قيل فيه ؟ لولا أن كبرياءه كان يمنعه من السؤال ، وأخيرا قال :

— ها أنت نفسك تشهد لصديق رأبى ، ولكن من سوء الحظ أن كثيرين لم يفهموا سلوك عابدة كما فهمته أنت ، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامة وهى أنها تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه !.

لو اطلع الأحقق على الواقع ما تجشم كل هذا التعب والضائع ، ألا يعلم بأننى لا أطمع حتى فى أن تحب حبنى ؟. انظر إلى رأسى وأنفى وانعم بالا !. قال

بصوت لم يخل من تهكم :

— تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه !. يا لها من فلسفة !.

— هي حقيقة أنا بها عليم !

— ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها في جميع الأحوال ؟!

— بلى أستطيع وأنا مغمض العينين .

غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهرا بالدهش :

— أتستطيع أن تؤكد عن يقين أنها لا تحب هذا الشخص أو ذاك ؟

فقال حسن بثقة واطمئنان :

— أستطيع أن أؤكد أنها لم تحب أحدا ممن يتوهمون أحيانا أنها تحبهم !

اثنان يحق لهما أن يتكلما بهذه الثقة : المؤمن والأحمق ، وهو ليس بالأحمق ، ترى لم يتحرك الألم ولا جديد فيما سمعت ١٩. الحق أنى تألمت اليوم تألم عام من أعوام الحب .

— ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أنها لا تحب إطلاقا ١٩؟

— لم أقل هذا ..

فرمقه بالعين التي يتطلع بها الإنسان إلى العراف ، ثم سأله :

— أتدري إذن أنها تحب ؟

فحنى رأسه بالإيجاب ، وقال :

— إنما دعوتك إلى المشى لأحدثك عن هذا !..

غاص قلبه في أعماق صدره كأنما يحاول الفرار من الألم ولكنه غرق في عباب الألم ، كان قبل ذلك يتألم لأنها لا يمكن أن تحبه ، ها هو معذبه يؤكد له أنها تحب .. إن المعبودة تحب !.. إن قلبها الملائكي يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة جميعا إلى شخص معين !. أجل كان عقله — لا شعوره — يسلم أحيانا بإمكان ذلك ، ولكن كما يسلم بالموت كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو في جسده هو بالذات ، لذلك فاجأه الخبر كأنه يتحقق لأول مرة في الوجود والفكر معا ، تأمل هذه الحقائق جميعا واعترف بأن ثمة آلاما في هذه الدنيا لم تخطر لك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم ، استطرد حسن قائلا :

— قلت لك من بادیء الأمر إن لدى من الأسباب ما يبرر هذا الحديث معك ، وإلا ما سمحت لنفسى بالتدخل فى خاص شئونك ..
ينبغى أن تلتهمه النار المقدسة حتى آخر ذرة من رماذ .
— إنى مقتنع بما تقول ، وها أنا مصغ إليك ..
ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحى بتردده حيال الكلمة الأخيرة الفاصلة ،
فصبر كمال ، ثم تعجله — رغم أن قلبه استشف الحقيقة المفجعة — قائلا :
— قلت إنك تدرى أنها تحب ..؟!
فنبذ حسن التردد قائلا :

— نعم ، يوجد بيننا ما يجعل لى الحق فى ادعاء ما قلت !..
عايدة تحب أيتها السماوات ! ، أوتار قلبك تنقبض باعثة لحنا جنائزيا ، هل
يكن قلبها لهذا الشاب السعيد مثل ما يكنه لها قلبك ، إن صح أن هذا من
الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدع ، ليس صاحبك بكاذب لأن النبيل الجميل
لا يكذب ، قصارى أملك أن يكون حبها من جنس خلاف حبك ، وإذا لم يكن
من الفاجعة بد فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب ، من العزاء أيضا أن
الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك ، هذا الغنى الساحر العجيب !.
قال كالذى يضغط على زناد المسدس وهو يعلم أنه فارغ :
— يبدو أنك مطمئن إلى أنها تحب — هذه المرة — الشخص نفسه لا حب
الشخص لها !

فندت عنه « هه » مرة أخرى ليعرب بها عن ثقته . ولمحه بنظرة سريعة ليرى
مدى إيمانه بما يقول ، ثم قال :

— لم يكن حديثنا قط — أنا وهى — من النوع الذى يحتمل معنيين !
أى نوع من الحديث هو ؟. حياتى كلها أهدتها ثمننا لكلمة منه ، أعرف
الحقيقة كلها وأتجرع العذاب حتى الثمالة ، ترى هل سمع الصوت المطرب
وهو يقول له « أحبك » ؟ ، بالفرنسية قالها أم بالعربية ؟ ، بمثل هذا العذاب تشتعل
النيران ، قال بهدوء :

— أهنتك ، كلا كما فيما أرى جدير بصاحبه !.
— شكرا ..

— غير أنى أتساءل عما دعاك إلى الإفضاء إلى بهذا السر الثمين ؟

فرجع حاجبيه حسن ، وهو يقول :

— لما وجدتكما تتحدثان على انفراد أشفقت أن تخدع ببعض القول كما خدع كثيرون ، فصممت على مصارحتك بالحقيقة ، لأنى كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات !..

غمغم كمال قائلا « شكرا » تأثرا بالعطف السامى ، عطف الشاب الموهوب الذى تحبه عابدة ، الذى كره له الانخداع فقتله بالحقيقة ، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التى أغرته بمصارحته بسر ؟ ، ولكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه !؟ . استطرد حسن قائلا :

— إنها ووالدتها كثيرا ما يزوران بيتنا ، وهناك تسنح لنا فرص للحديث ..

— على انفراد ؟

أفلتت العبارة منه بلا وعى ، فارتبك نادما وتورد وجهه ، ولكن الآخر قال ببساطة :

— أحيانا ..

كم يود أن يراها فى هذا الدور — دور المحبة — الذى لم يخطر له فى خيال ، كيف تتجلى فى العين الساجية التى تلقى إليه بنظرتها من عل لمعة الوجد والحنان ؟ ، منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل القلب قتلا ، بهذا تستباح لعنة الكفر الأبدية ، روحك يتململ كطائر سجين يود أن ينطلق ، العالم ملتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل ، لكنك حتى إذا صح عندك أن الشفاء تلاقت فى قبلة وردية فلن تعدم فى دوامة الجنون لنة الحرية المطلقة ، وسأله مدفوعا برغبة انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلا عن فهمها :

— كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين ؟

تريث حسن قليلا قبل أن يجيب قائلا :

— لعلى لا أرتاح إلى ذلك كل الارتياح ، ولكنى لا أجد فيه مأخذا وهى تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع وبحكم تربيتها الأوربية ، ولا أخفى عليك أنى فكرت أحيانا فى مكاشفتها بامتعاضى ولكنى كرهت أن ترمينى بالغيرة ، وكم تود لو تثير غيرتى ، أنت تعرف طبعها هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأنى لا

أستسيغها ..
لا عجب أن إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام
ودوُّخ رعبوسا .
— كأنها تتعمد مضايقتك ! .

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة :
— على أنه في وسعي دائما أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت !
أثارته هذه الجملة واللهجة التي قيلت بها إلى حد الجنون ، وتمنى لو يجد سببا
يعتدل به على ضربه ليرغه — وإنه لقادر — في التراب ، ولحظه من عل فلاح له
الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير ، لم لم تحب أيضا الذي دونها سنا ؟ ، وأمن
قلبه بأنه خسر الدنيا .
ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته ، فاعتذر شاكرا ، ثم تصافحا
وافترقا .

عاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط ، وكان يود أن يخلو إلى نفسه ليحتضن
أحداث يومه متأملا حتى يستصفي معانيها كلها ، بدت الحياة متلفعة بثوب
حداد ، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع ؟ فأبي جديد
جلجلت به الحوادث ؟ ، على أي حال ليكن عزائه أن الآخرين يتكلمون عن
الحب ، أما هو فيحب ملء قلبه . إن الحب الذي ينور روحه لا يستطيعه أحد
سواه ، فهذا هو امتيازه وتفوقه ، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته في
السماء ، في السماء حيث لا فوارق بمصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ ، في
السماء ستكون عايدة لي وحدي بحكم قوانين السماء ..

٢٠

كأنه لم يعد له وجود ، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتى إلا عن تعمد ، فظن إلى
ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالي — بعد مضي أسبوع على حديث حسن
سليم بشارع السرايات — في اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسرأي آل
شداد . كانوا يتحدثون فجاءت عايدة كعادتها مصطحبة بلور ، لبثت عندهم
قليلا تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتا ، فظن أول وهلة أن

دوره سيجىء . ولكن طال به الترقب ، ولاحظ إلى هذا أن عينها لا تريد أن تلتقي بعينه أو لعلهما تحتبانه فخرج عن موقفه السليبي واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته ، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إياه ، ومع أن أحدا لم يتنبه فيما بدا إلى مناوراته الفاشلة — لانهما كهم في الحديث المحبوب — فإن ذلك لم يخفف من وقع اللطمة التي نلقاها من غير أن يدرك لها سببا ، غير أنه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه ، وجعل يتحين الفرص لتجربة حظّه من جديد وهو من الإشفاق في غاية ، وإذا بيلور تحاول الإفلات من يد عايده ملوحة له بيدها المطلقة ، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه ، ولكن عايده جذبها نحوها وهي تقول : « آنا لنا أن نذهب » ، ثم حيتهم ومضت إلى حال سبيلها !

آه ما معنى هذا ؟ إن عايده غضبانه عليه وما أرادت بمجيئها إلا أن تعالنه بغضبها ، ولكن فيم أخذته ؟ أى ذنب جنى ؟ أى هفوة كبيرة أو صغيرة أتى ؟ . يا لها من حيرة هزئت بمنطقه وشئت يقينه ، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوية أن تفضحه شجونه ، وكان على ضبط النفس قادرا ، فمثل دوره المألوف تمثيلا حسنا ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب ، وقال لنفسه بعد تقوض المجلس : إنه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية ، وأن يسلم بأن عايده حرّمته — اليوم على الأقل — من نعمة صداقتها .. إن في قلبه العاشق مسجلا كهزبايا دقيقا لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إلا سجلها . حتى النوايا يطلع عليها وحتى الآتى البعيد يبتدعه ، ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سره ، فإنه في الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعتها ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها في غث النفايات .

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم ، ألم يختم حديثه معه بقوله « على أنه في وسعى دائما أن أحملها على الإدعان لمشيئتي إذا أردت » ١٩ . ولكنها جاءت اليوم كعادتها ، إن بلواه من تجاهلها إياه لا من غيابه ، ثم إنه وحسن افترقا على صفاء ، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله ، وليست هي بالتى تمثل أمر إنسان مهما يكن شأنه ، وليس هو بالمذنب ، فما سر التجنى يارب السماوات ١٩ ، إن لقاء الكشك — بينه وبينها — على قسوته وعيئه الجارح برأسه وأتفه وكرامته لم يخل من مودة ودعابة ثم ختم بما يشبه الاعتذار ، ربما يكون قد قضى على أمله في الحب

ولكنه لم يكن في حبه أمل ، أما لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل . بالنبيذ . بالصمت . بالموت ، ولأن يحفو الحبيب أو يقسو خير على أى حال من أن يمر بعابده وكأنه شيء لم يكن ، يا للتعاسة ! ، ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذى يحمله على صدره ، ضريبة جديدة للحب ، وما أفدح ضرائبه ، يؤدى بها ثمن النور الذى يضيئه ويحرقه .

واحتقن بالغضب صدره ، عز عليه جدا ألا يحظى على حبه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف ، وحز في نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحب والولاء ، ولا يرد اللطمة إلا بالابتهاال والدعاء ، ولو كان المتجنى عليها شخصا آخر ولو كان حسين شداد نفسه لقطعه دون تردد ، أما وهو المعبود فقد ردت شظايا الغضب إلى نحرة ، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه ، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني — الذى هو نفسه — قضى عليها بالحرمان من الدنيا ، وامتلاً بشعور عنيد محزون أمل عليه الإعراض عنها إلى الأبد . رضى فيما رضى بصداقتها ، بل اعتبرها فوق أحلام مطعمه بالرغم من أن قوة حبه تضيق عنها السماوات والأرض ، ورضى أكثر من هذا باليأس من حبها قانعا من عريضة الأمانى بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته ، غير أن التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثم من الدنيا جميعا نبذه ، ولعله أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر ، لم ترجمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذى قضاه بعيدا عن قصر آل شداد ، وتها لك شعوره في اجترار الخيبة التى قرعته لحظة بعد أخرى ، وهو في البيت صباحا يفطر على مائدة أبيه ، وهو في الطريق يسير بحواس زائفة ، وهو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب ، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتت ، وهو يتذلل للنوم كي يقبله في ملكوته ، ثم وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنما هى التى طرقت بجزع النهم كي تواصل التهامه كرة أخرى ، ألا ما أفضع النفس إذا خانت صاحبها ..!

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحب والعذاب ، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل . لماذا ترقب هذا اليوم بصبر نافذ ؟ ، ماذا يرجو عنده ؟ . هل يطعم أن يجدد ولو نبضا بطيئا ضعيفا ليوهم نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد ؟ ، هل يحلم بمعجزة

ترد معبوده إلى الرضى على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب ؟. أو أنه يستزيد من الجحيم نارا ظمأ إلى برودة الرماد ؟!، سار في ممر الذكريات إلى الحديقة ، وإذا به يرى عائدة جالسة على كرسي واضعة بدور على حافة المائدة أمامها ، وليس في الكشك سواها أحد !. توقف عن المسير وفكر في العودة إلى الخارج قبل أن تلتفت ناحيته ، ولكنه نبذ هذه الفكرة بتحد وازدراء ، وتقدم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذى فتك بأمنه وسلامه ، هذا الكائن اللطيف الجميل ، هذا الروح الشفاف المتنكر في فستان امرأة ، هل يدري ماذا فعل به جفاه ؟ ، هل بنام ضميره قرير العين لو شكأ إليه ما عاناه ، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذى قضى عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة — لا تقترب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهي — إلى الأبد !. لو تجرد بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعا ؟!، وكان يقترب منها متعمدا أن يحدث في مشيته صوتا لتنبهها ، فأدارت رأسها نحوه كالمتسائلة ، ثم لم تفصح أسرارها عن شيء ، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها ، وحنى رأسه في خشوع ، وقال باسم :

— صباح الخير ..

فحنّت رأسها حنوة صغيرة ، ولكنها لم تنبس ، ثم نظرت فيما أمامها . لم يعد ثمة شك في أن الأمل جثة هامدة ، وخيل إليه أنها ستصبح به « اذهب عنى برأسك وأنفك حتى لا يحجبها عنى ضوء الشمس ! » ، غير أن بدور لوحث له بيدها ، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليدارى في عطفها البريء هزيمته فتعلقت بذراعيه ، فهوى رأسه إليها وقبل خدها قبله حنان وامتنان ، وإذا بالصوت الذى فتح له فيما مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاء :

— من فضلك لا تقبلها ، القبلية تحية غير صحيحة !..

ندت عنه ضحكة حائرة لم يدر كيف ولا لم ندت ، ثم امتقع لونه ، وبعد دقيقة واجهة ذاهلة قال منكرا :

— إنها ليست القبلية الأولى فيما أذكر !

فرفعت كنفها كأنما تقول « هذا لا يغير من الحقيقة شيئا » آه ، أيمضى إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعا عن نفسه ؟

— اسمحي لي أن أتساءل عن سر هذا التغير الغريب ، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضي دون أن أظفر بجواب ؟!
لم يبد عليها أنها سمعته ، وبالتالي لم تعن بالرد عليه ، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وألمه :

— إن ما يحزنني حقا هو أنى برىء لم أجن ما أستحق عليه العقاب !
ولم تزل مصرة على الصمت ، فخاف أن يجيء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام ، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكى والترجي :
— ألا يستحق صديق قديم مثلى أن يكشف على الأقل بذنبه ؟
فرفعت نحوه جانب رأسها ، ولحظته بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر ، ثم قالت بلهجة غاضبة :

— لا تدع البراءة الكاذبة !..
يا رب السماوات هل ترتكب الذنوب بلا وعى من الجانى ؟!. قال فى نبرات متدافعة ، وهو يربت بحركة آلية يمدى بدور التى حاولت أن تجذبه إليها وهى لا تدرك مما يلور شيئا :

— صدقت ظنوني وأأسفاه !، هذا ما حدثنى به قلبى فكذبتى ، إني مذنب فى نظرك ، أليس كذلك ؟، ولكن بأى ذنب تتهميننى ؟، خبرينى وحياتك ، لا تنتظرنى أن أكون البادىء بالاعتراف لسبب بسيط ، وهو أننى لم أجن شيئا يستحق الاعتراف ، مهما أنقب فى زوايا نفسى وحياتى وتاريخى فلن أعثر على نية أو كلمة أو فعل وجه ضدك بسوء ، إني أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البديهيّات من الأمور ؟!

فقال بازدرأ :

— لست ممن يؤثر فيهن التمثيل ، سل نفسك عما قلت عني !

فقال بانزعاج :

— ماذا قلت عنك ؟، ولن قلته ؟، أقسم لك ..

فقاطعت به ضيق قائلة :

— لا يهمنى القسم فى كثير أو قليل ، وقره لنفسك ، إن الذى يغتاب الناس لا يؤتمن على قسم ، المهم أن تذكر ماذا قلت عني !..

رمى بمعطفه على مقعد كأنما لياً أخذ كامل أهيته للنضال ، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها البريئة في الاستئثار بانتباهه ، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق :
 — لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمعك ، لم أتقوه عنك بكلمة سوء في حياتي وما كان ذلك في وسعي لو تعلمين ، وإذا كان « بعضهم » قد أبلغك عني ما أغضبك ، فهو واش حقير لا يستحق ثقتك ، وإنني على استعداد لمواجهة أمامك لترى بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرى مدى كذبه . ماذا بك من عيب حتى أتحدث به ١٩ ، لشد ما أسأت بي الظن !
 فقالت بهكم :

— شكرا على هذا الشاء الذي لا أستحقه ، لا أظنني أخجل من نقص ، على الأقل فأني لم أتلُق تربية شرقية خالصة !.

نسبت هذه الجملة الأخيرة في انتباهه ، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعا للشبهات عن معبودته ، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشك في حسن مقصده ١٩ ، حسن سليم النبيل ؟ ، هل يتأتى هذا حقا ؟ ، شدا ما يدور رأسه !. قال وعينه تنطقان بالدهش والأسف :

— ماذا تقصدين ١٩ ، أعترف لك بأني قائل هذه الجملة ، ولكن سلى حسن سليم يخبرك ، أو ينبغي له أن يخبرك ، بأنني قتلها وأنا أنوّه بمزايك !..
 فحدجته بنظرة باردة ، وتساءلت :

— مزايى ١٩ ، وهل رغبتى في أن أكون « فتاة أحلام » كل شاب من بين هذه المزايى ١٩ ؟

فهمت كمال بانزعاج وغيظ :

— هو قائل هذا عنك لا أنا ، هلا انتظرت حتى يحضر لأتحده أمامك ١٩ ..
 فواصلت تساؤلها الذى تتابع في مرارة وسخرية قائلة :

— وهل ملاطفتى إياك من بين هذه المزايى أيضا ؟

قال يائسا وقد عجز ، حيال انصباب التهم ، عن الدفاع :

— ملاطفتك إياي ١٩ ، أين ؟ ، ومتى ؟.

— في هذا الكشك ١٩ ! هل نسيت ١٩ ، أنك أنكرت أنك أوهمته ذلك ١٩ ؟

آلته سخريتها وهى تتساءل « هل نسيت ١٩ ! » وأدرك لتوه أن حسن سليم — يا

للحماقة ... قد ظن بلقاء الكشك الظنون ، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها .. حيل خبيثة راح هو ضحيتها ! ، قال بخز وحنق :
 — أنكر ، أنكر بكل قوة وصدق ، إني نادم على حسن ظني بحسن !
 فقالت بكبرياء ، كأنما اعتبرت جملة الأخيرة موجهة إليها هي :
 — إنه عند حسن الظن دائما ..

زفر غبارا ، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجرائيتيه الهائلة التي لم تتحرك منذ آلاف السنين ، ثم هوى بها عليه ، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد . قال بصوت متهدج :

— إذا كان حسن هو الذى أبلغك عنى هذه الأكاذيب فهو كاذب وضيع ،
 ويكون هو الذى اغتابنى لا أنا الذى اغتبتك ! ..
 لاحت في عينها الجميلتين نظرة قاسية ، وتساءلت بحدة :

— أتذكر أنك انتقدت أمامه اختلاطى بأصدقاء حسين ؟
 أهكذا يحرف النبل الأرسقراطى الكلام ؟! ، قال بتأثر شديد :
 — كلا ، لم يحصل ذلك ، علم الله أنى لم أقله منتقدا ، ولكنه ادعى ادعاءات كبيرة ، قال ... قال إنك تحببته ! ، وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا ! ، ولم أكن أقصد ..

قاطعته قائمة بازدياء وهى تقف منتصبة القامة في كبرياء ، حتى توجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع !

— أنت تهذى ! ، لا يهمنى ما يقال عنى ، إني فوق هذا كله ، ولا خطأ لى فيما أعتقد إلا أننى أهب صداقتى دون تمييز ! ..

وأنزلت بدور إلى الأرض وهى تتكلم ، فتناولت يدها ثم ولته ظهرها ، وغادرت الكشك ، فهتف بها متوسلا :

— انتظرى لحظة من فضلك كى ..
 ولكنها كانت قد ابتعدت ، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغى حتى نجبل إليه أنه أسمع الحديقة كلها ، وأن الأشجار والكشك والكراسى ترمقه بنظرة جامدة ساخرة ، فأطبق فاه واعتمد براحته خافة المائدة ، فمال فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط القهر ، لم يمكث وحده طويلا ، فما لبث أن جاء حسين شداد طلق

الحيثا كعادته ، فحياء تحيته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيين متجاورين ، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف ، وأخيرا جاء حسن سليم يسير في خطواته المتمهلة وحركاته المترفة . وتسأل كمال في حيرة : ترى ألم يلمحهما حسن من بعيد كما لهما في المرة السابقة ؟ . ومتى — وكيف — يدري بما دار بينهما من حديث قاطع أسيف ! . وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الزائدة ، بيد أنه آلى على نفسه ألا يشمت به غريبا ، وألا يضع شخصه موضع السخرية أو العطف الزائف ، وألا يمكن أحدا من أن يطالع في صفحة وجهه أثرا مما تضطرب به جوانحه ، فألقى بنفسه في تيار الحديث ، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف ، وعلق طويلا على تكون حزب الاتحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ونشأت باشا في هذا كله ، بالاختصار مثل دوره خير تمثيل حتى انفض المجلس بسلام ، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراى آل شداد عند الظهر ، وكان كمال لم يعد يحتمل مزيدا من الصبر ، فخطب حسن قائلا :

— أريد أن أحدثك قليلا ..

فقال حسن بهلوء :

— تفضل ..

: فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر ، وقال :

— على انفراد !

هم إسماعيل بالانسحاب ، فأوقفه حسن بإشارة من يده ، وقال :

— لست أخفى عن إسماعيل شيئا ..

فأحنقته هذه الحركة فاستشف وراءها مريبا يتوجس ، غير أنه قال دون ميلالة :

— إذن فليسمعنا ، فلست أخفى عنه شيئا أيضا ..

وانتظر قليلا حتى باعد المشى بينهم وبين سراى آل شداد ، ثم قال :

— قبل حضوركم اليوم اتفق لي أن قابلت عايدة في الكشك على انفراد ، فدار

بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات

— أتذكره ؟ — مشوها محرفا حتى دخل في روعها أنني حملت عليها حملة ظالمة

باغية ..

ردد حسن بين شفتين ممتعضتين لفظي « مشوه ومحرف » ثم قال ببرود وهو

يلقى عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب « حسن سليم » لا شخصا آخر :

— يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد في تخيير الألفاظ ..
فقال كمال بانفعال :

— هذا ما فعلته !. فالحق أن كلامها لم يدع لى شكاً في أنك أردت الوقوعة بينى وبينها !

نحال لون حسن غضبا ، ولكنه لم يستسلم له ، فقال بصوت أمعن في البرود :
— يؤسفنى أننى أحسنت الظن طويلا بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلا أخبرتنى عما عسى أن أجنيه من وراء هذه الوقوعة المزعومة !؟. الحق أنك تندفع بلا روية أو عقل ..

فاشتد الغضب بكمال ، وهتف قائلا :

— بل سؤلت لك نفسك سلوكا شائنا !..

وهنا تدخل إسماعيل قائلا :

— إنى أقترح عليكم تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما !

فقال كمال بإصرار :

— إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة ، وهو عارف وأنا عارف !

فعاد إسماعيل يقول :

— قص علينا ما دار فى الكشك بينك وبينها لعلنا ..

ولكن حسن قال بكبرياء :

— أنا لا أقبل محاكمة !..

فهتف كمال منفسا عن غيظه ، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :

— على أى حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أننا أصدق قولا !

فصاح حسن بوجه ممتقع :

— فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار !

اندفع كمال نحوه مكورا قبضته فحال إسماعيل نحوهما ، وكان أقوى الثلاثة زغم ضالة حجمه ، ثم قال بحزم :

— لا أسمح بهذا ، كلا كما صديق ، محترم ابن محترم ، دعانا من هذا العبث الخلق بالأطفال ..

عاد نائرا هائجا جريحا يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وباطنه يستعر بالألم ، طعن في قلبه وكرامته ، معبودته وأبيه ، فما بقى له في الدنيا ؟! ، وحسن ، الذى لم يحترم زميلا كما احترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه ، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقاعا سببا ؟! ، الحق أنه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التى اتهمه بها إيمانا خالصا من كل شك أو تردد ، فلم يزل يعاوده التفكير فى الأمر ، فیسائل نفسه : ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار ؟! . أیكون حسن شوه كلامه ، أم تكون عايذة قد أساءت الفهم أو بالغت فى التكهن أو استسلمت للغضب ؟. غير أن الموازنة بين ابن التاجر وابن المستشار رمت به فى جحيم من الغضب والألم جعللا من محاولة إنصاف حسن ضريا من العبث . وقد ذهب بعد ذلك إلى سراى آل شداد فى موعد اللقاء المعهود ، فوجد حسن معتذرا عن التخلف بطارىء ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس : بأنه — حسن — آسف جدا على ما بدر منه حين الغضب عن « ابن التاجر وابن المستشار » ، وأنه مؤمن بأنه — كمال — ظلمه ظلما فادحا باستنتاجاته الواهمة وأنه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما ، وأنه — حسن — كلفه بإبلاغه ذلك عن لسانه ، ثم تلقى منه خطابا بهذا المعنى مشددا الرجاء فى ألا يعودا إلى الماضى إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان ، وختمه بقوله « اذكر جملة ما أسأت به إليّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معى بأن كلانا مخطئ » وأنه لا يصح لأحدنا تبعا لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه ! . وطابت نفس كمال بالرسالة حينما ، بيد أنه لاحظ أن ثمة تناقضا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع ، أجل غير المتوقع ! فما كان يتصور أنه يعتذر لأى سبب من الأسباب ؟ ، فماذا غيره ؟ ، لا يمكن أن يكون لصداقته هو هذا التأثير الضخم فى كبرياء صاحبه ، فلعله — حسن — أراد أن يسترد سمعته المهذبة أكثر مما أراد استرداد صداقته ، ولعله حرص أيضا على ألا يستفحل الشقاق فتراعى أنباؤه إلى حسين شداد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر —

وهو ابن تاجر — وابن المستشار ! أى سبب من أولئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق فى حال حسن من اعتذار لا يراد به إلا وجه الصداقة وحدها ١٢ كل شيء يهون ، فليصالحه حسن أو فليخاصمه ، المهم حقا أن يعرف هل قررت عابدة الاختفاء ؟ ، لم تعد تطوف بمجلسهم ، أو تبدو فى النافذة ، أو تلوح فى الشرفة لقد أفشى لها قول حسن بأنه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن — اعتمادا على كبريائها — إصرارها على زيارة الكشك فلا يحرم من رؤيتها . لكنها اختفت رغم ذلك ، كأنما رحلت عن البيت كله ، بل عن الحى كله ، بل عن الدنيا كلها فعا عاد يجد لها طعما ، أيمن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية ؟ .. ود لو كان قصدها أن تعاقبه حينما ثم تغفو ، أو فى الأقل أن يذكر حسين شدة سببا لغيبها يكذب مخاوفه ، ود هذا أو ذاك كثيرا ، وانتظر و طال انتظاره بلا فائدة .

كان إذا مضى لزيارة السراى أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان فى محجريهما بين اليأس والرجاء ، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة ، وإلى نافذة الممر الجانبى نظرة ، ثم يلحظ شرفة الحديقة وهو فى طريق الكشك أو السلامك ، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلا بالمفاجأة السعيدة التى لا تريد أن تقع ، وينفض المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبة حزينة من النافذة والشرفات ، خاصة نافذة الممر الجانبى التى كثيرا ما تظهر فى أحلام يقظته إطارا للصورة المعبودة ، ثم يذهب متجعرا اليأس زافرا الكرب ، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شدة عن سر اختفاء عابدة ، غير أن تقاليد الحى العتيق الذى قشبع بها عقلته فلم ينطق ، وجعل يتساءل فى قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التى أدت إلى توارى المعبودة ، أما حسن سليم فلم يشر إلى « الماضى » بكلمة ولم يبد فى صفحة وجهه أنه يفكر على أى وجه فيه ، ولكن لا شك أنه كان يرى فى كل جلسة تجمعهم شاهدا على هزيمته — كمال — المجسمة ، ولم كان يتألم كمال لهذا الحاضر ، تعذب كثيرا ، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه ، ويهديان العذاب يخالط عقله ، وكان شر ما يعذبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيق اليأس ، وأفطع من هذا كله الإحساس بالهوان ، بأنه المنبوذ من روضة الرضى ، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه ، فجعل يردد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر « أين أنت من أولئك السعداء أيها المخلوق المشوه ! » ، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء ؟. أين تجد عيناه النور ؟ ، ويتلقى قلبه

الحرارة ؟. وتنعم روحه بالغبطة ؟، فلتبذ المعبودة بأى ثمن ترضاه ، فلتبذ لتحب من تشاء حسن كان أو غيره ، فلتبذ ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح واللعب ، إن اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق ، فأين منه نظرة رانية تفسخ عن صدره سخام الكآبة والوحشة ، ولتسر قلبا أمسى مفقدا السرور منه كالنور من فقيد البصر ، فلتبذ وأن تتجاهله ، فإنه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك فى مجتلى ضوءها البهيج ، أما بغير ذلك فلن تكون الحياة إلا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون ، وهل كان خروجها من حياته إلا كخروج العمود الفقري من الجسم الإنسانى يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة .

وأخرجه الألم والقلق عن البصر ، فلم يعد يحتمل الانتظار حتى يحىء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراى من بعيد لعله يلمحها فى نافذة أو شرفة أو فى خطراتها وهى تظن أنها بمنأى عن عينيه ، على أن الانتظار فى بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة ، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران . ولم يرها ، ولكنه رأى مرات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه ، فكان يتبعه عينا متفحصة متعجبة كأنما تسائل المقادر عما جعلها تخص هذا الإنسان بمحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطلاع على شتى أحوالها ، مستلقية أو مترنمة أو لاهية ، كل ذلك من حظ هذا الإنسان الذى يعيش فى المحراب ولا تشغل قلبه العبادة !.

وفى جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شداد وجرمه المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التى كانت فى انتظارهما أمام الباب ، رأى الشخصيتين السعيدتين اللذين تقف عابدة أمامهما — من دون العالمين — بإجلال واحترام ، اللذين يحاطبانه بلسان الأمر أحيانا فلا تملك إلا أن تطيع !، وهذه الأم المقدسة التى حملتها فى بطنها تسعة أشهر ، فما من ريب فى أن عابدة كانت جنينا فوليدة كذلك الخلوقات التى كان يرنو إليها طويلا فى هراشى عائشة وخديجة . وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة !. سوف تبقى الآلام ما بقى فى متاهة الحياة أو فى الأقل لن تمحى آثارها . أين تذهب ليالى يناير الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه الهامعتين ؟. وبسط راحته إلى رب السماوات وهو يدعو من

الأعماق» اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار إبراهيم كوني بردا وسلاما « ١٩، وتمنيه لو كان للحب مركز معروف في الكائن البشري لعله يتره كما يتر العضو النائر بالجراحة ؟، وهتافه باسمها المحبوب ليتلقى صدها في سكون الحجرة الصامتة يقلب خاشع كأنما كان غيره المنادى ؟، ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة ؟ وتقليبه البصر في كراسة الذكريات للتثبت من أن ما كان كان حقيقة لا وهما من الخيال ؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلع إلى ما قبل الحب من الماضي بلهفة كما يتطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة ، أجل لم يتصور شخصا هو أشبه بحاله من السجين ، غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتخبط وأرق أمام الزمام من أغلال الحب الأتنية التي تستأثر المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في الجسد ثم لا تؤذن بالخلال ، ووجد نفسه يوما يتساءل : ترى هل ذاق فهمي مثل هذا العذاب الذي يعانيه ؟ وهفت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين . تنهد في أعماق النفس . فذكر كيف قضى يوما على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون ، فأغمد خنجرًا مسموما في قلبه بلا حيلة أو حذر . وجعل يستخضر في ذاكرته وجه فهمي ، فتخيل إليه هلهوه الذي اتخذ به وقتذاك ، ثم تصور تقلصات الألم في قسماته الجميلة حين نحلا إلى نفسه ، ومناجاته الشاكية التي لا شك غرق فيها كما هو يغرق الآن في تأوهات وأنيته . فشعر بغمز في قلبه وراح يقول : لقد عانى فهمي ما هو أشد من الرصاص قبل أن يستقر الرصاص في صدره !، ومن عجب أنه وجد في الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته . فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به في بين القصرين أو العباسية . هذا سعد زغلول — مثله هو — شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمية والخيانة الأصدقاء وغيرهم ، وكلاهما — هو وسعد — يكابدان أحزاننا من اتصاهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم . تغمص شخص الزعيم في كلره كما تغمص حال الوطن في قهره ، وكان يلاقى الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفعال واحد ، فكأنما كان يعني نفسه وهي يقول عن سعد زغلول « أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص ؟ » ، وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زبور « خان الأمانة واستحل القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة » ،

وكأنما كان يعنى غايده وهو يقول عن مصر : هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها ؟ » .

٢١

كان بيت آل شوكت بالسكرية من البيوت التى لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة ، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب ، ولكن بسبب خديجة قبل أى شىء آخر . كانت الأم المعجوز تقيم فى الدور التحتانى ، وخليلى وعائشة وأبناؤهما : نعيمة ، وعثمان ، ومحمد فى الدور الفوقانى ، ولكن ضوضاء أولئك جميعا لم تكن شيئا بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها . سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها ، وقد حدثت تغيرات فى نظام البيت كانت خليقة بمحصر أسباب الضوضاء فى أضيق الحدود ، كاستقلال خديجة بيتها ومطبخها ، وكاستئجارها بالسطح لتربية دواجنها ، وغرس بستان متواضع فى جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حماها ودواجنها ، كان كل ذلك خليقا بتخفيف الضوضاء إلى حد كبير ، ولكن الضوضاء لم تخف ، أو لعلها خفت بقدر لم يلحظه أحد ، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور ، ولم يكن سره — فيما بدا — خافيا ، فإن عائشة وخليلى انتقلا إلى شقتها ليشاركا فى تفريج الأزمة — أجل الأزمة — التى أزمتهما ، جلسوا : الأخوان ، والأختان فى الصالة على كنبتين متقابلتين ، وكانت الوجوه جادة ، وكانت خديجة متجهمه ، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى ، ولكن أحدا منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذى جمعهم حتى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معا :

— هذه المنازعات تقع فى كل بيت ، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس ، خصوصا أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة ، حسبي الله ونعم الوكيل ..

تحرك إبراهيم فى معطفه كأنه يستوى فى مجلسه ، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يدر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها ، فحادثته خديجة بنظرة ارتياب وهى تتساءل :

— ماذا تعني بيىء هىء ؟.. ألا يهت قلبك بشىء فى الدنيا ؟
وأعرضت عنه كاليائسة ، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة :
— هل يرضيكما ذهابها إلى أبى فى الدكان لتشكوى إليه ؟، هل يجوز أقحام الرجال — خاصة من كان على شاكلة أبى — فى منازعات النسوان ؟، ما كان ينبغى أن يعلم بشىء من هذا ، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها ، ولولا أدبه لصارحها بذلك .. ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وعدها بالجىء ، ما أبشع تصرفها ، لم يخلق أبى لهذه الصغائر ، فهل يرضيك هذا التصرف يا سى خليل ؟
فقطب خليل فى استياء ، وقال :
— أمى أخطأت ، صارحتنا أنا نفسى بذلك حتى صبت على غضبها ، غير أنها ست كبيرة ، وأنت تعلمين أن الإنسان فى مثل سنها يحتاج إلى المداواة والحلم كالأطفال ، حبذا ..
فقاطعه إبراهيم فى ضجر قائلاً :
— حبذا .. حبذا ..! كم كررت حبذا هذه حتى مللتها ، أمك كما قلت ست كبيرة ، ولكن قرعتها وقعت على من لا ترحم !..
التفتت بخديجة إليه بمحبة وقد عبس وجهها واتسع منخراها ، وقالت :
— الله .. الله .. ، لم يبق إلا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا ..
فقال إبراهيم وهو يلوح بيده آسفاً :
— بابا ليس معنا الآن ، وهو إن جاء فلن يجىء ليستمع إلى أنا ، ولكنى أقرر الحقيقة التى يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها ، أنت لا تطيقين أمى ولا تحتملين ظلها ، أعوذ بالله ، لم كل هذا يا شبيخة ؟، بشىء قليل من الحلم والكياسة كان يسعلك أن تأسريها ، ولكن القمر أقرب منالاً من حلمك ، هل تستطيعين أن تنكرى كلمة واحدة مما قلت ؟!

فرددت عينها بين خليل وعائشة لتشهدهما على هذا « الظلم » الصارخ ، فبدوا حائرين بين الحق والسلامة ، حتى تمتت عائشة وهى من الإشفاق فى نهاية :
— سى إبراهيم يقصد أن تغضى قليلاً عما يبدر منها ..
وهز خليل رأسه بالموافقة فى ارتياح من ظفر أخيراً بسلم النجاة ، ثم قال :
— هو ذلك ، أمى سريعة الغضب ولكنها بمنزلة والدتك ، وبشىء من الحلم

تعفين أعصابك من مشقة المشاحنة ..

ففنفت خديثة وهي تقول :

— الأصوب أن يقال إنها هي التي لا تطيقني ولا تحمل لي ظلا ، لقد أثقلت أعصابي ، وما من مرة نتلاقى إلا وتسمعي — تصرخا أو تلميحا — كلمة تهيج الدم وتسم البدن ، تم أطالب أنا بالحلم ! ، كأني مخلوقة من ثلج ، أليس يكفيني عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبري وحلمي ؟ ، يا هوه أين أجد منصفاً ؟
فقال إبراهيم في تهكم وهو يتسهم :

— لعلك تجدين هذا المنصف في شخص أهلك ؟

فهتفت قائلة :

— أنت شامت بي ، أنا أفهم كل شيء ، ومع ذلك فربنا موجود !

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدل على التسليم والتحدى في آن :

— ربنا موجود !

وقال خليل يعطف :

— هدي روعك حتى تلقى والدك بنفس مطمئنة !

من أين لها بالنفس المطمئنة ؟ لقد انتقمت العجوز منها شر انتقام ، وعما قليل تدعى إلى لقاء أبيها في موقف يفر منه قلبها ودمها . وهنا ترامي إليهم صياح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتهما وأعقبه صوت أحمد وهو يركى . فقامت على عجل رغم سمانتها واتجهت نحو الحجرة ، فدفعت الباب ودخلت وهي تصيح بدورها :
— ما معنى هذا ؟ ألم أنهكما عن الشجار ألف مرة ؟ ، خصيمي المعتدى منكما ..

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب :

— مسكينة كأن بينها وبين الراحة عدااء مستحكما ، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كله فلا تسكن حتي تأوي إلى الفراش ، يجب أن يذعن كل شيء إلى إرادتها وتفكيرها ، الخادم ، الأكل ، السرب ، الأثاث ، الدجاج ، عبد المنعم ، أحمد ، أنا ، الكل يجب أن يذعن لتنظيمها ، إلى أشفق عليها ، وأؤكد لكم أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة ..

فقال خليل باسم :

— ربنا يعينها ..

— ويعيننى معها !

قال إبراهيم ذلك وهو يهز رأسه باسم أيضا ، ثم أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره ، ونهض متجها إلى أخيه فقدمها له فتناول خليل سيجارة ، ودعا عائشة لتناول واحدة ولكنها رفضت ضاحكة ، وأومات إلى الباب الذى توارت وراءه خديجة ، وهى تقول :

— خل الساعة تمر بسلام ..

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة ، ويقول مشيرا إلى الباب نفسه :

— محكمة ، فى الداخل الآن محكمة ، ولكنها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة

ولو على رغمها ..

عادت خديجة وهى تقول متأففة :

— كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة فى هذا البيت ! ، كيف ومتى !؟

وجلست وهى تنهد ، ثم قالت مخاطبة عائشة :

— نظرت من المشربة فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطى

أرض الحارة ، فخيرنى وربك كيف يشق أبى سبيله !؟ .. ولم هذا العناد كله !؟

فسألتها عائشة :

— والسماء ؟ ، كيف حالها الآن ؟

— قطران ! ، ستجعل الحارات بحورا قبل الليل ، ولكن هل أجدى ذلك فى حمل

حماتك على تأجيل ما بيتت من شر ولو إلى يوم آخر ؟ ، كلا ، ذهبت إلى الدكان

رغم ما يسببه المشى لها من متاعب ، وما زالت بالرجل حتى تعهد لها بالحضور ، ولو

سمعها سامع فى الدكان وهى تشكو فى هذه الظروف العسيرة لحسنى ربا أو

سكينة !

وضحكوا جميعا مغتمين الفرصة التى أتاحها لهم للتنفيس عن صلوهم ،

وتساءل إبراهيم :

— أنحسين نفسك أقل شأنا من ربا وسكينة !؟

وسمع نقر على الباب ، ولما فتحت الخادم لاح وجه الجارية سويدان فنظرت إلى

خديجة بخوف ، وقالت :

— سيدى الكبير حضر ..

ثم سرعان ما توارت ، وقامت خديجة شاحبة اللون وهى تقول بصوت خافت :

— لا تتركونا وحدنا ..

فقال خليل ضاحكا :

— معك إلى النهاية يا خديجة هانم !..

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسل :

— كونوا فى جانبى ..

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة على صورتها فى المرآة لتؤكد من خلوص وجهها من أى أثر للأصباغ .

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كنية فى صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت ، على حين جلست الأم على مقعد قريب فى معطف كثيف لم تجد كثافته فى إخفاء ضالة جسمها الذى احدثوب أعلاه ، وقد نخل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثر جف جلدته فلم يبق شئ منه على ما كان عليه إلا أسنانه الذهبية ، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد ، ولم يهون قدمها من إفخامتها ، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات ق المنجردت أو تهتكت عند المقابض والمساند ، فإن بساطها العجمى قد صان رونقه أو استجد نفاسته ، إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع به العجوز ، وكانت . المرأة تميل على مظلتها وتقول :

— قلت لنفسى إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدنى ، فلا هو ابنى ولا أنا أمه ..

فابتسم السيد قائلا :

— لا سمح الله ، إنى طوع أمرى ، فأنا ابنك وخديجة ابنتك !

فمطت بوزها ، وقالت :

— كلكم أبنائى ! أمينة هانم ابنتى الطيبة ، أنت سيد الناس ، أما خديجة

(ورنى إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجية واحدة من سجايا والديها

الطيبين .. (ثم وهى تهز رأسها) يا لطيف الطف !..

فقال السيد بلهجة المعتذر :

— إني أعجب كيف أغضبتك لهذا الحد ؟، كان الأمر كله مفاجأة شديدة على ، لا أقبل هذا مطلقا ، ولكن هلا حدثتني عما فعلت ؟
فقلت المرأة مقطبة :

— هذا شيء قديم ، كنا نخفى عنك كل شيء ، إكراما لتوسلات والدتها التي أعيتها الخيل في إصلاحها ، ولكنني لن أقول كلمة واحدة إلا في وجهها ، في وجهها يا سي السيد كما عزمت أمامك في الدكان ..

عند ذاك جاءت الجماعة ، دخل إبراهيم في المقدمة ، وتبعه خليل ، فعائشة ، ثم خديجة ، وصافحوا السيد واحدا فواحدا حتى جاء دور خديجة ، فأنخت في أدب مثالي حتى لثمت يده ، فلم تتمالك العجوز من أن تقول في عجب :

— رياه ما هذه البوليتيكا ، أنت خديجة حقا ؟! ، لا تخدعنك الظواهر يا سيد أحمد ..

فقال خليل معاتبا أمه :

— هلا تركت والدنا حتى يستريح !، ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق !

فعلا صوت المرأة وهي تخبه قائلة :

— ما الذي جاء بك ؟! ما الذي جاء بكم ؟، دعوها واذهبوا عنا بسلام ..

فقال إبراهيم برقة :

— وحدي الله ..

فصاحت به :

— أنا موجدة أحسن منك يا بغل !، لو كنت رجلا حقا ما أحوجتني إلى استدعاء هذا الرجل الطيب ، ما الذي جاء بك ؟، وكان يجب أن تكون غاطا في نومك كالعادة ؟!

ابتل صدر خديجة ارتياحا إلى هذه البداية ، فتمنت لو تشتد حتى تغطي على قضيتها ، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق في وجه المعركة المأمولة :

— ما هذا الذي سمعته عنك يا خديجة ؟!، أحق أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك ، أستغفر الله ، بل لوالدتنا جميعا ؟!

خاب أمل خديجة ، فغضت بصرها ، وتحركت شفتاها في همس دون أن تين

وهي تهر رأسها نفيا ، ولكن الأم لوحث بيدها للجميع كي ينصتوا ، ثم أنشأت تقول :

— هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة ، منذ أول يوم لها في هذا البيت وهي تخاصمني بلا سبب ، وتخطبني بأطول لسان عرفته في حياتي ، لا أحب أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات ، أو يزيد ، كثير كثير ، وقبيح قبيح !! عابت إشرافى على البيت وتنقصت طهينى — هل تتصور هذا يا سى السيد ؟ — وما زالت حتى انفصلت بشقتها عنى فانشطرت البيت الواحد بيتين ، حتى الجارية سويدان حرمت عليها دخول شقتها لأنها جارية ، وحاءت بخادم خصوصية لها ، السطح ، السطح على سعته يا سى السيد ، ضيقته على حتى اضطرت إلى نقل دواجنى إلى الفناء !! ماذا أقول أيضا يا بنى ؟. هذا قليل من كثير ، ولكن ما علينا ، قلت لنفسى ما فات فات ، واحتملته وصبرت عليه ، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهى ، ولكن هل صدق ظنى ؟. كلا وحياتك ..

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها ، وراجت تسعل حتى انتفخت أوداجها ، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرها أن يأخذها قبل أن تم حديثها ، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت ، ثم رفعت إلى السيد عينين دامعتين ، وسألته بصوت لم يخل من بح :

— أتستكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لى يا أمى ؟

فقال الرجل الذى تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل :

— معاذ الله يا أمى ..

— عوفيت يا سيد أحمد ، لكن ابتك تستكف من هذا ، تدعوى « تيزة » ، أقول لها مرارا ادعيني « نينة » ، فتقول لى « وماذا أدعو التى فى بين القصرين ؟ » ، أقول لها أنا نينة ، وأملك نينة ، فتقول لى « ليس لى إلا نينة واحدة ربنا يخلبها لى » .

انظر يا سى السيد ، أنا التى تلقيتها بيدي من عالم الغيب !

ألقي السيد أحمد على خديجة نظرة غاضبة ، وسألها محتدا :

— صحيح هذا يا خديجة ؟ ، يجب أن تتكلمى ..

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق ، كانت من العيظ فى نهاية ،

وكانت من الخوف في نهاية ، وإلى هذا كله كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدثها
غرائز الدفاع عن النفس على التذرع بكافة ضروب الضراعة والمسكنة ، قالت
بصوت خافت :

— أنا مظلومة ، كل واحد هنا يعلم أبأنى مظلومة ، مظلومة والله يا بابا ..
كان السيد أحمد في دهش مما يسمع ، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى حال
« الكبير » التي تسيطر على المرأة ، ومع أنه لم يرغب عن ملاحظته ما يكتنف الجو من
فكاهة بدت آثارها في وجهي إبراهيم و خليل ، فإنه صمم على التظاهر بالجد
والصرامة إرضاء للعجوز وإرهاقاً للخصم ، وكان يعجب لما يتكشف له من عناد
خديجة وحدة طباعها ، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل ، أكانت على هذا
الخلق مذ كانت في بيته ؟ ، أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم ؟ ، هل يكتشف على
آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التي كونها كما سبق أن اكتشف
لياسين ؟

— أريد أن أعرف الحقيقة ؟ أريد أن أعرف حقيقتك ، إن التي تتحدث عنها
والدنا امرأة أخرى غير التي عهدتها ، فأيتها تكون الصادقة ؟
ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم حديثها ، ثم
استطردت قائلة :

— قلت لها : إلى تلقيتك بيدي من عالم الغيب ، فقالت لي بلهجة شريرة لم
أسمع بمثله من قبل : « إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة ! » .
ضحك إبراهيم و خليل ، وخفضت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها ،
فقالت العجوز مخاطبة ابنها « اضحكا ، اضحكا ، اضحكا من أمكما ! » ،
ولكن السيد تجهم وإن يكن باطنه ضحك ، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضا ؟ ،
أليس هذا مما يستحق أن يروى على إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ؟
قال للخصم بغلظة :

— كلا .. كلا ، لأعرفن كيف أحابيك على هذا حسابا عسيرا ..

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة :

— أما سبب شجار الأمس ، فهو أن إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة
فقدمت لهم الشكرسية فيما قدم من أطعمة ، وفي المساء سهر عندى إبراهيم و خليل

وعائشة وخديجة ، وجاء ذكر الولاية فنوه إبراهيم ببناء المدعوين على الشركسية ، فانيسطت ست خديجة ، ولكنها لم تقنع بذلك ، بل راحت تؤكد أن الشركسية هي الصنف المأثور عن بيتها الأول ، فقلت بحسن نية : إن زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشركسية في بيتكم ، وأن خديجة لا بد وأن تكون تعلمتها منها ، أقسم لك أني ما تكلمت إلا عن حسن نية وأنى ما قصدت أحدا بسوء ، ولكن أجارك الله يا حبيب ، انتفضت غاضبة وصاحت في وجهي « هل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف ؟ » فقلت لها : إني أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد ، فصرخت قائلة : « أنت لا تحبين لنا الخير ولا تطيقين أن ينسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشركسية ، الشركسية نؤكل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة في مثل سنك » أي والله هذا يا سى السيد ما قذفتني به أمام الجميع ، فأيتنا الكاذبة بربك وصلاتك ؟!

قال السيد غاضبا ساخطا :

— رمتك بالكذب في وجهك !، يارب السماوات والأرض ، ما هذه ابنتي ..

غير أن خليل قال لأمه باستياء :

— ألهذا جئت بوالدنا ؟! . أصبح أن نكلد خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع

صبيان حول الشركسية ؟! ، هذا كثير يا أماء ..

فحملت المرأة في وجهه مقطبة وصاحت به :

— اخرس ، اغرب عن وجهي ، لست كاذبة ، ولا يصح أن يرميني مخلوق

بالكذب ، إني أعرف ما أقول ولا حياء في الحق ، لم تكن الشركسية بالطعام المعروف

في بيت السيد قبل أن تدخله زينب ، وليس في ذلك ما يعيب أحدا أو ينتقصه ،

ولكنها الحقيقة . هاكم السيد فليكنذبنى إن كنت كاذبة ، إن طواجن بيته مضرب

الأمثال وليها الأرز المحشو ، أما الشركسية فلم تقدم على مائدته قبل مجيء زينب ،

تكلم يا سى السيد أنت وحدك الحكم ..

قام السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة ، ثم قال بلهجة عنيفة :

— ليت ذنبا اقتصر على الكذب والادعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء

الأدب ، هل شجعك على هذا السلوك السيئ ابتعادك عن قبضة يدي ؟! إن

يدي تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردد ، من المؤسف حقا أن يجد أب ابنته

مستحقة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأما ..
واستطرد ملوحاً بيده :

— إني غاضب عليك ، والله إنه ليؤلني أن أرى وجهك أمامي ..
أجهشت خديجة بالبكاء فجأة ، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معا ، ولم يكن ثمة
وسيلة أخرى للدفاع ، ثم قالت بصوت متهدج تخفقه العبرات :
— أنا مظلومة ، والله أنا مظلومة ، إنها لا ترى وجهي حتى ترميني بكلمات
قاسية ، ولا تفتأ تقول لي « لولاي لقضيت العمر عانسا » وأنا لم أنلها بسوء أبدا ،
وكلهم شهود على ذلك ..

لم تعد الحركة التمثيلية — الصادقة الكاذبة — أثرا تركته في النفوس ، قطب
خليل شوكت حانقا ، ونكس إبراهيم شوكت رأسه ، والسيد نفسه ولو أن مظهره لم
يعتوره تغيير إلا أن قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم ، أما
العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيبين ، وكأثما
تقول لها « مثلي دورك يا مأكرة لن يجوز على » ، ولما استشعرت في الجو عطفًا على
المثلة قالت بتحد :

— ها كم عائشة أختها ؟ ، إني أستحلفك بعينيك ، أستحلفك بالقرآن
الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت ، ألم ترمي أختك بالكذب في وجهي ؟ .
ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز ، تكلمي يا بنية تكلمي ، إن أختك
ترميني الآن بالظلم بعد أن رمتني أمس بالكذب ، تكلمي ليعلم السيد من الظالم
ومن المعتدى ..

روعت عائشة بجرها المباغت إلى حومة القضية التي ظنت أنها ستقف منها
موقف المشاهد إلى النهاية ، وشعرت بالخطر يحرق بها من كل جانب ، فرددت
عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة ، فهم إبراهيم بالتدخل ، ولكن السيد
أحمد سبقه إلى الكلام ، فخاطب عائشة قائلاً :

— إن والدتنا تستشهد بك يا عائشة ، فيجب أن تتكلمي ..
فاضطربت عائشة حتى شحب لونها ، ولكن شفتيها لم تتحرك إلا عند ازدراد
ريقها ، وغمضت عينيها فرارا من عينيها وأصرت على الصمت . قال خليل
محتجا :

— لم أسمع من قبل أن أختا دعيت للشهادة على أختها ..!
فصاحت به أمه :

— ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكتلون ضد أمهم كما تفعلون . (ثم ملتفتة إلى السيد) ولكن حسبي صمتها ، إن صمت عائشة شهادة لي يا سي السيد ..
ظنت عائشة أن عذابها قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنها ما تدري إلا وخديجة تقول لها برجاء وهي تحفف عينيها :

— تكلمي يا عائشة ، هل سمعتي أشتمها ؟
لعتها في سرها من صميم قلبها ، وراح رأسها الذهبي يهتز اهتزازة عصبية ،
فهتفت العجوز :

— جاءنا الفرج ، هي التي تطالب بالشهادة ، لم يبق لك عذر يا شوشو .
يا ربي إذا كنت ظالمة حقا كما تقول خديجة فلم لم أظلم عائشة ؟ ، لم تسير الأمور بيني وبينها على خير حال ، لم يا ربي لم ؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه ، ثم جلس إلى جانب السيد ، وقال له :
— يا والدي ، يؤسفني أننا أتعبنك وأضعنا وقتك الثمين هباء ، فلندع الشكوى والشهادة جانبا ، لندع الماضي كله جانبا ولننظر فيما هو أهم وأجدى ، ينبغي أن يكون محضرك خيرا وبركة ، فلنعقد الصلح بين أمي وزوجي ، وليتعهدا لك بأن يحافظا عليه على الدوام ..

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح ، غير أنه قال بلباقة وهو يهز رأسه معترضا :
— كلا ، لن أقبل أن أعقد صلحا ، فإن الصلح لا يكون إلا بين ندين ،
والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى ، وليست الابنة كالأم ،
فيجب أولا أن تعتذر خديجة إلى أمها عما سلف ، لتعفو أمها عنها إذا شئت ، ثم
نتكلم بعد ذلك في الصلح ..

ابتسمت العجوز حتى تضامت تجاعيدها ، غير أنها نظرت نحو خديجة بحذر ،
ثم أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس ، فاستطرد السيد قائلا :

— يبدو أن اقتراحي لم يصادف قبولا ..

فقالت العجوز بامتنان :

— إنك لا تنطق إلا عن الصواب : سلم فوك ، وبارك الله في عمرك ..

وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت منه في انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين يديه ، فقال لها بحزم :

— قبل يد والدتك ، وقول لها : اصفحي عني يا نينة ..
آه ، ما كانت تتخيل — ولا في الكابوس — أنها يمكن أن تقف هذا الموقف أبدا ، ولكن أباه — أباه المعبود — هو الذى قضى به ، أجل قضى به من لا تستطيع لقضائه ردا . فلتكن مشيئة الله . تحولت خديجة إلى المعجوز ، ومالت نحوها ، ثم تناولت اليد التى رفعتها إليها — إى والله رفعتها إليها دون ممانعة ولو في الظاهر — ولصمتها ، وهى تشعر باشمزاز وتفزز وقهر أليم ، ثم غمغمت قائلة :
— اصفحي عني يا نينة ..!

فنظرت المعجوز إليها مليا وقد شاع البشر في وجهها ، ثم قالت :
— صفحت عنك يا خديجة ، صفحت عنك إكراما لأهلك ، وقبولا لتوبتك ..
وندت عنها ضحكة صبيانية ، ثم استطردت تقول بتحذير :
— لا جدال بعد اليوم في الشركسية ، ألا يكفيكم أنكم فقمتم الدنيا في الطواجن والأرز المحشو ؟..

قال السيد بسرور :
— الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى خديجة) .. نينة دائما ليست تيزة ، هذه نينة كالأخرى سواء بسواء ..
ثم بصوت خفيض أسيف :

— من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة ؟. ما كان ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه ، أنسيت أمك وما تتحلى به من أدب ودمائة ؟، أنسيت أن أى شر تأتينه إنما يسود وجهي أنا ؟. لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك ، ولسوف أعجب طويلا ..

٢٢

رقيت الجماعة في السلم عائدة إلى مساكنها عقب رحيل السيد أحمد عبد الجواد ، كانت خديجة تتقدم القافلة بوجه مريد تعلوه صفرة الغضب والحنق ، وكان الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأشفقوا مما

سيتمخض عنه صمت خديجة ، لذلك سحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم إلى شقتهم ، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان حريا بأن يعيدهما إلى شقتهم فوراً ، ولما عادوا إلى مجلسهم بالصالة قال خليل — وهو بسبيل جس النبض — مخاطباً أخاه :

— كانت كلمتك الختامية حاسمة فأنت بخير النتائج ..

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال :

— أتت بالصلح أليس كذلك ؟. هي السبب فيما نزل لي من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل ..

فتساءل إبراهيم كالمستكر :

— لا مذلة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفيها ..

فقالت دون مبالاة :

— إنها أمك أنت ، ولكنها عدوتي أنا ، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا ، أجل

فما هي إلا نينة بأمر بابا ، وبأمر بابا وحده !

مال إبراهيم إلى مسند الكنبه وهو يتهد يائسا ، وكانت عائشة قلقة ولا تدرى أى أثر تركه امتناعها عن الشهادة في نفس أختها ، وزاد من قلقها تجنب خديجة النظر إليها ، صممت على محادثتها لتحملها على معالنتها بحقيقة مشاعرها ، فقالت برقة :

— ليس في الأمر مذلة وقد تصافيتما ، ويجب ألا تذكرى إلا حسن الختام ..

فتصلب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة ، ثم قالت بحدة :

— لا تكلميني يا عائشة ، أنت آخر شخص في الدنيا يحق له أن يكلمني ..

فتظاهرت عائشة بالدهش ، وتساءلت وهي تقلب عينيها بين إبراهيم و خليل :

— أنا ؟! لماذا لا سمح الله ؟! ..

فقالت بصوت كالرصاص برودة وحدة :

— لأنك خنتي وشهدت بصمتك على !. لأنك آثرت إرضاء الأخرى على

مظاهرة أخذك ، هذه هي الخيانة بعينها !..

— أمرك عجيب يا خديجة !.. كل واحد يعلم بأن الصمت كان في صالحك !

فقالت بنفس اللهجة أو أشد :

— لو راعيت صالحى حقاً لشهدت لي بالحق أو بالباطل لا بهم ، ولكنك آثرت

التي تطعمك على أختك ، لا تكلميني ، ولا كلمة واحدة ، لنا أم يكون عندها الكلام .

وفي ضحى اليوم التالى ذهبت خديجة لزيارة أمها رغم توكل الطرقات وامتلأ منخفضاها بالمياه الراكدة ، ومضت إلى حجرة الفرن ، فنهضت أمها لاستقبالها في سرور وحرارة ، وأقبلت نحوها أم خنفي مهللة ، ولكنها ردت السلام بكلمات مقتضبة حتى تفحصتها أمها بنظرة متسائلة ، فقالت دون تمهيد :
— جئت لك لرى رأيك في عائشة .. فلم يعد بى طاقة لأتحمل أكثر مما تحملت ..

لاح في وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى ، فقالت وهى تشير إليها برأسها كى تسبقها إلى الخارج :

— ماذا حدث كفى الله الشر ؟ ، حدثنى أبوك بما كان في السكرية ، فما دخل عائشة في ذلك ؟ (ثم وهما يرقيان في السلم) .. رياه يا خديجة ، طالما رجوتك أن توسعى من صدرك ، حماك عجوز ينبغي مراعاة سنه ، إن ذهباها إلى الدكان وحده في جو كجوا مس برهان على ضعف عقلها ، ولكن ما الحيلة ؟ . كم غضب أبوك ! . لم يكن يصدق أنه يمكن أن تند عنك كلمة سوء ، ولكن ماذا أغضبك من عائشة ؟ لقد صمتت أليس كذلك ؟ لم يكن في وسعها أن تخرج عن الصمت .. وجلسنا في الصالة — مجلس القهوة — على كنية جنبنا إلى جنب ، وخديجة تقول محذرة :

— نينة ، أرجو ألا تنضمي إليهم ، ما لى يا رنى لا أجد نصيرا في هذه الدنيا !

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب ، وقالت :

— لا تقولى هذا ، لا تتصورى هذا يا بنية ، ولكن خبرينى ماذا وجدت من

عائشة ؟

وهى تدفع يدها الهواء كأنما تلطم عدوا :

— كل شر ، شهدت على ، فأوقعت بى شر هزيمة ..

— ماذا قالت ؟

— لم تقل شيئا ..

— الحمد لله ..

— إن المصيبة جاءت من أنها لم تقل شيئا ..

تساءلت أمينة ، وهي تبتسم في عطف :

— وماذا كان في وسعها أن تقول ؟

وكأنما كبر عليها تساؤل أمها ، فقالت بعبوس وحدة :

— كان في وسعها بأن تشهد بأننى لم أعتد على المرأة ، لم لا ، لو فعلت ما

جاوزت واجبات الأخوة ، كان في وسعها على الأقل أن تقول إنها لم تسمع شيئا ،

الحق أنها آثرت المرأة على ، خذلتني وتركتني أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة ، لن

أنسى هذا لعائشة ما حيت ! ..

قالت أمينة ، بإشفاق وألم :

— 'خديجة لا ترعيني ، كان يجب أن يكون كل شيء قد نسي في الصباح ..

— نسي ؟! لم أنم من الليل ساعة ، شهدت وبرأسى مثل النار ، كل مصيبة

كانت تهون لو لم تجيء من عائشة ، من أختي ؟! لقد ارتضت أن تنضم إلى حزب

الشیطان ، حسنا ، لكن ما تشاء ! كان لي حماة فأصبح لي اثنتان ، عائشة ! ..

رباه طالما سترتها ، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على ألى ما تخر به حياتها من قلة

الأدب ؛ إنها تحب أن يعرف عنها أنها ملك كريم وأننى شيطان رجيم ، كلا . أنا خير

منها ألف مرة ، إن لي كرامة لا يعلو إليها التراب ، ولولا ألى (وهنا اشتدت نبرات

حدة) لما استطاعت قوة في الأرض أن تحملني على أن أقبل يد عدوتي أو أن أدعوها

نينة !

ربتت أمينة كنفها برقة ، وهي تقول :

— أنت غضبي ، دائما غضبي ، هدئي من روعك ، ستبقين معي حتى تنغدى

معا ثم نتحدث في هدوء ..

— إنى في كامل عقلى وأعرف معنى ما أقول ، أريد أن أسأل ألى ، أيتهما خير من

الأخرى : التى تلزم بيتها ، أم التى تزور بيت الجيران فتغنى وترقص ابنتها ؟!

تهتت أمينة ، وقالت بحزن :

— إن رأى أليك في هذا لا يحتاج إلى سؤال ، ولكن عائشة سيدة متزوجة والرأى

الأعلى في سلوكها لزوجها ، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تغنى بين

صديقاتها اللاتي يحبينها ويحبن صوتها فما شأننا نحن ؟! . لك الله يا خديجة ! ..

أتسمين هذا قلة أدب ؟!، هل يغضبك حقاً أن ترقص نعيمة ؟!. إنها فى السادسة وما رقصها إلا لعباً ، لست إلا غاضبة يا خديجة ، ساحك الله ..
فقال خديجة بإصرار :

— إنى أعنى كل كلمة قلتها ، وإذا كان يعجبك أن تغنى ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها ، فهل يعجبك أيضاً أن تدخن ، كالرجال ؟!، نعم ، ها أنت تدهشين !، أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن ، وأن التدخين صار لها كيفاً لا تملك الامتناع عنه ، وأن زوجها يعطيها العلبه ويقول لها بكل بساطة « غلبتك يا شوشو » ، رأيتها بنفسى وهى تأخذ النفس وهى تخرجه من فمها وأنفها ، أنفها أتسمعين ؟، لم تعد تخفى عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر ، بل دعتنى إليه مرة بحجة أنه مهدىء للأعصاب الحامية . هذه هى عائشة ، فما قولك ؟ وما قول أبى يا ترى ؟

ساد الصمت ، وبدت أمينة فى حيرة شائكة ، غير أنها صممت على خطة التهدة التى التزمتها ، قالت :

— التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم ، أبوك لم يدخن قط ، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء ؟!، ولكن ما القول أيضاً إذا كان زوجها هو الذى أغراها به وعلمها إياه ؟، ما الحيلة يا خديجة ؟، إنها لزوجها لا لنا ، ولم يبق إلا النصيح إن كان يجدى ..

فجعلت خديجة تنظر إليها فى صمت وشئ بتردها قبل أن تقول :
— إن زوجها يدللها تدليلاً معيياً حتى أفسدها وأشركها فى كافة معاصيه ، ليس التدخين بشر عاداته ، ولكنه يشرب الخمر فى بيته دون حياء ، إن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها فى الخمر كما أوقعها فى التدخين ، لم لا ؟ العجوز تعلم بأن شقة ابنها حانة ولكنها لا تكثر لذلك ، سوف يسقيها الخمر ، بل إنى أقطع بأنه فعل فإنى شممت مرة فى فمها رائحة غريبة ، وسألته عنها وضيق عليها رغم إنكارها ، أؤكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين ..

صاحت الأم فى يأس :

— إلا هذا يا رب ، ارحمى نفسك وارحمينا ، اتقى الله يا خديجة ..

— إني تقية وربنا عالم ، لا أدخن ولا تفوح من في روائح مريبة ! ، ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتي ! ، ألم تعلمي بأن البغل الآخر حاول أن يقتني هذه الزجاجاة المحرمة ١٩ . ولكنني وقفت له بالمرصاد ، قلت له بصريح العبارة : إني لا أبقى مع زجاجاة خمر في شقة واحدة ، فتراجع أمام تصميمي ، وجعل يحتفظ بزجاجاته عند أخيه في شقة الهانم التي خانتني بالأمس ، وكلما صرخت لأعنة الخمر وشاربيها ، قال لي — قطع الله لسانه — « من أين جئت بهذه الخنبلية ؟ ، هذا أبوك منبع الأنس كله وقل أن يخلو له مجلس من الكأس والعود ! » ، أسمعت ماذا يقال عن أبي في بيت آل شوكت ١٩ !

لاحت في عيني أمينة نظرة حزن وجزع ، وجعلت تقبض راحتها وتسطهما في اضطراب وقلق ، ثم قالت بصوت ثمت نبراته عن التشكي والتألم :

— رحماك يا ربي ، لم نخلق لشيء من هذا ، عندك العفو والرحمة ، يا ويل النساء من الرجال ، لن أسكت ولا يصح أن أسكت ، سأحاسب عائشة حسابا عسيرا ، ولكنني لا أصدق ما تقولين عنها ، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له ، ابنتي طاهرة وستظل طاهرة ولو انقلب زوجها شيطانا رجيمًا ، سأحدثها حديثا صريحا ، وسأحدث سي خليل نفسه إن لزم الأمر ، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه .. أما ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان ..

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة ، فتابعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريبا بمدى الخسران الذي منيت به جزاء خيانتها ، ولم تأبه كثيرا لما أضفت على الوقائع من مبالغة في التصوير أو حدة في الوصف مما جعلها تسمى شقة أختها حانة ، وهي تعلم بأن إبراهيم و خليل لا يقربان الخمر إلا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حد السكر أبدا ، ولكنها كانت حانقة ثائرة ، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس .. إلخ ، فقول أعادته على أمها بلهجة استكار لا تدع مجالاً للشك في كفرها به ، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم و خليل وأمه العجوز ، خصوصا وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما تحامل عليه أو انتقاد له ، بل وهم يتوهون بأريحته ويعقدون له زعامة الظرف في عصره ، قابلت ذلك الإجماع بادىء الأمر بعناد غليظ ، ثم داخلها الشك رويدا وإن لم تعلنه ، ووجدت عمرا شديدا في مزج هذه الصفات

الجديده بالشخصية الوقور الجبارة التى آمنت بها طوال حياتها ، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلالها ، بل لعلها أثرت فى نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحية . لم تقنع بما أحرزت من نصر ، فعادت قول بلهجة التحريض :
 — عائشة لم تخنى فعجب ، ولكنها خانتك أنت أيضا ..
 وصمتت ريثما يتغلغل قولها فى الأعماق ، ثم استطردت قائلة :
 — إنها تزور ياسين ومريم فى قصر الشوق ..
 هتفت أمينة وهى تمحلق فيها بفزع :
 — ماذا قلت ؟

فقالته وهى تشعر بأنها تسوّرت ذروة الظفر :
 — هذه هى الحقيقة المحزنة !، زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة ، زارا عائشة وزارانى ، أقول الحق إني اضطررت لاستقبالهما وما كاد يسعنى إلا أن أفعل إكراما لياسين غير أنه كان استقبالا متحفظا ، ودعانى ياسين إلى زيارة قصر الشوق ، ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى لم أذهب ، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمى حتى قالت لى مريم « لم لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان ؟ ، ولكنى اعتذرت بشتى المعاذير ، وبذلت كل حيلها لاجتنابى ، وجعلت تشكو لى مغاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها ، عليها ترقق قلبى ولكنى لم أفتح لها صدرى .. عائشة على خلاف ذلك ، تستقبلها بالترحاب والقبل ، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة ، وقد صحبت معها مرة سى خليل ، وفى مرة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمد ، لشد ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم ، وقد نهتها إلى مجاوزتها الحد فى ذلك فقالت لى « لا مأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوما أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالى ، فأى وجه للعدل فى هذا ؟ » ، قلت لها « أنسيت الجندى الإنجليزى ؟ » فقالت لى « لا ينبغي أن نذكر إلا أنها زوجة أختينا الأكبر » . هل سمعت يا نينة عن شيء كهذا من قبل ؟.

استسلمت أمينة للحزن ، فنكست رأسها ولاذت بالصمت ، فجعلت خديجة تنظر إليها مليا ، ثم عادت تقول :
 — هذه هى عائشة بلا زيادة ولا نقصان ، عائشة التى شهدت على أمس فأذلتنى أمام العجوز المخرفة ..

تهددت أمينة من الأعماق ، ورمقت خديجة بعينين فاترتين ، ثم قالت بصوت خافت :

— عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن ، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر ، هل يسعني أن أقول غير ذلك ؟! ، لا أود ولا أستطيع ، هل هانت عليها ذكرى فهمي ؟ ، لا أستطيع أن أصدق ذلك ، ألم يكن في وسعها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراما لي ؟! ، لكن لن أسكت عن هذا ، سأقول لها إنها أساءت إلى وأنتى غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك .. فأمسكت خديجة بخصلة من سوافها ، وقالت :

— أحلق هذا لو صلح لها حال ، إنها تعيش في دنيا غير الدنيا التي نعيش فيها ، لست أتحمل عليها وربنا يعلم ، إننى لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت ، حق أننى ظالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو تملق مزر لحمايتها وغير ذلك مما حدثت لك عنه في حينه ، ولكن حملتى لم تجاوز حد النصيح الحازم أو النقد الصريح ، هذه أول مرة يضيق بها صدرى فأعالها الخصام .. فقالت الأم برجاء وإن ظل وجهها ممتعضا :

— دعى الأمر لي يا خديجة ، أما أنت فلا أحب أن يفصل بينك وبينها خصام أبدا ، لا يصح أن يفترق قلبا كما وأنتما تعيشان معا في بيت واحد ، لا تنسى أنها أختك وأنتك أختها ، بل أختها الكبرى ، إن قلبك أبيض والحمد لله ، وهو مترع بالحب لأهلك جميعا ، إنى كلما اشتد أمر لم أجد عزاء إلا في قلبك ، وعائشة مهما يكن من هفواتها هى أختك ، لا تنسى هذا !.. فهتفت في تأثر :

— إنى أغفر لها كل شيء إلا شهادتها على !.. لم تشهد عليك ، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حمايتها فلاذت بالصمت ، إنها تكره أن تغضب أحدا — كما تعلمين — وإن كانت رعونتها كثيرا ما تغضب الكثيرين ، لم تقصد الإساءة إليك أبدا ، فلا تحلى تصرفها أكثر مما يحتمل ، سأزورك غدا لأصفى حسائى معها ، ولكنى سأصلح بينكما وإياك أن تمتنع عن الصلح ..

ولأول مرة تتجلى في عيني خديجة نظرة قلقة مشفقة حتى أنها غضت عينيها

لتخفيفهما عن أمها، وصمتت قليلا ، ثم قالت بصوت خافت :

— ستجيئين غدا ..؟

— نعم ، لم يعد الحال يحتمل الصبر ..

خديجة كأنما تحدث نفسها :

— سوف تهمنى بأننى أفضيت أسرارها ..

— ولو !..

ولما انست منها مزيدا من القلق والإشفاق ، عادت تقول :

— على أى حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال ..

فقال خديجة بارتياح :

— هذا أفضل ، فهيات أن تعترف بحسن نيتى ورغبتى فى إصلاح أمرها !..

٢٣

— آه ..!

ندت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عابدة خارجة من باب القصر . كان يقف كعادته كل أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها فى شرفة أو نافذة . وكان يرتدى بدلة رصاصية أنيقة كأنما أراد أن يجارى الجو الذى بعث فيه الأيام الأخيرة من مارس أريجحة ولطفا وبشاشة ، فضلا عن أنه كان يزداد تأنقا كلما ازداد ألما وقنوطا . وكانت عيناه لم ترياها مذل خاصمته فى الكتك ، ولكن الحياة لم تكن تتيسر له إلا أن يحج كل أصيل إلى العباسية فيطوف بالقصر من بعيد فى مثابة لا تعرف اليأس ، معللا نفسه بالأحلام ، قانعا إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات . وكان الألم فى الأيام الأولى للفراق كالجنون فى هذيانه ووسوسته ، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه ، ولكنه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذى وطّن النفس عليه من قديم ، فانسرب الألم إلى مستقر له فى الأعماق يؤدى فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيوية كأنه عضو أصيل فى الجسم أو قوة جوهرية فى الروح ، أو أنه كان مرضا حادا هائجا ثم أزمّن فزايته الأعراض العنيفة واستقر ، غير أنه لم يتعز — وكيف يتعزى عن الحب ، وهو أجّل ما كاشفته به الحياة ؟ — ولكنه كان يؤمن

إيماناً عميقاً بخلود الحب ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغي لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر .

ولما رآها وهي تغادر القصر فجأة نددت عنه هذه الآهة ، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقية التي طال تشوقه إليها حتى رقصت روحه رقصة قطر هيمنها حيناً وطرباً ، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت في شارع السرايات ، فشبث في روحه ثورة اجتاحت الهزيمة التي راض عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون . واتجه دون تردد إلى شارع السرايات . كان في الماضي يحذر الكلام أن يفقدها ، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه ، إلى أن العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع لها سبيلاً إلى التردد أو التراجع . ولم تلبث أن انتهت إلى اقتراب خطاه ، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها ، ولكنها أعادت رأسها إلى وضعه الأول دون مبالاة . لم يكن يتوقع استقبالا لطف ، ولكنه قال معاتباً :

— أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء ؟!

فكان الجواب أن حثت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات ، فأوسع خطوه مستمداً من ألمه عناداً ، ثم قال وهو يوشك أن يحاذيها :

— لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف .. وكان أخوف ما يخاف أن تصر على تجاهله حتى تبلغ هدفها المقصود ، ولكن الصوت الرخيم خاطبه قائلاً :

— من فضلك ابتعد عني ، ودعني أسير في سلام ..

فقال بإصرار وتوسل معا :

— ستسيرين بسلام ، ولكن بعد أن نصفى الحساب ..

فقات بصوت تردد عميقاً واضحاً في صمت الطريق الأرستقراطي الذي بدا خالياً أو شبه خال :

— لا أدري شيئاً عن هذا الحساب ، ولا أريد أن أدري ، أرجو أن تسلك سلوك

الجنّتلمان ..!

فقال بحماسة ووجد :

— أعدك بأن أسلك سلوكاً يعتبر بالقياس إلى الجنّتلمان نفسه مثالياً ، وليس في

وسعى أن أفعل غير هذا ، إذ أنك أنت التى توجين إلى بسلوكى .

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته :

— أعنى أن تتركنى فى سلام ، هذا ما عنيته ..

— لا أستطيع ، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتى من التهم الظالمة التى عاقبتى

عليها دون استماع إلى دفاعى ..

— أعاقبتك أنا ؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كى يتملى سحر الحال ، فقد رضيت أن تحاوره ، وأن تتمهل فى خطوها السعيد ، وسواء أكان هذا لأنها تود أن تستمع إليه أم لأنها تتعمد إطالة المسافة حتى تتخلص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغير هذا من الحقيقة الباهرة ، وهى أنهما يسيران جنبا إلى جنب فى شارع السرايات ، تحف بهما أشجار الطريق الباسقة ، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة ، فى هدوء عميق يتعطش قلبه المستعر إلى نفحة منه ، وقال :

— عاقبتى أشد عقاب باختفائك عنى ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذب عذاب

المتهم البريء ..

— يحسن ألا نعود إلى ذلك ..

فى انفعال وضراعة :

— بل يجب أن نعود إليه ، إلى مصر على ذلك وأتوسل إليك باسم العذاب

الذى عانيته حتى لم يعد بى قوة لتحمل المزيد منه ..

تساءلت فى هدوء :

— ما ذنبى أنا فى ذلك ؟

— أريد أن أعرف : ألا تزالين تعديننى معتديا ؟ ، الأمر المؤكد أننى لا أستطيع

أن أسئ إليك بحال ، ولو تذكرت مودتى طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأى دون

عناء ، دعينى أفصل لك الأمر بكل صراحة ، لقد دعانى حسن سليم إلى مقابلته

عقب الحديث الذى دار بيننا فى الكشك .

قاطعته فيما يشبه الرجاء :

— دعنا من هذا ، إنه ماض انتهى ..

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع ،
ثم قال بتأثر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار :
— انتهى .. ، أعلم أنه انتهى ، لكنني أطمع في حسن الختام ، لا أريد أن
تذهبي وأنت تظنين لي العذر ، أو الغيبة ، إنني برىء ويعز علي أن تسيئي الظن
بشخص يكن لك كل إعزاز واحترام ، فلا يجزى لك ذكر على لسانه إلا مقرونا بكل
ثناء ..

ألقت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية الأخرى كأنما تداعبه قائلة « من
أين لك بهذه البلاغة كلها ؟ » ، ثم قالت بشيء من الرقة :
— يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود ، ولكن ما فات فات ..
بحماس وأمل :

— بل لا يزال في النفس شيء من الشك فيما أرى ..
فقال بتسليم :
— كلا ، لا أنكر ألى أسأت الظن حيناً ، ولكن تبين لي الحق بعد ذلك ..
فطفا قلبه فوق موجة من السعادة ترنح فوقها كالشمع ، ثم تساءل :
— متى عرفت ذلك ؟
— منذ زمن غير قصير ..

ورنا إليها بامتنان ، وعبرته حال من الوجد يحلو معها نوع من البكاء ، ثم قال :
— عرفت أنني برىء ؟ ..
— نعم ..

هل يسترد حسن سليم احترامه عن جدارة ؟
— وكيف عرفت الحقيقة ؟
فقالت بعجلة توحى بالرغبة في إنهاء التحقيق :
— عرفت .. وهذا هو المهم ..
تجنب الإلحاح أن يضايقها ، ولكن خاطرها خطر فأظلمت على قلبه سحابة من
الكدر حتى قال متشكياً :

— ومع ذلك أصررت على الاختفاء ! ، لم تكلفني نفسك إعلان العفو ولو بإشارة
أو كلمة مع أنك افتتنت في إعلان الغضب ! ، ولكن عذرك الواضح وهو عندي

مقبول ..

— أى عذر هذا ؟

بصوت حزين :

— أنك لا تعرفين الألم ، وإني أسأل الله مخلصا ألا تعرفيه أبدا ..

قالت كالمعتذرة :

— ظننت أنه لا يهملك أن تكون متهما !..

— سأمحك الله ، لقد اهتممت أكثر مما تتخيلين ، وساءنى جدا أن أجد الشقة بيننا واسعة ، فلم يقف الأمر عند حد أنك تجهلين ما أكنه لك من .. من مودة ، ولكنه جاوز ذلك إلى إلصاق التهم الظالمة لى ، فانظري أين كنت وأين كنت ؟ ، على أنى أصارحك بأن الاتهام الجائر لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب الألم ..
باسمة :

— لم يكن ضربا واحدا من ضروب الألم إذن ؟

فشجعت الابتسامة — كما تشجع الطفل — على الاسترسال فى عاطفته ، فقال
بوجد وانفعال :

— بلى ، وكانت التهمة أخف الآلام ، أما أشدها فكان اختفاؤك ، كان لكل ساعة من ساعات الأشهر الثلاثة الماضية نصيبها من الآلى ، عشت أشبه ما يكون بالهجانين ، لهذا أدعو الله صادقا ألا يمتحنك بالألم ، دعاء مجرب ، فإن لى بالألم تجربة وأى تجربة ، وأقنعتنى هذه التجربة القاسية بأنه إذا كان مقدورا على أن تحتفى من حياتى ، فمن الحكمة أن أبحث لى عن حياة أخرى ، كان كل شىء كلجنة طويلة مقبلة ، لا تهز لى ، أنا أتوجس من ناحيتك شيئا كهذا دائما ، ولكن الألم أجل من أن يهزأ به ، لا أتصور أن يهزأ ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعى جانباً أنك سببه ، لكن ما الحيلة ؟. قضى على من قديم أن أحبك بكل قوة نفسى .. ساد صمت مقطع بأنفاسه المترددة ، وكانت تنظر إلى الأمام فلم يطالع عينها ولكنه وجد فى صمته راحة لأنه على أى حال أخف من كلمة سادرة وعدّه توفيقا . تصور أن يبيثك صوتها ناعما عذبا معربا عن الشعور نفسه !. يا له من مجنون ! ، لماذا سكب ماء قلبه المكنون ؟ ، لم يكن إلا كفافز رام الارتفاع قدما فوجد نفسه يحلق فوق هامة الجو ! ، ولكن أى قوة تستطيع أن تشكمه بعد ذلك ؟

— لا تذكريني بما لا أحب سماعه فأني في غنى عن ذلك ، لن أنسى رأسي لأني أحمله ليل نهار ، ولا أنفي فأني أراه مرات كل يوم ، ولكن عندى شيء لا نظير له عند الآخرين ، حبي لا نظير له ، إني فخور به ، ويجب أن تكوني به فخوراً أيضاً ولو زهدت فيه ، هكذا كان مذكر أبتك أول مرة في الحديقة ، ألم تشعرى به ؟ .. لم أفكر في الاعتراف من قبل لأني خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردني من الفردوس ، لم يكن من اليسير عليّ أن أغامر بسعادتي ، أما وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف ؟!

سال سره على لسانه كأنه دم تعذر منعه ، ولم يكن يرى من الوجود إلا شخصها البديع ، كأن الطريق والأشجار والقصور والقلعة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامته بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسوم بالملاحه المنطوى على الأسرار ، يبدو في الظل حيناً أفسر صافيا ، وحيناً — إذا مرّاً بطريق جانبي — وضأً منيراً تحت شعاع الشمس المائلة للغروب ، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتى الصباح !

— أقلت لك إنني لم أفكر في الاعتراف من قبل ؟! ، في هذا تجاوز ، الواقع أنني هممت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون ، كدت أعترف لولا أن عاجلتني بمهاجمة رأسي وأنفي ، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كخطيب الذي هم بفتح فيه فانهال عليه الحصى من جمهور المستمعين ؟

هادئة صامته كما ينبغي لها ، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم ، أما كان من الأكرم له أن يصون سره ؟! .. الأكرم ؟! الكبرياء حيال المعبود كفر ، مواجهة القاتل بالقتيل فن من الحكمة ، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه ؟! .. الحلم سرعان ما يتلعه النسيان ، أما الدموع أو بالحرى ذكرها فبقى رمزا خالداً ، وإذا بها تقول :

— لم أقل ما قلت إلا على سبيل الدعابة ، ورجوتك حينذاك ألا تغضب .. هذا الشعور الرطيب جدير بالتنويع ، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته ، وتداغت الأنغام الكامنة في نفسه حتى برز منها لحن مليح ، عند ذاك تراءت قسّمات المعبودة رموزاً موسيقية للحن سماوى مرقومة على صفحة الوجه الملائكي .

— ستجديننى قانعا بما دون الرجاء ، لأننى كما قلت لك : أحبك ..
 والتفتت صوبه فى رشاقة طبيعية ، فألقت عليه نظرة باسمه ثم استردتها على
 عجل قبل أن يتمكن من قراءتها ، أية نظرة كانت يا ترى ؟ .. نظرة رضى ؟ .
 تأثر ؟ . عطف ؟ . استجابة ؟ . سخريه مهذبة ؟ . وهل أصابت الوجه جملة أم
 اختصت بالرأس والأنف ؟ . وجاءه صوتها قائلا :
 — لا يسعنى إلا أن أشكرك ، وأعتذر لك عن إيلاملك الذى لم أتعمده ، أنت
 رقيق وكريم ..
 ونزعت به النفس إلى الارتقاء فى أحضان الأحلام السعيدة ، ولكنها استطردت
 قائلة بصوت خافت :
 — الآن دعنى أتساءل عما وراء ذلك ؟
 ترى أسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو ؟ . هذه الجملة بنصها محلقة فى
 مكان ما من سماء بين القصرين مخفوفة بتنهداته ، هل آن له أن يجد لها جوابا ؟ ..
 تسأل فى حيرة :
 — هل وراء الحب شيء ؟
 ها هى تبسم ، ترى ما معنى ابتسامتها ؟ . لكنك غير الابتسام تروم ، عادت
 تقول :
 — إن الاعتراف بداية وليس نهاية ، إلى أتساءل عما تريد ؟ ..
 فأجاب بخيرة أيضا :
 — أريد .. أريد أن تأذنى لى بأن أحبك ..
 فما ملكت أن ضحكت ، ثم تساءلت :
 — أهذا ما تريد حقا ؟ . ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك ؟
 فقال وهو يتنهد :
 — فى هذه الحال أحبك أيضا .
 فتساءلت فيما يشبه الدعابة ، الأمر الذى أرعبه :
 — فم إذن كان الاستئذان ؟
 حقا ما أسخف هفوات اللسان ، إن أخوف ما يخاف أن ينحط على الأرض
 فجأة كما سما عنها فجأة ، وسمعها تقول :

— أنت تحيرنى ، ويبدو لى أنك تحير نفسك أيضا ..

قال بجزع :

— إنى .. حائر ؟، ربما ، ولكنى أحبك ، ماذا وراء ذلك ؟. يحيل إلى أحيانا أنى
أطعم إلى أمور تعجز الأرض عن حملها ، ولكنى إذا تأملت قليلا عجزت عن تحديد
هدف لى ، خبيرنى أنت عن معنى هذا كله ، أريد أن نتحدث وأن أستمع ، هل
عندك ما ينتشلى من حيرتى ؟..

قالت باسمة :

— ليس عندى مما تسأل شىء ، كان ينبغي أن تكون أنت المتحدث وأنا
المستمعة ، ألسنت فيلسوفا ؟

قال واجما ووجهه يتورد :

— أنت تسخرين منى !..

فقلت بعجلة :

— كلا ، غير أنى لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما غادرت البيت ، فاجأتنى بما
لم أتوقع ، وعلى أى حال فإنى شاكرة ممتنة ، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك
الرفيقة المهدبة ، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على بال ..

نغمة آسرة ومناغمة عذبة ، ولكنه لا يدري أينجد المعبود أم يلهو ، وهل تفتح
أبواب الأمل أم توصلد فى خفة النسيم ، وقد سأله عما يريد فما أجاب لأنه لا يدري
ماذا يريد ، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح إلى الوصال ، وصال الروح بالروح ،
وأن يطرق باب السر المغلق بعناق أو قبلة ، ألا يكون هذا هو الجواب ؟! ، وعند
مفترق الطرق الذى ينتهى عند شارع السرايات ، توقفت عابدة عن السير ، ثم
قالت برقة ولكن بلهجة قاطعة :

— هنا ..

فتوقف عن السير أيضا وهو يحملق فى وجهها بدهش ، هنا تعنى أنه يجب أن
نفترق هنا ، لم يكن للجملة « أحبك » هذا الامتداد فى المعنى الذى بغنى عن
السؤال ، قال دون تدبر أو تفكير :

— كلا ..!

ثم هاتفها ، كمن ظفر بكشف مضىء بغتة :

— ماذا وراء الحب ؟ أليس هذا سؤالك ؟. هاك الجواب : ألا نفترق !..

قالت بهدوء باسم :

— ولكن يجب أن نفترق الآن !..

تساءل بحماسة

— لا كدر ولا سوء ظن ؟

— كلا ..

— أتعودين إلى زيارة الكشك ؟

— إذا سمحت الظروف .

بقلقت :

— كانت الظروف تسمح في الماضي !

— الماضي غير الحاضر ..

آلمه الجواب إيلا ما عميقا ، فقال :

— يبدو أنك لن تعودى ..

فقالت كأنما تنبهه إلى وجوب الافتراق :

— سأزور الكشك كلما سمحت الظروف ، سعيدة ..

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها كالمسحور ، وعند منعطف الطريق التفت نحوه فألقت عليه نظرة باسمه ثم غابت عن ناظره .

ماذا قال وماذا سمع ؟ ، سيخلو إلى هذا عما قليل ، بعد أن يفيق ، متى يفيق ؟ ، إنه يسير الآن وحده ، وحده ؟ ، وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم ؟ ، ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده ، وفغمه شذا ياسمين ساحرا أسرا ولكن ما هويته ؟ ، ما أشبهه بالحب في سحره وأسره وغموضه ، لعل سر هذا يقضى إلى ذاك ، ولكنه لن يحل هذا اللغز حتى يأتي على تراويل الحياة ..

قال حسين شداد :

— هذه جلسة الوداع وأسفاه !

امتنع كمال لدى ذكر كلمة الوداع ، ورمى حسين بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقا كما نطق به لسانه !. على أنه استشعر جو الوداع منذ أكثر من أسبوع ، إذ أن مجيء يونية يؤذن عادة برحيل الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية ، فما هي إلا أيام حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء ، أما المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضى به الرحيل ، وأصرت عليه رغم الصلح الذي توج به حديث شارع السرايات ، لكن هل يمضي يوم الوداع دون زيارة ؟ ، هل هانت المودة إلى حد الضن بنظرة عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر ؟. تساءل كمال باسما :

— لم قلت « وأسفاه ! » ؟

فقال حسين شتداد باهتمام :

— وددت لو سافرت معي إلى رأس البر ، يا سلام !.. أى تصنيف كان يكون ؟..!

كان يكون عجبا بلا ريب ، حسبه أن المعبودة لا تستطيع مواصلة الاختفاء هناك ! ، وخاطبه إسماعيل لطيف :

— كان الله في عونك !. كيف تحتمل حر الصيف هنا ، إن الصيف لم يكد يبدأ بعد ، ومع ذلك انظر إلى حر اليوم !..

كان الجو شديد الحرارة رغم تقلص ذيل الشمس عن الحديقة والصحراء الممتدة وراءها ، غير أن كمال قال بهدوء :

— لا شيء في الحياة لا يمكن احتياله ..

وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل كيف أجاب بها ، وإلى أى حد يمكن اعتبار أن أقوالنا تعبير صادق عما في نفوسنا ؟ ، ونظر فيما حوله فرأى أناسا سعداء ما في ذلك ريب ، بدوا في قمصانهم ذوات الأكمم القصيرة وينطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدّون الحر ، كان هو وحده الذى يرتدى بدلة كاملة — وإن تكن

بدلة خفيفة بيضاء — وطربوشا وقد وضعه على المنضدة ، وإذا بإسماعيل لطيف
ينوء بنتيجة الامتحان قائلا :

— نتيجة نجاح مائة في المائة ، حسن سليم نال الليسانس ، كمال أحمد عبد
الجواد منقول ، حسين شداد منقول ، إسماعيل لطيف منقول ..
قال كمال ضاحكا :

— لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخباريات بداهة !

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة :

— كلانا بلغ هدفا واحدا ، أنت بعد كد وتعب تواصلنا طول العام ، وأنا بعد
تعب شهر واحد !

— هذا دليل على أنك عالم بالفطرة !

فتساءل إسماعيل ساخرا :

— ألم تقل مرة في أحد أحاديثك التافهة إن برنارد شو كان أخيب تلميذ في
عصره ؟

فقال كمال ضاحكا :

— الآن آمنت بأن عندنا نظيرا لشو ، على الأقل في خيبته !..

عند ذاك قال حسين شداد :

— عندي خير ينبغي إذاعته قبل أن يسرقنا الحديث ..

ولما وجد أن قوله لم يجد كثيرا في لفت الأنظار إليه نهض فجأة ، ثم قال بلهجة لم
تخل من تمثيل :

— دعوني أزف إليكم خبرا طريفا وسعيدا (ثم مستدركا وهو ينظر نحو حسن

سليم) أليس كذلك ؟ ، (ثم وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمت أمس

خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عايدة ..

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بفتة كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وكان أنعم ما

يكون عينا بالسلامة والأمن ، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطه طيارة منطلقة في فراغ

هوائي ، بل هي صرخة فزع باطنية تصدعت الضلوع دون تسربها إلى الخارج ، وقد

عجب — خصوصا فيما بعد — كيف استطاع أن يضبط مشاعره ويلاقى حسين

شداد بابتسامة التهنت ، فلعله شغل عن القارعة — ولو إلى حين — بالصراع الذي

نشب بين نفسه وبين الذهول الذى طوقها ، وكان إسماعيل لطيف أول من تكلم فردد عينيه بين حسين شداد وحسن سليم الذى بدا هادئا رزيناً كعادته وإن شابه هذه المرة شيء من الحياء أو الارتباك ، ثم هتف :

— حقا ؟! ، يا له من خير سار ، سار ومفاجيء ، سار ومفاجيء وغادر ! .
غير أنى سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين ، حسبي الآن أن أقدم خالص التهانى ..

ونفض فصافح حسين وحسن ، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك ، وكان مأخوذاً رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه فى حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت باحثاً عن مأوى ، وقال وهو يصافح الشابين :

— خير سار حقا ، تهانئ القلبية ..

عاد المجلس إلى سابق هيئته ، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغبه فراه هادئاً رزيناً ، وكان يشفق من أن يجده مختالاً أو شامتا — كما تصور هذا — فداخله شيء من الارتياح العابر ، وراح يستجدى نفسه أقصى ما لديها من قوة ليستر جرحه الدامى عن العيون اليواقظ وليتفادى من موضع الهزء والزراية ، تجلدى يا نفسى وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما بعد ، بأن نتألم معا حتى نهلك ، وبأن تفكر فى كل شيء حتى نجن ، ما أمتع هذا الموعد فى هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع ، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زار أو لومة لائم . وثمة البئر القديمة أزح عن فوهتها الغطاء واصرخ فيها مخاطبا الشياطين ومناجيا الدموع المتجمعة فى جوف الأرض من أعين المحزونين ، لا تستسلم ، حذار ، فالدنيا تلبو لناظريك حمراء كعين الجحيم . عاد إسماعيل لطيف يقول متخذاً لهجة الاتهام :

— مهلا ، لنا عندك حساب ، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار ؟ ، أو فلندع هذا إلى حين ، ولنسأل كيف تمت الخطبة دون حضورنا ؟

قال حسين شداد مدافعا عن موقفه :

— لم يكن هناك حفل كبير أو صغير ، اقتصر الجمع على خاصة الأهل ، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير ، ستكونان من الداعين لا المدعويين ..

يوم الكتاب ! . كأنه عنوان لحن جنائزى ، حيث يشيع قلب إلى مقره الأخير

محفوظا بالورود مودعا بالزغاريد ، وباسم الحب تغنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب ، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة . قال كمال باسم :

— العذر مقبول والوعد مأمول .

فصاح إسماعيل لطيف محتجا :

— هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها في الأفق مائدة تناست دواعي العتاب ، وتغنت بالتسامح والثناء ، كل ذلك في سبيل لقمة دسمة ! ، حقا إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة ، أما أنا فليست كذلك ..

ثم مواصلا حملة الاتهام على حسين شداد وحسن سليم :

— يا لكما من داهيتين ، صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة ، هه ؟ ، حقا يا أستاذ حسن أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا ..

قال حسن سليم وهو يتسم معتذرا :

— إن حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلا قبيله أيام معدودات ..

فتساءل إسماعيل :

— خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير ؟

رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء ولكنه فرض عليها وما كان كان ، وضحك كمال ضحكة عالية ، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه :

— استعينوا على قضاء ... لا أذكر ماذا بالكتبان ! ، قالها عمر بن الخطاب ، أو عمر بن أبي ربيعة ، أو عمر أفندي ، والله أعلم ..

وقال كمال فجأة :

— جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور في صمت ، على أنى أقر بأن الأستاذ

حسن أشار في حديث له معي مرة إلى شيء كهذا !

فرمقه إسماعيل بارتياح ، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة ، وقال مستدركا :

— كان كلاما أشبه بالعناوين ! ..

تساءل كمال في دهش كيف ندع ذلك القول ؟ . إنه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير ، كيف يطعم — بهذا الأسلوب الشاذ — أن يقنع حسن بأنه كان على علم بنواياه وأنه لم يفاجأ بها أو يكثر لها ؟ ، يا للحماقة ! . أما إسماعيل فقد قال

لحسن وهو يحذره بنظرة عتاب :

— ولكنى لم أحظ بعنوان واحد من هذه العناوين !

قال حسن بجد :

— أؤكد لك أنه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة ، فإنما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكلماتي .

ضحك حسين شداد ضحكة عالية ، وقال مخاطبا حسن سليم :

— إسماعيل زميلك القديم ، وهو يريد أن يقول لك إنه إذا كنت سبقتة إلى الـليسانس بثلاث سنوات فلا يعنى هذا أن تضن عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره ! فقال إسماعيل باسم ، وكأنما كان يدارى مضايقته :

— إني لا أرتاب في زمالته القديمة ، ولكنى أحاسبه حتى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم القران !

فقال كمال باسم :

— نحن أصدقاء الطرفين ، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس ..

إنه تكلم ليثبت أنه حى ، لكنه حى يتألم ، شد ما يتألم ، ترى هل جرى في خاطره يوما أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية ؟. كلا ، غير أن الإيمان بأن الموت حتم مقدر لا يمنع من الجزع حين حضوره ، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة ، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم في أى موضع يكمن أو عن أى ميكروب يصدر !؟ وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور ..

— ومتى يعقد القران ؟

إن إسماعيل يسأل عما يدور بخاطره كأنه موكل بأفكاره ، ولكنه لا ينبغي له أن يصمت . قال :

— نعم ، هذا مهم جدا حتى لا نؤخذ على غرة ، متى يعقد القران ؟

فتسائل حسين شداد ضاحكا :

— لم تتعجلان الأمر !؟. فليهنأ العريس بما بقى من عهد عزوبيته ..

وقال حسن بهذوئه المعتاد :

— ينبغي أن أعرف أولا إن كنت سأبقى في مصر أم لا ..؟

فقال حسين شداد معقبا :

— إما أن يعين في النيابة ، أو في السلك السياسى ..
هكذا يبدو حسين شداد مسرورا بالخطبة ، فأستطيع أن أزعم أنني كرهته ولو
دقيقة عابرة ، كأنه خاننى فيمن خانونى ، أخاننى أحد ؟ ، اختلطت الأمور على ،
غير أن هذا المساء يعدنى بخلوة حافلة ..

— أيهما تفضل يا أستاذ حسن ؟
فليختر ما يحلو له ، النيابة .. السلك السياسى .. السودان .. سوريا إن
أمكن ..

— النيابة بهدلة ، إلى أفضل السلك السياسى ..
— يحسن أن تفهم والدك ذلك جيدا حتى يركز عنايته في إلحاقك بالسلك
السياسى ..

أفلتت هذه الجملة أيضا ؟ ، ولا شك أنها أصابت الهدف ، ينبغي أن يتالك
أعصابه وإلا وجد نفسه مشتبكا مع حسن في نزاع علنى ، ثم ينبغي أن يراعى خاطر
حسين شداد ، فهما الآن أسرة واحدة ، ما أقسى هذه الشكة من الألم . هز
إسماعيل رأسه كالأسف ، وقال :

— هذه آخر أيامك معنا يا حسن ، بعد عشرة العمر كله ، يا لها من نهاية
محزنة ! ..

يا للحماقة ! يحسب أن الحزن يمس قلبنا واحة المعبود مرتعه .
— الواقع أنها نهاية محزنة يا إسماعيل ..
كذب في كذب ، مثل تهنتك له ، يستوى في هذا ابن التاجر وابن المستشار .
قال :

— أيعنى هذا أنك ستقضى عمرك كله خارج القطر ؟
— هذا هو المتوقع ، لن نرى مصر إلا في القليل النادر ..
قال إسماعيل متعجبا :

— حياة غريبة ! ، هلا فكرت فيما ينتظر أولادك من متاعب ؟!
واقلباه ! ، أليق هذا العبث بالمعاني ! ، يحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتنجم
وتنداح بطنها وتكثور ثم يجيئها المخاض فتلد ! ، أتذكر خديجة وعائشة في الأشهر
الأخيرة ؟ ، هو الكفر ، لم لم تشترك في جمعية الكف السوداء ؟ ، الاغتيال خير من

الكفر وأنجح ، وتجد نفسك يؤما في قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبرى والد صديقك الدبلوماسى وحمو معبودتك ، كما مثل بين يديه قتلة السردار فى هذا الأسبوع ، الخائن !..

حسين شداد ضاحكا :

— أتقطع الدول علاقتها السياسية حتى يرى أولاد الدبلوماسيين فى بلادهم !؟
بل تقطع الرعوس !، عبد الحميد عنایت .. الخراط .. محمود راشد .. على إبراهيم .. راغب حسن .. شفيق منصور .. محمود إسماعيل .. كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنقا ، القاضى الوطنى سليم بك صبرى ، القاضى الإنجليزى مستر كرشو ، الاغتيال هو الجواب ، أتريد أن تقتل أم تقتل !..

وخاطب إسماعيل حسين قائلا :

— رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك أنت !..
فقال حسين شداد باطمئنان :

— قضيتى تقترب من الحل الموفق بخطى ثابتة ..

عايدة وحسين فى أوربا !، إنسان يفقد فى ساعة حبيبه وصديقه ، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده ، وفى الحى العتيق تعيش وحيدا مهجورا كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال ، تأمل الآلام التى ترصدك ، آن لك أن تحصد ثمار ما زرعته من أحلام فى قلبك الغر ، توسل إلى الله أن يجعل الدموع دواء للأحزان ، وعلق إن استطعت جسمك بحبال المشانق أو ضعه على رأس قوة مدمرة تنقض بها على العدو ، غدا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين ، يا خيبة الآمال ، والمخلصون قتلوا أبناء الخونة فسفروا . قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب نفسه :

— لن يبقى فى مصر إلا أنا وكال ، وكال غير مأمون الجانب ، لأن صديقه الأول

— قبل أو بعد أو مع حسين — هو الكتاب ..

فقال حسين فى ثقة وإيمان :

— لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب ..

فخفق قلب كمال رغم فتوره ، وقال :

— على أن قلبى يحدثنى بأنك لن تحتمل الغربة إلى الأبد ..

— هذا هو الراجح ، ولكنك ستفيد من رحلتى بما سأرسله لك من كتب ،
سنواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب ..

هكذا يتكلم حسين كما لو كان السفر قد بات أمرا مفروغا منه ، هذا الصديق
الذى يسعد بلقياه سعادة فاتنة فحتى الصمت يستمتع به فى محضره ، ولكن عزاء
فذهاب المعبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن جل ، هكذا هانت وفاة
جذته المحبوبة على النفس التى اكتوت بنار الحزن على فهمى ، غير أنه ينبغي أن يذكر
دائما أنه فى جلسة الوداع كى يملأ عينيه من الورود والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالي فى .
أى حزن يهيم ، وثمة مشكلة ينبغي أن يجد لها حلا : كيف يسمو بشر إلى معاشرة
المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره بشر ؟! ، فإذا لم يجد لذلك حلا فسوف
يسير فى طريقه بقدمين ترسفتان فى الأغلال وفى حلقة شحا ، والحب حمل ذو
مقبضين متباعدين خلق لتحمله يدان .. فكيف يخمله وحده ؟ ، وكان الحديث
يطرد ويتفرع وهو يتابعه بعينيه وهزات رأسه وكلمات يثبت بها أن الخطب لم يقض
عليه بعد ، وكان الأمل معقودا بأن قاطرة الحياة تسير وأن محطة الموت فى الطريق على
أى حال ، وما هي ساعة الغروب .. ساعة الظلام والهدوء .. تحبها كما تحب
الفجر ، وعائدة والألم لفظان معنى واحد فينبغى أن تحب الألم وأن تطرب للهزيمة منذ
اليوم ولا تنزل عجلة الحديث فى دوران غير منقطع والأصدقاء يتضاحكون ويتناظرون
كأن واحدا منهم لم يعرف الحب قلبه .. حسين ضحكة الصحة والصفاء ،
وإسماعيل ضحكة العريضة والعدوان ، وحسن ضحكة التحفظ والاستعلاء ، ويأتى
حسين إلا أن يتحدث عن رأس البر ، أعدك بأن أحجج إليها يوما وأن أسأل عن
الرمال التى وطئتها أقدام المعبودة لأثمتها ساجدا ، الآخرا يتغنيان بسان استفانو
ويتحدثان عن أمواج كالجبال ، حقا ؟ ، تصور جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ ،
وقد امتص البحر الرهيب جمالها ونبلها ؟ ، ولتعترف بعد هذا كله بأن الملل يطوق
الكائنات وأن السعادة ربما كانت وراء أبواب الموت ، وتتواصل السمر حتى أن
للجمع أن يتفرق ، فتصافحوا بحمارة .. شد كمال على يد حسين ، وشد حسين
على يد كمال ، ثم مضى وهو يقول :

— إلى اللقاء .. فى أكتوبر !

كان فى مثل هذا الموقف من العام الماضى وما قبله يتساءل فى لهفة متى يعود

الأصدقاء ؟، الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد ، ستظل مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجيء ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا . لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنها تباعد بينه وبين عايده ، فالهوة التي تفصل بينهما أعمق من الزمن ، وقد كان يعالج الزمن بجبرعات الصبر والأمل ، ولكنه يخاصم اليوم عدوا مجهولا وقوة خارقة غامضة لا يدري من تعاويذها ورقاها حرفا واحدا .. فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . تراءى له حبه معلقا فوق رأسه كالقدر ، يشده إليه بأسلاك من الألم المبرح ، أشبه ما يكون في جبريته وقوته بالظاهرة الكونية ، فتأمله بعين ملؤها الإكهار والحزن .

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراى آل شداد : فسار حسن سليم إلى شارع السرايات ، وانجبه كمال وإسماعيل نحو الحسينية في طريقهما المعهود الذى يفترقان في نهايته ، فيمضى إسماعيل إلى غمرة ، ويمضى كمال إلى الحى العتيق ، وما أن انفردا حتى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة ، فسأله كمال عما أضحكك ، فقال فى خبث :

— ألم تظن بعد إلى أنك كنت فى الأسباب الجوهرية التى دعت إلى الإسراع فى إعلان الخطبة ؟
— أنا ؟

ندت عن كمال وعيناه تتسعان فى ذهول ، فقال إسماعيل فى استهانة :
— نعم أنت ، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما ، هذا يبدو لي محققا رغم أنه لم ينبس لي عنه بكلمة ، إنه ذو كبرياء شديد — كما تعلم — ولكنى أعرف كيف أصل إلى ما أريد ، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما ، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم ؟. الظاهر أنه طالبها بأن تحب من حريتها فى الاختلاط بالأصدقاء ، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حق له فى مطالبتها فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق !

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته :
— لكننى لم أكن الصديق الوحيد ! كانت عايده صديقتنا جميعا !
فقال إسماعيل متهمكا :
— ولكنها اختارتك أنت لتثير قلقه ! ، ربما لأنها آتست فى صداقتك حرارة لم

تجدها عند غيرك ، على أى حال ، إنها لا تلتقى الأمور ارتجالا ، وقد صممت منذ قديم على الظفر بحسن فجئت أخيرا ثمرة صبرها !
 « الظفر بحسن » ؟ ، « ثمرة صبرها » ! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون « شروق الشمس من الغرب » ، قال وقلبه يتأوه :
 — ما أسوأ ظنك بالناس ! ، إنها ليست على شيء مما تتصور ! .
 فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه :
 — لعل الأمر وقع اتفاقا أو لعل حسن كان واهما ، على أى حال جاءت العواقب فى صالحها ..
 هتف كإل غاضبا :

— صالحها ! ، ماذا تظن ؟ ! ، سبحان الله ، إنك تتحدث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفرا لها لا له !!
 فحجده إسماعيل بنظرة غريبة ، ثم قال :
 — إنك فيما يبدو غير مقتنع بأن أمثال حسن قليلون ؟ ، أسرة ومركز ومستقبل ، أما مثيلات عابدة فلسن قليلات ، هن أكثر مما تتصور ، ترى هل تقدروها أكثر مما تستحق ؟ ، إن أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبها الهائلة فيما أعتقد ، إنها فتاة .. (ثم بعد تردد) .. ليست بارعة الجمال على أى حال ! ..
 إما أن يكون مجنوننا وإما أن تكون مجنوننا أنت ! ، حظه ألم كهذا من قبل يوم اطلع على كلمة جارحة تهجم بها كاتبها على نظام الزواج فى الإسلام ، ألا لعنة الله على الكافرين جميعا ، تساءل بهدوء يغطى به على لوعته :
 — لم إذن كثير المعجبون من حولها ؟

أبرز إسماعيل فكاهة الأسفل فارتفع ذقنه فى حركة استهانة ، ثم قال :
 — لعلك تعينى فيمن تقصد ! ، لا أنكر أنها خفيفة الروح ، وطرارز وحدها فى الأناقة ، إلى أن أسلوبها الغربى فى اللباقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء ، لكنها بعد ذلك سمراء نحيلة لا شيء فيها يشتهى ! ، تعال معى إلى غمرة تر ألوانا من الجمال تزرى بجمالها جملة وتفصيلا ، هنالك ترى الملاحظة الحقة فى البشرة الوضيعة والنهد الكاعب والردف الملىء ، هذا هو الجمال إن أردته .. لا شيء فيها يشتهى ! ..
 كأنها شيء يشتهى كقمر ومريم ! ، نهد كاعب وردف ملىء .. كمن يصف

الروح بصفات الجسد !، يا لشدة الألم ، كتب عليه اليوم أن يتجرع كأس الألم حتى ثمالتها ، إذا توالى الضربات القاتلة فمن الخير أن ترحب بالموت .. وعند الحسينية افترقا ، فصار كل إلى سبيله ..

٢٥

تنقضي السنون ولا يفتر حبه لهذا الطريق ، قال لنفسه ، وهو يلقي على ما حوله نظرة ضيقة : « لو شابه حبي للمرأة التي يختارها قلبي حبي لهذا الطريق لأراحتني من متاعب حمة » ، أعجب به من طريق كالتيه ، لا يكاد يمتد بضعة أمتار طولا حتى ينعطف يمينا أو يسرة ، وفي أى موضع منه يطالعك منحني يطوى وراءه مجهولا ، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعا وألفة فهو كالحيوان الأليف ، والجالس في دكان على يمينه يستطيع أن يصافح الجالس في دكان على يساره ، سقوف بمظلات الخيش تمتد بين أعالي الخوانيت فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنثف في الجبو الرطب سمرة حاملة ، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة مترعة بالحساء الخضراء والشطة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر والقرطاس الملونة والموازين الصغيرة ، وتبدل من عل الشموع في أحجام وألوان شتى كأنها التهاويل ، في جو مفعم بشذا العطارة والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه ، أما الملاءات اللف والبراقع السود والعرائس الذهبية والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمعها جميعا أستعيد بواهب النعم ، سير الحالم في تهاويل حلم جميل رياضة محبوبة بيد أنى أشكو ضنى القلب والعين ، إن تعد النسوان هنا لا تحصين ، مبارك المكان الذى يضمهن ولا منجى لك إلا أن تهتف من أعماق الفؤاد : يا خراب بيتك يا ياسين ، هنالك ييجيك صوت أن افتح دكان في التريعة واستقر ، أبوك تاجر .. سيد نفسه .. ينفق في مسراته أضعاف أضعاف مرتبك ، افتحها وتوكل ولو بعث لذلك ربع الغورية ودكان الحمزاوى ، تحب مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس يربحك ، تجلس وراء الميزان فيجيئك النسوان من كل فج : صباح الخير يا سى ياسين ، واقعد بالعافية يا سى ياسين ، على وعلى إن تركت مصونة دون تحية أو متهتكة دون ميعاد ! ما ألد الخيال وأقساه على من سيقم إلى آخر العمر ضابطا بمدرسه النحاسين ، والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قلب فوارحته لمن خلق

بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة ، تهدم الرجاء فلا جدوى من الكذب ،
 ويوم حملتها إلى قصر الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنة ، قاتل الله الملل
 كيف يمازج النفس كما تمارج مرارة المرض اللعاب ! ، عدوت وراءها عاما ثم مللتها في
 أسابيع فما التعاسة إن لم تكن هذا ؟ ، بيتك أول بيت يضج بالشكوى في شهر
 العسل ، سل قلبك أين مريم ؟! .. أين الملاحاة التي لوعتك ؟! .. يجيبك بضحكة
 كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتفرز من رائحة الطعام ، وهي ماكرة يستعذب
 اللعب بها ولا تفوتها شاردة ، مرة بنت مرة ، اذكروا حسنات موتاكم هل كانت أمك
 خيرا من أمها ؟! ، المهم أنها ليست كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا
 غضبت ، لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذى يقنع ، هيئات أن تشبع جوعك
 المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك ، ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية
 سعيدة ! ، ما أعظم أباك وما أحقرك ! ، لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن تكون
 مثله ؟! ، رياه ما هذا الذى أرى ؟! ، أهذه امرأة حقا ؟! ، كم قنطارا يا ترى ترن ؟!
 اللهم إني لم أر من قبل طولا كهذا الطول ولا عرضا كهذا العرض ، كيف تملك هذه
 الضيعة ؟! ، إني أنذر إذا وقعت بين يدي امرأة في قدرها أن أنيمها في وسط الحجرة
 عارية ، وأن أدور حولها سبعا وأنا أفقر ..

— أنت ..!

جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه ، وسرعان ما تحولت عيناه عن المرأة الضخمة
 إليه ، فرأى شابة في معطف أبيض ، فما تمالك أن هتف :
 — زنوبة ! ..

وتصافحا في حرارة وهي تضحك ، غير أنه حثها على السير حتى لا يلتقا إليهما
 الأنظار ، فسارا جنباً إلى جنب يشقان الزحام . هكذا التقيا بعد طول الفراق ، ولم
 تكن ترد على خاطره إلا في القليل النادر بعد أن شغلته عنها الشواغل ، ولكنه وجدها
 جميلة كيوم هجرها أو لعلها ازدادت جمالا ، ثم ما هذا الزى الحديث الذى استبدلته
 بالملاءة الف ؟! ، وانبعثت فيه موجة من النشاط والسرور ، وإذا بها تتساءل :

— كيف حالك ؟

— عال ، وأنت ؟

— كما ترى ..

- عال جدا والحمد لله ، أنت غيرت زيك ، لم أكن أعرفك عند أول نظرة ، لا
أزال أذكر مشيتك في الملاءة اللف ..
— وأنت لم تتغير ، لم تكبر ، ازدادت سمانة ، هذا كل ما في الأمر ..
— أنت الآن شيء آخر ! ، بنت أفريقية !.. (وهو يتسم في حذر) .. إلا أن
ردفها من الغورية !
— لسانك !
— أرعيتي ! ، كأنك تبت أو تزوجت !..
— لا شيء على الله بكثير ..
— أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها ، وأما الزواج فلا يعد أن تسوقك قلة
العقل يوما إليه !
— حاسب ، إني متزوجة تقريبا ..!
ضحك — وكانا يميلان إلى الموسيقى — قائلا :
— مثلي تماما ..
— لكنك متزوج بالفعل ، أليس كذلك ؟
— كيف عرفت هذا ؟ (ثم مستدركا) أوه .. كيف نسيت أن أسرارنا عندكم
أول بأول !
وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى ، فابتسمت ابتسامة غامضة ،
وقالت :
— تقصد بيت السلطنة ؟
— أو بيت أنى ، أليس الود متصلا ؟
— تقريبا !..
— كل شيء عندك الآن بالتقريب ! ، أنا كذلك متزوج تقريبا ، أعنى أنى
متزوج وأبحث عن رفيقة ..
هشت بيدها ذبابة على وجهها ، فوسوست أساورها الذهبية المحيطة بمساعدتها
وهي تقول :
— أنا مرافقة وأبحث عن زوج !..
— مرافقة ؟ ! ، من السعيد ابن ال ..

قاطعته وهي تشير إليه محذرة :
— إياك والسب ، إنه رجل ذو مقام ..
فقال وهو يلحظها ساخرا :
— ذو مقام ١٩ ، حق حق ، زنوبة ! .. أود لو أنطحك ..
— أتذكر متى تقابلنا آخر مرة ؟
— أوه ، ابني رضوان عمره الآن ستة أعوام ، فنكون قد تقابلنا آخر مرة منذ
سبعة أعوام .. تقريبا !
— عمر طويل ..
— ولكن لا ينبغي لحي أن ييأس في هذه الدنيا من اللقاء ..
— ولا الفراق ..
— الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاءة اللف !
فحدجته بنظرة مقطبة وهي تقول :
— أتحدث عن الوفاء يا ثور !
فسره رفع الكلفة إلى هذا الحد وشجع مطامعه ، فقال :
— الله وحده يعلم كم سررت بلفائك ، كثيرا ما كنت تخطرني ببال ، ولكنها
الدنيا !
— دنيا النسوان ، هه ؟
فقال متظاهرا بالتأثر :
— دنيا الموت ، ودنيا المتاعب ..
— لا يبدو أنك تحمل للمتاعب هما ، إن البغال لتحسدك على صحتك ..
— لولا أن العين الجميلة لا تحسد ..
— أتخاف على نفسك ! ، كأنك عبد الحليم المصري طولا وعرضا ..
فضحك مختالا ، وصمت قليلا ، ثم قال بلهجة جديدة جادة :
— أين كنت ذاهبة ؟
— لم تذهب الواحدة إلى التريعة ؟ ، أم ظننت الناس مثلك لا هم لهم إلا
التحكك بالنسوان ؟
— مظلوم والله ..

- مظلوم !، لما لمحتك وجدتك تغوص بعينيك في امرأة كالبوابة ..
- بل كنت شارداً أفكر لا أعى فيم أنظر ..
- أنت !، إني أنصح من يروم لقاءك أن يتقّب في التريعة عن أضخم امرأة ، وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراءها لابدأ كما تلبّد القراصة في الكلب ..
- أنت يا ولية لسانك كل يوم يطول عن يوم ..
- اسم الله على لسانك انت ..
- ما علينا ، خلينا في الأهم ، أين أنت ذاهبة الآن ؟
- سأتسوق قليلا ، تم أعود إلى بيتي !..
- فصمت لحظة كالمتردد ، ثم قال :
- ما رأيك في أن نقضى معا بعض الوقت ؟
- فلحظته بعينها السوداوين اللعوبتين ، وقالت :
- ورأى رجل غيور !..
- فقال وكأنه لم يسمع اعتراضها :
- في مكان لطيف لنشرب كأسين !..
- فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه :
- قلت لك ورأى رجل غيور ..
- فاستطرد قائلاً دون اكتراث :
- توفايان ، ما رأيك ؟، إنه مكان لطيف وابن حلال ، سأنادى هذا التاكسي ..
- فند عنها صوت احتجاج ، ثم تساءلت في استياء وشى وجهها بغيره قائلة :
- « بالقوة ؟ ! » ثم نظرت في ساعتها بمعصمها — وقد كادت هذه الحركة الجديدة تضحكه — وقالت بلهجة الشارط :
- على ألا أتأخر ، الساعة الآن السادسة ، وينبغي أن أكون في البيت قبل الثامنة ...
- تساءل والتاكسي يطوى بهما الطريق : ترى هل لمتهما عين ما بين التريعة والموسكى ؟، غير أنه هز كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية ، ماذا يهيمه ؟! مريم وحيدة وليس وراءها

وحش مثل محمد عفت الذى قوض أول بيت زوجية بناه ، وأما أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنه لم يعد الطفل الغرير الذى نكّل به فى فناء البيت القديم . وفى حديقته توفايان جلسا حول مائدة متقابلين ، كان المشرب غاصبا بالنساء والرجال ، والبيانو الميكانيكى يعزف مقطوعاته الرتيبة ، على حين هفت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصى . وأدرك من ارتباكها أنها تجلس فى مكان عام لأول مرة فداخله سرور حريف ، ثم أيقن فى اللحظة التالية أن ما به حنيناً حقاً لا محض رغبة عابرة ، وبدت له أيامها الغابرة أسعد الأيام كلها . وطلب قارورة كونيكا ثم طلب شواء ، وجرى ماء الحياة فى خديه ، ثم خلع طربوشه فبدأ شعره الأسود مفروقاً من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه ، فما أن لمحته زنوبة حتى ارتسمت على شفثيها ابتسامة خفيفة لم يفتن بطبيعة الحال إلى ما وراءها . كانت أول مرة يجالس فيها امرأة فى حانة غير حانات وجه البركة ، وكانت أول مغامرة له بعد زواجه الثانى مع استثناء الإمامة واحدة بدرب عبد الخالق . وربما كانت أول مرة كذلك يشرب فيها كونيكا « راقيا » خارج البيت ، إذ أنه لا يتناول الجيد منه إلا فيما يقتنى من زجاجات فى البيت للاستعمال « الشرعى » على حد تعبيره . ملأ الكأسين فى زهو وارتياح ، ثم رفع كأسه وهو يقول لها :

— صحة زنوبة مارتل !

فقلت بكبرياء خفيف الظل :

— إني أشرب الديوارس مع البك ..

فقال متأففا :

— دعينا من سيرته ، زينا يقدرنا على جعله فى خبر كان ..

— بعدك !..

— سنرى ، كلما شربنا كأساً تفتحت لنا أبواب وانحلت عقد ..

ولإحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجلا الشراب فامتلاً الكأسان وفرغا تباعا ، وهكذا أخذ الكونيكا يزغرد بلسانه النارى فى معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة فى ترمومتر العروق ، أما الأوراق الخضراء المتطلعة من الأصوص وراء سور الحديقة الخشبية فافترت ثغورها عن بسمات متألقة ، وأخيراً وجد البيانو آذاناً متسامحة ، والوجوه الحاملة المعبرة تلاقى أعينها مراراً فى أنس ومودة ، وجو الأصيل سبج فى

- موجات موسيقية صامته ، وبدا كل شيء طيبا وجميلا :
- أتعرف ماذا طفر إلى لساني أول ما رأيتك اليوم وأنت تحملي في المرأة كالمسحور ؟
- أفندم ؟.. ولكن أفرغني كأسك أولا حتى أملأه ..
- وهي تتناول ريشة شواء :
- كدت أصيح بك : يا بن الكلب ..
- وهو يضحك ضحكة ريانة :
- ولم لم تفعل يا بنت القارحة ؟
- أصلي لا أشتم إلا الأحياء ! وكنت وقتها غريبا أو كالغريب !
- والآن ماذا ترييني ؟
- ابن ستين ..
- يا سلام ، الشتيمة تسكر أكثر من الخمر أحيانا ، هذه الليلة المباركة ستحدث عنها الجرائد غدا ..
- لم كفى الله الشر ؟، ناو تعمل حادثة ؟!
- الطيف يا رب لي وبها ..
- وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام :
- لم تحدثني عن زوجك الجديدة ..؟
- فريت ياسين شاريه وهو يقول :
- حزينه المسكينه !، ماتت أمها هذا العام ..
- العمر الطويل لك ، كانت غنية ؟.
- تركت بيتا ، البيت المجاور لبيتنا أعني المجاور لبيت والدي ، ولكنها تركت في نفس الوقت شريكا لزوجي فيه وهو لزوجها !
- لا بد أن زوجك جميلة ، فأنت لا تقع إلا على النقاوة ..
- فقال بخنر :
- لها جمالها ، غير أنه لا يقاس بجمالك أنت ..
- آه منك آه ..!
- هل عرفتني كاذبا أبدا ؟!

- أنت ؟!، أنا أشك أحيانا في أن اسمك هو ياسين حقا ..
 — إذن فلنشرب هذه الكأس أيضا ..
 — تسكرنى كى أصدقك ؟!..
 — إذا قلت لك إننى أرغب فيك وأحن إليك فهل تشكين فى صدقي ؟، انظري
 فى عيني ، وجسى نبضى ..
 — أنت خليق بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة تصادفك ..
 — هذا كما يقال إن الجائع يود ألوان الطعام جميعا ، ولكن الملوخية مثلا قد
 تستأثر بمنزلة خاصة ..
 — الرجل الذى يحب امرأة حقا لا يتردد عن الزواج منها ..
 فنفخ ، ثم قال :
 — أنت مخطئة ، بودى لو أقف فوق هذه المائدة وأصرخ بأعلى صوتي : من
 يحب منكم امرأة فلا يتزوجها ، أجل ، لا شيء يقتل الحب كالزواج . صدقيني ،
 إلى مجرب ، وقد تزوجت مرة وأخرى وأعرف مدى صدق ما أقول ..
 — لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التي تناسبك ..
 — تناسبني ؟، كيف تكون هذه المرأة ؟، وبأى حاسة يهتدى إليها ؟، وأين
 تكون هذه المرأة التي لا تمل ؟!
 . فضحكت في فتور ، وقالت :
 — كأنك تمنى أن تكون ثورا في حديقة أبقار ، هذا هو أنت !
 ففرقع بأصبعه طربا ، وقال :
 — الله .. الله ، مندا الذى كان فى زمان مضى يدعونى بالثور ؟.. إنه أبى رينا
 بمسيه بالخير ، كم أود لو أكون مثله ، حظي بامرأة هي آية الطاعة والقناعة ، وانطلق
 علي هواه لا يجد في حياته المتاعب ، موفقا في زواجه ، موفقا في عشقه .. هذا
 ما أريد ..
 — ما عمره ؟
 — أظنه فى الخامسة والخمسين ، بيد أنه أقوى من الشباب ..
 — لا عظيم أمام السنين ، رينا يتمتع بصحته ..
 — إلا أبى ، إنه معشوق المعشوقات من النساء ، ألا تريه الآن فى بيتكم ؟

فقلت ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطة تموء تحت قدميها :
 — هجرت ذلك البيت منذ أشهر ، الآن لي بيتي الخاص وأنا سيدته !
 — حقا ؟! حسبتك تمزحين ، وهل هجرت التخت أيضا ؟
 — هجرته ، إنك تحدث سيدة بكل معنى الكلمة ..
 فقهقه في انبساط ، ثم قال :
 — إذن اشرى ودعني أشرب ، وربنا يلطف بنا ..
 في النفس فتنة وفي الجو فتنة ، ولكن أيهما الصوت وأيها الصدى ؟ ، وأعجب
 من هذا أن الحياة تدب في الجمادات ، الأصص ترنخ هامسة والأركان تتناجى ،
 السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلم ، وبينه وبين صاحبه رسائل
 متبادلة تفصح عن المكنون في جو مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهز
 الفؤاد ويغزل العين ، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تغرق
 بالضحك ، الوجوه والكلمات والحركات وغيرها تغرى جميعا بالضحك ، والوقت
 يمر كالشهاب ، وحاملو ميكروب العريضة يوزعون بين الموائد بوجوه أثقلت الرزاة ،
 أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطي عليها صليل عجلات الترام ، وغللمان
 الطوار ولا تطلو الأعقاب ينشرون حولهم لغطاً كظنين الذباب ، وجحافل الليل
 تعسكر فوق الربوع وتستقر ، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساق فيسألك : أليس
 للثنون مقر ؟ ، وأنت عن ذاك وما هو أجل لأ سادر ، لو تسجد مريم بين يديك
 هامسة : حسبي غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى من النساء ، أو
 يريت ناظر المدرسة كتفك كل صباح قائلاً : كيف حال والدك يا بني ؟ ، لو تشق
 الحكومة طريقاً جديداً أمام دكان الحمزاوى وربيع الغورية ، أو تقول لك زنوبة :
 سأهجر غداً بيت صاحبي وأكون طوع بنانك ، لو حدث هذا لاجتمع الناس
 عقب صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء ، أما حكمة الليلة فهي أن تجلس على
 الكبة وأن ترقص زنوبة عارية بين يديك ، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن
 النابتة فوق سرتها :
 — كيف حال الشامة المحبوبة ؟
 تسأله وهو يشير إلى بطنه باسمها ، فقلت ضاحكة :
 — تبوس يدك ..

- فألقى نظرة زائغة على المكان ، وقال :
- أترين هؤلاء الناس ، ما منهم إلا فاسق وابن فاسق ، هكذا كل السكّيين ..
- تشرفنا ، أما أنا فمخى يتطاير ..
- أرجو أن يطير الجزء الذى يقيم فيه رفيقك ..
- آه لو علم بما هو حاصل لنا ، سوف يطعنك يوما بفردة شاربه .
- أهو شامى من ذوى الشوارب الجبارة و
- شامى ؟! .. (ثم ترغمت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم .
- هس ، لا تلفتى إلينا الأنظار ..
- أى أنظار يا أعمى ، لم يبق إلا نفر قليل ..
- وهو يمسح على بطنه نافخا :
- الخمر مجنونة ..
- المجنونة أملك ..
- صوتك يعلو أكثر مما ينبغى ، قومى بنا ..
- إلى أين ؟.
- عمرك أطول من عمرى ، لندع الأمر إلى قدمينا ..
- وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه ؟
- إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر ..
- فكر قليلا فى ..
- فقاطعها وهو ينهض مترنحا :
- علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير ، لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد ،
- قومى بنا ..

أسبلت المساكن جفونها ، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم ، أما الصمت فقد خلا له الجوفاء ونشر جناحيه ، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشراء ، كأنك مرض يترغ فهم يجتنبوه ، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكنك ستظل بلا مأوى ، وقد ضم الرقاد العاشقين فالأم تهم على وجهك ، وها هو حوذى يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب ، فوارحمته للذى يسحب المرأة فى أذبال الليل وهو يتساءل إلى أين ؟..

— إلى أين ؟

أجاب الحوذى باسم :

— تحت الأمر ..

فقال له ياسين :

— لم أقصداك بسؤالى ..

فقال الرجل :

— تحت الأمر على أى حال ..

عند ذاك قالت زنوبة :

— لا تسألنى أنا سل نفسك ، لم لم تفكر فى ذلك قبل أن تسكر ؟

عاد الحوذى يقول متشجعا بوقوفهما أمام العربة :

— النيل ! ، أحسن مكان ، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل ؟

فتساءل ياسين محتدا :

— أحوذى أنت أم نوقى ؟ ماذا نفعل عند النيل فى هذا الوقت من الليل ؟

قال الحوذى بإغراء :

— هنالك النور ضئيل والمكان خال ..

— جو مناسب لقطاع الطرق !

زنوبة بخوف :

— يا خير أسود ، أذناي وعنقي وساعداي محملة بالذهب !

فقال الحوذى وهو يهز منكبيه :
— الدنيا بخير ، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما ، ونعود على أحسن حال ..
زنوبة بجدة :
— لا تذكر النيل على لسانك ، إن بدنى يقشعر للذكره !
— بعد الشر عن بدنك ..
صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه فى العربة إلى جانب زنوبة :
— كلمنى أنا ، مالك أنت وبدنها !
— يا بك أنا خدامك ..
— الليلة كل شىء متعقد ..
— ربنا يحل عسيرها ، إن أردت فندقا ذهبنا إلى فندق ..
— تشاجرنا فى ثلاثة فنادق ، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة ؟ ، شف غيرها ..
— نرجع إلى النيل ..
زنوبة بغضب :
— الذهب يا عمر !
ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفى :
— فضيلا عن أنه ليس هناك مكان ..
فقال الحوذى :
— أما عن المكان فلديك العربة ..
هتفت زنوبة :
— هل أنذرتما مضايقتى ؟
فقال ياسين وهو يفتل شاربه :
— لك حق ، لك حق ، ثم إن العربة مكان غير صالح ، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن ، اسمع ..
مد الرجل أذنه ، فصاح ياسين بنفخة آمرة :
— إلى قصر الشوق ! ..
طق طق طق ، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم ، فى الأفق قلق يلوح ،

ثم لا يلبث أن يغرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية ، ذلك أن الإرادة ذائبة في كأس من الخمر ، وإذا رقيقة الهناء تساءلت بلسان ملغم عن : أين يقصد في قصر الشوق ؟ أجاب إلى بيتي الذي ورثته عن أمي ، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام ، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم ، والليلة يحتضن سيدة الليالي الخوالي ، وزوجك أيها السكران ؟ ، في النوم مغرقة ، أليس لكل شيء حساب .. وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه ، اقفطى من لآلئ النجوم ما ترصعين به جبينك ، وغنى في أذى وحدي : هاتيلي حبي يا نينة الليلة ..

— وأين أقضى بقية الليل .. ؟

— سأوصلك إلى حيث تريدن ..

— لن تستطيع أن توصل قشة .

— باريس في الوجه البحري ..

— لولا أني أخافه !

— من هو ؟!

بصوت منكسر وهي تلقي برأسها إلى الوراء :

— من يدريني ؟ ، نسيت ..

غشى الجمالية ظلام دامس ، حتى القهوة أغلقت أبوابها ، وقفت العربية عند مدخل قصر الشوق فغادرها ياسين وهو يتجشأ ، وتبعته زنوبة معتمدة على ذراعه ، ثم مضيا معا في حذر لم يغن عن الترغ ، يتعقبهما سعال الحوذى وأطيط حذاء الخفير الذي مر بالعربة وهي تدور مستطلعا ، وقالت له : إن الطريق وعر ، فقال لها : لكن الدار أمان ، وقال لها أيضا : لا تشغلي البال . وعثا حاولت أن تذكره بأن زوجه في الشقة التي إليها يسعيان ، فضلا عن أنها كانت تحاول تذكره وهي تبتسم في الظلام ابتسامة بلهاء ، وكادت قدمها تعثر مرتين وهي ترقى السلم ، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلهثان ، بعثت رهبة الموقف في شعورهما المبعثر يقطة عابرة حاولت أن تلم شتاته بقبضة وانية ، فأدار المفتاح في القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ ، وبحث في الظلام عن أذن زنوبة حتى عثر عليها ، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء ، وفعل مثلها ، ثم تقدمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة

الاستقبال لقاء المدخل ، ثم دفع بابها وانسل إلى الداخل وهي في أثره . تهندا معا
 بارتياح ، ورد الباب ثم قادها إلى الكنية وجلسا معا ، قالت متضايقه :
 — الظلام شديد ، أنا لا أحب الظلام !
 فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنية :
 — ستألفينه بعد قليل ..
 — بدأ مخي يدور !..
 — الآن فقط ؟!
 وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالا وهو يهمس في ارتياح :
 — لم أغلق الباب الخارجى ..
 ومد يده ليخلع طربوشه فهتف :
 — نسيت الطربوش أيضا !، فى العربة يا ترى أم فى توفايان ؟
 — الطربوش فى داهية ، أغلق الباب يا عمر ..
 تسلل مرة أخرى إلى الصالة ، ثم إلى الباب الخارجى فأغلقه بحذر شديد ، وفى
 طريق عودته خطرت له فكرة مغرية ، فاتجه نحو الكانصول وهو يمد يده أمامه رائدة
 لتقيه الاصطدام بكرسى السفارة ، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضا على زجاجة
 كونيكا مملوءة حتى نصفها ، وضع الزجاجة فى حجرها وهو يقول :
 — جيتك بلواء لكل شىء ..
 فتحسست يداها الزجاجة ، وقالت :
 — خمر !؟ .. حسبك !، أترى أن نطفح !؟
 — جرعة نسترد بها أنفاسنا بعد هذا الجهد !
 شرب حتى ظن أنه قادر على كل شىء ، وأن الجنون حال تستطاب ، وهاج
 البحر فعلا مع موجه وسفل ثم دار فى دوامة ما لها من قرار ، وسلت فى أركان الحجره
 السنه تنطق فى الظلماء لغوا وهذرا ، وتند عنها ضحكات معرودة ، فى ضجة
 كضوضاء السوق حتى الغناء جرى فى أثريها ، وهوت الزجاجة على الأرض
 فأحدثت صوتا كالنذير ، ولكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو فى بحر من
 العرق ، طال الوقت أم قصر فليس الزمان فى حسبانها ، لذلك تحرك الظلام وشاب
 إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة ، وكما يستيقظ الحالم السعيد وهو يمد اليد ليقطف

لذة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة ، فتح عينيه فرأى نورا وظلا يتراقص على الجدران ، وثنى رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعان شرر الغضب . تبودل بين المنظرين على الكنية والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة ، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى ، ثم لم يعد الصمت مما استطاع . أعربت زنوبة عن قلقها بأن فتحت فاهها لتتكلم ولكنها لم تقل شيئا ، ثم غلبها بغتة ضحك طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها بكفها ، وإذا ياسين يصيح بها بلسان ثقيل :

— كفى عن الضحك !.. هذا بيت محترم !

ويدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعها لسانها أو أعجزها الغضب ، فقال لها ياسين ولم يكن يدري ماذا يقول :

— وجدت هذه « الست » في حالة سكر شديد ، فبحث بها إلى هنا حتى

تفيق ..

ولم تسكت زنوبة ، فقالت معترضة :

— هو السكران كما ترين ، وقد جاء بى بالقوة !..

ندت عن مريم حركة خطيرة كأنما همت بأن تقذفهما بالمصباح ، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحيزا ، ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام ، فوضعت المصباح على منضدة وهي تصر على أسنانها بحلق ، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافا متهدجا مخشوشنا بالحقد والغضب ، قالت :

— فى بيتى ١. فى بيتى ١٩ ، فى بيتى يا مجرم يابن الشياطين !

ودوى صوتها كالرعد يصب عليه اللعنات وينعته بكل خبيث ، صرخت وصوتت حتى شق صوتها الجدران ، ونادت السكان والجيران وهي تحلف لتفضحنه وتشهد عليه النالين . وكان ياسين ينذرهما بشئ الوسائل ليسكنها ، لوح لها بيده وحملق فيها بعينيه ، وصاح بها مزجرا ، فلما خابت وسائله نهض منفعلا واتجه نحوها بخطوات واسعة ليلبغها فى أقصر وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه ، ثم انقض عليها مسددا راحته إلى فيها ليسده ، ولكنها صرخت فى وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها فى بطنه ، فتراجع مترنحا مكفهر الوجه من الحنق والألم ثم سقط على وجهه كالبنيان المتهدم ، انطلقت من زنوبة صرخة مدوية فجرت مريم

نحوها وارتمت عليها ، وجذبت شعرها بيمنها وأنشبت أظافرها الأخرى في عنقها وجعلت تبصق في وجهها وهي تسب وتلعن ، وما لبث ياسين أن نهض ثانياً هائلاً رأسه بعنف كأنما ليطرده عنه الخمار ، فتحول إلى الكنية وسدد نحو ظهر زوجه الراقدة فوق غريمها قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائغة عنه ، فتبعها وقد أعماه الغضب موجهاً إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينهما السفرة ، وعند ذلك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجرى نحوها ، وراحا يدوران في الصالة وهو يصيح بها « اغرنى عن وجهي ، أنت طالقة .. طالقة .. » وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة في الدور الثاني ينادى « ست مريم .. ست مريم » فتوقف ياسين عن الجري وهو يلهث ، أما مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملاً السلم كله :

— تعالى انظري داخل الحجرة وخبريني هل رأيت مثل هذا من قبل !؟ ، عاهرة في بيتي تسكر وتعريد ، ادخلي وانظري .

فقالت الجارة باستحياء :

— هدي نفسك يا ست مريم ، تعالى معي حتى الصباح ..

هتف ياسين دُونَ مبالاة :

— اذهبي معها ، لا حق لك في البقاء في بيتي ..

فصبرخت مريم في وجهه :

— يا فاسق ، يا مجرم ، تحيئني بعاهرة في بيت الزوجية ..

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها :

— أنت العاهرة ، أنت وأملك ..

— تسب أمي وهي بين يدي الله !

— أنت عاهرة ، أنا أعلم ذلك عن يقين ، ألا تذكرين الجنود الإنجليز !؟ . الحق

عليّ لأنني لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين !

— أنا ستك وتاج رأسك ، أنا أشرف من أهلك ومن أمك ، سل نفسك عن

الرجل الذي يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت ! ، هل يكون إلا قوادا

خسيساً !؟ . (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال) .. تزوج من هذه ، إنها من

النوع الذي يوافق مزاجك القدر ..

— كلمة أخرى ، وسيل دمك حيث تفقن ..
ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتقذف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول
بينهما إذا دعا داع ، وجعلت تربت منكبا متوسلة إليها أن تمضي معها حتى يطلع
الصبح ، واشتد الضيق يباسين فصاح بها :
— خذى ثيابك واخرجى ، ابعدى عن وجهى ، لآنت زوجى ولا أنا أعرفك ،
أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجذك إذا عدت ..
واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران ،
ثم ارتقى على الكنية وهو يحفف عرق جبينه ، همست زنوبة قائلة :
— إنى خائفة ..

فقال بخشونة :

— اسكتى ، مم تخافين ؟! (ثم بصوت مرتفع) أنا حر .. أنا حر ..
فقالت وكأنها تخاطب نفسها :
— ماذا أصابنى فى عقلى حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا ؟
— اسكتى !.. ما كان كان ولست آسفا على شيء .. أف ..
وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق ، فدلّت على أن أكثر من جارة قد
أحاطت بالزوجة الغاضبة ، ثم سمع صوت مريم وهى تقول بلهجة باكية :
— هل سمعتم عن هذا من قبل ؟. عاهرة من عرض الطريق فى بيت الزوجية ؟.
استيقظت على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان !، إى والله كانا يغنيان بلا حياء
بعد أن أذهلهما السكر ، خبرونى أهذا بيت أم ماخور ؟!
وإذا بصوت امرأة تقول محتجة :
— أجمعين ثيابك وتغادرين بيتك ؟!. هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن
تغادره ، فلتغادره الأخرى ..

فهتفت مريم :

— لم يعد بيتى ، لقد طلقنى المحترم !

فقال أخرى :

— لم يكن فى وعيه ، تعالى الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح ، ومهما يكن
من أمر فياسين أفندى رجل طيب وابن ناس طيبين ، لعنة الله على الشيطان ، تعالى

يا ابنتى ولا تحزنى ..

فصاحت مريم :

— لا كلام ولا حساب ، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة ..
ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا أصوات
مبهمة ، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق . نفخ ياسين طويلا ثم استلقى على
ظهره ..

٢٧

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة ، وجد في رأسه ثقلا لا عهد
له به رغم أنها لم تكن أول مرة يستيقظ بعد ليلة مخمورة ، وبمحركة من رأسه غير
مقصودة وقعت عيناه على زنوبة وهى تغط في نومها إلى جانبه ، هنالك استعادت
ذاكرته حوادث الليلة الماضية فى لحظة واحدة : زنوبة فى فراش مريم ، ومريم ؟ . عند
الجيران ، والفضيحة ؟ ، فى كل مكان ، يا لها من وثبة جبارة فى هاوية التدهور ،
ما جدوى الغضب أو الندم الآن ؟ ، ما كان كان وكل شىء قد يتغير إلا أمس ،
أيوقظها ؟ ، ولكن له ؟ ، فلمتلىء نوما حتى تشبع ، ولتبق حيث هى فما ينبغى أن
تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام ، ولم يكن بد من استعادة شىء من حيويته ليلاقي به
يومه العسير ، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى
الخارج ثقيلًا منفوش الشعر منتفخ الجفون محمر العينين . تشاءب فى الصالة بصوت
كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثم أغمض عينيه متأوها
من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام . أمامه يوم عسير حقا ، مريم عند الجيران والأخرى
محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفى آثار جريمته ، فىا للجنون ! كان يجب أن
يسر بها قبل أن يأوى إلى فراشه فكيف توالى عما يجب ؟ ، أى غاشية غشيتة ؟ ، بل
ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم ؟ ، إنه لا يذكر شيئا ،
لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم ، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن ،
وليلة بريئة ولكنها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع .. ولكن لا عجب
فهذه الشقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح ، تركة أم غفر الله لها ، مضت

الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكان والجيران وغدا تهرع الأنباء إلى بين القصرين .. فألى الأمام !. قرار هاوية سحيفة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذى تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء ، ومن يدري فلعلك إذا أطلت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التى طردت الزوجة واحتلت مكانها ، كلالا لن تسمح لها بالخروج مهما يكن من أمر ، أما مريم فقد طلقتها !، طلقتها وما أردت ذلك وأنها لم يجف ماؤها فى قبرها بعد ، فماذا يقول عنك الناس أيها المفتري ١٩. وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة ينعش به حواسه ، فغادر الحمام إلى المطبخ ، وفى أثناء عبوره الدهليز الذى يفصل بينهما لمح الكنصول فى الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهرقة فى غرفة الاستقبال ، وتساءل لحظة عما أصاب السجادة ، ثم ذكر فى اللحظة التالية وفى أسف ساخر أن أثاث الشقة كله لم يعد ملكه وأنه سيلحق عما قليل بصاحبه ، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبا مملوءا حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم ، وهناك وجد زنوبة جالسة فى الفراش تتمطى وتشاءب ، فالتفت نحوه وقالت :

— صباحنا خير ، وإن شاء الله نغير ريقنا فى القسم !

فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب ، ثم قال :

— قولى يا فتاح يا عليم ..

فلوحت يديها حتى وسومت الأساور الذهبية حول ساعديها ، وقالت :

— أنت السبب فى كل ما حصل ..

فجلس على حافة السرير فيما يلى ساقها الممدودتين ، وقال بضيق :

— محكمة !، هه ١٩. قلت لك قولى يا فتاح يا عليم !.

قربت سلسلة ظهره بكعب قدميها ، وهى تقول متأوهة :

— خربت بيتى ، الله وحده يعلم ما ينتظرنى هناك ..

فوضع ساقا على ركبته حتى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطاة بغاية من الشعر الفاحم ، وقال :

— رفيقك ؟، خيبة الله عليه !، ما يكون هذا إلى طلاق زوجى ١٩، أنت التى

خربت بيتى ، وبيتى أنا الذى خرب ..

قالت وكأنها تحدث نفسها :

— ليلة سوداء لم أعرف لى فيها رأسا من قدمين ، لا تزال الضوضاء تدوى فى رأسى ، لكن الحق على ، ما كان ينبغى لى أن أطاوعك من بادى الأمر ..
خيل إليه أنها راضية رغم تشكيها ، أو أنها تدعى التشكى ادعاء ، ألم يعرف فى الأريكية نساء ينباهن بكل عراك دموى ينشب من أجلهن ؟! ، على أنه لم يغضب ، كانت الأمور قد بلغت حد اليأس فأعفته من مشقة النهوض لمعالجتها ، فلم يملك إلا أن يضحك وهو يقول :

— شر البلية ما يضحك !، اضحكى ، خربت بيتى واحتلته ، قوسى فأصلحي من شأنك واستعدى لإقامة طويلة حتى يقبل الليل ، لن تغادرى البيت حتى يأتى الليل ..

— يا خير أسود !، سجينه !، أين زوجك ؟.

— لم يعد لى زوجة ..

— أين هى ؟

— فى المحكة الشرعية إن صدق ظنى ..

— أخاف أن تعتدى على عند خروجي ..

— تخافين ؟! ، ربنا يرحمنا !، إن ليلة أمس على فظاعتها لم توهن من مكرك

وخبثك يا بنت أخت زبيدة !

ضحكت ضحكة طويلة فبدأ أنها تقر بالتهمة الموجهة إليها ، وفى مباهاة أيضا ، ثم مدت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلا منها ، ثم ردتها إليه وهى تتسائل :

— والآن ؟

— كما ترين ، لا علم لى أكثر منك ، ولكن يحز فى نفسى أن أنكشف أمام لناس

كما انكشفت فى الليلة الماضية ..

هزت منكيبها فى استهانة قائلة :

— لا تهتم بذلك ، ما من رجل إلا ويخفى تحت ذقنه مخازى تضيق عنها الأرض .

— رغم هذا فالفضيحة فضيحة ، تصورى الشجار والعويل والطلاق عند

الفجر !، تصورى الجيران وقد فزعوا إلى شقتى مستطلعين فرأت أعينهم كل شىء .

قطبت قائلة :

— كانت هي البادئة !.

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة ، فعادت تقول بإصرار :
— كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة ، الغرباء في الطريق يتسامحون مع السكارى المعردين ، هي التي جنت على نفسها بالطلاق ، وماذا كنت تقول لها ؟ .. يا عاهرة يا بنت العاهرة ، هه ؟ ، وكلام آخر عن الجنود الإنجليز .. ؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدجها بنظرة محنقة متسائلا كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها ، وغمغم في ضيق :
— كنت غاضبا لا أدري ماذا أقول !

— إحم !

— إحم في يافوخك ! ..

— الجنود الإنجليز ؟ .. هل جئت بها من بار فنشي ؟ !
— أستمغفر الله ، إنها بنت ناس وجيران الغمر ، ولكنه الغضب عليه ألف لعنة ..

— لولا الغضب ما انكشفت الأسرار !

— وحياة خالتك حسينا ما نحن فيه ..

— خبرني عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسي ..
بصوت عال محتد :

— قلت إنه الغضب وكفى ..

شبهت ساخرة ، ثم قالت :

— أتدافع عنها ؟ .. اذهب فاستردها ..

— ملعون أبو البارد الذي لا يستحي ..

— ملعون أبوه ..

غادرت الفراش إلى المرأة فتناولت مشط مريم ، وراحت تمشط شعرها بعجل وهي تتساءل :

— ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي ؟

— قولي له مع السلامة ، أما بيتي فمفتوح لك على الدوام ..

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة :

— أنت لا تفقه معنى ما تقول !، كنا بسبيل التفكير الجدى فى الزواج .
— الزواج !، وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت من أحواله فى الليلة

الماضية ؟!

قالت فى دهاء :

— أنت لا تفهمنى !. لقد ضقت ذرعا بالحياة الحرام ، ليس وراءها إلا البوار ،
إن مثلى إذا تزوجت قدّرت الحياة الزوجية خير قدرها !
من المغفل يا ترى ؟!. التخت لم يكن يعدّها بأكثر من عوادة ، وحياة الهوى
ليس وراءها بعد الثلاثين — وستبلغها قريباً — إلا التلف ، فالزواج هو الأمل
الموعود ، هل تقصّديك بهذا الحديث ؟.. ما ألدّ الشيطانة !. لا أنكر أننى أريدها ،
أريدها بكل قوة ، وفصّيحى تشهد على ذلك ..
— أتحمّينه ؟

كالغاضبة :

— لو كنت أحبه ما وجدتنى الآن سجينه هنا !..
اهتر صدره حناناً رغم ارتياحه فى صدقها ، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها
أبدت له ميلاً لا شك فيه :
— لا غنى لى عنك يا زنوبة ، فى سبيلك ارتكبت جنونا غير مبال بالعواقب ،
أنت لى وأنا لك من قديم الزمان ..
وساد الصمت ، بدت كأنها تنتظر مزيداً على لطف ، ولكنه لم ينبس فقالت :
— هل أقطع أسبأى بذلك الرجل ؟. لست من اللاتي يستطيعن أن يجمعن بين
رجلين ..

— من هو ؟

— تاجر من ناحية القلعة يدعى محمد القللى ..

— متزوج ؟

— وله أولاد ، ولكنه كثير المال ..

— وعدك بالزواج ؟

— يغرنى به ، ولكننى مترددة ، لأن ظروفه وكونه زوجاً وأباً مما ينذر بالمتاعب ..

- احتمل مكرها من أجل جمال عينيها .
 — لم لا نعود كما كنا ؟ .. لست فقيرا على أى حال ..
 — لا يعنينى مالك ، ولكن ضقت بحياة الحرام !
 — والعمل ؟
 — هذا ما أسأل عنه ..
 — أفصحى ..
 — قلت ما فيه الكفاية ..
 ياله من هجوم غير متوقع ، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكا ، غير أنه يريدها
 فلا يسعه أن يرد على الهجوم بمثله ، قال بعد صمت :
 — لا أخفي عنك أنى بت أتطير من الزواج ..
 — كما أتطير من الحرام ! ..
 — لم تكونى كذلك أمس !
 — كان فى قبضة يدى زوج ، أما اليوم .. !!
 — قليل من المرونة حتى نتلاقى ، شىء واحد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال ،
 وهو أنى مهما تطل بى عشرتك فلن أتخلى عنك ..
 فهتفت محتدة :
 — سوابقك تشهد على صدقك ..
 فقال بلهجة جدية يدارى بها ضعف مركزه :
 — الإنسان لا يتعلم بلا ثمن ..
 — لم تعد تفررى فى الأقوال ، أه منكم يا رجال !
 ومنكن يا نساء أليس ثمة آه ١٩ ، يا بنت أخت زبيدة رحمتك ، جاءت بعد
 منتصف الليل سكرى وفى الصباح ضاقت بالحرام ، لعلها قالت لنفسها : إذا
 كانت زوجه الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجه الثالثة ١٩ ، هان ياسين ، أنسيت
 ما ينتظرك فى الخارج من المتاعب ؟ ، دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زنوبة
 بكلمة نائية ، كما فقدت مريم ، مريم ١٩ ، الآن كفرت عن ذنبى يا أخى ، قال
 بهلوء :
 — يجب ألا ينقطع ما اتصل بيننا ..

— يديك انقطاعه واتصاله ..
 — يجب أن نلتقى كثيرا ونفكر كثيرا ..
 — من جانبي لا حاجة لى إلى تفكير جديد !
 — فإما أن أقنعك برأىي ، وإما أن تقنعيني برأيك ..
 — لن أقنع برأيك ..

وغادرت الحجرة وهى تدارى عنه ابتسامة فأتبع ظهرها المتأود نظرة استغراب ،
 أجل كل شىء يبدو غريبا ، ولكن أين مريم ؟ ، وحيدة على أى حال ولن تلوق نفسه
 الراحة والسلام ، وسيسأل غدا فى بين القصرين وبعد غد فى المحكمة الشرعية ،
 ولكن كانت حياتهما فى الأيام الأخيرة نضالا متواصلا ، حتى قالت له بصريح
 العبارة : كرهتك وكرهت عيشتك ، لم أخلق كى أوفق فى الزواج ، وهكذا كانت
 حياة جدى ؟ ، إلى أشبه الأسرة به فيما يقال ، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوج
 منى ..

٢٨

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد القنطرة
 الخشبية المؤدية إلى العوامة ، ودق الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زنوبة فى فستان
 من الحرير الأبيض نمت شفافته عن محاسن جسدها ، فلما رآته هتفت :
 — أهلا .. أهلا ، قل ماذا فعلت أمس ؟ تصورت حضورك ودق الجرس دون
 نتيجة ووقوفك حيناً ثم ذهابك .. (وهى تضحك) ووساوسك ، قل ماذا
 فعلت ؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذى يتطاير منه بدا وجهه متجهما
 وعيناه جامدتين تعكس حداثتهما استياء ، سأل قائلا :
 — أين كنت أمس ؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط الحجرة بين نافذتين مفتوحتين
 على النيل ولم يجلس ، أما هى فجلست على مقعد بين النافذتين وهى تتظاهر بالهدوء
 والثقة والابتسام ، ثم قالت :

— خرجت — كما تعلم — أمس لأستبضع ، فقابلت في بعض الطريق ياسمينة العالمة فدعنتني إلى بيتها ، وهنالك أبت عليّ أن أنصرف ، وما زالت نى حتى أجبرتني على المبيت عندها ، لم أكن رأيها منذ انتقلت إلى هذه العوامة ، لو سمعتها وهى تطعن في وفائي وتسألني عن سر الرجل الذى أنسانى عشيرتي وجيراني !
صادقة أم كاذبة ؟ ، هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقا ؟ ، إنه لا يريح مليما ولا يخسر مليما بلا سبب ، فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب ؟ ، دنيا ماكرة .. غير أنه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا صح عنه صدق هذه الشيطانة ، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقى من عمره ، هل أن له أن يثوب إلى رشده ؟ ، مهلا ..

— متى عدت إلى العوامة ؟
فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد ، وراحت تتأمل شبيها البمبي ذا الوردة البيضاء وأصابها الخضة بالخناء ، ثم قالت :
— هلا جلست أولا وخلعت طربوشك لأرى مفرق شعر رأسك ؟ ، عدت يا سيدى مع الضحى ..

— كذابة !
انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضبا وبأسا ، ثم استطرد قائلا في عنف قبل أن تفتح فاهها :
— كذابة ، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر ، لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجذك ..

وجمت قليلا ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضرجر :
— الحق أنى عدت قبيل المغرب ، منذ ساعة تقريبا ، لم يكن ثمة ما يدعونى إلى اختلاق الكذب لولا أنى لحت في عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله ، الحق أن ياسمينة ألحت عليّ في الصباح كى أتسوق معها ، ولما علمت بانفصالى عن خالتي عرضت عليّ أن أنضم إلى تحتها على أن تنيبنى عنها في بعض الأفراح ، وطبعاً لم أوافق ، لسابق علمى بأنك لن ترضى عن سهري مع التخت ، المقصود إني بقيت معها لعلمى بأنك لن تجيئ إلى هنا قبل التاسعة مساء ، هذه هى الحكاية فاجلس وصل على النبى ..

حكاية مختلفة أم صادقة ؟، لو يطلع أصحابك على موقفك هذا ؟، لشد ما تهرأ بك المقادير ، على أنى أعفو على أضعاف هذا فى سبل قطرة من الراحة ، تشحد الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل ، هكذا هانت عليك نفسك أمام العودة ، كانت موكلة يوماً بمخدمتك تقدم لك فى مجلس الأُنس الفاكهة وتنصرف فى ضمت وأدب ، إما الراحة أو فلتستعر نيران الجحيم .

— ياسمينة العالمة ليست فى جبال الواق ، سوف أسألها عن حقيقة الحكاية ..
 قالت وهى تلوح بيدها فى استهانة واستياء :
 — سلها كيفما بدا لك ..

وغلبته أعصابه الثائرة المنهكة فجأة ، فقال بعناد :
 — سوف أسألها هذا المساء ، إلى ذاهب إليها ، الآن .. حققت لك كل رغباتك فينبغى أن تحترمى حقوقى كاملة ..
 وانتقلت إليها عدوى هياجه ، فقالت بحدة :

— مهلا ، لا ترمينى فى وجهى بالنهم ، فقد اتسع لك حلمى حتى الآن ، ولكن لكل شىء حد ، أنا إنسانة من لحم ودم ، فتح عينك وصل على أنى فاطمة !..

تساءل فى ذهول :

— أبهذه اللهجة تخاطبينى ١٩

— نعم ما دمت تخاطبنى بمثلها !

اشتدت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف :

— أنا أستاذ ، فأنا الذى خلقت منك سيدة وهيات لك حياة تحسدك عليها زيدة نفسها !..

واستفزها قوله فبدت كاللوة الهائجة ، وصاحت :

— خلقتنى الله سيدة لا أنت ، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارة ، فهل نسيت هذا ١٩ لست أسيرة أو عبدة لك ، تحقيق ومحضر ، ماذا تظن بى ؟، هل اشتريتنى بمالك ؟، إذا كانت حياتى لا تعجبك فليذهب كل منا إلى حال سبيله ..

يا رب السماوات أهكذا تستحيل الأظافر المدللة إلى مخالب ؟، إن كنت فى

شك من الليلة البارحة فاستخير هذه اللهجة الوقحة ، جنس نمرد ابتليت به
فتحرج الألم حتى الثمالة ، انهل من الإهانة حتى تكتفى ، والآن ما جوابك ! ،
بأعلى صوتك اصرخ فى وجهها : اخرجى إلى الطريق الذى التقطت منه .
اصرخ ، أجل اصرخ ، ماذا يمنعك ؟! ، لعنة الله على ما يمنعك ، خيانة القلب شر
من ألف خيانة ، هذا هو ذل القلوب الذى كنت تسمع عنه وتهزأ منه ، شد ما أكره
نفسى إذ تحبها ..

— تطرديننى ؟!

بنفس النبرات المحتدة الغاضبة :

— إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبسنى هنا كالرقيق وأن ترمينى بالتهم كلما حلا
لك ، فمن الخير لى ولك أن تنتهى ..

وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها فى هدوء غير طيعى
بالدهول أشبه . أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة ، هى ذلك
وحقنك ولكن هل تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر ؟!

— لم أكن شديد الثقة فى نبلك ، ولكنى لم أتصور أن يذهب بك الجحود هذا
المذهب !

— تريدنى حجرا لا شعور له ولا كرامة !

أنت أحقر من هذا لو تعلمين ! ..

— بل أريدك شخصا يعرف للجميل حقه وللعشرة حقها ..

مغيرة لهبتها من الغضب إلى السخط والتشكى :

— فعلت لك أكثر مما تتصور ، ارتضيت أن أهجر أهلى وعملى لأبقى حيث
تريد ، حتى الشكوى كنتها كى لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأن
« بعض الناس » يود لى حياة خير من هذه فلم ألق إليهم بالا !

أئمة متاعب أخرى لم تقع لى فى حسابان . ؟. تسألى كالجريح :

— ماذا تعنين ؟

فحكفت على أسورة ذهبية تديرها حول ساعدها الأيسر ، وهى تقول :

— رجل محترم يريد أن يتزوجنى ويلج فى ذلك بلا ملل ..

الحرارة والرطوبة يخفقانك خنقا أما « العكنة » فقد فغرت فاهها لتبتلعك ،

ما أسعد هذا الملاح الذى يطوى شراعه أمام النافذة ..!

— من هو ؟

— رجل لا تعرفه . فسّمه كيف شئت !

تراجع خطوة ، ثم جلس على كنية تتوسط مقعدين كبيرين ، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها :

— متى رآك ؟ ، وكيف علمت برغبته ؟

— كان يرانى كثيرا حينما كنت أقيم مع خالتي ، وفي الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتى كلما صادفنى فى طريقه ، ولكنى تجاهلته فحرض إحدى صديقاتى على إبلاغى برغبته ، هذه هى الحكاية !

ما أكثر حكاياتك ، عندما افتقدتك أمس قاتلتنى ألم واحد ، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب ، اتركها إن استطعت ، اهجرها فهجرها هو سبيل السلام . أليس الناس مخطئين فى تصورهم أن الموت شر ما يبتلون ؟!

— أحب أن أعرف صراحة ، هل تودين قبول هذا العرض ؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه بوجهها فيما يشبه الكبرياء ، ثم قالت بتوكيد :

— قلت لك إنى تجاهلته ، يجب أن تفهم معنى ما أقول ..

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتى لا تتكرر ليلة أمس ، غربل نفسك من الهواجس .

— صارحيني هل زارك أحد فى العوامة ؟

— أحد ؟! ، أى أحد تعني ؟ ، لم يدخل هذه العوامة أحد سواك ..

— زنوبة ، إنى أستطيع أن أعرف كل شيء ، لا تخفى عني شيئا ، صارحيني بكل كبيرة وصغيرة ولك عندى بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك ..

قالت محتجة غاضبة :

— إذا أصررت على الشك فى صدق فخير لنا أن نفرق ..

أتذكر الذبابة التى رأيتهما تحتضر فى صباح اليوم فى خيط العنكبوت ؟!

— حسينا دعيني أسألك الآن ، هل قابلتك هذا الرجل أمس ؟!

— أخبرتك أين كنت أمس ..

نافخا على رغمة :

— لماذا تعذبنني ، وما حرصت على شيء حرصى على سعادتك ؟

ضربت كفا بكف ، كأنما قد كبر عليها شكه ، ثم قالت :

— لم لا تريد أن تفهمنى ؟... إني أرفض كل غال فى سيلك !

ما أجمل هذه النعمة ، المأساة أنها يمكن أن تصدر عن قلب فارغ ، كالغنى الذى يذوب فى نعمة حزينة شاكية وقلبه ثمل بالسعادة والفوز .

— إني أشهد الله على قولك ، صارحني الآن : من يكون هذا الرجل ؟

— ماذا يهمك منه ؟ ، قلت لك إنك لا تعرفه ، تاجر من غير حيناً ولكنه كان

يجلس من حين لآخر فى قهوة سى على ..

— اسمه ؟

— عبد التواب ياسين ، هل عرفته ؟..

اكثرى هذه العوامة لقضاء وقت سعيد ، هل تذكر أوقاتك السعيدة ؟! أيتها

الدنيا هل تذكرين أحمد عبد الجواد الذى لم يكن يبالى شيئاً ؟ ، زيدة .. جلييلة ..

بهيجة .. سليمان عنه ، إنه بلا ريب غير هذا الرجل الحائر الذى اشتعل الشيب فى

فوديه ..

— إن شيطان النكد هو أنشط الشياطين ..

— بل هو شيطان الشك لأنه يخلق من لا شيء ..

جعل ينقر الأرض بطرف عصاه ، ثم قال بصوت عميق :

— لا أريد أن أعيش أعمى ، كلا ولا شيء بقادر على أن يجعلنى أتهاون فى

رجولتى وكرامتى ، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم ميتك فى الخارج ليلة أمس ..

— رجعنا مرة أخرى !

— وثلاثة ورابعة ، لست طفلة ، أنت امرأة ناضجة عاقلة ، واليوم تحدثينى عن

ذلك الرجل ! ، هل غرّك حقاً وعده بالزواج منه ؟

أجابت بكبرياء قائلة :

— إني أعلم أنه لا يخدعنى ، وآى ذلك أنه وعدنى بألا يقربنى حتى يعقد زواجه

منى ..

— أترغبين فى هذا الزواج ؟

قطبت في استياء ، ثم قالت بلهجة المتعجب :
 — ألم تسمع ما قلت ؟!، إني أعجب لما تبدى اليوم من كسل ، لكن على أى
 حال لست الساعة كالعهد بك ، أفق من الكدر الذى جلبته على نفسك بلا سبب
 واسمع منى للمرة الأخيرة : لقد تجاهلت الرجل ورغبته إكراما لك ..
 رغب أن يعرف سنه ولكنه لم يدر كيف يصوغ السؤال ، الشباب والكهولة
 أمور لم تجر له في حساب من قبل ، قال بعد تردد :
 — لعله من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردد !
 — ليس طفلا ، إنه في الثلاثين من عمره !
 أى أنه يتأخر عنه بربع قرن ، والتأخر مكروه إلا في العمر ، أما الغيرة فقتلنا
 بلا حياة .

وعادت هي تقول :
 — تجاهلته رغم أنه وعدنى بالحياة التى أتمناها !
 يا بنت القديمة !، فات زيدة أن تتعلم منك الكثير ا..
 — حقا ؟..
 — دعنى أضرحك بأنى لم أعد أطيق هذه الحياة ..
 اذكر مرة أخرى الذبابة والعنكبوت ..
 — حقا !..
 — أجل ، أريد حياة مطمئنة في ظل الحلال ، أم ترائى مخطئة ؟
 جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن ؟، هى التى طردتك فمن أين لك هذا
 الحلم كله ؟، اخجل من نفسك ما بقى لك من أيام ، أتفهم ما تعنى إيماءاتها ؟،
 ما أجمل الأمواج المتلاطمة في ساعة المغيب !، ولما طال به الصمت استطردت قائلة
 بهلوه :
 — لن يغضبك هذا ، أنت رجل تقي رغم كل شيء ، فلا يمكن أن تحول بين
 امرأة وبين الحلال الذى تود ، لا أود أن أكون بردعة لكل راكب ، لست
 كخالتى ، لى قلب مؤمن وأخاف الله ، وقد صدق عزمى على هجر الحرام ..
 استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج ، وجعل يتفحصها بحنق داراه بابتسامة
 باهتة ، ثم قال :

- لم تحدثيني عن هذا من قبل ، كنا حتى أول أمس على خير حال !
— لم أكن أدري كيف أكاشفك بما في نفسي ..
إنها تتعد عنك بسرعة خيفة خبيثة ، يا خيبة الأمل ، إلى مستعد أن أنسى ليلة
أمس المشعومة .. أنسى شكى وألمى .. على أن تطلع عن هذا المكر الخبيث ..
— كنا نعيش في سعادة ووئام ، فهل هانت عليك العشرة ؟!
— لم تكن ولكنى أريد أن أجعل منها شيئا أفضل ، أليس الحلال خيرا من
الحرام ؟!
تقلصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها ، ثم قال بصوت خافت :
— الأمر بالنسبة لي مختلف جدا ..
— كيف ؟!
— أنا زوج ، وابنى زوج ، وبناتى أزواج ، الأمر دقيق جدا كما ترين .. (ثم
بلهفة) ألم نكن نعيش في سعادة كاملة ؟!
قالت بضجر :
— لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك ! ، كثيرون هم الذين يجمعون بين
أكثر من زوجة !.
فقال بإشفاق :
— ليس الزواج في مثل .. حالى مما يهون أمره ، أو يعرض في حياة الإنسان بلا
قيل وقال !..
ضحكت ساخرة ، ثم قالت :
— كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالي بهم ، فكيف تشفق من قيلهم
وقالهم على زواج مشروع إن أردت الزواج .. ؟!
قال باسماء في ارتباك وضيق :
— قليل من الناس من اطلع على أسرارى ، إلى أن أهل بيتى هم أبعد الناس عن
الشك فى أمرى ..
رفعت حاجبيها المزججين فى إنكار ، ثم قالت :
— هذا ظنك ، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله ، أى سر يسان ووراءه ألسنة
الناس ؟!

ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم :
— أم لعلك لا ترائى أهلا للتشرف بالانتساب إليك ؟!
أستغفر الله ، زوج زنوبة العوادة على سن ورمح !
— ما قصدت هذا يا زنوبة ..

فقال باستياء :

— لن تخفى عني حقيقة مشاعرك طويلا ، سأعرفها غدا إن لم أعرفها اليوم ،
فإن كان زواجى يعرك فمع السلامة ..
نحىء لتطرده فيطردك ، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخيرك بين الزواج أو
الذهاب ، ماذا أنت صانع ؟ ، ماذا ييقينك بلا حراك ؟ ، إنه القلب الخائن ، إن
نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوادة ، أليس من المحزن ألا تبلى بهذا
الحب الأعمى إلا على كبر ؟!

تساءل فى عتاب :

— أهذا هو قدرى عندك ؟

— لا قدر عندي لمن يأنف منى كأنى بصقة معدية !

قال بهدوء حزين :

— أنت أعز على من نفسى ..

— كلام سمعنا منه الكثير ..

— ولكنه صدق وحق ..

— أن لى أن أعرف هذا من غير اللسان !

غض بصره فى كرب ويأس ، لم يكن يدرى كيف يقبل ولم يكن يوسعه أن
يرفض ، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشتت فكره ، قال بصوت
خفيض :

— أعطنى مهلة كى أدبر أمرى ..

فقال بهدوء وهى تخفى ابتسامة مأكرة :

— لو كنت تحبنى حقا ما ترددت ..

فقال بعجلة :

— ليس هذا ، أعنى أمورى الأخرى ..

وحرك يده كأنما يفسر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد ما تعنى فابتسمت قائلة :

— إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك ..

فشعر براحة وقتية ، كالراحة التى يجدها الملائك الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة ، وانبعثت فى نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه ، فقال لها وهو يمد نحوها يده :

— تعالى إلى جانبى ..

فتراجعت فى مقعدها إلى الوراء بإصرار وهى تقول :

— عندما يأذن الله ..

٢٩

غادر العوامة يشق سبيله فى ظلام وسار وشاطيء النيل فى طريق مقفر متجها إلى جسر الزمالك . كان الهواء يهفو لطيفا فنفخ رأسه الملتهب ، وبعث فى أغصان الأشجار الهائلة المتشابكة حركة وانية ند عنها هسيس كالهمس ، وكانت تبدو فى الظلام كالكتبان أو السحب الجون ، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كاهم الجاثم على صدره ، وهذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم ؟ ، ولكن ليس كهملك هم ، ليس من يموت كمن ينتحر ، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار . واصل السير ، لم يكن أخب إليه وقتذاك من المشى ليرى أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضى إلى الإخوان ، وهنالك يخلو إليهم ويكاشفهم بكل شئ ، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خمن سلفا ما سيقولون ، ولكنه سيترف أمامهم مهما كلفه الأمر ، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العالى ، لم يغب عنه أنه يعد فى حكم الموافق على الزواج من زنوبة ، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقق هذا فى صورة زواج رسمى ولا كيف يزف البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعا . ومع أنه كان يريد أن يطيل المشى ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفى خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنما يتعجل

الذهاب إلى هدف ولا هدف له . تأبت عليه وصدته ، هل تغيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب ؟.. ولكن الضعيف يقع في الشرك وهو يدري . ومع أنه استجد بالمشى والهواء القى بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشتبك الفكر مشعث الوجدان ، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام حتى لم يعد يحتمل حاله فخيّل إليه أنه سيجن إن لم يحسم الأمر بحل ولو يكن الضلال نفسه .

في هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء ، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء ، وتواري خواطره الحقول المترامية إلى يمينه ، وبيتلغ مشاعره ماء النيل الجاري إلى يساره ، ولكن حذار من النور ، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعيا وراءه الغلمان وهواة العجائب ، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها ، كان ولم يزل ذا شخصيتين ، يعيش بوحدة بين الإخوان والأحباب ، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس ، وهذه الأخيرة التي تمسك عليه جلاله ووقاره وتقرر له منزلة لا يطعم إليها أحد ، وهي التي تتأمر نزواته عليها وتهدها بالفناء الأبدى . وتراءى له الجسر بمصايحه الوهاجة فتساعل إلى أين ؟.. يبد أنه رغب في مزيد من الوحدة والظلام فمر أمام الجسر إلى طريق الجزيرة . ياسين ! ذكره يربحك ، جبينك يحترق خجلا ، لم ؟ ، سيكون أول من يفهمك ويتساح معك أم تراه يشمت بك ويتندر ؟. طالما زجرته وأدبته ولكن قدمه لم تنزل بعد إلى مثل هاويتك ؟ ، كمال ؟. يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع على الذنب في أسارك ، خديجة وعائشة ؟. سينكس منهما الجبين في بيت آل شوكت ، زنوبة امرأة أليك ، زفاف يصفق له أهل المجون . في صدرك غوايات فاختر مسرحا غير دنياك لها ، هل ثمة مملكة ظلام بغيدا عن متناول البشر كي تمارس رذائلك في سلام ؟! ، غدا فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة ؟. استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير ، ما أسعد هذه الحشرات ، كن حشرة لتسعد بلا حساب ، أما فوق سطح الأرض فلن يسعك إلا أن تكون « السيد » أحمد ، مر الليلة بأهل بيتك جميعا .. زوجك .. كمال .. ياسين .. خديجة .. عائشة .. ثم كاشفهم بنيتك إن استطعت ، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك .

هنية !. أتذكر كيف نبذتها على حبا ؟. لم تحب امرأة كما أحببتها ، ولكن يبدو — وأأسفاه — أننا نخسر العقول في كهولتنا !. لتشرب هذه الليلة حتى يرفعوك

على الأعناق ، ما أحته إلى الشراب ، كأنك لم تشرب منذ عام الفيل ، إن الآلام التي نجرعتها في عامك هذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التي تمتعت بها العمر كله .

ضرب بعصاه الأرض ، ثم توقف عن السير ، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان ، ليس هو بالذى يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلا ، فما هو إلا عضو في جماعة وجزء من كل ، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل . واستدار ليرجع إلى الجسر ، وعند ذاك انتفض جسمه غضبا وتقرزا ، فقال بصوت غريب تمزقه الشكوى والألم والحلق : « ليلة كاملة تبيتا في الخارج .. في مكان مجهول .. ثم توافق على الزواج منها ! » وطئه إحساس ثقيل بازدياد النفس عصر جذعه وعصر قلبه . ياسمينة ؟! .. يا للسخرية ! ، يل أمضت ليلتها في حضن الرجل الذي لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالي ، لبثت عنده وهي عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعنى هذا ؟! . ليس إلا أن الغرام أنساها الوقت . يا جحيم الآخرة ! أو أنك هنت للحد الذي لا تبالى عنده بغضبك ، كيف حاورتها مسترضيا بعد ذلك أيها المسحور ؟ ، وكيف تمضى حاملا وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة ، كأنك لم تشعر بالقرن الذي ارتضيته من شدة ضغطهم على رأسك ، قرن تكلل به هامة أسرة لتخزي به جيلا بعد جيل ، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر ؟! ، إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفى للتكفير عن استسلامك وضعفك ، لشد ما تضحك منك الآن وهي مستلقية على ظهرها في العوامة ، ولعلها لم تغتسل بعد من عرق رجلها الذي سيضحك منك بدوره ، لا ينبغي أن يطلع الغد وفم يضحك منك ، اعترف بخورك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم .. اعذرهم كبر وخرف .. اعذرهم فقد جرب كل شيء إلا متعة القرون ! ، زبيدة : آيت أن تكون سيدي في بيتي وارتضيت أن تكون قوادا في بيت عوادتي ، جلييلة : لست أخى ولا حتى أختي ! ، إني أشهد هذا الطريق الرهيب وهذا الظلام الكثيف وهذه الأشجار الهرمة على عرولتى في الظلام باكيا كالطفل الغريب ، لا بت ليلتي حتى أرد الإهانة إلى الطاغية ! ، وتمتعت عليك ! ، لم ؟ ، لأنها ضاقت بالحرام ! ، الحرام الذي لم تغتسل منه ، قل إنها لم تعد تطيقك وكفى ، ما أفظع الألم ، ولكنه حق على عبادة ، كمن

ينطح الجدار حتى يهشم رأسه تكفيرا عن ذنب ، الشيخ متولى عبد الصمد يظن أنه يعرف أمورا كثيرة ، ألا ما أجهله !، مر بجسر الزمالك مرة أخرى إلى طريق امبابية ، وجعل يبحث خطاه بعزم وعناد مصمما على غسل ما لطخه من خزي ، وكلما ألح عليه الألم جدد في السير ضاربا بعصاه الأرض كأنما يسير على ثلاث . وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتد هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره برجولته وكرامته واطمأن خاطره بعد أن استقر على رأى ، وانحدر على السلم فمر فوق الجسر الخشبي ثم طرق الباب بطرف عصاه ، وكرر ذلك بعنف ، حتى جاءه الصوت متسائلا في انزعاج :

— من الطارق ؟

فأجاب بقوة :

— أنا ..

انفتح الباب عن وجهها المتعجب ، فأفسحت له وهي تغمغم « خيرا » ، ففرق إلى حجرة الجلوس حتى توسطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه متسائلة حتى وقفت حياله وراحت تتفحص وجهه المتجهم بقلق ، قالت :

— خير إن شاء الله !! ما عاد بك ؟

فقال بهدوء مريب :

— خير والحمد لله كما ستعلمين ..

جعلت تتساءل بعينها دون أن تتكلم ، فاستطرد قائلا :

— جئت لأخبرك بالأمر الذى يتعلق بما قلت ، فإن الأمر كله لم يكن إلا دعاية سخيفة .

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار والحنق ، ثم هتفت :

— دعاية سخيفة !، كيف لا تفرق بين دعاية سخيفة وبين كلمة شرف

ارتبطت بها ؟

قال ووجهه يزداد اكفهرارا :

— يحسن بك وأنت تخاطبيننى أن تلتزمى حد الأدب الواجب ، فإن نساء من

طبقتك يرتزقن فى بيتى خادومات ..

صاحت وهي تحملق فى وجهه :

— هل رجعت لتسمعني هذا الكلام ؟. لم لم تقله من قبل ؟، لم وعدتني واستعطفتني وتوددت إلى ؟، أتحسب أن هذا الكلام يخيفني ؟، لم يعد لي متسع للدعابات السخيفة .

لوح لها بيده غاضبا فأسكتها ، ثم هتف :

— جئت كي أقول لك إن الزواج من واحدة مثلك خزي لا يليق بكرامتي ، وأنه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة يتندر بها هواة الدعابات المخجلة ، وأنه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك فأنت لم تعودى أهلا لمعاشرتي ، إذ لا يصح أن أعاشر المجانين ..

كانت تصغى إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتها ، بيد أنها لم تستسلم لتيار الغضب كما تمنى ، ولعل منظر غضبه بث في حناياها خوفا وتقديرا للعواقب ، فقالت بلهجة أخف من السابقة :

— لن أتزوجك بالقوة ، لقد كاشفتك بما يحول بخاطري تاركة لك الخيار ، الآن تريد أن تتحلل من وعدك ، لك ما تشاء ، ولا داعي لسبئي وإهانتي ، ليذهب كل منا إلى حال سبيله في سلام ..

أهذا قصارى جهدها في الحرص عليك ؟!، ألم تكن تكون أسعد حالا لو — في سبيل امتلاكك — أنشبت فيك الأظافر ؟، استمد من ألمك غضبا :

— سيذهب كل منا إلى حال سبيله ، غير أنني أردت أن أصارحك برأى فيك قبل أن أذهب ، لا أنكر أنني سعت إليك بنفسى ، ربما لأن النفس تولع أحيانا بالقاذورات ، فهجرت من كنت تسعين بخدمتهن كي أرفعك إلى هذه الحياة ، لذلك لا أدهش لأنى لم أحظ عندك بما حظيت به عندهن من الحب والتقدير ، ذلك أن القدر لا يقدر إلا من كان على شاكلته ، وقد آن لى أن أربأ بنفسى عنك ، وأن أعود إلى حظيقي الأول ..

بدا في وجهها القهر ، قهر من يحجزه الخوف عن التفتيس عن صدره المستعر ، وتتمت بصوت مرتعش النبرات :

— مع السلامة ، اذهب ودعنى في سلام ..

قال بحلق وهو يكظم آلامه :

— لقد نزلت فهنت ..

هنا أفلت الزمام ، فصاحت به :
 — حسبك ، كفاية ، ارحم الحشرة القذرة واحذرهما ، اذكر كيف كنت تقبل
 يدها والخشوع في عينيك ، نزلت فهنت ؟ .. هه ؟ .. ، الحق أنك كبيرت ،
 قبلتك على كبر وها أنا أتلقى الجزاء ..
 لوح بعصاه وهو يصيح بغضب :
 — اخرسى يا بنت الكلب ، اخرسى يا دون ، لمى ثيابك وغادرى العوامة ..
 فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنج :
 — املاً أذكىك بما أقول ، كلمة أخرى أملاً عليك العوامة والنيل والطريق صواتا
 حتى تحضر الحكمداية كلها ، سامع ؟ .. لست لقمة سائغة ، أنا زنوبة والأجر
 على الله ، اذهب أنت ، هذه العوامة عوامتى وعقد إيجارها باسمى ، فاذهب
 بالسلامة قبل أن تذهب في زفة ..
 لبث قليلا كالتردد ينظر إليها باحتقار وازدراء ، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية
 تفاديا من الفضيحة ، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج في خطوات واسعة
 ثابتة ...

٣٠

ذهب من توه إلى الإخوان ، فوجد محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار
 وآخرين . شرب حتى سكر كعادته وتعدى عادته ، وضحك كثيرا وأضحك
 كثيرا ، ثم مضى في الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نوما عميقا . واستقبل مع
 الصباح يوما هادئا ، خلا في أوله من الفكر ، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من
 مناظر حياته القريبة أو الماضية صده بعزم ، اللهم إلا منظر واحد رحب باستعادته
 عن طيب خاطر ، ذلك هو المنظر الأخير الذى سجل انتصاره على المرأة وعلى نفسه
 معا ، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول : « انتهى كل شيء والحمد لله ولا يكون شديدا
 الحذر فيما يقبل من أيام حياى » .

بدا اليوم هادئا في مطلعته ، فاستطاع أن يفكر في فوزه المبين وأن يهنئ نفسه
 عليه ، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملا بل خامدا ، فلم يجد من تفسير لذلك إلا

أنه رد الفعل للجهد العصبي المضني الذي بذله في اليومين الماضيين ، بل في الأشهر الماضية على تفاوت في الدرجة ، إذ الحق أن معاشرته لزنوبة بدت لعينه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها . لم يكن من الهين عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه في حياته الغرامية الطويلة ، كان لذلك رجح شديد الأثر في قلبه وخياله ، وكان يثور كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولّى ، معتزاً بقوة وجماله وحيويته ، ثم يصبر على ذلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدر !. لشد ما تشوق طوال يومه إلى مجلس الإخوان ، فلما دنا موعده نفذ صبره فمضى متعجلاً إلى بيت محمد عفت بالجمالية ، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان ، وسرعان ما قال له :

— انتهيت منها ..

فتساءل محمد عفت :

— زنوبة ؟!

فأوماً بالإيجاب ، فتساءل الآخر باسم :

— بهذه السرعة ؟

ضحك كالساخر ، ثم قال :

— هل تصدقني إذا قلت إنها طالبتني بالزواج حتى ضقت بها ؟!

فضحك كالساخر ، ثم قال :

— زبيدة نفسها لم تفكر في ذلك !، يا للعجب !، لكنها معذورة ، فقد

وجدتك تدللها أكثر مما تحلم به فطمعت في المزيد ..

فغمغم السيد أحمد قائلاً باستهانة :

— مجنونة ..

فضحك محمد عفت مرة أخرى ، وقال :

— لعلها تهاكت في حبك ؟!

يا لها من طعنة !، اضحك بقدر ما تجد من ألم ..

— قلت إنها مجنونة وكفى ..

— وماذا فعلت ؟

— صارحتها بأنني ذاهب إلى غير رجعة ، وذهبت ..

— كيف تلقت ذلك ؟

— سببت مرة ، وهددت أخرى ، وقالت فى داهية ثالثة ، ثم تركتها كالمجنونة ، كانت غلطة من بادىء الأمر .

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعا :

— نعم ، ما منا إلا من ضاجعها ، ولكن أحدا لم يفكر حتى فى مجرد معاشرتها ..

تصول وتحوّل فى ميادين الأسود ثم تهزم أمام فأرة ، أخف عارك حتى عن أقرب المقرين واحمد الله على أن كل شىء قد انتهى ..

لكن شيئا فى الواقع لم ينته ، لم تبرح مخيلته ، وصح لديه فيما تلا ذلك من أيام أن تفكره فيها لم يكن مجردا ولكنه اقترن بألم عميق تزايد وتفشى ، وصح لديه أيضا أن ذلك الألم لم يكن غضبا لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين ، وأنه فيما بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقل من تدمير من يعانها . بيد أنه كان شديد الاعتزاز بما سجل ساعة انتصاره ، فمنى نفسه بقهر مشاعره المستبدة الخائنة فى مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق . ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكرا مجترأ أحزانه معذبا بخيالاته وذكرياته . وكان يبلغ به الضعف أحيانا أن يفكر فى مصارحة محمد عفت بما ينوء به من آلام ، بل تبادى به الخاطر مرة إلى حد الاستعانة بزييدة نفسها ، ولكنها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثم يفيق إلى نفسه وهو يهز رأسه متعجبا متحيرا .

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة قاومه ما استطاع بحلمه وكياسته ، فلم يفلت منه الزمام إلا قليلا ، وهذا القليل لم يلحظه إلا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدمثة والتسامح والركة ، أما أهل بيته فلم يفتنوا إلى شىء ؛ لأن سلوكه حيالهم بقى هو لم يكده يتغير ، إذ أن الذى تغير حقا هو العاطفة المسترة وراءه فاستحالت من شدة مصطنعة إلى شدة حقيقية لم يدرك مداها سواه . على أنه هو نفسه لم ينج من قسوته هذه ، بل لعله كان هدفها الأول ، فيما حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة ، وأخيرا بما أخذ يفر به رويدا رويدا من ذله وتعاسته وهجران شبابه ، ثم يعزى نفسه فيقول : لن أتحرك ، لن أسبغ نفسى مزيدا من الدل ، فلتدرى الأفكار كل مدار ، ولتقلب فى العواطف كل منقلب ،

ولأبقيين حيث أنا لا يعلم بالمى إلا الله الغفور الرحيم . لكنه ما يدرى إلا وهو يسائل نفسه : ترى ألا تزال فى العوامة أم تركتها ؟ ، وإذا كانت بها ، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها عن الناس ، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك ؟ ، تساءل كثيرا وفى كل مرة يلقي عذابا ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهرسه هرسا ، لم يكن يجد شيئا من القرار إلا عند استحضاره المنظر الأخير فى العوامة الذى أوهمها فيه — وتوهم — أنه نبذها وعلا عليها ، ولكنه كان يستدعى مناظر أخرى سجلت ذله وضعفه ، ومناظر غيرها سجلت ألوانا من السعادة لا تنسى ! . وخلق الخيال له مناظر جديدة التيقا فيها ، فتشاجرا ، وتحاسبا ، وتعاتبا ، ثم أدركهما سلام الصلح والوصال .. حلم كثيرا ما يتراءى له فى عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة ، لم لا يتأكد بنفسه مما طرأ على العوامة وسكانها ؟ . فى الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد ..

وذهب متسترا بالظلام كاللص ، فمر أمام العوامة ورأى النور يوصوص من خصائص النافذة ، ولكنه لم يدر إن كانت هى التى تستضىء به أم ساكن جديد ، بيد أن قلبه شعر بأن النور نورها هى دون غيرها ، وخيل إليه وهو يتطلع إلى العوامة أنه يستشف روح صاحبها ، وأنه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلا أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح فى الأيام الذاهبة ، السعيد منها والتعيس على السواء ، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل ؟ ! ، حقا أنها قريبة ولكن ما أبعداها ، وقد حرم عليه هذا المعبر إلى الأبد . آه .. هل مرت به هذه الحالة فى حلم من الأحلام ! . قالت له اذهب ، قالتها من قلبها ثم مضت فى سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجود ! ، إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة ! .

وذهب مرات ومرات حتى صار التردد أمام العوامة بعد جثوم الليل عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان ، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئا ذا بال ، وكأنه كان يرضى بها حب استطلاع عقيم جنوبى . وكان يهم بالعودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شبح لم يتبينه فى الظلام فدق قلبه فى خوف ورجاء ، ثم عبر الطريق مسرعا ووقف فى جوار شجرة وعيناه تحمقان فى الظلام . قطع الشيخ المعبر الخشبي إلى الطريق ثم سار فى اتجاه جسر الزمالك ، فوضح له أنه امرأة .. وحدته قلبه بأنها

هى . وتبعها عن بعد وهو لا يدرى على أى وجه تنتهى الليلة . هى أو غيرها فمأذا يقصد ؟! . غير أنه واصل سيره مركزا انتباهه فى شبحها ، ولما بلغت الجسر ودخلت فى مرمى مصايحه تؤكد إحساس قلبه وأيقن أنها زنوبة ، غير أنها كانت ملتفة فى الملائة اللف التى تخلت عن ارتدائها طوال معاشرتها له . عجب لذلك وتسأل عن معناه فظن — ما أكثر ظنونه — وراءه أمرا . رآها تتجه إلى محطة ترام الجيزة وتنتظر ، فسار محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها ، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدا عن مرمى بصرها . وجاء الترام فاستقلته ، وعند ذاك هرول إليه فركب جاعلا مجلسه فى نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين ، وعند كل محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسا . نزلت فى العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى الموسكى مشيا على الأقدام فتبعها على بعد مرحبا بظلمة الطريق ، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها ؟ ، أم تراها ماضية إلى السيد الجديد ؟ ، ولكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادى العاشقين ؟! ، وبلغت حى الحسين فضاغف انتباهه أن تضع منه فى زحمة الملاعات اللف . لم تستبن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية ، ولكن كان مدفوعا برغبة فى الاستطلاع أليمة وعقيمة وإن تكن فى نفس الوقت عنيقة لا تجدى معها المقاومة .. سارت أمام الجامع فاتجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ويلبد الشحاذون المتعبون ، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقا من أن يلقاه ياسين فى الطريق أو يراه من نافذة ، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق ، وما يدرى إلا وهى تنعطف إلى أول حارة ، تلك الحارة التى لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين ، فدق قلبه بقوة وثقلت قدماه ! كان يعرف سكان الدورين الأول والثانى ، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزنوبة رابطة ! ، وزاغ بصره قلقا واضطرابا ، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدر للعواقب ، فاتجه نحو الباب حتى ترمى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة ، ثم دخل بحر السلم رافعا رأسه منصتا إلى وقع الأقدام فشعر بمرورها بالباب الأول ثم الثانى ، ثم وهى تطرق باب ياسين ..!

تسمر في مكانه وهو يلهث ، فدار رأسه وشعر بخور وتهدم ، ثم تنهد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الأفكار وارتظام الخواطر ..

ياسين كان الرجل ! ، فترى هل علمت زنوبة بعلاقته الأبوية ياسين ؟! وراح يدفع الطمأنينة في نفسه كما يدفع سدادا غليظا في فوهة ضيقة قائلا : إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها ، فضلا عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفا على سره ، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهى إليه طلاق مريم ، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن في براءة وإخلاص لا تشوبهما شائبة ، وأنه يفترض كل شيء إلا أن يقدم ياسين على خيائته وهو عالم بما يفعل ، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأى امرأة في الوجود ، فله أن يطعن من هذه الناحية ، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته ياسين ، أو إذا عرفت يوما من الأيام ، فلن تطلع ياسين على سر خليق بأن يقطع ما بينهما ، وواصل السير مؤجلا الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنانه فمضى في اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه .

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت ، ألم يكن الأفضل أن تنفض يدك من الأمر كله قانعا بالصبر ؟! ، احمد الله على أن الظروف لم تجمعك ياسين وجها لوجه في بؤرة الفضيحة ، كان ياسين هو الرجل ، متى عرفته ؟ ، وأين ؟ ، وم من مرة خاتنه معه وهو لا يدري ؟! ، أسئلة لن تبحث لها عن جواب ، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئا ، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق ؟ . أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه ، فافترض أسوأ الفروض أيضا إراحة لرأسك المصلوع ، ياسين كان الرجل ! ، قال إنه طلقها لقلة أدبها ! ، كلام كان يمكن أن يعلل به طلاق زنب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقي حال وقوعه ، سوف تعرف الحقيقة يوما ، ولكن ماذا يهلك من أمرها ؟ ، ألا زلت مشغوقا بالجرى وراء الحقيقة ؟! ، أنت مبعثر الرأس معذب القلب ، أيمكن أن تغار من ياسين ؟ ، كلا ليست هذه الغيرة ، على العكس مما تظن أنت خليق بالتعزى ، إذا لم يكن بد من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك ، ياسين جزء منك ، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر ، أنت المغلوب وأنت الغالب ، ياسين قلب مغزى المعركة ، كنت تشرب كأسا مزاجها

الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء ، لن تتحسر على زنوبة بعد اليوم ، غاليت في الاعتداد بنفسك ، عاهد نفسك على ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن ، ليتك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء دوره ، أنت سعيد ، لا داعي للندم ، ينبغي أن تواجه الحياة بخطوة جديدة وقلب جديد وعقل جديد ، دع الرابية في يد ياسين ، وسوف تفيق من دوارك ويمضى كل شيء وكأنه لم يكن ، لن يتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثا يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدهك ، علمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوى الصندر على أمور كثيرة ، آه .. ما أعظم تشوقى إلى الشراب ! ..

أثبت السيد أحمد في الأيام التالية أنه أقوى مما اعترضه من أحداث ، فصار في طريقه قدما ، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد على عبد الرحيم نقلا عن غنيم حميدو وآخرين ، وإن لم يتعرف الراوون على حقيقة المرأة التي نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة .. وابتسم السيد ، وضحك طويلا من كل شيء ، وكان ماضيا إلى بيت محمد عفت — ذات مساء — حين شعر بثقل قبيح في أعلى الظهر والرأس حتى لهث . لم يكن الأمر جديدا كل الجدة ، فقد جعل الصداق يتتابه كثيرا في الأيام السابقة ولكنه لم يشتد عليه كهذه المرة ، ولما شكاه حاله إلى محمد عفت أمر له بقدرح من شراب الليمون المثلوج ، وأمضى سهرته حتى نهايتها ، ولكنه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالا من الأمس ، وبلغ به الضجر أن فكر في استشارة الطبيب ، والواقع أنه لم يكن يفكر في استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى .

٣١

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معان جديدة ، لم يكن قصر آل شداد في حاجة جديدة كي يزداد في عيني كمال جلالا ، ولكنه بدا في ذلك المساء من ديسمبر في زى جديد من أزياء الحياة . أريقت عليه الأنوار حتى غمرته . أجل : كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدرانها يتقلد عقدا من اللآلئ المضيئة .. مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من

أعلى السطح إلى أسفل الجدار ، كذلك السور الكبير ، والباب الضخم ، كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنوارا حمرا وخضرا وبيضا ، ومن النوافذ جميعا انبعثت الأضواء ، فكل شئ يهتف مؤذنا بالفرح ، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنه يحج إلى مملكة النور لأول مرة في حياته . وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالعلمان ، وفرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب ، وفتح الباب على مصراعيه ، كذلك باب السلامك فلاح من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المعد لاستقبال المدعوين ، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة . ووقف شداد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين ، أما شرفة السلامك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء .

ألقى كمال على المنظر كله نظرة شاملة سريعة ، ثم تساءل : ترى أعائدة في الشرفة العليا بين المطلات ؟ ، وهل وقعت عيناها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدمه رأسه الكبير وأنفه الشهير ؟ . لم يخل من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب ، ولكنه لم يتجه إلى السلامك كالأخرين ، وإنما مال إلى « ممرة » القديم المفضى إلى الحديقة كما نبّه حسين شداد من قبل كى يتاح لجماعتهم البقاء معاً أطول مدة ممكنة في الكشك المحبوب . كأنما كان يخوض بحرا من نور ، وقد وجد السلامك الخلفى — كالأمامى — مفتوح الباب ، مضاء بالأنوار ، يعج بالمدعوين ، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان ، أما في الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدواني هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل ، ألقى إسماعيل عليه نظرة سريعة ، ثم قال :

— بديع ، لكن لم أتيت بالمعطف ؟ . حسين لم يملك معى إلا ربع ساعة ولكنه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات ، أما حسن فقد لبث معى دقائق ولا أظنه سيتمكن من مجالستنا كما نود ، هذا يومه وله عنا أمور تغنيه ، كان حسين يفكر في دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنى منعتة فاكفى بأن يدعوهم إلى مائدتنا ، سيكون لنا مائدة خاصة ، هذا أهم خبر أرفه إليك الليلة ..

هنالك ما هو أهم ، سوف أعجب من نفسى طويلا لقبولى هذه الدعوة ، لم قبلتها ١؟ ، لتبلو كأنك لا تبالي ، أم لأنك غدوت مغرما بالمغامرات المخيفة ١؟ .
— هذا حسن ، ولكن لم لا نذهب ولو قليلا إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين ٢؟ ..

قال إسماعيل لطيف بازدرء :
— لن نحظى بما تريد حتى لو ذهبنا ، فإن الباشوات والبكوات خصوا بالبهو الأمامى وحدهم ، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء فى البهو الخلفى وليس هذا ما تريد ، وددت لو أمكن أن نندس فى الحجرات العليا التى تموج بأفخر مثل الجمال ..
مثال واحد يعينى ، مثال المثل ، الذى لم تقع عليه عيناي منذ يوم الاعتراف ، هتك سرى وذهب .

— لا أكتملك أنى مشوق إلى رؤية الكبراء ، قال حسين لى إن والده قد دعا كثيرين ممن أقرأ عنهم فى الصحف ..

ضحك إسماعيل ضحكة عالية ، وقال :
— أتخلم بأن ترى كبيرا وله أربع أعين أو ست أرجل ١؟ . إنهم أناس مثلى ومثلك فضلا عن أنهم طاعنون فى السن وذوو منظر لا يسر كثيرا ، إلى أفهم سر تطلعت إليهم ، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة ..

يجدرى ألا أهتم بشيء ما فى هذه الدنيا ، لم تعد لى ولم أعد لها ، غير أن اهتمامى بالكبراء مستمد فى الحقيقة من هيامى بالعظمة ، أنت تود أن تكون عظيما لا تنكر ، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن ، أنت مدين بهذا التطلع للتي حرمتك النور بذهابها ، غدا لن تجد لها أثر فى مصر كلها ، يا جنون الألم إن لك لسكرة ١ .. قال بتشوف :

— قال لى حسين إن الحفلة ستجتمع بين رجال من جميع الأحزاب ..
— صحيح ، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاى المعروفة بالنادى السعدى ، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كريمةته ، رأيت من أصدقائك الوفدين ، فتح الله بركات ، وحمد الباسل ، وجاء من الآخرين : ثروت ، وإسماعيل صدق ، وعبد العزيز فهمى . شداد بك يعمل بهمة عالية ،

وحسنا فعل ، لقد ولّى عهد أفندينا ، كان الشعب يهتف منشدا : « الله حى .. عباس جى » ، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حسابه ، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الحيلة ، ثم يعود ليواصل سيرو الموفق .. قلبك يمقت هذه الحكمة ، إن محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن ملء بهؤلاء الحكماء ، ترى أشداد بك واحد منهم ؟. والد المعبودة ؟! مهلا ، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر ، ليتفتت قلبك حتى يعجزك لم أجزاء المتناثرة .

— تصور أن حفلة كهذه تمضى بلا مطرب ولا مطربة !

قال إسماعيل بلهجة ساخرة :

— آل شداد نصف باريسين ، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل ، ولا يسمحون لعائلة بأن تحضى حفلة فى بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا ، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذى أراه الليلة لأول مرة فى حياتى ؟، إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع فى جروى ، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليضطرب الكبراء ، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هى العشاء والشمبانيا ! .
: جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة ؟. شتان بين الجوين ، كم كنت سعيدا فى تلك الأيام !، الليلة يشيع الأوركسترا حلمك إلى القبر ، أتذكر الذى رأيت من ثقب الباب ؟.. أسفى على الآلهة التى تتمرغ فى الشراب ..!

— هنا شىء يهون ، الذى آسف عليه حقا وآسف عليه طويلا هو أننى لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن كتب ، كنت أتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامين : أولهما الموقف السياسى على حقيقته وهل بات من المأمول حقا بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية ؟، والثانى كلام هؤلاء الناس العادى الذى يتبادلونه فى مناسبة سعيدة كهذه ، أليس بديعا أن تصفى إلى ثروت باشا مثلا وهو يثرثر ويمزح ؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن نمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة :

— أتيج لى أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أى من أمثال سليم بك والد

حسن وشداد بك ، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام ..
من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر ؟! كيف كان جل حظ
أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه ؟! أليس هذا الزواج آية على أن
هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر ..؟ لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين
أصحابه وأقرانه ..!

— على أى حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعنى !..
ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها . هذه الضحكات
تجىء من الداخل مفعمة بالغبطة ، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة
الساحر ، وبين هذه وتلك تجاوب كالذى بين أنغام الآلات المتزامنة من بعيد
تستقبلها الأذن وحده حيناً وطاقة من ألحان شتى حيناً آخر ، ثم تكون كلها
— الضحكات والأنغام — إطاراً وردياً يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة
كبطاقة سوداء فى طاقة ورد ..

وما لبث حسين شداد أن جاء متهللاً بقامته الفارعة ووجهه المتألق يختال فى
الردنجات ، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحماسة ، ثم لحق به
حسن سليم فى بزته الرسمية ، جميلاً فى كبريائه الطبيعى الملفوف فى مظهره المؤدب
المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً ، فتصافحا أيضاً بحماسة ، وهنأه
كمال من أعماق لسانه . وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التى لا تكاد فى
أغلب الأحيان تتميز عن المكر السيئ :

— كمال آسف لأنه لم تنجح له مجالسة ثروت باشا وصحبه !
فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود :
— فليتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة ، وعندها يجد نفسه واحداً منهم !..
أما حسين شداد فقال محتجاً :

— أهأوى تزمت أنت ؟!، إنما أريد أن تمر الليلة كلها ونحن مستمتعون بحريتنا
الكاملة ..

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفاً ، إذ كان فى الواقع كالفراشة
لا يستقر بموضع . ومد حسين ساقه أمامه ، وراح يقول :
— غدا يسافرون إلى بروكسل ، سبقتنى إلى أوروبا ، ولكن بقائى هنا لن يطول ،

وغدا تكون ملهاتى التنقل ما بين باريس وبروكسل ..
وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية ، بلا حبيب ولا صديق ، هذا جزء من
يتطلع إلى السماء ، ستردد بصرك بين أركان المدينة حائرا ولن تبرأ عينك من لوعة
الشوق ، املاً رثيك من هذا الهواء الذى تعبته أنفاسها ، غدا سوف ترى
لنفسك .

— يخيل إلى أنى سألقى بك يوما ..

تسأل حسين وإسماعيل معا :

— كيف ؟

لتكن كذبتك ضخمة كالملك ..

— ثمة اتفاق بينى وبين أبى على أن أسافر فى بعثة على حسابى الخاص بعد إتمام

دراستى ..

هتف حسين بسرور :

— لو تحقق هذا الحلم !.

أما إسماعيل فقال ضاحكا :

— أخاف أن أجد نفسى وحيدا بعد بضع سنين !

تلاقت آلات الأوركسترا جميعا فى حركة متدفقة سريعة ، أعلنت — فيما
أعلنت — عما فى كل آلة من مرونة وقوة ، كأنما تشترك كلها فى سباق عنيف بات
الهدف منه فى مرمى العين ومتناول الطموح ، فسما بهما اللحن إلى ذروته العليا ،
تلك الذروة التى توحى بتدافى الختام المنجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم
استغراقه بالشجن ، فانخرط فى عدوها حتى تدافع دمه وهتت منه الأنفاس ،
وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريجحة جعلت من حزنه نشوة دامعة ، فتهد مع النهاية
من الأعماق ، وتملى أصداء اللحن المترنمة فى روحه بانفعال وتأثر ، فخيّل إليه أنه
يتساءل : ألا يمكن أن تنتهى عواطفه المتأججة فى ذروتها إلى ختام كذلك ؟. ألا
يمكن أن يكون للحب — كهذا اللحن وككل شىء — نهاية ؟!. وذكر أحوالا
مرت به فى أوقات نادرة، فترأت من الفتور حتى بدا وكأنه لم يبق من عايذة إلا
اسمها ، أتذكر هذه الفترات ؟، وكان يهز رأسه حيرة ثم يتساءل : هل انتهى حقا كل
شىء ؟، وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى

نفسه غريقا في بحر الهوى مكبلا بأصفاذ الأسر . جرب إذا حلت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقر بك الشقاء ، أجل حاول أن تفنى خلود الحب . قال حسين شداد باسم :

— بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة !

القرآن ١٩ ، ما ألطف هذا ! ، الباريسية الحسنة نفسها لا تستطيع أن تعقد قرائنها إلا بمأذون وقرآن ! ، وهكذا سيقترن زواجهما في ذهنك بالقرآن والشمبانيا .

— حدثنا عن نظام الحفلة ؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت :

— عما قليل يعقد القرآن ، وبعد ساعة يدعى الجميع إلى الموائد ، ثم ينتهي كل شيء ، وتبيت عابدة هذه الليلة في بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباخرة إلى أوربا ..

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لأملك الشرة ، كروية اسمها الجميل وهو يكتب في الوثيقة الشرعية ، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبا السعيد ، ولون الابتسامة التي يفتر عنها ثغرها عند زفاف البشرى ، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان ، حتى أملك يعوزه الزاد ..

— وهل يعقد القرآن مأذون ١٩ ؟

بـ طبعا ! .

هكذا أجاب حسين ، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية ، وقال :

— بل قسيس !

أى سخافة في سؤالك ! .. سل أيضا هل يبيتان الليلة معا ! ، أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون ؟ . ولكن دودة حقيقة هي التي تأكل جدث أكبر الكبراء ، فكيف ستكون جنازتك حين يحم القضاء ؟ ، شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضي ؟ .. وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورا بلا تغاريد فشر بخوف وانقباض . الآن ، في مكان ما ، لعلها هذه الحجرة أو تلك ، ثم لعلت زغرودة طويلة مجلجلة أحييت ذكرى قديمة ، زغرودة كتلك الزغاريد التي عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب ، ثم تبعها زغاريد مجمعة كالصواريخ ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأي بيت من بيوت القاهرة . وتابعت

دقات قلبه الزغاريد حتى لهث ، ثم سمع إسماعيل يهنيء فهناً بلوره ، وتمنى عند ذاك لو كان منفرداً ، ثم تعزى بأنه سينفرد بنفسه أياماً وليالي فوعده ألمه بزد لا يفنى . وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حق المعرفة هي « العفو يا سيد الملاح » فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شيء قد انتهى ، إن التاريخ نفسه قد انتهى ، إن الحقيقة جميعاً قد انتهت ، إن الأحلام التي فوق الحياة قد انتهت ، وأنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شيء غيره . قال حسين متأملاً :

— كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا في دنيا جديدة ، سوف نعرف ذلك كلنا يوماً ما ..

فقال إسماعيل لطيف :

— سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذلك اليوم ..

كلنا ١٩ ، إما السماء وإما لا شيء !

— لن أذعن لذلك اليوم أبداً ..

بدا عليهما أنهما لم يكثرنا لقوله أو أنهما لم يحمله على محمل الجد ، بيد أن إسماعيل عاد يقول :

— لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لا محيص عنها ..

وجاء نوبى حاملاً أكواب الشرابات ، ثم تبعه آخر بصينية محملة بعلب الحلوى الفاخرة . علبة من البللور على قوائم أربع مذهبة ، موه زجاجها الكحلى بزخارف فضية ، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لاقطة هلالية في عقدته الحرفان الأولان لاسمى العروسين « ع. ح » . شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به في ذلك اليوم . فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن معبودته سترك وراءها أثراً خالداً كحبها ، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزا لماض غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة رائعة . ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعائدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها .. وتراءى له شخصه التemis وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه يتزف فلا يظفر بأسى ، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حرمت من الإفصاح ، بل أجبرته الظروف على

التظاهر بالسرور كأنما يهنيء القوى الباغية على تنكيلها به وببذخ خارج حدود البشرية السعيدة ، فأضمر لها جميعا حنقا خالدا ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه ، أجل شعر بأنه لن يأخذ المأباة بعد تلك الزغردة الفاصلة مأخذا سهلا أو يرضى فيها بالقرب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء ، وأن طريقه سيكون شاقا عسيرا ملتويا غاصا بالمضض والغضاضة والألم ، ولكنه لم يفكر في التراجع، قبل الحرب وأنى الصلح ، وأنذر وتوعد ، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذى سيناله والوسيلة التى سيحارب بها . قال حسين شداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات : — لا تعلن الثورة على الزواج ، أعتقد — إذا أتبع لك أن تسافر كما تقون — أنك ستجد زوجة تعجبك ..

كأنك لم تجد التى تعجبك هنا ، انبحث عن وطن جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرعوس الشاذة ، والأنوف الكبيرة ، إما السماء وإما الموت . قال وهو يهز رأسه كالمتقنع : — هذا رأى ..

فقال إسماعيل لطيف ساخرا : — أتعرف ماذا يعنى الزواج من أوربية ؟! ، إنه كلمة واحدة « الظفر » بامرأة من أحط طبقات الشعب ، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر فى أعماقها بأنه عبد من العبيد .

حظيت بهذه العبودية فى وطنك الكريم لا فى أوربا التى لن تراها . قال حسين مستنكرا : — مغالاة !..

— انظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملوننا ! قال حسين شداد بحماس هو بالرجاء أشبه : — الأوروبيون فى بلادهم غيرهم فى بلادنا ! هل من سبيل إلى قوة القاهرة تبيد الظلم والظالمين ؟! ، يا رب العالمين أين عدالتك السماوية ؟! .

دعا الداعى إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلامك ، ثم إلى حجرة جانبية تنفرع عن البهو الخلفى ، فوجدوا مقصفا صغيرا يتسع لعشرة على الأقل ،

ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة ، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق ، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجو نشاط السباق ، وكان ينبغي لهم أن يتحركوا دوماً ليطوفوا بشتي ألوان الطعام التي امتدت صحافها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورود ، ولوح حسين بإشارة من يده إلى السفرجي ، فجاء بقوارير الويسكي وزجاجات الصودا ، فهتف إسماعيل لطيف :

— أقسم أني تفاعلت خيراً بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها .

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء :

— كأساً واحدة من أجل خاطري ..

وقالت له نفسه « اشرب » لا رغبة في الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة في الثورة ، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمرده ، قال مبتسماً :

— أما هذه فلا ، شكراً ..

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأساً مترعة :

— لا حق لك في هذا ، حتى الوريح يبيح لنفسه السكر في حفلات الزفاف ..

مضى يتناول طعامه الشهى في هدوء ، وكان يراقب بين حين وآخر الآكلين والشاربين أو يشترك معهم في الحديث والضحك . إن سعادة المرء تتناسب تناسباً طردياً مع عدد مرات شهوده لمقاصف الأفراح ، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا ؟! ، نلتهم طعامهم ونحقق معهم ! ، شرباننا ! .. هذه فرصة لتذوق الشرباننا .. شرباننا آل شداد ماذا قلتم ؟! ، ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر ؟! ، لعله ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد ، الحق أني آكل بشهوة لا تجاري ، كأنما أعصاب معدني لا تتأثر بالحزن أو أنها تتأثر به تأثيراً عكسياً .. هكذا تغذيت في مأمهم فهمي ، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب وإلا نفق ، موت المنفلوطي وسيد درويش وضباع السودان أحداث كللت زماننا بالسواد ، لكن الائتلاف وهذا المقصف من أبناء زماننا السارة ، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة رابع لم يمس بعد .. هو هذا ! ، ربه إنه يشير إلى أنفي فيضحون جميعاً بالضحك ! ، إنهم سكارى فلا تغضب ! ، اضحك معهم متظاهراً بالاستهانة والمرح ، أما قلبي

فيتنفض غضبا ، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه ، أما آثار هذه الليلة البهيجة فهيأت أن تنجو منها أبد الدهر ، وهاك اسم فؤاد الحمزوى تتناقله الألسن ، عن تفوقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك الغيرة ؟ ، سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما :

— كان طالبا مجتدا منذ طفولته !

— أتعرفه ؟

أجاب حسين شداد عنه :

— والده موظف في متجر والد كمال ..

في قلبي ارتياح لعن الله القلوب ..

قال كمال :

— كان والده ولا يزال الرجل المجد الأمين .

— وما تجارة والدك ؟

كم أحبط « التاجر » في خيالي بهالة الإكبار ، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار :

— تاجر جملة للبقالة ..

الكذب أداة نجاة حقيرة ، انظر إليهم كي تستشف ما يدور وراء أقنعة وجوههم ولكن أى رجل في هذا البيت يضارع أباك جمالا وقوة ١٢ .

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكرمية إلى مجالسها في البهو ، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون ، فمر وقت هادىء خامل ، ثم أخذ المدعوون في الانصراف ، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني ليقدموا التهانى إلى العروسين ، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس السعيد . ارتدى كمال معطفه وحمل علبه الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراى آل شداد ، قال إسماعيل وهو يلقي على صاحبه نظرة مخمورة :

— الساعاة الحادية عشرة ، ما رأيك في أن نتمشى في شارع السرايات حتى أفيق قليلا ؟ . فوافق كمال عن طيب خاطر ، لأنه وجد في المشى وقتل فرصة مواتية بيئتها ، سارا معا في نفس الطريق الذى سار فيه من قبل إلى جانب عابدة ، يعترف لها بحبه ويبيها آلامه . لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذى القصور الجليلة

الصامته ، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس مطمئنة وروعة
الخيال السامى ، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرحش باعنا
بخفقات الخنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمى أوراقها وثمارها ، ومهما
يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدخر لك ذكرى حلم غابر وأمل
ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من
راحة العدم ووحشة الحجر وخمود العاطفة ، وهل أنت واجد فى مستقبلك زادا
للقلب إلا أماكن تتطلع إليها بعين الخيال وأسماء تمد لها أذان الشوق ؟! ، تسأل
كمال :

— ترى ماذا يحدث الآن فى الدور الأعلى ؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم :

— أوركسترا يعزف مقطوعات غربية ، العروسان فوق المنصة ييسمان وحولهما
آل شداد وال سليم ، رأيت مثل هذا الجمع مرات عديدة ..
عابدة فى ثياب العرس ! ، ياله من منظر ! ، هل رأيت شيئا كهذا ولو فيما يرى
النائم ؟!

— وإلام يمتد الحفل ؟

— ساعة على الأكثر كى يتمكن العروسان من النوم ما دام سيافران فى
الصباح إلى الإسكندرية .

كلمات كالخناجر ، اغرز منها ما تشاء فى قلبك ..

غير أن إسماعيل عاد يقول متسائلا :

— ولكن متى عرفت لىالى الزفاف النوم ؟!

وضحك ضحكة عالية معربة ، ثم تحشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففا
ثم بسط صفحة وجهه ، وقال :

— ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق ، لا نوم لهم يا عيني ، لا يغرنك تحفظ
حسن سليم ، سيصول ويجول كالفحول حتى مطلع الصبح ، هذا قضاء لا نجا
منه ..

تذوق هذا النوع الجديد من الألم المقطر ، روح الألم أو ألم الألم ، ليكن عزائك
أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك ، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك

يوماً أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لهيبه ، ألم !! لا لفقد الحبيب فإنك ما طمحت يوماً في امتلاكه ، ولكن لنزوله من علياء سمائه ، تفرغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب .. لأنه رضى لخدمته أن يقبل ، ودمه أن يسفح ! ولجسده أن يبتذل .. ما أشد حسرتي وألمي !..

— أحق ما يقال عن ليلة الدخلة ؟

هتف إسماعيل :

— أتجهل بالله هذه الأمور ؟

كيف يقدسون الدنس ؟..

— لا أجهلها طبعاً ، كنت حتى زمن قريب لا أدري عنها شيئاً ، وثمة أمور أود أن

تعاد علي مسمعى ..

قال إسماعيل ضاحكاً :

— إنك تبدو لي أحياناً أحق أو أبهله ..

— دعنى أسألك ، أيهون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدسه ؟

تجشأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال ، وقال :

— لا يوجد شخص يستحق أن يقدس ..

— ابنتك مثلاً ، لو كان لك ابنة ..؟

أ— لا ابنتي ولا أمتي ، كيف جئنا نحن ؟ ، هذا هو قانون الطبيعة ..

نحن ! ، الحقيقة نور للألاء ، فغض الطرف ، وراء ستار القداسة الذى سجدت أمامه طيلة حياتك يعثان كالأطفال ، ما لكل شئ عييدو نحاولا ! ، الأم .. الأب .. عابدة ، كذلك ضريح الحسين .. مهنة التجارة .. أرسقراطية شداد بك ، يا لشدة الألم ..

— ما أقدر قانون الطبيعة !..

تجشأ إسماعيل للمرة الثالثة ، وقال وقد تم صوته عن الضحك وإن لم يسمع له ضحك :

— الحقيقة أن قلبك موجه ، إنه يغنى مع المطربة الجديدة أم كلثوم ؟ أفديه إن

حفظ الهوى أو ضياعاً ..

كمال فى انزعاج :

- ماذا تعنى ؟
- فقال إسماعيل بلهجة تعتمد أن تشى بسكره أكثر من الواقع :
- أعنى أنك نجب عايده !
- رباه ! كيف افتضح سره ؟ ..
- أنت سكران ! ..
- هى الحقيقة والجميع يعرفونها !
- هتف وهو يحملق صوبه فى الظلام :
- ماذا تقول ؟
- أقول إنها الحقيقة ، والجميع يعرفونها .
- الجميع ؟ ، من هم ؟ ، من افترى هذا على ؟ .
- عايده ! .
- عايده ؟ .
- عايده هى التى أذاعت سرك ..
- عايده ؟ ، لا أصدق هذا ، أنت سكران .
- نعم أنا سكران ولكن هذه هى الحقيقة أيضا ، من فضائل السكران أنه لا يكذب .. (ثم بعد ضحكة رقيقة) .. هل أغضبك هذا ؟ ، عايده كما تعلم شابة لطيفة ، حالما لفتت الأنظار سرا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري ، لا بدافع السخرية ولكن لأنها تتيه دلالة بالمغرمين ، وقد كاشفت حسن أول الأمر فوجه حسن نظرى إليك مرات ، ثم أفضى بالسرا إلى حسين ، بل علمت أن سنية هائم سمعت عن العاشق الوطان كما كانوا يدعونك ! ، وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم ، فالكل يعرف قصة العاشق الوطان ..
- شعر بخور ، ونحيل إليه أن الأقدام المتحركة تطأ كرامته بقسوة ، فانطبقت شفتاه على حزن مرير ، أهكذا يبعثر السر المصون . وعاد الآخر يقول :
- لا تتأثر ، كان الأمر كله دعاية بريئة صدرت عن قلوب تكن لك الود ، حتى عايده لم تذع سرك إلا بدافع المباهاة !
- توهمت فالتخددت ! ..
- فقال إسماعيل ضاحكا :

— إنكار حبك عبث كإنكار الشمس في رابعة النهار !
صمت كمال صمتا مليئا بالشجن والاستسلام ، وفجأة تسأل :
— ماذا قال حسين ؟
ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول :
— حسين !؟ إنه صديقك الأمين ، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته
البريء ، وكان يجيها منوها بمزايك ؟
تهد في ارتياح . إذا كان في الحب قد خاب أمله ، فقد بقيت له الصداقة ،
آه ، كيف يسعه أن يدخل سراى آل شداد بعد الليلة ١٩ .
وقال إسماعيل بلهجة جدية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف :
— كانت عايذة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام ، ثم إنها
أكبر منك سنا ، وهذه العواطف تنسى عقب النوم ، فلا تهم ولا تحزن .
هذه العواطف تنسى !. تسأل باهتمام غير خاف :
— أكانت تسخر منى وهى تنوّه بهذا الغرام المرعوم ؟
— كلا ، قلت لك إنها تسعد بالحديث عن عشاقها !
كانت معبودتك إلها قاسيا ساخرا ينشرح صدره للهناء بعابديه ، أتذكر يوم
مئلت برأسك وأنفك ؟، ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوته وقسوته ، كيف هرعت
بعد ذلك متلهلة إلى ليلة الدخلة كأى فتاة ١٩ ، أما أملك فشيئتها الحياء كأنما تشعر
بذنبها ! .
وكانا قد توغلا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنما قد تعبنا من الحديث
وشجونه ، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنى بصوت ردىء « يا ماشاء الله
ع التحفجية » ، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلا عن أنه لم يبد عليه أنه انتبه
إلى غناؤه ، ما أخجله ! ، أحذوثة كان ، وكأنه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم
يتغامزون ابن وراء ظهره وهو عنهم غافل ، معاملة فظة لا يستحقها ، فهل يكون هذا
جزءا الحب والعبادة ١٩ . ما أقسى المعبودة وما أفضع الألم ! ، لعل نبرون عندما غنى
وروما تحترق كان ينتقم لخال كحال هذه . كن قائدا غازيا يختال على متن جواد ،
أو زعيما يحمل على الأعناق ، أو تمثالا من صلب فوق سارية ، أو ساحرا يتصور في
أبى صورة شاء ، أو ملاكا يطير فوق السحاب ، أو راهبا منزويا في صحراء ، أو

مجرما خطيرا يزلزل الآمنين ، أو مهرجا يأسر الضاحكين ، أو منتحرا يهز الرائيين .
لو علم فؤاد الحمزاوي بقصته لقال له وهو يوارى سحرته تحت طلاء أدبه المهود :
الحق عليك ، فأنت الذى هجرتنا من أجل هؤلاء الناس ، احتقرت قمر ونرجس
فدق هجر الآلهة . السماء أولأ شئ هذا هو جوانى . فلتزوج كما تحب ، وتذهب
إلى بروكسل أو باريس ، ولتقدم بها العمر حتى ينوى عودها الريان ، فلن تظفر
بمح كحبي . لا تنس هذا الطريق ففوق أدبعه سكرت بخلب الآمال ثم تجرعت
غصص اليأس ، لم أعد من سكان هذا الكوكب ، غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة
الغرباء .

عندما مرا بسرأى آل شداد فى طريق العودة وجدا العمال عاكفين على نزع
الزينات وأسلاك المصاييح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار ، فتجرد البيت
الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام ، إلا حجرات ظل النور ينبعث من شرفاتها
وتوافذها . انتهى الحفل وتفرق الجمع وأذن الحال بأن لكل شئ نهاية ، وها هو يعود
حاملا عبلة الحلوى كأنه طفل يلهى عن البكاء يبضع قطع من الشيكولاتة ،
وواصل السير على مهل حتى بلغا مطلع الحسينية ، فتصافحا ، وافترقا ..
لم يكد كمال يتقدم فى شارع الحسينية أمثارا حتى توقف ، ثم انقلب عائدا إلى
العباسية التى بدت مقفرة مغرقة فى النوم ، وحث خطاه صوب سرأى آل شداد ،
وعندما شارف البيت مال يمنا إلى الصحراء التى تكتنفه وأوغل فيها حتى بلغ موضعا
فيما وراء السور الخلفى للحديقة يطلع على السراى على بعد ، وكان الظلام كثيفا
شاملا يطمئن الرقباء ستائره ، ولأول مرة فى ليلته شعر بالبرودة فى ذلك الخلاء
العارى ، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل .. تراءى له شبح البيت وراء
سوره العالى كالقلعة الضخمة ، فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا
على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها فى أقصى الجناح الأيمن من
الدور الثانى ، تلك غرفة العرس ، الغرفة الوحيدة اليقظى فى هذا الجانب من
القصر ، كانت بالأمس حجرة نوم عايذة وبلور ، وازينت الليلة لشهود أعجب ما
جرت به المقادير . تطلع إليها طويلا ، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح
يتطلع إلى عشه فوق الشجرة ، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيما وراء
الغيب ، ماذا يدور وراء هذه النافذة ؟ .. لو يتاح له أن يتسلق هذه الشجرة فى

الحديقة ليرى ١، إن البقية الباقية من عمره ثمن زهيد يؤديه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة ، وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زفافه ؟. كيف يقيمنا وكيف تلتقي العينان ؟ وبأى حديث يتناجيان ؟ وفي أى مكان من الدنيا ينزوى الآن كبرياء عايده ١؟، إنه يتحرق شغفا إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تند أو حركة تصدر أو أمارة تنطق بها أسارير الوجه ، بل إلى خطرات النفس وتصورات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز .. كل شيء ولو كان بشعا مرعبا أو مخزنا مؤلما، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف ، ولبت بمكانه والوقت يمضي لا هو يرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يمل التساؤل . ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم ؟. ودوخته الحيرة دون الجواب ، إن العبادة لن تغني عن هذه الليلة شيئا ، ونحلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجه إلى عايده ، أما حسن سليم فمن طائفة لا تنقيد بالعبادة . هكذا يتعذب في الصحراء وهناك تتبادل قبل مما عهدته الناس وتهدات تنصيب عرقا وغيبوبة تنز دما وغلالة تنحسر عن جسد فان ، كهذا العالم الفاني وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة ... فابك ما بدا لك على هوان الآلهة ، ولتلى قلبك بالمأساة ، ولكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نور قلبه أربعة أعوام ؟، لم يكن وهما ولا صدى لوهم ، إنه حياة الحياة ، ولكن تسيطر الظروف على الجسد فأى قوة تستطيع أن تتناول إلى الروح ، وهكذا لتبين المعبودة معبودته ، والحب غذاه وملاده ، والحيرة ملهاته ، حتى يقف أمام الخالق يوما يسأله عما حيره من معضلات الأمور ، أه لو يطلع على ما وراء النافذة ، لو يكشف سر أسرار وجوده .. ؟. وكان البرد يقرصه أحيانا فيذكره بموقفه وبالوقت الذي يمر سادرا ، ولكن فيم يتعجل العودة ؟.. أيطمع حقا أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة ١؟

وقف الخنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد ، وقد لطح عجلاته الوحل المترام في شارع النحاسين والمياه المتجمعة في فجواته ، فغادره السيد محمد عفت في جبة صوفية ، ودخل الدكان وهو يقول باسمه :

— جئناك بختطور ، وكان الأسلم أن نجيئك بقارب ..

وكانت الأمطار قد انهملت يوما ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة ، ومع أن السماء أمسكت — بعد ذلك — إلا أن تجمها لم ينكشف ، وظل وجهها متواريا وراء سحاب جون أظل الأرض بمظلة قائمة بعثت في الجو عكارة كأنها نذير ليل بهيم . واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس ، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلو سر مجيئه :

— لا تعجب لمجيئي في هذا الجو رغم أننا سلتقى في مجلسنا المعتاد بعد ساعات ، ولكنني اشتقت إلى الانفراد بك !

وضحك محمد عفت ، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله ، فضحك السيد أيضا ، ولكنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب . وذهب جميل الحمزاوي — وكان ملتفعا بكوفية ضمت قمة رأسه وما تحت ذقنه — إلى الباب ، فنادى صبي قهوة فلاوون ليحضر قهوة ، ثم عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل ، أما السيد أحمد فقد حدثه قلبه بأن وراء الزيارة أمرا ، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة ، إلى أن الأزمت النفسية التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرا ، كل أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته ، غير أنه دأري قلقه بضحكة لطيفة ، ثم قال :

— كنت قبيل حضورك أتذكر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص !، الله يقطعه .

فقال محمد عفت باسمه :

— كلنا تلاميذك !، وبهذه المناسبة دعني أنقل إليك ما يشيعه على عبد الرحيم

عنك ، إنه يقول إن الصداق الذى انتابك فى الأسابيع الماضية ما هو إلا عارض لخلو حياتك من النساء فى الأيام الأخيرة !..

— لخلو حياتى من النساء !. وهل للصداق من سبب غير النساء ؟!
وجاء صبى القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء ، فوضعها على ركن المكتب الذى يجلس حوله الصديقان ، ومضى ، وشرب محمد عفت شربة ماء ، ثم قال :

— شرب الماء البارد فى الشتاء لذيد ، ما رأيك فى هذا ؟. لكن فيم سؤالى وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمون كل صباح بالماء البارد حتى فى هذه الأيام من فبراير .. الآن خبرنى ، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطنى الذى احتشد فى بيت محمد محمود ؟، عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلى وثروت فى جبهة واحدة !.
فتمتم السيد قائلاً :

— ربنا من حكيمته أنه يقبل التوبة ..
— إنى لا أتق فى هؤلاء الكلاب ..
— ولا أنا ، ولكن ما العمل ؟. الملك فؤاد طيَّنْها ، ومن المحزن أن المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز .

ثم مضى يحسبان القهوة فى صمت إن دل على شيء فعلى أن الحديث العابر لم يعد له محل ، وأن على محمد عفت أن يدلى بما عنده . واعتدل الرجل فى جلسته ، وخاطب السيد بلهجة جديدة متسائلاً :

— أعندك أخبار عن ياسين ؟
انعكس السؤال فى عيني السيد الواسعتين اهتماماً مشوباً بقلق ، وفى الوقت ذاته حقق قلبه خفقة مروعة ، قال :

— خير !. إنه يزورنى من حين لآخر ، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضى فهل من جديد ؟. أمر يتعلق بمریم ؟. لقد رحلت إلى جهة مجهولة ، وعلمت أخيراً أن يومى الشربلى اشترى نصيبها فى بيت أمها .
قال محمد عفت وهو يتكلف ابتسامة :

— الأمر لا يتعلق بمریم ، من يدري لعلها غابت عن ذاكرته ، المسألة دون لف أو دوران زواج جديد .

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول :
 — زواج جديد ؟! ولكنه لم يشر إلى ذلك بتاتا في أحاديثه معي !
 هز محمد عفت رأسه أسفا ، وقال :
 — لقد تزوج بالفعل من شهر أو أكثر ، حدثني بذلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط ، وكان يظن أنك تعلم كل شيء !
 جعلت يسراه تعبت بشاربه بسرعة عصبية ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
 — لهذا الحد !. كيف أصدق هذا !. كيف أخفي عني الأمر ؟!
 — الحال تقتضي الكتمان !، أصغ إلي ، لقد آثرت أن أكشفك بالحقيقة قبل أن
 تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة ، ولكن لا يصح أن نعيها أكثر مما تستحق ، وينبغي
 قبل كل شيء ألا تستسلم للغضب ، لم يعد الغضب مما تحتمله ، اذكر تعبك الأخير
 وارحم نفسك .
 قال السيد يائسا :
 — في الأمر فضيحة ؟! هذا ما حدثني به قلبي ، هات ما عندك يا سيد
 محمد ..

هز محمد عفت رأسه أسفا ، ثم قال بصوت منخفض :
 — كن دائما أحمد عبد الجواد الذي عهدناه ، لقد تزوج من زنوبة العوادة !.
 — زنوبة !..
 وتبادلا نظرة ذات دلالة ، وسرعان ما بدا الارتباك في وجه أحمد والإشفاق في وجه
 صاحبه ، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمية ، فتساعل السيد أحمد
 بلهجة لاهثة :

— ترى هل تعلم زنوبة بأنه ابني ؟!
 — لا يداخلني في هذا شك ، غير أنني أكاد أوقن بأنها لم تطلعه على شرك لتتمكن
 من إيقاعه في الشرك ، وقد نجحت نجاحا تستحق عليه كل تهنئة
 ولكن أحمد عبد الجواد عاد يتساعل بنفس اللهجة اللاهثة :
 — أم تراه أخفي عني الأمر لعلمه بما كان ؟
 — كلا ، لا أصدق هذا ، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها ، إنه
 شاب طائش ما في ذلك من ريب ، ولكنه ليس ندلا ، وإذا كان قد أخفي عنك

الأمر ، فما ذلك إلا لأنه لم يجد الشجاعة ليصارك بأنه تزوج من عوادة ! يا ويل
الآباء من الأبناء الطائشين ، الحق أننى نألت كثيرا ، ولكنى أكرر الرجاء بألا
تستسلم للغضب ، ذنبه على جنبه ، وأنت برىء من فعلته ولا لوم عليك .

تهنأ أحمد عبد الجواد بصوت مسموع ، ثم سأل صاحبه :

— خبرنى كيف علق غنيم حميدو على الخبر ؟

فلوَّح محمد عفت بيده مستهينا ، وقال :

— سألنى : كيف يرضى السيد أحمد عن هذا ؟ فقلت له : إن الرجل لا يعلم
شيئا . فتأسف وقال لى : انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه ! . كان الله فى عونك .

قال أحمد بلهجة رائية :

— أهذه عاقبة تربيتى لهم ؟. إنى فى حيرة شديدة يا سيد محمد ، المصيبة أننا
نفقد السيطرة الفعلية عليهم فى الوقت الذى تستوجب مصلحتهم الحقيقية
سيطرتنا ، إنهم يحكم العمر يتحملون مسئولية أنفسهم ، ولكنهم يسيئون استعمالها
دون أن نستطيع تقويم ما يعوج منهم ، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالا ، من أين جاء
العيب يا ترى ؟ ، هذا الثور . امرأة فى متناول كل يد فماذا دعاه إلى الزواج منها ؟ ،
فلنبتك على أنفسنا ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

وضع محمد عنت يده على منكب صاحبه بخنو ، وقال :

— لقد أدبنا ما علينا من واجب ، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر ، وهيهات أن
يراك أحد مستحقا للوم .

عند ذاك جاء صوت الحمزاوى الأسيف وهو يقول :

— لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سى السيد ، على أنه يخيل إلى
أن الأمل فى الإصلاح لم يتعلم ، انصحه يا سى السيد ..

— إنه يبدو بين يديك طفلا مطيعا ، وهو سيطلقها حتما غدا أو بعد غد فخير
البر عاجله ..

فتساءل السيد متشكيا :

— وإن كانت قد حبلت ؟

• فجاء صوت الحمزاوى وهو يقول جزعا :

— لا قدر الله ولا سمح ..

وبدا أن عند محمد عفت مزيدا من القول ، فنظر إلى صاحبه بإشفاق ، ثم قال :
 — ومن المؤسف حقا أنه باع دكانه بالحمازوى ليؤث بيته من جديد !
 حلق أحمد في وجهه ، ثم قطب منفعلا ، وهتف حانقا :
 — كأني غير موجود في هذه الدنيا .. حتى في هذا لا يشاورني !..
 ثم وهو يضرب كفا بكف :
 — ضحكوا عليه بلا ريب ، وجدلوا في طريقهم لقية ، بغلا بلا سائس في ثياب
 أفندي ..

فقال محمد عفت متأثرا :
 — تصرفات أطفال !.. نسي أباه ونسي ابنه !. ولكن ما الفائدة من
 الغضب !؟

صاح أحمد عبد الجواد :
 — يخيل إلي أنه ينبغي أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب ..
 مد محمد عفت ذراعيه كأنما يدفع رزية ، وقال بتوسل :
 — إن كبر ابنك آخه ، لا تخطيء وأنت سيد العارفين ، ليس عليك إلا
 النصيحة وليقض الله بما هو قاض ..

وخفض محمد عفت عينيه متفكرا ، وبدأ لحظات كالمتردد ، ثم قال :
 — ثمة أمر يهمني كما يهكم ألا وهو رضوان !
 وتبادل الرجلان نظرة طويلة ، ثم استطرد محمد عفت قائلا :
 — سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر ، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين
 أحضان زنوبة ، هذا شر يجب دفعه ، ولا إخالك توافق عليه ، فأقنعه بأن يترك
 الغلام عندنا حتى يقضى الله أمرا ..

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد
 انقضاء فترة الحضانة الشرعية ، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمه إلى
 بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبثا جديدا لم تعد بحكم سنها أهلا لحمله ،
 فقال في استسلام أسيف :

— لا يصح أن يترى رضوان في بيت زنوبة هذا ما أفرك عليه ..
 فقال محمد عفت وهو يتهد بارتياح :

— إن جدته تحبه من كل قلبها ، وحتى لو دعت ظروف قهرية في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جواً صالحاً ، إذ أن زوج أمه رجل في الأربعين أو جاوزها ، وقد حرمه الله من نعمة الذرية ..

فقال أحمد عبد الجواد برجاء :

— لكنني أفضل أن يبقى عندك ..

— طبعاً .. طبعاً ، إنى تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا تضطر إليها ، ..
الآن لم يبق لي إلا أن أرجوك أن تترفق في مخاطبته ومحاسنته حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لي ..

وهنا جاء صوت الحمزوى المسالم وهو يقول :

— السيد أحمد سيد الحكماء ، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل ؟ وأنه مثل كافة الرجال حر التصرف في شئونه وأملاكه ؟. هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيد ، وما عليه إلا النصيحة ، والباقي على الله ..

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن . قال لنفسه : إن ياسين في كلمة ابن مخيب للآمال ، وليس أفجع من ابن مخيب للآمال ، إن ماله بين ويا للأسف !، ولن يحتاج إلى قوة بصرية كي يتصوره ، أجل سوف ينحدر من سبيء إلى أسوأ وعند الله اللطف . وقد رجاه جميل الحمزوى أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد ، فانصاع لرجائه يائسا أكثر منه قادرا لمواجهة النصح .

وعند عصر اليوم التالى استدعاه إلى مقابلته ، فلبنى ياسين مبادرا كما ينبغي للابن المطيع . والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب . كان البيت القديم المكان الوحيد الذى لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدة حنينه إليه ، وما من مرة كان يلتقى فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه . أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تحم من صفحته آثار ما سبّاه تعنتها معه ، بيد أنه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم ، عهد لم يكن يعرف أمّا إلاها . ولم ينقطع عن زيارة أخته ، كما كان يقابل كمال أحيانا في قهوة أحمد عبده أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولا ثم زنوبة أخيرا . أما أبوه فكان يزوره في دكانه مرة على الأقل كل أسبوع ، وهنا أتيج لياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التى يأسر الناس بها ، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة ، غذتها صلة الرحم من ناحية

بفرجة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى . غير أن ياسين وهو يتفرس في وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذى طالما بعث في أطرافه الرعب ، ولم يتساءل عما طرأ عليه ، لأنه كان واثقا من أنه سيقف على سرّ عاجلا أو آجلا ، فلم يشك في أنه ملاق العاصفة التى توقع هبوبها منذ أقدم على فعلته .
بادره الرجل قائلا :

— يحزننى أن أجد نفسى بهذا الهوان ، وماذا وراء أن أعرف أبناء ابنى من الآخرين ؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس ، فثار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذى يطالعه به ، وصاح :

— اخلع هذا القناع ، دعك من النفاق وأسمعنى صوتك ، طبعاً أنت تعلم ما أعنيه !

فقال ياسين بصوت لم يكده يسمع :

— لم أجد الشجاعة لإخبارك ..

— هذا شأن من يتستر على ذنب أو فضيحة !

حذرته غريزته من أن يلجأ إلى أى نوع من أنواع المعارضة ، فقال باستسلام :

— نعم ..

فسأله السيد ذاهلا :

— إذا كان هذا هو رأيك حقا ، فلم فعلتها ؟!

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى ، فخیل إلى الأب أنه يقول له بصمته « عرفت أنها فضيحة ولكنى أذعنت للحب ! » ، وذكره هذا بموقفه المخزى أمام المرأة ذاتها ، يا للعار ! ، غسلت خزيك بغضبة كبرى ، ولكنك عدت تسعى إليها ! ، أما هذا الثور فما أضييعه ! .

— فضيحة ارتضيها أنت دون تقدير للعواقب لتعذب بها نحن جميعا ! .

هتف بسذاجة قائلا :

— أنتم جميعا ؟! معاذ الله ..

عاود السيد الغضب ، فصاح به :

— لا تتصنع الجهل ، لا تدع البراءة ، أنت تعلم أنك فى سبيل شهواتك لا

تبالي ما يصيب سمعة أيك وإخوتك ، أقحمت على الأسرة عوادة لتكون هي ومن بعدها ذريتها منا ، لا إخالك كنت تجهل هذا قبل أن أذكره ، ولكنك تستهين بكل شيء في سبيل شهوتك ، هانت كرامة الأسرة على يديك ، وأنت نفسك تنهار حجرا بعد حجر ، وسوف تجد نفسك في النهاية خرابا ..

غض البصر لاإذا بالصمت حتى نطقته حاله بالذنب والتسليم ، لن تكلفك هذه الفضيحة إلا قدرا من التمثيل كما أرى ، حسبك هذا ، أما أنا فسأرزق غدا بحفيد أمه زنوبة وخالته زبيدة ، مصاهرة طريفة بين السيد أحمد التاجر المعروف وزبيدة العالمة الذائعة الصيت ، لعلنا نكفر عن ذنوب لا ندرها !

— إن بدلي يقشعر كلما فكرت في مستقبلك ، قلت لك إنك تنهار وسوف تنهار أكثر وأكثر ، خبرني ماذا فعلت بـدكان الحمزوى ؟
رفع إليه عينين ككيتين ، وتردد مرات ، ثم قال :
— كنت في حاجة ماسة إلى المال ..

ثم وهو يخفض عينيه :

— لو كانت الظروف غير الظروف لاقتضت ما أحجته من حضرتك ولكن الأمر كان محرجا ..
السيد حانقا :

— يا لك من مراء ! ألا تخجل من نفسك ؟ ، أراهن على أنك لم تجد في كل ما فعلته أى غرابة أو إنكار ، أنا عارفك وفاهمك فلا تحاول أن تخدعني ، ليس عندي إلا كلمة واحدة وإن كنت أعلم مقدما ألا طائل تحتها : أنت تخرب نفسك بنفسك ونهايتك سوداء ..

عاد ياسين إلى صمته متظاهرا بالأسى . الثور !. هي جذابة شيطانة ولكن ماذا اضطررك بالزواج منها ؟. كنت أظن أنها طالبتني بالزواج طمعا في تقدم عمري ، لكنها أوقعت هذا الثور على شبابه . ووجد عند ذاك شيئا من الارتياح والعزاء . كانت خطتها المدبرة أن تتزوج بأى ثمن إلا أنها آثرت غيري علي ، فوقع هذا الأحمق :

— 'طلقها ؟. طلقها قبل أن تصير أما وتفضحنا إلى أهد الأبدين !..
تردد ياسين مليا ، ثم تتمم :

- حرام على أن أطلقها بلا ذنب ! .
- يا بن الكلب ! .. أتخفتني بنكتة بارعة لسهرة الليلة ! ..
- سوف تطلقها عاجلا أو آجلا ، ولكن قبل أن تنجب لك طفلا يكون مشكلتك ومشكلتنا ..
- تنهد بصوت مسموع مستغنيا بذلك عن الكلام ، على حين راح الأب يتفحصه فيما يشبه الحيرة ، فهمى مات ، كمال أبله أو مجنون ، وهذا ياسين لا أمل فيه . المحزن أنه أعز الجميع لدى . دع الأمر لله ، رياه ! ، ماذا يكون الحال لو زلت قدمي إلى الزواج ..
- بكم بعث الدكان ؟
- مائتي جنيه ..
- تستحق ثلاثمائة ، موقعها ممتاز جدا يا جاهل ، لمن بعثها ؟
- على طولون ، بائع الخردوات .
- مبارك مبارك ، هل ضاع المبلغ في الجهاز الجديد ؟
- لددى منه مائة ..
- بلهجة ساخرة :
- أحسنت ، فالعريس لا يستغنى عن النقود ..
- ثم بلهجة جادة حزينة :
- يا ياسين اسمع كلامي ، أنا أبوك ، احترس وغير سيرتك ، أنت نفسك أب ، ألا تفكر في ابنك . ومستقبله ؟!
- فقال مدافعا متحمسا :
- إن نفقته الشهرية تصله على آخر ملهم ! .
- أهى مسألة تجارية ؟ ، إلى أتكلم عن مستقبله ، بل عن مستقبل الآخرين الذين ينتظرون في عالم الغيب !
- فقال ياسين باطمئنان :
- ربنا يخلق ويرزق ..
- هتف الرجل باستياء :
- ربنا يخلق ويرزق وحضرتك تبدد ! . قل لى ..

واعتدل في جلسته ، ثم تساءل وهو يركز فيه عينيه القويتين :
— رضوان على عتبة السابعة ، فماذا أنت صانع به ؟ ، أتأخذ له لينشاً في
أحضان حرمكم ؟ .

لاح في الوجه الممتلئ الاثراك ، ثم تساءل بدوره :
— ماذا أفعل إذن ؟ . لم أعمل في الأمر فكري ..
هز الرجل رأسه في أسى ساخر ، وقال :
— دفع الله عنك شر الفكر .! وهل لديك وقت لتبذره فيه ؟! دعني أفكر
عنك ، دعني أقول إن رضوان يجب أن يبقى في حضانة جده ..
فكر قليلا ، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلاً بانصياع :
— الرأي رأيك يا أبني ، هذا في صالحه ولا شك ..
قال الأب متحكماً :

— يبدو لي أنه في صالحك أيضاً كيلا تشغل نفسك بأمر تافه ! .
ابتسم دون تعليق ، كأنما يقول له « إلى واثق من أنك تمزح ولا بأس من
ذلك » .

— ظننت أنه سيشق عليّ إقناعك بالتخلي عنه !
— إن تقني في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى الموافقة !
فتساءل السيد بدهشة ساخرة :
— أتثق حقاً في رأيي ؟ . لم لم تعمل به في الأمور الأخرى ؟!
ثم وهو يتهد أسفا :

— القصد ! . ربما يهديك ، وذنبك على جنبك ، سأحدث محمد عفت الليلة
في شأن الاحتفاظ برضوان ، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى أن يوافق ..
عند ذاك نهض ياسين وسلم على أبيه واتجه نحو باب الدكان ، وما إن خطا
خطوتين حتى أدركه صوت أبيه وهو يسأله :
— ألا تحب ابنك ككل الآباء ؟

فتوقف ياسين متلفتاً نحوه ، وهو يقول بإنكار :
— وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبني ! . إنه أعز شيء في الحياة ..
فرفع السيد حاجبيه ، وقال وهو يهز رأسه هزة غامضة :
— مع السلامة ..

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة ، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته ، لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته إلى مقابلته إلا لأمر هام ، والحق أنه كان مبيل الفكر ، متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله . وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر في البلاغ الأسبوعي بقلم الأديب الناشئ « كمال أحمد عبد الجواد » ، ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو « أصل الإنسان » والإمضاء وهو الأديب الناشئ « كمال أحمد عبد الجواد » فإنهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد ، حتى فكر الرجل جادا في أن يكلف الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشباب . قال له محمد عفت « سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب في مجلة واحدة ، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم » ، وقال له علي عبد الرحيم « سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطي ابتاع عزة بقلمه فأبشر خيرا » ، وحديثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام والزعماء ، ضارين الأمثال بشوق وحافظ والمنفلوطي ، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلا « سبحان الذى خلق من ظهر الجاهل عالما » ، أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على « الأديب الناشئ » ، ثم وضع المجلة فوق جيبته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونية وحما الويسكى مؤجلا قراءتها حتى يتفرد بنفسه فى البيت أو فى الدكان ، ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فعخور ، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سخطه المكظوم على إثارة الشاب لمدرسة المعلمين قائلا إن « الولد » فيما يبدو سيكون « شيئا » رغم اختياره غير الموفق ، وبنى أحلاما على ما قيل عن « القلم » وحظوة الكبراء وعزة المنفلوطي ، أجل ، من يدري ؟ ، لعله لا يكون معلما فحسب ولكن يشق السبيل حقا إلى حياة لم تخطر له هو على بال . وعند ضحي اليوم ، وعند فراغه من الصلاة والإفطار ، تربع على الكتبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتليء بمعانيها ، لكن ماذا وجد فيها ؟ ، إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء ، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعته قلبه ، وأعاد تلاوتها بعناية

فطالع كلاما عن عالم يدعى « دارون » وبجهوده في جزر نائية ، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهورا عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية !، بل أنه متطور عن نوع من القرود !. وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا ، ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهي أن ابنا من صلبه يقرر — دون اعتراض أو مناقشة — أن الإنسان سلالة حيوانية !. انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل في حيرة : هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة ؟، ثم أرسل في طلب كمال :

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج في رأس أبيه ، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهتبه على النقل إلى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيرا . وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده في الفترة الأخيرة في حال عللتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان ، ولكن غاب عنها سرها الحقيقي وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيرا لعاطفة مستبدة جهنمية كادت تؤدي به ، وأشار السيد إليه بالجلوس ، فجلس على طرف الكنبه متجها نحو أبيه بأدب ، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخبثها ، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعي إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكنبه وقال بهلواء مصطنع :

— لك مقال في هذه المجلة ، أليس كذلك ؟

خطف غلاف المجلة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط .. من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد على المجلات الأدبية ١٩. لقد سبق أن نشر في الصباح « تأملات » بين النثر والشعر المنشور ضمنها نظرات فلسفية بزيئة وأثبات عاطفية ، وهو آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها ، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فنبصت الآخر ، ثم يقول له معلقا « هذا ثمرة توجيهي الأول لك ، أنا الذي علمتك الشعر والقصص ، نجيل يا أستاذ ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن أين جئت بها ؟ » أو يقول مداعبا « من الحسنة التي ألهمتكم هذه الشكوى الرقيقة ؟، ستعلم يا أستاذ يوما أنهم لا يجدى معهن إلا ضرب المراكيب » ، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب ، تلك المقالة التي شب التفكير فيها معركة جهنمية في صدره وعقله

كاد يحترق في أتونها ، فكيف حدث هذا ؟. وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقاء أبيه الوفدين الذين يحرسون على اقتناء كافة الجرائد وانجالات الوفدية ؟ ، وهل يطمع في أن يخرج سالما من هذا المأزق ؟ ، رفع عينيه عن المجلة ، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الإفصاح عن اضطرابه :

— بلى ، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبिता لمعلوماتي وتشجيعا لنفسي على مواصلة الدرس ..

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع :

— لا عيب في ذلك ، الكتابة في الصحف كانت ولم تزل الوسيلة الى الجاه والحظوة عند الكبراء ، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، ماذا أردت بهذه المقالة ؟ ، أقرأها وأشرحها لى ، فقد غمض على مرامك ..

يا للتعاسة ! ، ليس هذا المقال للجهر ، وخاصة على مسمع من أبيه !
— إنه مقال طويل يا بابا ، ألم تقرأه حضرتك ؟ ، إني أشرح فيه نظرية علمية ..
حده الرجل بنظرة براقة متحفرة ، أهذا ما يدعونه بالعلم الآن ؟. ألا لعنة الله على العلم والعلماء ..

— ماذا تقول في هذه النظرية ؟ ، لقد لفتت نظرى عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية ، أو شيئا من هذا القبيل ، أحق هذا ؟
بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا روحه وجسده ، واليوم عليه أن يناضل أباه ، غير أنه كان في الجولة الأولى معذبا محموما .. أما في هذه الجولة فهو خائف مرتعب ، إن الله قد يؤجل عقابه ، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب ..
— هذا ما تقرره هذه النظرية !

علا صوت السيد وهو يتساءل في انزعاج :
— وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟!

ظالما طرح هذا السؤال على نفسه ، لم يكن دون أبيه انزعاجا ، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح ، وتقلب في الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشرا : القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا ، إنك تحمل على لأنك لم تدر بعداى ، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك

الليلة . قال بصوت خافت :

— دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن « سيدنا » آدم ..

هتف الرجل غاضبا :

— لقد كفر دارون ووقع في حياثل الشيطان ، إذا كان أصل الإنسان قردا أو أى حيوان آخر ، فلم يكن آدم أباً للبشر .. هذا هو الكفر عينه ، هذا هو الاجترأ الوقح على مقام الله وجلاله !! إلى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أى ملة دارون هذا ؟! ، إنه كافر وكلامه كفر ، ونقل كلامه استتار ، خبرنى أهو من أساتذتك فى المدرسة ؟

ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان فى القلب فراغ للضحك ، لكنه قلب أفعمته الآلام ، ألم الحب الخائب ، وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة ، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقت ، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم ، قال بصوت متواضع :

— دارون عالم إنجليزى مات منذ زمن بعيد ..

وهنا ند عن الأم صوت يقول بتهديج :

— لعنة الله على الإنجليز أجمعين ..

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة ، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث ، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول :

— خبرنى ، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة ؟

التقف جبل النجاة الذى تدلى إليه فجأة ، فقال لاأثدا بالكذب :

— نعم ..

— أمر غريب ! ، وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك ؟!

— كلا ، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية ..

ضرب السيد كفا بكف ، ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان ، وهتف محنقا :

— إذن لماذا يدرسونها لكم ؟! ، هل الغاية إدخال الكفر فى قلوبكم ؟

فقال كمال بلهجة المحتج :

— معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤثر ..

فتفحصه بارتياب وهو يقول :

— ولكنك نشرت الكفر بمقالك !

فقال بارتياب :

— أستغفر الله ، إلى أشرح النظرية ليلم بها القارئ لا ليؤمن بها ، هيات أن

يؤثر في قلب المؤمن رأى كافر ..

— ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه ؟

لماذا كتب مقالته ؟ ، لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها إلى المجلة ، ولكنه كان كأنما يود أن ينعى إلى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التي أرسلها المعري والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدي فكانت القاضية ، على أنني لست كافرا ، لا زلت أومن بالله ، أما الدين ..؟ أين الدين ؟ ، ذهب ! ، كما ذهب رأس الحسين ، وكما ذهب عايدة ، وكما ذهب تفتى بنفسى ! . ثم قال بصوت حزين :

— لعل أخطأت ، عذرى أنني كنت أدرس هذه النظرية ..

— ليس هذا بعذر ، وعليك أن تصلح خطأك ..

يا له من رجل طيب ! ، إنه يطمع في أن يحمله على مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة . حقا لقد تعذب كثيرا ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهره منها ، كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث بى الأوهام بعد اليوم ، النور النور ، أبونا آدم ! ، لا أب لى ، ليكون أبى قردا إن شاءت الحقيقة ، إنه خير من آدميين لا عدد لهم ، لو كنت من سلالة نبي حقا ما سخرت منى سخرتها القاتلة ! ..

— وكيف أصلح الخطأ ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معا :

— عندك حقيقة لا شك فيها ، وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأن آدم هو أبو البشر ، هذا مذكور في القرآن ، فما عليك إلا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هيئ ، وإلا فما فائدة ثقافتك ؟

وهنا جاء صوت الأم قاتلا :

— ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل لهذا الإنجليزي الكافر .:

إن الله يقول في كتابه العزيز : إن آدم هو أبو البشر ، كان جدك من حملة كتاب الله
 فعليك أن تنتهج سبيله ، لقد سرى أنك تبغى أن تكون مثله من العلماء ..
 لاح الضيق في وجه السيد ، فانتهرها قائلاً :
 — ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم ؟، دعينا من جده وانتبهى إلى
 ما بين يديك ..

فقال في حياء :
 — أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله ..
 فصاح الرجل ساخطاً :
 — ها هو قد بدأ ينشر الظلام ..
 فقالت المرأة بإشفاق :
 — مغاذ الله يا سيدى ، لعلك لم تفهم ..
 حادجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته في معاملتهم فماذا كانت
 النتيجة ؟، ها هو كالأ يذيع أن أصل الإنسان قرد ، وها هي أمه تناقشه وتقول له لم
 تفهم ؟ صاح بها :
 — دعيني أتكلم ، لا تقاطعيني ، لا تتدخل فيما لا تفهمين ، انتبهى إلى
 عملك ، الله يقطعك ..

ثم ملتفتاً إلى كمال بوجه متجههم :
 — خبرنى ، هل أنت فاعل ما قلت لك ؟
 عليك رقيب في البيت لم يتبل الأحرار بمثله في الدول ، لكنك كما تخافه تحبه ، فلن
 يطاوعك قلبك على الإساءة إليه . تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال ..
 — كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية ؟، لو انحصرت مناقشتي في الاستشهاد
 بالقرآن لما جاءت بجديد ، فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به ، أما مناقشتها علمياً
 فشأن المختصين من العلماء ..

— ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به ؟
 اعترض وجهه في ذاته ، غير أنه من المؤسف أنه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه
 بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية ، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها في
 إنشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم ، أما السيد فقد ظن صمته إقراراً

بالخطأ فتضاعف أسفه وحققه . إن الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة سيء العاقبة ، وهو ميدان لا سلطان له عليه ، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته ، فهل يجرى عليه ما جرى على الآباء الآخرين في هذه الأيام الغريبة ؟! إن أنباء كالأساطير تترامى إليه عن شباب « اليوم » ، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين ، وآخرون يعيشون بكرامات المدرسين ، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آباؤهم . أجل لم تكن هيئته ، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة ؟ ، ها هو ياسين يتدهور ويضمحل ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التخلص من قبضته :

— أصعب إلى بكل وعيك ، لا أريد أن أقسو عليك فإنك مؤدب ومطيع ، أما عن موضوعنا فلا أملك لك إلا النصيحة ، وينبغي أن تذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتي وسلم ..

ثم بعد صمت قصير :

— إليك ياسين شاهدا عما أقول ، وقد نصحت قديما « المرحوم » بألا يلقي نفسه إلى التهلكة ، ولو امتد به العمر لكان رجلا نابها .

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

— قتلوه الإنجليز ، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون !

وواصل السيد حديثه قائلا :

— إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين ، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية ..

تدخل الصوت الرقيق الحبي مرة أخرى قائلا :

— ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله ..

فصاح بها السيد :

— قلت ما فيه الكفاية دون حاجة إلى آرائك !

فعادت إلى ما بين يديها ، وجعل السيد يحرق فيها متوعدا حتى اطمأن إلى صمتها ، فالتفت إلى كمال متسائلا :

— مفهوم ؟
فقال كمال بلهجة موحية بالثقة :
— بكل تأكيد :

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعلية بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدّها في سرّه بأن يكرّس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ؟ ، بلى ، وسيكون في تحرّره من الدين أقرب إلى الله مما كان في إيمانه به ، فما الدين الحقيقي إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، خلفا وراءه تلك العاصفة — التي صارع فيها الجهل حتى صرعه — حدّا فاصلا بين ماضٍ خرافي وغد نوراني ، بذلك تفتتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة ..

٣٤

بعناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شداد ، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله ، فقد آمن أخيرا بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته ، كيف لا وقد انتزع حسين في النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا ؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه الممر الجانبي المفضى إلى الحديقة ، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعنى شيئا كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتفريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين ، ثم المنظر الكلى للحديقة المبسوط بين مؤخر القصر والسور العريض المشرف على الصحراء ، وما بين هذا وذاك من أعراس الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد ، وأخيرا الكشك العتيق الذي تملى تحت سقفه بنشوات الحب والصدقة . وذكر المثل الإنجليزي الذي يقول « لا تضع كل بيضك في سلة واحدة » وابتمس ابتسامة حزينة ، فإنه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كل قلبه في

هذا البيت ، بعضه للحب وبعضه للصدقة ، وقد ضاع الحب وها هو الصديق يحزم أمتعته استعدادا للرحيل ، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق ، كيف يمكن أن يتعزى عن هذا المنظر ؟. قد انطبع في صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين ، القصر والحديقة والصحراء ، جملة وتفصيلا ، كانطباع أسماء عابدة وحسين شداد في حافظته ، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المارة ؟، هو الذى لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوما مداعبا بالوثني !..

وكان حسين شداد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيين متقابلين أمام المنضدة التى وضع عليها الدوق التقليدى والأكواب الثلاثة ، وكانا كعادتهما فى الصيف يرتديان قميصا مفتوح الطوق وينطلونا من الفانلة البيضاء ، فطالعهما بوجهيهما المتناقضين : حسين بوجهه الجميل الوضئ ، وإسماعيل بوجهه الحاد القسماات ونظراته التهجمية ، فأقبل عليهما ببدلته البيضاء مسكا بطربوشه الذى تدلدل زره ، وتصافحوا ، ثم جلسا جاعلا ظهره إلى البيت ، البيت الذى ولّاه — من قبل — ظهره !. وسرعان ما قال إسماعيل مخاطبا كمال ، وهو يضحك ضحكة ذات معنى :

— يتعين علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد نتقابل فيه ..
ابتسم كمال ابتسامة باهتة . ما أسعد إسماعيل بسخريته التى لم تعرف الألم ، وهو وفؤاد الحمزاوى اللذان بقيا له ، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجان ، يهرع إليهما هربا من الوحشة ، ولا حيلة إلا أن يرضى بما قسم له .

— سنلتقى فى المقاهى أو الطرقات ما دام حسين قد قرر هجرنا ..
هز حسين رأسه فى أسف ، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون ، ثم قال :

— سأغادر مصر وفى قلبى حسرة على فراقكما ، الصداقة عاطفة مقدسة ، إلى أقدرها من أعماق قلبى ، والصديق هو القرين الذى يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك ، لا يهم أن تختلف فى كثير ما دام الجوهر متشابها ، لن أنسى هذه الصداقة أبدا ، وستصل الرسائل ما بيننا حتى نعود إلى اللقاء مرة أخرى ..
كلام جميل هو العزاء للقلب المكلم المهجور ، ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافيا ؟، هكذا تتركنى وحيدا بلا صديق حقيقى ، وغدا يقتل المهجور ظمأ إلى

الألفة الروحية الساحرة . تساعل في كآبة :

— متى نعود إلى اللقاء مرة أخرى ؟. لم أنس بعد تطلعك الحار إلى السياحة الدائمة ، فمن يضمن لي ألا يكون ذهابك إلى الأبد ؟

فأمن إسماعيل علي قوله قائلًا :

— قلبي يحدثني بأن العصفور لن يعود إلى القفص ..

ضحك حسين ضحكة قصيرة ، غير أنها وشت بسروره ، ثم قال :

— لم أظفر بموافقة أُنَى على سفرى حتى وعدته بمواصلة دراستى القانونية ، ولكنى لا أدرى إلى أى مدى سيمكننى المحافظة على وعدى ؟، لا استلطاف بينى وبين القانون ، أكثر من هذا يحيل إلى أُنَى لن أصبر على الدراسة النظامية ، لا أريد إلا ما أحبه ، وقلبي موزع بين معارف شتى لا تجمعها كلية واحدة كما قلت مرارا وتكرارا ، أريد أن أتلقى محاضرات فى فلسفة الفن ، وأخرى فى الشعر والقصص ، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى ، وأن أعشق وأهوى ، فأى كلية تحوى هذه الألوان جميعا ؟، وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهى أُنَى أفضل أن أسمع على أن أقرأ ، أريد أن يشرح غبرى لأستمع أنا ، ثم أنطلق بحواس مجلوة وعقل مضىء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهى والمراقص ، وسوف تصلكما تباعا تقاريرى عن هذه التجارب الفذة !.

كأنه يصف اللجنة التى نبذ هو الإيمان بها !. بيد أنها جنة سلبية تأخذ ولا تعطى ، وهو يطمح إلى مثال آخر ، أما حسين فهيهات أن يحن إلى مغناه القديم ، إذا ضمته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد . وكأن إسماعيل كان يردد خواطره حين قال مخاطبا حسين :

— لن تعود إلينا ، الوداع يا حسين !، حلمنا واحد على وجه التقريب ، دع جانبنا فلسفة الفن والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال .. الخ ، فنكون شخصا واحدا !. أذكرك للمرة الأخيرة بأنك لن تعود إلينا ..

وحده كمال بنظرة متسائلة ، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل ، فقال :

— بل سأعود كثيرا ، ستكون مصر ضمن سياحتى الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثم موجهها الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن !

من يدري لعل كذوبته تصدق فيجوب تلك الآفاق ، مهما يكن من أمر قلبه
يحدثه بأن حسين سيعود يوما وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء ، إن قلبه
الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتلع جذوره من القلب وأأسفاه !، قال
برجاء :

— سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك ، على أن تخرج منها
سائحا كلما طابت لك السياحة .

فأمن إسماعيل على رأيه :

— لو أنك ابن حلال حقا لقبلت هذا الحل الوجيه الذى يوفق بين رغبتك

ورغبتنا ..

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنما قد اقتنع :

— سينتهى بى المطاف إلى هذا الحل فيما أعتقد ..

كان يصغى إليه وهو ميملاً من منظره ناظريه ، خاصة العينين السوداوين اللتين
تشبهان عيني عايدة ، ولفئاته الجامعة بين السمو واللطف ، وروحه الشفاف الذى
يكاد يتمثل أمامه خلقا يرى ويحس ، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة
الصداقة وذكرى الحب ؟. الصداقة التى تلقنتها على يديه ألفة روحية وسعادة
مطمئنة ، والحب الذى ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم ؟!. وعاد
حسين يقول وهو يشير إليهما واحدا بعد الآخر :

— عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسبا فى وزارة المالية ، وأنت مدرسا ،

ولا يبعد أن أجدك والدين !. ما أعجب هذا !

تساعل إسماعيل ضاحكا :

— هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين ؟، تصور كمال مدرسا ! (ثم موجه

الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيرا قبل أن تواجه التلاميذ ، سوف تلقى
جيلا من العفاريث نحن نعد بالقياس إليهم من الملائكة ، وسوف تجد نفسك وأنت
الوفدى العنيد مضطرا بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد !.

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذى كان مسترسلا فيه ، فوجد
نفسه يتساءل : كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين ؟!، وجد
امتعاضا ومرارة ، وخيل إليه — قياسا على شواذ المدرسين الذين عرفهم فى

حياته — أنه سيلتزم القسوة في معاملة التلاميذ ليحمي شخصيته المهددة !. غير أنه تساءل : ترى هل يسعه أن يكون قاسيا على غيره كما يقسو على نفسه ؟. قال ارتجالا :

— لا أظن أنني سأمتن مهنة التدريس إلى النهاية ..

لاحت في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول :

— من التعليم إلى الصحافة على ما أظن ، أليس كذلك ؟

وجد نفسه يفكر في المستقبل ، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيرا بتأليفه ، ولكن ماذا بقى من موضوعه الأول ؟. لم يعد الأنبياء أنبياء ، ولا اللجنة والجحيم ، وليس علم الإنسان إلا فصلا من علم الحيوان ، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد ، قال مرتجلا أيضا :

— لو أتمكن يوما من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد !

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد :

— بل السياسة هي السلعة الرائجة ، خصص للفكر إذا شئت عامودا في الصفحة الأخيرة ، وفي البلد متسع لكاتب وفدى هجاء جديد ..

فضحك حسين ضحكة عالية ، وقال :

— لا يبدو أن صاحبنا سياسي إيجابي ، حسب أسرته ما قدمت من فدية ، أما الفكر فالجمال أمامه واسع فيه .. (ثم مخاطبا كمال) .. لديك ما تقوله ، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل ..

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحية لثورته وتملقا لغروره ، قال

أوقد تورد رجفه :

— ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير والجمال !..

صفر إسماعيل ثلاثا ، لكل قيمة صفيرا ، ثم قال متهمكا :

— اسمعوا وعوا !.

أما حسين فقال جادا :

— إني مثلك ! ولكنى قانع بالمعرفة والمتعة !.

فقال كمال بحماس وإخلاص :

— الأمر أجمل من هذا ، إنه كفاح في سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية

جميعا ، وبغيره لا يكون للحياة معنى فى نظرى ..

ضرب إسماعيل كفا بكف — وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه — وقال :

— إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى ! ، كم تعبت وشقيت حتى تحررت من الدين ! . لم أتعب أنا تعبك ، ولكن الدين لم يكن شغلى أبدا فهل تعدنى يا ترى فيلسوفا بالفطرة ؟! ، حسبى أن أعيش الحياة التى لا تحتاج إلى تعريف ، غير أن هذا الذى أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير ، أستغفر الله ، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت — حتى بعد إلحادك — تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرر لها حياتك ، أليس هذا مما يدعو إليه الدين ؟! ، فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع ؟

لا تبال رفيق المزاح ، لكن لم يبدو ما يؤمن به من القيم مثارا للسخرية ؟! ، هبك خيرت بين عابدة وبين الحياة السامية فأيهما تختار ؟! .. لكن عابدة تتخايل لعينى دائما وراء المثل ! ..

قال حسين يجيب عن كمال ، إذ طال به الصمت :

— المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين ، أما الحر فينجبها لذاتها .

رباه متى أراك مرة أخرى ؟. أما إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة ، وسأل كمال :

— خبرنى ألا زلت تصلى ؟. وهل تنوى أن تصوم رمضان القادم ؟

كان دعائى لها أمتع ما فى الصلاة ، وليالى هذا القصر أسعد ما فى رمضان ..

— لم أعد من المصلين ، ولن أكون من الصائمين ..

— وهل تعلن إفطارك ؟

ضاحكا :

— كلا ..

— آثرت النفاق !

فقال ممتعضا :

— ليس من ضرورة تدعونى إلى إيلام الذين أحبهم ..

فتساءل إسماعيل ساخرا :

— أظن أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوما بما يكره ؟!

كليلة ودمنة ٢١، بهجة الخاطرة غطت على الامتعاض ، رباه هل عبرت على
أساس الكتاب الذى لم يتبلور فى ذهنى بعد ؟!

— مخاطبة القراء شئ ، ومخاطبة والدين على الفطرة شئ آخر !
فمخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلا :

— إليك فيلسوفا من أسرة عمريقة فى الجهل !
لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو ، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق
يحاورها ، فافرض بالصمت أو حاور نفسك كالجنانين ، وساد الصمت قليلا .
وكانت الحديقة صامتا أيضا فلا نسمة تهفو ، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت
وحدها سعيدة بالحر ، وحسرت الشمس ثوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلا
حاشية فى أعلى السور الشرق . أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين
شداد ، وسأله :

— ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعائدة هائم ؟

يا لله .. خفقة قلب أم القيامة قامت فى صدرى ؟!

— عندما يستقر بى المقام فى باريس ، سأفكر حتما فى القيام برحلة إلى
بروكسل ..

ثم وهو يتسهم :

— تلقينا خطابا من عائدة فى الأسبوع الماضى ، يبدو أنها تعاني متاعب

الوحم ..!

هكذا الألم والحياة توأمان ، لست الآن إلا ألما خالصا فى ثياب رجل ، عائدة
منداحة البطن سائلة الإفرازات ؟! ، مأساة أم مهزلة الحياة ؟!. نعمة الحياة الفناء ،
ليتنى أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم . قال إسماعيل لطيف :

— سيكون أبنائها أجناب !

— من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطقولة .

هل تراهم يوما بين تلاميذك ؟. تسائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب
القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم ، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأى
قلب تعاقبه !، أيها النسيان .. هل أنت خرافة أيضا ؟!. عاد حسين يقول :

— شد ما أسهبت فى الحديث عن حياتها الجديدة ، لم تحف سرورها بها حتى

بدا حينها إلى الأهل مجرد مجاملة ..

لمثل هذه الحياة في الأوطان المثالية خلقت ، أما مشاركتها في الطبائع الآدمية فعبث من الأقدار التي عبثت بشتي مقدساتك ، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير في خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى ؟! ، ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم ؟! ، وعادوهم الصمت مرة أخرى . بدا المغيب يقطر سمره هادئة ، ولاحت في الأفق حداثة مولية ، وترامى إليهم نباح كلب ، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب ، وراح حسين يصفر بفيه ، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسر .

— الحر هذه السنة ملعون ..

قال إسماعيل ذلك ، ثم جفف شففيه بمنديله الحريري المزركش ثم تجشأ ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه .

فراق الأحباب ألعن ..

— متى تسافر إلى المصيف ؟

— في آخر يونية .

أجاب إسماعيل بارتياح ، فعاد حسين يقول :

— سنسافر غدا إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعا معهم ، ثم أسافر بصحبة أبنى إلى الإسكندرية فأستقل الباخرة في ٣٠ يونية .

وينتهى تاريخ فترة من الزمن ، وربما انتهى قلب . حذق حسين إلى كمال مليا ، ثم ضحك قائلا :

— نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والائتلاف ، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس ..

فهتف إسماعيل مخاطبا حسين وهو يشير إلى كمال :

— صاحبك غير راض عن الائتلاف !. عز عليه أن يضع سعد يده في يد

الخونة ، وعز عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلى ، هكذا تجده أشد تطرفا من زعيمه المقدس نفسه !

مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها ، أى شيء في هذه الدنيا لم يخب فيه أملك ؟. غير أنه ضحك عاليا ، ثم قال :

— بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائباً من الأحرار !
 وضح ثلاثتهم بالضحك . وعند ذاك دبت في مرمى البصر منهم ضفدعة ما
 لبثت أن توارت في العشب، وهفت نسمة مؤذنة بتداني المساء ، وتحفف العالم
 المحقق بهم من زياطه وضوضائه ، فأذن المجلس بالختام ، وملاه ذلك بالجرع
 فجعلت عيناه تتقلبان في المكان تبتلثا من منظره . هنا بدت أول مرة باعثة شعاع
 الحب ، وهنا صدى الصوت الملائكي : « يا كمال » وهنا دار حوار العذاب حول
 الرأس والأنف ، وهنا عالن المعبود بخصام التجنى ، وفي تضاعيف هذا الجو ترقد
 ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العبث يوماً . لأحييت الصحراء
 ونضرت وجهها ، املاؤ من هذا كله عينيك وأرنخه فإن حوادث كثيرة تبدو وكأنها لم
 تقع لو لم يقيدوها يوم وشهر وعام ، إنما نستعدى الشمس والقمر على خط الزمان
 المستقيم لنلوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة ، ولكن لا شيء يعود أبداً ، فذهب في
 الدموع أو تسلل بالابتسام .

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول :

— آنا لنا أن نذهب ..

ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه ، ثم جاء دوره فتعانقا طويلا ، طبع على
 خده قبلة وتلقى مثلها ، فغمت خياشيمه رائحة آل شداد ممثلة في صاحبه ، زكية
 لطيفة كأنها عبير غير آدمى ، أو نفثات حلم دؤم في سماء مليحة بالمسرات والآلام ،
 فأفعم بها حناياه حتى ثمل ، ولبث صامتا مليا حتى يملك عواطفه ، غير أنه عندما
 تكلم تهدهج صوته وهو يقول :

— إلى اللقاء ولو بعد حين ..

- لا يوجد أحد إلا الخدم !
- ذلك لأن ضوء النهار لم يكد يختفى بعد ، والزبائن يقدون عادة مع الليل ، هل ضايقتك خلوا المكان ؟
- أبدا خلوا المكان عامل مشجع على البقاء ، خاصة وأنها أول مرة .
- للحنانات هنا ميزات لا تقدر بثمن ، فهي تقوم في طريق لا يقتحمه إلا ساع وراء لذة محرمة ، فلن يكدر صفوك هنا لائم ولا زاجر . وإذا عثر بك شخص تحترمه كأبيك أو ولى أمرك ، كان هو الأحق باللوم والأخلق بأن يتجاهلك أو يفر من سبيلك إن استطاع ..
- اسم الشارع وحده فضيحة !
- لكنه أدعى إلى الطمأنينة من غيره ، لو أننا ذهبنا إلى إحدى حانات شارع الألفى أو عماد الدين أو حتى محمد على ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عم أو ذو مال !. ولكنهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو .
- منطقك سليم ، غير أنى لا زلت مضطربا .
- صبرك ، الخطوة الأولى دائما عسيرة ، ولكن الخمر مفتاح الفرج ، لذلك أعدك بأنك ستجد الدنيا عند ذهابنا ألطف وأعذب مما عهدتها قبل ذلك ..
- حدثنى عن أنواع الخمر ، أيها الأوفى أن أبدا به ؟
- الكونياك عنيف وإذا مزج بالبيرة فقل على شاربى السلام ، الويسكى مقبول الطعم جيد الأثر ، أما الزبيب ...
- لعل الزبيب ألذها !. ألم تسمع صالح وهو يغنى « وسقانى شراب الزبيب ! » ..
- طالما قلت لك إنه لا عيب فيك إلا الإغراق فى الخيال ، الزبيب أقبحها رغم أنف صالح ، فيه طعم الأنيسون الذى تجزع منه معدنى ، فلا تقاطعنى ..
- معذرة ..!
- وهناك البيرة ، ولكنها شراب الحر ونحن والحمد لله فى سبتمبر . وهناك

النبيذ ، غير أن عاقبته لطسة بنت كلب ..

— إذن .. إذن .. فهو الويسكى ..

— برافو ! تويمت فيك النجاة من قديم ، ولعلك توافقني بعد قليل على أن استعدادك للهلز يفوق استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تتعب بها قلبك دون جدوى ..

ونادى النادل ، فطلب كأسين من الويسكى .

— من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة ..

— قد تكون هذه هي الحكمة ، غير أننا لم نحىء هنا لطلب الحكمة ، وسوف تعلم بنفسك أن الجنون ألد من الحكمة ، وأن الحياة أخطر من الكتب والفكر ، اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك ..

— لا أحب أن أفقد الوعي ، أخاف أن ..

— كن حكيم نفسك ..

— المهم عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب إياه بلا تردد ، وأن أدخل

عند الحاجة ..

— أشرب حتى تشعر بأنك لا تبالي أن تدخل ..

— حسن ، أرجو ألا أندم على فعلتي فيما بعد ..

— تندم !؟ طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر بالتقوى والدين ، ثم جاهرت بأنك لم تعد تؤمن بالدين ، فكررت عليك الدعوة ، فما أعجب إلا لرفضك باسم الخلق !. لكن يجب أن أعترف بأنك اتبعت المنطق أخيراً ..

أجل أخيراً. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبى العلاء والخيام ، أو بين التشف واللذة . وقد نزع به طبعه إلى مذهب الأول ، فإنه وإن بشر بحياة قاسية إلا أنها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد ، ولكنه لم يدر إلا ونفسه تهفو إلى الفناء ، وكأن صوتاً خفياً راح يهيمس في أذنه : لا دين ولا عايذة ولا أمل ، فليكن الموت . عند ذاك ناداه الخيام بلسان هذا الصديق فلبى محتفظاً بمبادئه السامية رغم هذا ، وإن يكن قد وسع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعاً ، قائلاً لنفسه : إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير ، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة

منقذا من الموت ..

— إني معك في هذا ، ولكنني لم أتخل عن مبادئ ..
— أعلم أنك لن تتخلي عن أوهامك ، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها ، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قراء ، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة ، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد ، كنت متدينا عنيفا ، وأنت الآن ملحد عنيف ، دائما عنيف ، قلق كأنك مسعول عن البشرية ، الحياة أبسط من هذا كله ، مركز في الحكومة يرضى النفس ويبهى مستوى لا بأس به من المعيشة ، استمتاع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم ، استمساك بقدر من القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز ، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت ، وإلا فذنبه على جنبه ..

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها ، اللذة ملاذى ولكن ارتقاء الجبال الصعبة سيظل مطلبى ، عابدة ذهبت فيجب أن أخلق عابدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان ، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها .

— ألم تشغل فكرك أبدا بما فوق هذه الحياة من معان ؟
— هق ! ، شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالجرى بجياتى أنا ، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متدين ، وهكذا أنا !

صديق ضرورى مثل وقت الفراغ ، شاذ المنظر مثل منظرك ، موصول الذكريات بعابدة فهو في القلب . رائد هذه الدروب الغناء ، جبار إذا تحديته ، يفتقد في المسرات دون الجد والملمات ، ليس فيه للروح موضع ، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل .. فؤاد الحمزاوى ذكى ولكن لا فلسفة له . نفعى حتى في تذوق الجمال .. يبغي وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في تحبير المرافعات ، من لى بوجه حسين وروحه !؟ وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضلعى الكعب ، وفضى سداة قارورة الصودا وصب في الكأسين فتحول الذهب إلى بلاتين مموه باللالىء ، ورص أطبق السلطة والجبن والزيتون المرتدلا ، ثم ذهب . رد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل ، فقال الأخير باسمه :

— افعل كما أفعل ، ابداً بجمرة كبيرة ، صحتك ..

غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوقها ، ثم لبث يترقب .. ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرع جرعة كبيرة ، ثم تناول قطعة من الجبن ليغير الطعم الغريب الذى انتشر فى فيه .
— لا تتعجلنى ! .

— العجلة من الشيطان ، المهم أن تترك مكانك وأنت على حال تمكنك من اقتحام ما تريد ..

ما الذى يريد ؟ امرأة من استثنى تقززه ونفوره وهو مفيق فهل يحلى الشراب مرارة الابتذال . كان يناضل الغريزة بالدين وعائدة ، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو . غير أن حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذى تنطوى عائدة نفسها تحت جنسه ولو كره . لعل فى ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوى سرها فى جوف الليل المكتم ، وتكفيرا عن العذاب الدامى الذى لا أمل فى التداوى منه إلا بالياس والذهول . الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زنزانه الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى فى طريق الخلاص وإن يكن طريقا مخمورا مخفوقا بالشهوات والمكاره . وتجرع جرعة أخرى وانتظر ، ثم ابتسم .. أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينثف حرارة وصبوة ، فتابعه مستسلما كما يتابع نعمة حلوة . وكان إسماعيل يراقبه بإمعان ، فقال باسم :

— أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر ؟

أين حسين أين ؟!

— سوف أكتب له عنه بنفسى ، هل رددت على رسالته الأخيرة ؟

— نعم ، رددت برسالة موجزة كرسالته ..

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة ، بالسعادة التى خص بها وحده ، ولكن لا ينبغي أن ييوح بسر رسالته أن يثير غيرة مدربه ..

— كانت رسالته إلى موجزة أيضا فيما عدا الحديث الذى تعرفه ولا تحبه ! .

— الفكر ! . (ثم وهو يضحك) .. ما حاجته إلى هذا هو الذى سيرث ثروة

تملا المحيط ، ما سر ولعه بهذه الخزعبلات ؟ ، التكلف أم الغرور أم اللانان معا ؟!

جاء دور حسين ليُمد تحت المطرقة ، ترى ماذا تقول عسى فى غيابة ؟!

— لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظن ، لقد ازدهر الفكر فى اليونان القديمة

بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرغ للعلم ..

— صحتك يا أرسطو ..

أفرغ بقية كأسه وترقب . ثم تساءل هل مرت به حال كهذه من قبل ؟ نافث الحرارة الوجدانية ينطلق في الدورة الدموية ، يجرف في طريقه الفجوة التي تتجمع بها نفايات الأكدار ، قمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة ، وهذا صدى نغمة مطربة ، وهذه ذكرى أمل واعد ، وذاك طيف بهجة عابرة ، الخمر لعاب كله السعادة .

— ما رأيك في كأسين آخرين ؟

— عمرك أطول من عمري ..

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يوميء إلى النادل بإصبعه ، ثم قال

بارتياح :

— أنت سريع الاعتراف بالجميل ..

— هذا من فضل ربي ..

وجاء النادل بالكأسين والمزة . وأخذ الزبائن يفلدون مطربشين ومقبعين ومعممين ، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألفت المرايا المتصلة بالجدران مصورا على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكر ، وترامت من الخارج ضحكات ملعلة كالأذان غير أنها تدعو للفقور ، وصوبت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم ، ثم ورد من الطريق بائع جمبرى صعيدى فبائعة فول ذات ثنتين ذهبيتين ، وماسح أحذية ، وصبي كبايجى هو في الوقت ذاته قواد كادل ترحيب الجلوس به ، وقارئ كف هندی ، ثم لا تسمع هنا وهناك إلا « صحتك » وهاما ، وفي مرة تلى رأس كمال مباشرة نظره فرأى وجهه موردا وبصره لامعا باسم ، وفيما وراء صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثم يتمضمض بحركة أرنيية ويزرد الشراب ، ثم يقول للجليشة بصوت مسموع « المضمضة بالويسكى سنة عن جد لى مات وهو يسكر » فحول كمال وجهه عن المرأة ، وقال لإسماعيل :

— نحن أسرة محافظة جدا ، أنا أول ذائق للخمر فيها ..

فهز إسماعيل منكبيه هازئا ، ثم قال :

— كيف تحكم على ما ليس لك به علم ؟، هل شاهدت شباب والدك ؟، أما
أنى فيتناول كلنا مع الغداء وأخرى مع العشاء ، وقد أمسك عن الشراب في
الخارج ، أو هذا ما يدعيه أمام والدتي ..

لعاب إله السعادة يتسرب إلى مملكة الروح ، وهذا الانقلاب الغريب الذى
حدث في لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه في أجيال وأجيال ، وهو في جملة
يجود بمعنى باهر جديد لكلمة « السحر » ، وأعجب شئ أنه لم يكن جديداً كل
الجنة فله طاف بالروح مرة ولكن متى وكيف وأين ؟، إنه موسيقى باطنية تعزفها
الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلا كقشور التفاح بالقياس إلى لبابه ، ترى
ما سر السائل الذهني الذى صنع هذه المعجزة في لحظات معدودات ؟، لعله
طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أول
مرة حرية مطلقة ونشوة خالصة ، فهذا هو الشعور الطبيعي بوثبة الحياة إذا تحررت
من ربة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل ، موسيقى رائعة
نقية تقطر طرباً وتصدر عن طرب ، مثلها طاف بروحى من قبل ولكن متى وكيف
وأين ؟، آه .. يا للذكرى .. إنها الحب !، يوم نادى « يا كمال » أسكرتك وأنت لا
تدري ما السكر فقر بأنك سكير قديم ، وأنت عريت دهرًا في طريق الهوى المخمور
المعبد بالأزهار والرياحين ، كان ذلك قبل أن يتحول قطر الندى الشفاف إلى
وحل ، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة الآلام ، فحب تسكر أو اسكر
تحب ..

— الحياة جميلة مهما قلت وأعدت ..

— هاها ، أنت الذى تقول وتعيد ..

طبع المقاتل على خد غريمه قبلة صافية فحل السلام على الأرض ، وغرد البلبل
فوق غصن ريان ، فطرب العاشقون في أربعة أركان المعمورة ، وطار طائر الأشواق
من القاهرة إلى بروكسل مارا بباريس فاستقبل بالحنان والأناشيد ، وغمض الحكيم
شباة قلمه في مداد قلبه فسجل وحيا منزلا ، ثم أوى المحرب إلى شيخوخته فألمت به
ذكرى دامعة بعثت في صدره ربيعا مكنيا ، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على
الجبين فكعبة يتجه إليها الثملون في حانات الوجد .

— كتاب وكأس وحسناء وأرمنى في البحر !

— هاها ، سيفسد الكتاب الكأس والحسناء والبحر .

— لسنا متفقين في فهم معنى اللذة ، تراها أنت هوا وعشا وهي عندي الجذ كل الجذ ، هذه النشوة الآسرة هي سر الحياة وغايتها العليا ، وما الخمر إلا بشيرها والمتال المحسوس المتاح لها ، وكما كانت الحداثة مقدمة لاختراع الطائرات ، والسمكة تمهيدا لاختراع الغواصة ، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة البشرية ، والمسألة تتلخص في هذه الكلمة : كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون الالتجاء إلى الخمر ؟. لن نجد الجواب في النضال والتعمير والقتال والسعى ، فكل أولئك وسائل وليست بغايات ، السعادة لن تتحقق حتى نفرغ من استغلال الوسائل كلها لنتمكن من أن نحيا حياة عقلية روحية خالصة لا يكدرها مكدر ، هذه هي السعادة التي أعطينا الخمر مثالها ، كل عمل وسيلة إليها أما هي فليست وسيلة لشيء ..

— الله يخرج بيتك ..

— له !؟ ..

— كان أملى أن أجدك في نشوتك محدثا طريفا لطيفا ، ولكنك كالمرضى يزيد مرضه الخمر استفحالا ، فيم تتحدث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة ؟ .
— لن أشرب أكثر مما شربت ، إلى الآن سعيد وفي وسعي أن أدعو أية امرأة تعجبني ..

— هلا انتظرت قليلا ؟

— ولا دقيقة واحدة ..

سار متأبطا ذراع صاحبه غير هياب ولا متردد ، ينتظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة ، في طريق ملتو ضيق برواده . كانت الرعوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى ، وعلى الجانبين بدت مضيغات الطريق قائمات وقاعدات يقلبن في وجوههن المقتنعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء ، ولا تمض آونة حتى يبرق أحدهم من التيار إلى إحداهن فتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحل محلها نظرة الجذ والعمل . وكانت المصاييح المركبة فوق أبواب البيوت والمقاهى تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت في أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات ، أما

الأصوات فقد تلاقت واختلطت في دوامة صاخبة دارت بها الضحكات والهاثفات
وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزيجة اليد وتصفيق الأيدي المراقصة وزعيق
الشرطي والشخير والنخير وسعال الحشاشين وصراخ السكارى واستغاثات مجهولة
وقرع عصي وغناء فردى وجماعي ، وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح
البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف . كل حسناء هنا في متناول اليد ،
تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير ، فمن كان يصدق هذا قبل أن
يراه ؟ ، وخاطب إسماعيل قائلا :

.. هرون الرشيد يخطر في بهو الحرم ..

فتساءل إسماعيل ضاحكا :

— ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين ؟

فأشار كمال إلى بيت ، وقال :

— كانت تقف عند هذا الباب الخالي ، ترى أين ذهبت ؟

— مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين ، فلينتظر مولانا حتى يقضى أحد رعاياه

وطره ..

— وأنت ألم تجد ضالتك ؟ ..

— إلى قديم عهد بالطريق وأهله ، ولكنني لن أمضي إلى وجهتي حتى أسلمك

إلى صاحبك ، ماذا أعجبك فيها ؟! ، يوجد أجمل منها كثيرات ..

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها ، وفي حنجرتها ، وتر يذكر من بعيد بثلثك

الموسيقى الخالدة ، وقد تجدد العين نوعا من الشبه بين بشرة المختنق وأديم السماء

الصفافية :

— أتعرفها ؟!

— تدعى هنا وردة ، واسمها الحقيقي عيوشة .

عيوشة — وردة !. لو يستطيع الإنسان أن يغير ماهيته كما يغير اسمه ! ، في عائدة

نفسها شيء يشبه مركب عيوشة — وردة ، وفي الدين ، وفي عهد الحميد بك

شداد ، وفي الآمال العريضة ، أواه !. لكن الخمر ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه

المتناقضات غارقة في أمواج الفكاهة المقهقهة ، مستحقة للعطف ، وشعر بكورع

إسماعيل ينزهه في جنبه وهو يقول (دورك) ، فنظر صوب الباب فرأى رجلا يغادر

البيت متعجلا ، وإذا بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أول مرة ، فاتحه نحوها بقدمين ثابتتين فتلقته بابتسامة ، ثم مضى إلى الداخل وهي في أثره تغنى « ارخى الستارة اللى فى ربحنا » .. ووجد سلما ضيقا فرق فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى دهليز يفضى إلى صالة ، وصوتها يلاحقه قائلا من حين لآخر « يمينك » ، « شمالك » ، « هذا الباب الموارب » . حجرة صغيرة موزقة الجدران ، مكونة من فراش وتسريحة ومشجب وكرسى خشب وطست وإبريق . ووقف فى وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانه . ومضت هى تعلق الباب والنافذة التى كان يترامى منها صوت دف وصفارة وتصفيق ، ولاح وجهها فى أثناء ذلك جادا بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل ساخرا عما تبيته له ، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينها طولا وعرضا ، ولما مرتا برأسه وأنفحه داخله قلق ، غير أنه أراد أن يتغلب على قلقه فاقترب منها فاتحا ذراعيه ، ولكنها استنظرتة محركة جافة من يدها وهي تقول « انتظر » فتسمر فى مكانه . بيد أنه كان مصمما على تذليل العراقيل ، فقال باسمها فيما يشبه السداجة :

— أنا اسمى كمال ..

فحدجته بنظرة داهشة وهي تقول :

— تشرفنا ! ..

— نادينى ! . قولى لى « يا كمال » ! .

فقالت وما تزدد إلا دهشة :

— لماذا أناديك وأنت أمامى كالرزية ؟!

أعوذ بالله ! . ترى أتمازحه ؟ . وازداد تصميمها على إنقاذ الموقف ، فقال :

— قلت لى انتظر ، ماذا أنتظر ؟

— فى هذا لك حق ..

قالت ذاك ، ثم نرعت ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها ، واستلقت على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء . اتسعت عيناه إنكارا ، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية ، وشعر بأن كلا منهما فى واد ، وما أبعد المدى بين وادى اللذة ووادى العمل .. انهدم فى لحظة ما أقامه الخيال فى أيام ، وجرت مرارة الامتعاض فى ريقه ، غير أن الرغبة فى الاكتشاف لم تقتر فغالب

انزعاجه ثم حرك ناظريه صوب الجسد العاري حتى استقر على هدف وبدأ حيناً كأنه لا يصدق عينيه ، وأحدٌ بصره في انزعاج وتقرُّز حتى شعر في النهاية بما يشبه الرعب . أهذه هي الحقيقة أم أنه أساء اختبار المثال ؟ ، ولكن مهما يكن من سوء اختياره فهل يغير هذا من الجوهر ؟! . ونزعم أننا نحب الحقيقة ! . شد ما ظلموا رأسك وأنفك ! . وحدَّثته نفسه بالهرب ، وأوشك أن يصغى إليها ، ولكنه تساءل فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه ؟ . وماذا يقول لإسماعيل إذا عاد إليه ؟ . كلا لن يهرب ، لن يتراجع أمام المحنة ..

— مالك واقفا كالتمثال ؟

هذه النبوة التي هزت الفؤاد ، لم تكذب الأذنان ولكن الجهل كذاب ، سوف تضحك كثيرا من نفسك ولكن وأنت ظافس لا هارب ، هب الحياة مأساة فعليك أن تلعب دورك .

— أتقف هكذا حتى الفجر ؟!

قال بهدوء غريب :

— نطفىء النور ..

فهبت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحذر :

— بشرط أن أراك في النور ! .

تساءل في إنكار :

— له ؟ .

— حتى أطمئن إلى صحتك ! .

وتجرد للاختبار الصحي في منظر بدا له آية في الهزل ، ثم ساد ظلام دامس .

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبا فاترا مليئا بالحزن ، وخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون تدهورا مؤلما وأن الخلاص منه بعيد .

ورأى إسماعيل مقبلا نحوه راضيا ساخرا متعبا وهو يتساءل :

— كيف حال الفلسفة ؟

فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جادا :

— هل النساء جميعا متشابهات ؟

فألقي عليه الشاب نظرة متسائلة ، فأفصح له كمال عن شكوكه وخوافه في عبارة موجزة ، فقال إسماعيل ياسما :

— على العموم الأصل واحد وإن اختلفت الأعراض !. إنك مضحك للدرجة تستحق الرثاء ، هل أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى ؟

— بل سأعود أكثر مما تظن ، دعنا نشرب كأسا أخرى ..

ثم وكأنه يحدث نفسه :

— الجمال .. الجمال !. ما هو الجمال ؟

تأقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل ، وحن إلى ذكرى الحياة التي عايشها معذبا في ظل المعبودة ، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد . أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه ؟ سار متفكرا في طريق الحانة يكاد لا يلقى بالا إلى ثثرة إسماعيل . إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم ، ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة ، اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الأنفاس . ارض بالآلم حتى تخلق نفسك من جديد ، هذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها . عمر من التعب تتخلله سويغات من الخمر ..

٣٦

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده ، جاء ثملا يترنم بصوت هامس ، غير هياب وهو يشق بين تيار البشر الصاخب سبيلا ، ووجد باب وردة خاليا ولكنه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب ، وإنما قصد البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى إلى الدهليز ، وهناك مد بصره إلى الباب المغلق الذي بدا ضوء في ثقب مفتاحه ، ثم مال إلى حجرة انتظار فألفاها لحسن الحظ خالية وجلس على مقعد خشبي ماداً ساقه في ارتياح . وبعد مرور دقائق سمع صرير الباب وهو يفتح

فتوثب للقيام ، وغادر الرجل الآخر الحجرة كما نمت عليه أقدامه متجها نحو السلم ، فترى لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز ، فرأى وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب الفراش ، فلما لمحت ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى مجلسه دقيقة واحدة ، فعاد من حيث أتى وهو يبتسم في ثقة ، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضانة . ولم تكد تمر دقيقة على جلوسه حتى ترمى إليه وقع أقدام صاعدة فاستقبلها بضيق ، لأنه يكره البقاء مع غيره من المنتظرين غير أن القادم اتجه نحو حجرة وردة ، وما لبث كمال أن سمع المرأة وهي تخاطب القادم قائلة بركة :

— عندى زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر ..

ثم رفعت صوتها منادية إياه وهي تقول « تفضل » ، فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم في الدهليز ، وجد نفسه وجها لوجه مع ياسين !. التقت عينهما في نظرة ذاهلة ، وسرعان ما غض كمال جفنيه وهو يلذوب خجلا وارتباك واضطرابا ، وأوشك أن يندفع هاربا لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رنت في سقف الدهليز رنينا عجميا ، فرفع الشاب إليه عينيه فرآه فاتحا ذراعيه وهو يهتف في سرور :

— يا ألف ليلة بيضا ..! يا ألف نهار سلطاني !.

وقهقهه عاليا فتعلق به نظر كمال في ذهول ، ولما طالع فيه المرح الصافي جعل يفيق إلى نفسه حتى ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة متسائلة ، ثم رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء . وراح ياسين يقول بصوت خطائي :

— هذه ليلة سعيدة ، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، ليلة سعيدة حقا ، ويجب أن نحتفل بها كل عام ، ففيها تكاشف أخوان ، وفيها ثبت أن صغير الأسرة يتقدم حاملا لواء تقاليدنا المجيدة في عالم اللذات ..!

وعند ذاك جاء وردة وهي تسأل ياسين :

— صديقك ؟

فقال ياسين ضاحكا :

— بل أخي ابن أبي وأ ... كلا ابن أبي فقط ، أرايت أنك معشوقة الأسرة يا بنت اللذين ؟!

فتمتمت قائلة « عفارم » ، ثم خاطبت كمال قائلة :

— واجب الأدب يقضى بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو ..
 فضحك ياسين ضحكته الكبيرة ، وقال :
 — واجب الأدب !. منذ الذى علمك آداب الوصل ؟!. تصورى أخا ينتظر
 أخاه على الباب !. ها .. ها ..
 فرمقته بنظرة تحذير وهى تقول :
 — اضحك بصوتك الخفيف حتى تسمع البوليس يا سكير ، ولكنك تعذر ما
 دام أخوك النونو لا يجيئنى إلا مترنحا !.
 حدىج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار ، ثم قال :
 — أعرفت هذا أيضا !، رياه حقا إنا أولاد حلال ، أولاد حلال بالمعنى ، قرب
 فاك لأشمه !. ولكن لا فائدة من ذلك فالسكران لا يشم رائحة السكران ، خبرنى
 الآن : مارأيك فى هذه الحكمة التى تعلمتها من الحياة لا من الكتب ؟.. (ثم وهو
 يشير إلى وردة) .. إن زيارة واحدة لبنت الملسوعة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب
 محرمة ، إذن فأنت تسكرى يا كمال ؟! يا ألف نهار أبيض !. نحن أصدقاء من قديم
 الزمان ، أنا أول من عد ..
 — الله الله !.. هل أنتظر حتى مطلع المعجر !.
 دفع ياسين كمال وهو يقول :
 — ادخل معها وسوف أنتظر أنا ..
 ولكن كمال تفهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع ، ثم تكلم لأول مرة قائلا :
 — كلا .. ليس .. ليس الليلة .
 ودس يده فى جيبيه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة . فهتف ياسين
 بإعجاب :
 — تحيا الشهامة !، لكننى لن أتركك وحدك ..
 وريت كتف وردة مودعا ، ثم تابط ذراع كمال وذهبا معا حتى غادرا البيت ، قال
 ياسين :
 — يجب أن نحتفل بهذه الليلة ، فلنمض بعض الوقت فى بار ، إلى عادة
 أشرب فى شارع محمد على مع نفر من الموظفين وغيرهم ، ولكن المكان غير
 مناسب لك فضلا عن بعده ، فلنختر مكانا قريبا حتى نتمكن من العودة

مبكرين ، بت حريصا مثلك على العودة المبكرة منذ زواجي الأخير ، أين سكرت يا بطل ؟ ..

غمغم كمال في حياء :

— فنش ..

— عال !، هلم بنا إليه ، تمتع بوقتك دون تهاون ، فغدا حين تصبح معلما سيتعذر عليك زيارة هذا الحى ببيوته وحاناته (ثم وهو يضحك) : تصور أن يلقاك هنا أحد تلاميذك !، على أن ميدان اللهو واسع وسوف تتدرج فيه من حسن إلى أحسن ..

ومضيا إلى فنش صامتين — كان من حسن الحظ أن العلاقة بين ياسين وكمال لم تفتت بعد هجرة ياسين للبيت القديم ، ولم يكن بينهما كلفة ، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التى تكفلها له مكانته فى الأسرة ، إلى أن مخالطة كمال له وإطلاعه على سيرته عن كتب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء ، ولكنه رغم هذا كله قد بوغت بلقائه فى بيت وردة مباغثة عنيفة ، إذ لم يذهب به الخيال إلى حد تصور ياسين سكريا أو متسكعا فى هذا الدرب !، وبمرور الوقت أخذ يتخفف رويدا رويدا من وقع المفاجأة ، كما مضى الشعور بالانزعاج يرايله ، ثم حل محله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح . ولما بلغا فنش وجداه مكتظا بالجلوس ، فاقترح ياسين أن يجلسا فى الخارج ، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق ليبتعدا ما أمكن عن الناس ، ثم جلسا متقابلين وهما يتسمان :

— أشريت كثيرا ؟

أجاب كمال بعد تردد :

— كأسين ..

— لا شك أن لقاءنا غير المتوقع طير أثرهما ، فلنعد الكرة ، أما أنا فلا أشرب إلا قليلا ، سبعة أو ثمانية ..

— يا خبر !. أبعد هذا قليلا !؟

— لا تدهش كالسذج فإنك لم تعد ساذجا ..

— على فكرة ، قبل شهرين لم أكن أدرى شيئا عن طعمها ..

فقال ياسين كالمستكر :

— شهرين !!، يبدو أنى احترامك أكثر مما تستحق !.

وضحكا معا . ثم طلب ياسين كأسين ، وعاد يتسائل :

— ومتى عرفت وردة ؟

— عرفت وردة والويسكى فى ليلة واحدة ..

— وما خبرتك بالنساء عدا ذلك ؟

— لا شىء ..

فحنى ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطبا فى ابتسام ، كأنما يقول له « اطلع من دول » ، ثم قال :

— إياك وادعاء البلاهة ، لم يفتنى أن أطلع فى زمن مضى على مناورات كانت تلور بينك وبين بنت أبو سريع صاحب المقل ، تارة بالعين وتارة بالإشارة ، هه ؟ ، هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت ، ولكن لا شك أنك قنعت بالعبث السطحي حتى لا تجد نفسك مضطرا إلى مصاهرة عم أبو سريع ، كما صاهرت حماقى السابقة ييومى الشربلى ، هه ؟ ، وها هو قد أصبح من ذوى الأملاك وجاركم الملاصق !، ترى أين اختفت مريم ؟ ، لا أحد يعلم عنها شيئا ، كان أبوها رجلا طيبا ، ألا تذكر السيد محمد رضوان ؟ ، فانظر ما آل إليه بيته ؟ !، لكنها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت !

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلا :

— والرجل ألا يلحقه من استهائته شىء ؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة ، وقال :

— الرجل غير المرأة يا طويل اللسان ، خبرنى كيف حال والدتك ؟ ، الست الطيبة ، ألا زالت حانقة على حتى بعد طلاق مريم ؟ .

— لا أظنها تذكر شيئا من الأمر كله ، قلب أبيض كما تعلم ..

فأمن على قوله ، ثم هز رأسه كالأسف . وجاء النادل بالشراب والمزة ، وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول : « صحة آل أحمد » ، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يسترد ما ذهب من مرجه ، وقال ياسين بفم مملوء بالخبز الأسود والجن :

— كان يخيل إليّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك ، كما كان المرحوم ،
فتنبأت لك بالاستقامة ، ولكنك ، ولكننا ..
وحده كمال بنظرة متسائلة ، فعاد يقول باسمنا :
— لكننا خلقنا على مثال أيينا ..
— أيينا !، إنه الجد الذي لا تطاق معه الحياة !..
فقهره ياسين عاليا ، وترث قليلا ، ثم قال :
— إنك لا تعرف أباك ، وقد كنت أجهله مثلك ، ثم تكشف لي عن رجل
آخر قل أن يجود الزمان بمثله .
وتوقف عن الكلام ، فقال كمال بحب استطاع واهتمام :
— ماذا عرفت مما لم أعرف ؟..
— عرفت أنه قطب اللطافة والطرب ، لا تحملق في كالمعتوه ، ولا تظنني
سكران ، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق !
— أي ؟..
— أول ما عرفته في بيت زبيدة العالمة ..
— زبيدة ماذا ؟.. ها .. ها ..
ولكن وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل ، فكف كمال عن الضحك قبل أن
تزايل أساريره هيئة الضحك ، ثم أخذ فمه يضيق رويدا رويدا حتى انطبقت شفتاه
فحملق في وجه أخيه صامتا وهذا يحدثه عما رأى أو سمع عن أييهما في تبسط
وإسهاب . هل يفترى ياسين على أبيه كذبا ؟. كيف يمكن أن يقع هذا وأى
بواعث تبرره ؟. كلا إنه لا ينطق إلا بما علم ، وهذا إذن هو أبوه ، رباه ! والجد
والجلال والوقار ما أمرها ؟! إذا سمعت غدا أن الأرض مسطحة أو أن أصل الإنسان
هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج ، وأخيرا تساءل :
— أتندري والدتي بذلك ؟
ياسين وهو يضحك :
— لا شك أنها تدرى بسكره على الأقل ..
تري كيف كان أثر ذلك في نفسها هي التي تفرع من لا شيء ؟!، أ تكون أمي
— مثلي — ظاهرا من السعادة وباطنا من الشقاء ؟!. قال وكأنه ينتحل أسبابا

للدفاع لا يؤمن بها :

— الناس هواة مبالغة فلا تصدق جميع ما يزعمون ، ثم إن صحته تدل على أنه رجل معتدل في حياته .

فقال ياسين بإعجاب ، وهو يشير إلى النادل أن يعيد الكرة :

— إنه أعجوبة !. جسمه معجزة ، وروحه معجزة ، كل شيء فيه معجزة ، حتى طول لسانه (ضحك منهما معا) .. تصور أنه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى !.. ما أضيعني !..

تأمل هذه العجائب : أنت وياسين تشاربان ! أبوك شيخ ماجن ! هل ثمة حقيقى وغير حقيقى ؟! ما علاقة الواقع بما فى ربوسنا ؟، ما قيمة التاريخ ؟، ما العلاقة بين عابدة المعبودة وعابدة الحبلى ؟، أنا نفسى ما أنا ؟! لماذا تأملت ذلك الأثم الوحشى الذى لم أبرأ منه بعد ؟، اضحك حتى تنفق .

— ما عسى أن يقع لو رأنا بمجلسنا هذا ؟

فرقم ياسين بأصبعه ، ثم قال :

— أعوذ بالله !.

— وهل زبيدة جميلة حقا ؟

فصفر ياسين وهو يرفع حاجبيه :

— أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدم ، على حين لا نجد نحن إلا الفتات ؟

— انتظر حظك ، ما زلت فى أول الطريق .

— ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سره ؟

— إلا هذا !

لاحظت نظرة حاملة فى عينى كمال وهو يقول :

— ليت أعطانا من لطفه نصيبا !

— ليت ..

— ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد !

— حب النساء والخمر ليس من الفساد فى شيء ..

— وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق ؟

— وهل أنا كافر ؟!، وهل أنت كافر ؟!، وهل كان الخلفاء كفرة ؟، الله غفور

رحيم ..!

ما عسى أن يكون جواب أوى ؟ ، شد ما أتوق إلى مناقشته ، كل شيء محتمل إلا أن يكون منافقا ، كلا ليس هو بالمنافق ، وما أزداد له إلا حبا .! وغمرته الجرعة الأخيرة رغبة في الدعابة ، فقال :

— من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل .!

فضحك ياسين ضحكة عالية ، وقال :

— لو علم بما يتهدد للمثل من حياة حافلة بالنساء والخمر لكرس حياته للفن ..! أهذا الكلام الهازيء عن السيد أحمد عبد الجواد حقا ! ، ولكن هل يكون هو أجمل من آدم ؟ ، ومع ذلك فالمصادفة وحدها هي التي عرفتكم بحقيقة الرجل ، والمصادفة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار ، لو لم أصادف ياسين في الدرب لما انقشعت عن عيني غشاوة الجهل ، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى القراءة لكنت اليوم في مدرسة الطب كما تمنى أوى ، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عائدة ، ولو لم أعرف عائدة لكنت إنسانا غير الإنسان ولكان الكون غير الكون ، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة في تفسير آلية مذهبه . قال ياسين مستعبرا لهجة الحكيم :

— سوف تعلمك الأيام ما لم تعلم .:

ثم وهو يسخر من نفسه :

— ها هي تعلمني أن أقضى لذاتي مبكرا حتى لا أثير شكوك زوجتي ..

وهز رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسمتين ، ثم استطرد :

— إنها أقوى زوجاتي الثلاث ، ويخيل إلى أنني لن أنخلص منها !

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب :

— ما الذي جاء بك إلى هذا وأنت متزوج للمرة الثالثة ؟

فردد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أول ما سمعها في دخلة عائشة :

— علشان كده .. علشان كده .. علشان كده ..

ثم قال مبتسما في شيء من الارتباك :

— قالت لي زنوبة مرة « أنت لم تتزوج قط ، كنت تعتبر الزواج نوعا من

العشق ، وقد آن لك أن تنظر إليه يعين الجد ، ، أليس غريبا أن يصدر هذا القول عن عوادة ؟! ، ولكنها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجية من سابقتها ، وهى مصممة على أن تبقى زوجة لى حتى تغمض عيني ، لكننى لا أستطيع أن أقام النسوان ، سرعان ما أحبهن وسرعان ما أمتهن ، لذلك عمدت إلى هذه الدروب لأقضى اللبانة مبكرا دون التورط فى عشق طويل ، ولولا الملل ما سعت إلى امرأة فى درب طياب !.

فسأله كمال باهتمام متزايد :

— أليست هى امرأة ككل النساء ؟

— كلا ، إنها امرأة بلا قلب ، الهوى عندها سلعة !

فعاد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل :

— ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى ؟

هز ياسين رأسه فى زهو إدلالة بالمكانة التى وضعته فيها أسئلة كمال ، ثم أجاب بلهجة خبير :

— درجة المرأة تتقرر فى كادر النساء تبعا لمزاياها الأخلاقية والعاطفية بصرف النظر عن أسرتها ومركزها ، فزنوبة مثلا أفضل عندى من زينب لأنها أعمق عاطفة وأشد إخلاصا وحرصا على الحياة الزوجية ، ولكنك فى النهاية تجدهن شيئا واحدا ، عاشر الملكة بلقيس نفسها فلا يحصى من أن تجدها آخر الأمر منظرا معادا ونغمة مكررة ..

خبا اللمعان فى عيني كمال ، ترى هل أمست عابدة منظرا معادا ونغمة مكررة ؟! ، ما أبعد هذا التصور عن التصديق ! ، ولكن ما أنت إلا صريع الواقع ، وحتى الشماتة بها تكبر عليك وتعز ، وإنه لما يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذى تذهب النفس حسرة عليه أنه كان فى وسع الأيام أن تجعل منه منظرا معادا ونغمة مكررة ، بل أى الحالين أحب إليك إن استطعت جوابا ؟ ، غير أنى أتحسر أحيانا على الملل من شدة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل ، وارفغ رأسك أخيرا إلى رب السماوات وسله عن حل سعيد :

— ألم تحب أبدا ؟

— إذن ما هذا الذى أنا غارق فيه ؟!

— أعنى حبا حقيقيا لا هذه الشهوة العابرة..؟

أفرغ كأسه الثالثة ، ومسح على فمه بظاهر كفه ، ثم فتل شاربه وقال :

— لا تؤاخذنى ، الحب يتركز عندى فى بعض مواضع كالقمم واليد الخ الخ .

ياسين جميل ، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه ، ولكنه بما قال يبدو حقيقا بالثناء ، كأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا أن يحب ، ولكن ما جدوى ذلك وما جنيت من الحب إلا الألم ١٩. واستطرد ياسين قائلا ، وهو يخنّه بالإشارة على الفراغ من كأسه :

— لا تصدق ما يقال عن الحب فى الروايات ، الحب عاطفة أيام أو أسابيع مع

حسن الظن !

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحب ممكن ؟ ، لم أعد كما كنت ، إني أتسلل من جحيم العذاب فتشغلنى الحياة حينما حتى أرجع إليه ، وكان الموت قبلتى واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل ، العجب أنك تتور على فكرة النسيان كلما خطرت ، كأنما تعاني تبكيت الضمير ، أو لعلك تخاف أن ينكشف أجل ما قدست عن وهم ، أو أنك تأبى على يد العدم أن تعبث بالحياة الرائعة التى بدونها تغدو ومن لم يولد سواء ، لكن ألا تذكر لم بسطت الراحتين داعيا الله أن ينتشلك من العذاب وأن يلهمك النسيان ١٩.

— ولكن الحب الحقيقى موجود ، نقرأ حوادثه فى الصحف لا فى الروايات ..

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

— بالرغم من أننى مبتلى بحب النسوان فإننى لا أعترف بهذا الحب ، إن المآسى

التي نقرأ أخبارها تتحدث فى الواقع عن شبان غير مجربين ، أسمعت عن مجنون ليلى ؟ ، لعل له نظائر فى هذه الحكايات ، ولكن المجنون لم يتزوج من ليلى ؟ ، دلتى على شخص واحد جن بحب زوجته ! ، وا أسفاه ! ، إن الأزواج عقلاء جدا ، عقلاء ولو كرهوا ، أما الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها ، لأنها لا تقتنع بأقل من أن تزود زوجها ، ويخيل إلى أن المجانين يصيرون عشاقا لأنهم مجانين لا أن العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق ، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنما يتحدثون عن ملاك ، والمرأة ليست إلا امرأة ، طعام لذيد سرعان ما تشبع منه ، دعهم يشاركونها الفراش ليطلعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشموا رائحة عرقها وسائر الروائح التى قد تصدر

عنها وليحدثوني بعد ذلك عن الملاك . فتنة المرأة ما هي إلا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع في الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدمي على حقيقته : لذلك فالأبناء ومؤخر الصناديق والنفقة الشرعية هي سر قوة الزواج لا الجمال أو الفتنة .. ما كان أجدره أن يغير رأيه لو رأى عايده ، غير أنه ينبغي أن تفكر من جديد في أمر الحب . كنت تراه وحيا ملائكيا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التي تتشوف إلى اقتحامها ، بذلك تقف على سر مأساتك وتكشف النقاب عن سر عايده المكنون ، لن تجدها ملاكا ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه ، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائع فما أتعننى !

قال كمال بأسى لم يفتن إليه أخوه :

— الإنسان مخلوق قدر ، ألم يكن من الممكن أن يخلق خيرا وأنظف مما كان ؟!
رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات ، وقال بسرور عجيب :
— الله .. الله ، النفس شغست واستحالت أغنية ، وانقلبت الأعضاء آلات طرب ، والدنيا حلوة ، والكائنات حبيبة للقلب ، والجو عذب ، والحقيقة خيال ، والخيال حقيقة ، أما المنغصات فأسطورة ، الله .. الله ، ما أجمل الخمر يا كمال ، الله يطول عمرها ويديمها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشرها حتى آخر العمر ، ويخرب بيت الذي يمسه بسوء أو يتقول عليها بغير الحق ، تأمل هذه النشوة الخلوة ، تأمل ، أغمض عينيك ، هل وجدت لذة كهذه ؟ .. الله .. الله .. الله (ثم وهو يخفض رأسه ناظرا إلى كمال) .. ماذا قلت يا ولدى ؟ .. الإنسان مخلوق قدر ؟ .. أساءك ما قلت عن المرأة ؟ .. لم أتكلم لأثير اشتزازك منها ، الواقع أني أحبها ، أحبها بكل ما فيها ، ولكنني أردت أن أبرهن لك على أن المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدري إن كنت أحبها إن وجدت ! .. فإني مثلا — كأنيك — أحب الأرداف الثقيلة ، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذر عليه الطيران ، أفهمني جيدا ولا تسيء فهما وحياة أيينا السيد أحمد ..

وما لبث كمال أن شاركه نشوته ، فقال :

— لشد ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرت الخمر في الروح ..!

— يسلم فمك ، حتى النغمة المألوفة يترنم بها شحاذ الطريق تقع من الأذن موقع

السكر ..

- حتى أحزاننا تبدو كأنها أحزان شخص آخر ..
- بخلاف نساء الشخص الآخر ، فإنها تبدو وكأنها نساؤنا ..
- هما شيء واحد يا بن أوى ..
- الله .. الله ، لا أريد أن أفيق ..
- من رذالة الحياة أنها لا تمكننا من الاستمرار في السكر كما نهوى ..
- ليكن في معلومك أنني لا أرى في السكر لهوا ، ولكن غاية سامية كالمعرفة والمثل الأعلى ..

- إذن فأنا فيلسوف كبير !
- عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك ..
- الله يطول عمرك يا أوى ، فقد أنجبت فلاسفة مثلك !
- لم يبدو الإنسان تعيسا مع أنه لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر القوارير ، وامرأة وما أكثر النساء ؟!
- له ..؟ له ..؟
- سأجيبك عندما أشرب كأسا أخرى ..
- كلا ..

- قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة ، ثم استطرد محذرا :
- لا تفرط ، إلى شريكك الليلة فأنا مسئول عنك ، كم الساعة الآن ؟ ..
- وأخرج ساعته فنظر فيها ، ثم هتف :
- منتصف الواحدة ، وقع المخنور يا بطل ، كلانا قد تأخر ، وراءك أبونا وورائى زنوبة ، قم بنا ..

ولم تمض دقائق حتى غادرا البار ، فاستقلا عربة انطلقت بهما صوب العتبة ، دارت العربة حول سور الأزيكية في طريق يسوده الظلام ، وبين أونة وأخرى يرى عابر مهولا أو مترنحا ، وكلما مرت العربة بشارع مقاطع ترامي إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطبية ، أما فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألفت النجوم اليواظ .

قال ياسين ضاحكا :

- أستطيع الليلة أن أحلف غير متعرج بأننى لم آت منكرا ..

فقال كمال فى شىء من القلق :
 — أرجو أن أصل إلى البيت قبل أنى ..
 — الخوف شر أنواع التعاسة ، لتحيا الثورة !.
 — أجل لتحيا الثورة !
 — لتسقط الزوجة المستبدة !.
 — ليسقط الأب المستبد !.

٣٧

طرق كمال الباب فى خفة حتى فتح عن شبح أم حنفى ، ولما عرفته قالت بصوت
 هامس :

— سيدى الكبير على السلم ..
 فانتظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى الدور الأعلى ، غير أن صوته
 جاء من داخل السلم وهو يسأل بشدة :
 — من الطارق ؟
 ، فخفق قلبه ولم ير بدا من التقدم وهو يجيبه :
 — أنا يا بابا ..

تراءى له شبح أبيه على بسطة الدور الأول على حين لاح ضوء المصباح الذى
 تمسك به الأم فى أعلى السلم ، ونظر السيد إليه من فوق الدرازين ، وهو يتساءل فى
 دهش :

— كمال ؟ .. ما الذى أتحرك خارج البيت حتى هذه الساعة ؟
 أتحركى الذى أتحرك ..
 قال بإشفاق :
 — ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقررة علينا هذا العام ..
 فصاح ساخطا :
 — هل أصبحت المذاكرة فى المسارح ؟! ألا يكفى أن تقرأ وتحفظ ؟ ، كلام
 فارغ سمع ، ولم لم تستأذنى ؟.

توقف كمال على بعد درجات من موقف أبيه ، وقال معتذرا :
— لم أتوقع أن تمتد السهرة إلى هذه الساعة المتأخرة .
فقال الرجل بغضب :

— شف لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعذار السخيفة ..
ومضى يرقى في السلم وهو يدمدم ، فترامت إليه كلمات من دمدمة مثل
« مذاكرة المسارح على آخر الزمن » ، « الساعة واحدة بعد منتصف الليل » ،
« حتى الأطفال » ، « ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقررة » . ارتقى السلم حتى الدور
الأخير ومضى إلى الصالة ، فتناول مصباحا مضاء من فوق منضدة ودخل حجرة
مكفهر الوجه ، وضع المصباح على المكتب ووقف مستندا بكلتا يديه يتساءل عن
تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكره على وجه التحديد ، ولكنه كان واثقا من
أن سنوات دراسته العالية مرت في سلام وكرامة ، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه
— رغم أنه لم يواجه بها — موقعا أليما . وتحول عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في
نزع ملابسه ، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وحزع في معدته ، فغادر
الحجرة مسرعا إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه في عنف ومرارة ، وعاد إلى
الحجرة مرة أخرى منهوك القوى متقرز النفس يجث في صدره ألما أشد وأعمق ، وخلع
ملابسه وأطفأ المصباح ثم استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر ، ولكن لم
تمض دقائق حتى سمع الباب وهو يفتح يرفق ، ثم جاءه صوت أمه متسائلا في
إشفاق :

— نمت .. ؟

فقال بلهجة طبيعية راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه :

— نعم ..

فنداني شبحها من الفراش حتى وقفت فوق رأسه ، ثم قالت كالمعتذرة :

— لا تتكدر ، أنت أعلم الناس بأبيك ..

— مفهوم .. مفهوم !

فقال وكأنما أرادت أن تفصح عما ساورها هي :

— إنه مطلع على جدك واستقامتك ، ومن هنا جاء إنكاره لتأخرك غير المألوف

حتى هذه الساعة ..

فركبه الغيظ حتى لم يتمالك من أن يقول :
 — إذا كان السهر يستوجب كل هذا الإنكار ، فلماذا يواظب هو عليه ؟!
 حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار ، لكنه سمعها
 تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد ، وقالت :
 — كل الرجال يسهرون ، وسوف تصير رجلا عما قريب ، أما الآن !. وأنت
 طالب ..

فقاطعها قائلا بلهجة من يود الفراغ من الحديث :
 — مفهوم .. مفهوم ، لم أقصد بقولي شيئا ، لماذا تعبت نفسك بالجىء إلى ؟.
 عودي مصحوبة بالسلامة ..
 قالت برقة :

— خفت أن تكون متكبرا ، سأتركك الآن ولكن عدنى بأن تنام صافى
 النفس ، اقرأ الصمدية حتى يأتيك النوم ..

وشعر بابتعادها ، ثم سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول « مساء الخير » . نفخ
 مرة أخرى ، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملق في الظلام .. أما مذاق الحياة كلها
 فكان مرا ، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة ؟ ، وما هذا الكرب الخانق الذى حل
 محلها ؟ ، ما أشبهه بحببة الحب التى ورثت أحلامه السماوية ، ومع ذلك فلولا الأب
 ما انقلب حاله . هذه القوة الجبارة التى يخافها كل الخوف ، يخافها ويحبها معا ،
 ما كنهها ؟ . ليس إلا رجلا لولا مرجه الذى خص به الغرباء لم يكن شيئا ، فكيف
 يخافه ؟ . وحتى متى يدعن لقوة هذا الخوف ؟ . إنه وهم كسائر الأوهام التى امتحن
 بها ، ولكن ما جدوى المنطق فى مقاومة العواطف الثابتة ؟ . وقد قرعت يده يوما
 أبواب عابدين فى المظاهرة الكبرى التى تحدث الملك هاتفة « سعد أو الثورة » ،
 فترجع الملك واستقال سعد من الوزارة ... أما حيال أبيه فإنه يصير لا شيء . كل
 شيء تغير مدلوله ومعناه ، الله .. آدم .. الحسين .. الحب .. عابدة نفسها ..
 الخلود . قلت الخلود ؟ . نعم ، فيما يجرى على الحب وفيما جرى على فهمي ، ذلك
 الأخ الشهيد الذى استضافه الفناء إلى الأبد ، أتذكر التجربة التى قمت بها وأنت فى
 الثانية عشرة من عمر لا تعرف مصيره المجهول ؟ .. يا للذكرى الحزنة !. اقتنصت
 عصفورة من عشها ثم خنقتها ، وكفتها وحفرت لها قبرا صغيرا فى فناء البيت على

كتب من البئر القديم ثم دفنتها فيه ، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة ، فماذا رأيت وماذا شممت ؟. وذهبت إلى أمك باكية تسألها عن مصير الميت ، كل ميت ، ومصير فهمى خاصة فلم يصدق عنها إلا إفحامها في البكاء ، فماذا بقى من فهمى بعد سبع سنوات ؟. وماذا سيبقى من الحب ؟. وعم تمخض الأب الجليل ؟.

ألفت عيناه ظلام الحجرة فترأى المكتب والمشجب والكرسى والصوان أشباحا قائمة ، وندت عن الصمت نفسه أصوات مبهمه ، وامتلا رأسه بالأرق المحموم ، أما مذاق الحياة فازداد مرارة ، وتساءل هل غط ياسين في نومه ؟، وعلى أى حال كان لقاء زنوبة له ؟، وهل أوى حسين إلى فراشه الباريسى ؟، وعلى أى جانب تنام عايدة الآن ؟، وهل تكور بطنها وانداح ؟، وماذا يفعلون في نصف الكرة الآخر الذى تربيع الشمس في كبد سمائه ؟. والكواكب المنيرة ، أليس ثمة حياة تعمرها خالية من التعاسة ؟، وهل يمكن أن يسمع أنينه الخافت في ذلك الأوركسترا الكونى اللانهاى ؟.

أى !، دعنى أكاشفك بما في نفسى ، لست ساخطاً على ما تكشف لى من شخصك ، فإن ما كنت أجهله منك أحب إليّ مما كنت أعرف ، إني معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك ، ذلك الجانب الدميث منك الذى يعيشه جميع عارفيه ، وهو إن دل على شيء فعلى حيويته وهيامك بالحياة والناس ، ولكنى أسألك لم ارضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظ الخفيف ؟. لا تعتل بأصول الترية فأنت أجهل الناس بها ، وآى ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكى ، فما فعلت إلا أن أذيتنا كثيراً وعذبتنا كثيراً بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك ، لا تجزع فإنى ما زلت أحبك وأعجب بك ، وسأبقى على الدوام مخلصاً لحبك والإعجاب بك ، غير أن نفسى تضمر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتنى من ألم ، لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء ، ولكن عرفناك حاكما مستبدا تترسا طاغية ، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل « علو عاقل خير من صديق جاهل » ، لذا سأكره الجهل أكثر من أى شيء في الحياة ، فهو المفسد لكل شيء حتى الأبوة المقدسة . خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك ، وأنى أعاهد نفسى — إذا صرت يوما أباً — أن أكون لأبنائى الصديق قبل

أن أكون المرنى ، غير أنى ما زلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زابتك صفات
الألوهية التي توهبتها فيما مضى عيناي المسحورتان . أجل لم تعد قوتك إلا
أسطورة ، فليست مستشارا كسليم بك ولا غنيا كشداد بك ولا زعيما كسعد زغلول
ولا داهية كفروت ولا نبيل كعدلى . ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا ، وما هو
بالقليل ، فليتك لم تضن علينا بصداقتك ، ولكن لست وحدك الذى تغيرت
فكرته ، الله نفسه لم يعد الله الذى عبدته قديما ، إلى أغربل صفات ذاته لأنقيها من
الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية ، ولست أدري أين
ينبغي أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه ، بل إن نفسى تحذرنى
بأنى لن أقف عند حد وبأن النصال على عذابه خير من الاستكانة والنوم — قد لا
يهمك هذا بقدر ما يهيك أن تعلم أنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك ، استبدادك
الذى يعيش أنى كما يعيش أنى هذا الظلام المحيط ، والذى يؤلمنى كما يؤلمنى هذا الأرق
اللعين ، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لى ، وأأسفاه ! ، إذا كانت الخمر أيضا
وهما خادعا فما بقى للإنسان ؟ . أقول لك إنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك ،
لا بالتحدى والعصيان فأنت أكرم على نفسى من أن أفعل بك هذا ، ولكن
بالهجرة ! ، أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمى ، وفى أحياء القاهرة
متسع لكل مضطهد ، أتدري ماذا كانت عواقب حبي لك رغم استبدادك لى ؟ أنى
عبدت مستبدا آخر طالما ظلمنى بظاهره وباطنه معا ، استبدى دون أن يجنى ،
ورغم ذلك كله عبدته من أعماقى ولا زلت أعبده ، فأنت أول مسئول عن حبي
وعذابى . ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة ؟ ، لست مرتاحا إليها ولا
متحمسا لها ، ومهما يكن من واقعية الحب فلا شك أنه يرجع إلى أسباب أعمق
أصالة فى النفس ، فلتتركها الآن معلقة حتى نعود إليها بالدرس فيما بعد ، وعلى أى
حال فأنت يا أبى الذى هونت على الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد
لى ، وأنت يا أمى لا تحملقى فى وجهى بإنكار أو تنساعلى ما ذنبى وما جنيت على
أحد ، إنه الجهل . هو جناتك . الجهل .. الجهل .. الجهل . أنى هو الفظاظة
الجاهلة ، وأنت الرقة الجاهلة ، وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين ،
وجهلك أيضا هو الذى ملأ روحى بالأساطير ، فأنت همزة الوصل بينى وبين عالم
الكهوف . وكأشقى اليوم فى سبيل التحرر من آثارك كما سأشقى غدا فى سبيل

التحرر من أى ، وما كان أحراكا أن توفرا على هذا الجهد المضنى ، لذلك أقترح — وظلام هذه الحجرة شهيد — أن تلغى الأسرة — هذه الحفرة التى يتجمع فيها الماء الآسن — وأن تزول الأبوة والأمومة ، بل هبنى وطننا بلا تاريخ وحياة بلا ماض ، ولننظر الآن فى المرأة فماذا نرى ؟ ، هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير . أعطيتنى أنفك يا أبى دون مشورة أو رحمة فأنت تستبد بى حتى قبل أن أولد ، ومع أنه يبدو فى وجهك مهيبا جليلا فإنه — بذاته وشكله — يلوح مضحكا فى صفحة وجهى الضيقة كأنه جندي إنجليزى فى حلقة ذكر ، وأعجب منه رأسى لأنه لا إلى فصيلة رأسك ينتمى ولا إلى فصيلة رأس أمى فعن أى جد بعيد انحدر إلى ؟ فليظل ذنبه معلقا فوق رأسيكما حتى يتضح لى الحق . قبيل النوم يجب أن نقول « الوداع » فقد لا يطلع الصبح علينا . إني أحب الحياة رغم ما فعلته بى على طريقة حبي إياك يا أبى . وفى الحياة أشياء جديدة بالحلب وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف ، غير أن النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن ، والراجع أئى لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعا أيها الخمر ، ولكن مهلا . أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقدا العزم على ألا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير ، ويخيل إلي أن الإنسانية تكن مثلى من الخمار والغثيان فادع لها بالشفاء العاجل ..

٣٨

فترحماس ياسين حال انفراده بنفسه فى العربة بعد ذهاب كمال ، وبدا كالمتفكر رغم سكره ، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير فى الهزيع المريب من الليل ، وسوف يجد زنوبة إما يقظى تنتظر وتغلى وإما أنها ستستيقظ حين دخوله ، وعلى أى حالين فلن تمر الليلة بسلام ، بسلام كامل على الأقل . غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهز كتفيه العريضين فى استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس « ليس ياسين الذى يعمل حسابا لامرأة » ، وكرر هذا القول وهو يرقى فى الدرج مسترشدا فى الظلام بالدرابزين ، غير أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة . وفتح الباب ودخل ، ثم

مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة ، وألقى على الفراش نظرة فراها نائمة ، فرد الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتي من الصالة ، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد اطمئنانا إلى استغراقها في النوم ، ويرسم في ذهنه خطة للتسلل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتا .

— أشعل المصباح لأكحل عيني برؤيتك !.

التفت رأسه نحو الفراش ثم ابتسم في تسليم ، وأخيرا تساءل كالدهش :

— أأنت يقظي ١٩ ، ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك !.

— قلبك طيب ، كم الساعة الآن ؟

— الثانية عشرة على الأكثر ، فإني غادرت المجلس حوالى الحادية عشرة ، وجئت

ماشيا واحدة واحدة ..

— لازم كان مجلسك في بنها !.

— لماذا ؟.. هل تأخرت ؟

— انتظر حتى يجيبك ديك الفجر بنفسه .

— لعله لم ينم بعد !

وجلس على الكنبه ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلا القميص والسروال ،

وعند ذاك نادت عن السرير طقطقة ورأى شبحها يستوى جالسا ، ثم سمعها تقول

في حدة :

— أشعل المصباح .

— لا داعي لذلك ، فقد فرغت من خلعي ملابسي .

— أريد أن نصفي حسابنا في النور ..

— تصفية الحساب في الظلام ألطف !

وصدرت عنها نفخة غيظ ثم غادرت الفراش ، ولكنه مد ذراعيه من مجلسه

القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبه وأجلسها إلى جانبه وهو يقول :

— لا تشعلي الفتنة ..

تخلصت من يده ، وقالت :

— أين ما تعاهدنا عليه ؟. لقد قبلت أن تسكر في الحانات كما تحب على شرط

أن تعود إلى بيتك في وقت مبكر ، قبلت هذا على رغمي لأنك لو سكرت في بيتك

لوفرت على نفسك مالا كثيرا يضيع هباء ، ومع ذلك فهي أنت تعود قبيل الفجر غير مهبال بما تعاهدنا عليه !

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والعود ؟ ، وإذا ثبتت لها خيانتك يوما فهل تقف عند حد الشجار أم .. ؟ ، فخر مرتين ، ولا تنس كذلك أن فقدتها لايهون ، إنها أحب زوجاتي إليّ خبيرة بما يسعدني ، متمسكة بحياتنا ، أولا الملل .. !
— كنت في مجلس كل ليلة لم أغادره إلا إلى بيتي ، وعندى شاهد نعرفينه ، أتدريين من هو ؟ (ونضحك بصوت عال) ..

ولكنها قالت بيروود :

— تكلم في الموضوع !.

فقال وهو لا يزال يضحك :

— كان جليسي الليلة أخى كمال !

فلم تدهش كما نوقع ، وفالت في نفاذ صبر :

— من يشهد للعروس ؟!

— لا تكابري ..! براءتي كالشمس ..! (ثم متأففا) .. يحزننى والله أن ترتأى في سلوكي ، شبت من الدوران حتى المرض ، ولا رغبة لي الآن إلا الحياة الهادئة ، أما الحانة فتسلية بريئة لا غبار عليها ، ولا بد للإنسان من مخالطة الناس ..
فقالت بصوت دلت نبراته على الانفعال :

— آه منك . أنت تعلم أني لست طفلة ، وأن الضحك عليّ مطلب عسير ، وأنه من الخير لكليا ألا تدخل بيننا الريبة ..!

موعظة أم وعيد ؟! أين منى حياة أوى المثالية ، الرجل الذى يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحب والطاعة ، لم يتحقق لي هذا الحلم على يد رينب ولا مريم وأخلق به ألا يتحقق على يد زنوبة ، لا ينبغي لهذه العوادة الجميلة أن تياس طالما هي على ذمتي !. قال بحزم :

— لو كان لي رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوجتك !..

فهتفت بحدة :

— ولكنك تزوجت من قبل مرتين ، فلم يمنعك الزواج من الحرام !

نفخ ناشرا أنفاسا مخمورة ، ثم قال :

— حالنك غير الحالتين السابقتين يا غبية ، الزوجة الأولى اختارها أبى وفرضها على ، والزوجة الثانية لم تجعل لى من سبيل إليها إلا بالزواج فتزوجتها ، أما أنت فلم يفرضك أحد على ، ولم يغلق بابك دونى قبل الزواج ، ولم يكن الزواج منك ليعدنى بشيء جديد لم أعرفه ، فلم تزوجتك يا غبية إن لم يكن الزواج نفسه — أى الحياة المستقيمة المستقرة — مطلبى ١٩ ، والله لو كان بك ذرة من عقل ما سمحت لنفسك بالشك فى أبدا .

— حتى إن جئتني عند الفجر ١٩

— حتى إن جئتك عند الصبح !

فهتفت بحدة :

— نه ، قل كلاما آخر أو فعلى الأمن السلام !

فقال بحدة وهو يقطب فى نرفزة :

— ألف سلام !

— أرحل ، أرض الله واسعة والرزق على الله ..

فقال فى استهانة متعمدا :

— أنت وشأنك ..

فقال بصوت واش بالوعيد :

— أرحل غير أبى كالشوكة لا تنتزع ييسر .

فتمادى فى الاستهانة بها قائلا :

— خزعبلات !، تذهبين بأيسر مما يخلع الخذاء ..

ولكنها غيرت النغمة من التحدى والتهديد إلى التشكى ، فهتفت :

— أأرمى بنفسى من النافذة فأريح وأسترخ !..

فهز كتفيه استهانة ، ثم نهض وهو يقول بلهجة أخف :

— ثمة طريق أفضل هو أن تقومى إلى الفراش ، هلمنى لننام واخزى الشيطان ..

اتجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنما طال به التشوق للرقاد ، أما هى

فعادت تقول وكأنها تحدث نفسها :

— مكتوب على من يعاشرك التعب ..

التعب مكتوب على أنا أيضا ، جنسك هو المسئول ، لا واحدة تغنى عن

الأخريات وقهر الملل فوق طاقتهن ، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختارا ، لا أستطيع أن أبيع كل عام دكانا في سبيل زواج جديد ، فلتبق زنوبة على شرط ألا تركبني ، الرجل المجنون يحتاج إلى امرأة عاقلة ، زنوبة وعاقلة ؟!

— أتبقي على الكنبه حتى الصبح ؟

— لن يغمض لي جفن ، دعني لما لي وتمتع أنت بالنوم ..
لا بد مما ليس منه بد ، مد ذراعيه حتى قبض على منكبها ، ثم جذبها إليه وهو يغمغم :

— فراشك !

فقاومت مقاومة غير عسيرة ، ثم استسلمت ليذه فمضت إلى الفراش وهي تقول متأوهة :

— متى تتاح لي راحة البال كسائر النساء ؟

— اطمئني ، ينبغي أن تضعي في كل ثقتك ، إلى أهل الثقة ، مثلي لا يكون سعيدا إلا إذا سهر ، ولن تسعدي أنت إذا أتعبتني بوجع الدماغ ، حسبك أن تؤمني ببراءة سهرى ، صدقيني ولن تندمي ، لست جبانا ولا كذابا ، ألم أجيء بك ليلة إلى هذا البيت وفيه زوجتي ؟ ، فهل يفعل هذا جبان أو كذاب ؟ ، شبت من الدوران ولم يبق لي في حياتي إلا أنت !

تهدت بصوت مسموع ، وكأنما أرادت أن تقول له : أود أن تكون صادقا فيما تقول ، فمد يده لاعبا وهو يقول :

— يا سلام ، هذه التنبهة حرق قلبى ، الله يقطعنى ..

قالت برجاء وهي تستجيب ليده رويدا رويدا :

— لو ربنا يهديك !

من يصدق أن هذه الأمنية صادرة عن عوادة !

— لا تقابليني بالشجار أبدا ، إن الشجار يثبط النشاط !

علاج ناجع ولكنه لا ينفع في جميع الأحوال ، لو نلت عيشة الليلة ما تيسر ..

— أرايت أن ارتياك لم يكن في محله ؟!

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكا في عمله وإذا ياسين يدخل الدكان مقيلا على مكتبه ، فما أن تصفح وجهه حتى أدرك أنه جاء مستنجدا : كانت في عينيه نظرة حائرة شاردة ، ومع أنه تبسم له في أدب ومال على يده ليقبلها إلا أنه شعر بأنه يقوم بهذه الحركات التقليدية بلا وعى ، وأن وجدانه كله غائب في مكان لا يعلمه إلا الله . أشار إليه بالجلوس فقرب الكرسي من مجلس أبيه ثم جلس ، وجعل ينظر إليه حيناً ثم يخفض بصره أو يتبسم ابتسامة باهتة ، تسأل السيد عما دعا إلى هذه الزيارة ، وكأنما أشفق من أن يترك ابنه الصامت إلى صمته ، فقال كالمسائل :

— خير ؟.. ماذا بك ؟، لست كعادتك ..

فنظر ياسين إليه طويلا كأنما يستثير عطفه ، ثم قال وهو يخفض عينيه :

— سينقلوننى إلى أقاصى الصعيد ا.

— الوزارة ؟

— نعم ..

— له ؟.

هز رأسه كالمعترض ، وقال :

— سألت الناظر فحدثنى عن أمور لا علاقة لها بالعمل ، ظلم ..

سأله الرجل بارتياح :

— أى أمور ؟، أوضح .

— وشايات وضبعة .. (ثم بعد تردد) عن زوجتى ..

تضاعف اهتمام السيد ، فسأله فيما يشبه الإشفاق :

— ماذا قالوا ؟

لاح الضيق في وجه ياسين حيناً ، ثم قال :

— قال السفهاء إننى متزوج من .. عوادة ا

ألقي السيد نظرة جزعة على الدكان ، فرأى جميل الحمزاوى يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلا أذرع ، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن

لم يخل انخفاضه تهديج الغضب :

— لعلمهم سفهاء حقا ، ولكن هذا ما حذرته من عواقبه ، إنك ترتكب كل كبيرة دون مبالاة ولكن العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد ، ماذا أقول ؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات ، طالما قلت لك هذا مرارا وتكرارا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، كأني يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعا لأتفرغ لعمومك أنت وحدها !

فقال ياسين في ارتباك وحيرة :

— ولكنها زوجتي الشرعية ، ولا لوم على الإنسان في حدود الشرع ، فما شأن

الوزارة في ذلك ؟

قال السيد بغيط مكتوم :

— يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظفيها ..

هلا تركت الكلام عن السمعة لغيرك !

— ولكن هذا تحن وظلم بالنسبة لرجل متزوج !

وهو يلوح بيده ساخطا :

— أتريدني أن أرسم لوزارة المعارف سياستها ؟

فقال بانكسار ورجاء :

— كلا ، ولكنني أرجو أن توقف النقل بنفوذك ..

وجعلت يسراه تعبت بشاربه وهو يتحدث ياسين بنظرة لم تره لأنها بدت مشغولة بالتفكير ، وراح ياسين يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أن كل اعتماده بعد الله عليه ، ولم يغادر الدكان حتى وعده الرجل بالسعي في وقف نقله .

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيد أحمد إلى قهوة الجندي بميدان الأوبرا لمقابلة ناظر المدرسة ، فما أن رآه الرجل حتى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له :

— كنت منتظرا بيجيك ، ياسين جاوز كل حد ، إلى أسف لما يسببه لك من

متاعب ..

فقال السيد وهو يجلس قبالة في الشرفة المطلة على الميدان :

— على أي حال فياين ابنك أيضا ..

— طبعاً ، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلها ، إنها محصورة بينه وبين الوزارة ..

فقال السيد كالمحتج وإن بدا وجهه مبتسما :
 — أليس عجيبا أن يعاقبوا موظفا لأنه تزوج من عوادة !، أليس هذا شأنا يعنيه وحده ؟، ثم إن الزواج علاقة شرعية لا يصح أن يتعرض لها أحد بسوء ...!
 قطب الناظر متفكرا متسائلا ، كأنه لم يفهم ما قال صاحبه ، ثم قال :
 — لم يجيء ذكر الزواج إلا عرضا وأخيرا !، أما علمت بالخبر كله ؟، يخيل إلى أنك لم تعلم بكل شيء !
 انقبض صدر الرجل ، فتساءل في إشفاق وقلق :
 — أيجاد مطعن آخر ؟
 فمال الناظر نحوه قليلا ، وقال بأسف :
 — المسألة يا سيد أحمد أن ياسين تشارك في درب طياب مع ساقطة ، فحرر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة ..
 بهت الرجل فانتسعت حدقاته واصفر وجهه ، حتى لم يتالك الناظر من أن يهر رأسه أسفا وهو يقول :
 — هذه هي الحقيقة ، وقد بذلت قصارى جهدى لأخفف العقوبة ، حتى وفقت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكثفى بنقله إلى الصعيد ..
 تنهد السيد مغمغما :
 — الكلب !..
 فقال الناظر وهو يرمقه بعطف :
 — إلى آسف جدا يا سيد أحمد ، غير أن هذا السلوك لا يليق بموظف ، لا أنكر أنه شاب طيب ومثابر على عمله ، بل أصارحك بأني أحبه ، لا لأنه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضا ، ولكن ما أعجب ما يقال عنه !، ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوم سلوكه وإلا خسر مستقبله !.
 صمت السيد طويلا والغضب مرتسم على وجهه ، ثم قال وكأنه يخضب نفسه :
 — معركة مع ساقطة !. فليذهب إذن في داهية !..
 ولكنه لم يتركه للداهية وإنما بادر إلى مقابلة معارفه من النواب وعلية القوم مستشفعا بهم في وقف النقل ، وكان محمد عفت على رأس الساعين معه ، فتوالت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتى أثمرت فالغى النقل ، ولكن الوزارة أصرت

على نذبه للعمل بديوانها ، ثم أعلن رئيس المحفوظات — صهر محمد عفت أو زوج زوجة ياسين الأولى — عن استعداده لقبوله في إدارته ... بإيعاز من محمد عفت — فتمت الموافقة على ذلك ، ونقل ياسين في أول شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات . ولم تمر المسألة في سلام تام فقد سجل عليه عدم صلاحيته للعمل في المدارس ، كما صرف النظر عن بحث ترفيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميته في الثامنة التي جاوزت عشرة أعوام ، ومع أن محمد عفت قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألا تساء معاملته فإن ياسين لم يترحم إلى وضعه الجديد تحت رئاسة زوج زينب ، وقد عبر عن مشاعره حين قال يوما للكمال :

— لعلها سرت بما وقع لي ، ووجدت فيه تأييدا لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إلى ، إلى خبير بعقول النساء ولا شك في أنها شمتتني وإنه لمن سوء الحظ ألا أجد مكانا كريما إلا تحت رئاسة هذا التيس !. ما هو إلا كهل لا خير فيه للنساء ، وما أعجزه عن أن يسد الفراغ الذي تركه ياسين ، فلتشمت الحمقاء فإني شامت .. ولم تقف زنوبة على سر النقل ، وقصاري ما علمت أن زوجها ندب للعمل بمركز أفضل في الوزارة ، كذلك تحاشي السيد أن يطرق في حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقي ، واكتفى بأن قال له حين وفق إلى إلغاء النقل :

— ما كل مرة تسلم الجرة !، لقد أتعبتني وأخجلتني ، ولن أتدخل في أمورك بعد اليوم ، فافعل ما بدا لك ، وربنا بيني وبينك !..

ولكنه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه ، فدعاه يوما إلى الدكان ، وقال له :

— أن لك أن تفكر في حياتك تفكيرا جديدا يعود بك إلى طريق الكرامة ويتشلك من الحياة المنبوذة التي تحياها ، لا يزال في الوقت متسع كي تبدأ عهدا جديدا ، وإلى أستطيع أن أهيم لك الحياة التي تليق بك فأصغ إلي وأطعني ..

ثم عرض عليه مقترحاته قائلا :

— طلق زوجك وعد إلى بيتك ، وإلى ، أتعهد بأن أزوجك زواجا لائقا قتبدا حياة كريمة !.

فتورد وجه ياسين ، وقال بصوت خافت :

— إني أقدر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني ، وسوف أعمل من ناحيتي على تحقيق هذه الرغبة دون إيذاء أحد ..

فهتف الرجل ساخطاً :

— وعد جديد كوعود الإنجليز !، الظاهر أن نفسك تراودك على زيارة السجن ،
أجل سيجئني صراخك المرة القادمة من وراء القضبان ، لا زلت أكرر عليك أن
تطلق هذه المرأة وتعود إلى بيتك ..

فقال ياسين وهو يتهد ، متعمداً أن يسمع أباه تنهده :

— إنها حبلى يا أبى ، ولا أريد أن أضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبى !..
اللهم احفظنا !، فى بطن زنوبة حفيد لك يتكون !. أكان فى وسعك أن تتصور
ما يدخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقية وليداً فى يوم عد من أسعد أيام
حياتك !؟

— حبلى !؟

— نعم ..

— ونحاف أن تضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبك !؟

ثم منفجراً قبل أن يفتح الآخر فاه :

— لم لم يؤنبك ضميرك وأنت تعتدى على الطيبات من بنات الطيبين !. أنت
لعنة وحق كتاب الله !..

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين مليئتين بالرثاء والازدراء . لم يكن يوسعه إلا
أن يعجب بمظهره الذى ورثه عنه ، أما مخبره الذى ورثه عن أمه !.. وذكر بغتة
كيف أوشك هو يوماً أن يتردى فى الهاوية على يد زنوبة نفسها !، ولكنه ذكر فى
الوقت نفسه كيف شكّم نفسه فى اللحظة المناسبة . شكّم نفسه !؟، وشعر
بامتعاض وقلق ، فلحن ياسين ، ثم لعن .. ياسين !

٤٠

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشعر بأنه يوم لا كبقية الأيام ، على الأقل بالقياس إليه
هو ، ففى ساعة منه وجد نفسه فى هذه الدنيا ، وسجل ذلك فى شهادة حتى
لا يمكث أكثر أو أقل مما تم الاتفاق عليه !.. وكان يرتدى معطفه ويقطع حجرته
ذهاباً وجيئة ، ثم يلقي نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحاً على

صفحة بيضاء رقم أعلاها بتاريخ الميلاد ، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى ، ويواصل حركته مستمدا منها شيئا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة . وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة — متوارية وراء سحب متجههم والمطر ينزل قليلا ويسكت قليلا محركا في نفسه بواعث التأمل والحلم . لا بد من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده ، ذلك أن البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد . وأمه نفسها لم تدر أن اليوم من الأيام التي لا ينبغي أن تنساها ، فلم يبق من توارخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التي وقعت فيها والآلام التي صاحبها فهي لا تعرف عن ميلاده إلا أنه « كان في الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين » قديما كان يذكر أنباء ميلاده فيملاً الرثاء لأمه قلبه ، ثم تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فحقق قلبه ألماً لعائشة ، أما اليوم فإنه يفكر في ميلاده بعقل جديد ، عقل قد عل من منهل الفلسفة المادية حتى ألم في شهرين بما تمخض عنه تفكير الإنسانية في قرن من الزمان . تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كله إلى الإهمال أو الجهل ، وكان يتساءل وكأنما يستجوب متهما قائما بين يديه . فكر في عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمشيمة أو الجهاز العصبي فتلعب دورا خطيرا في حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شر . ألا يمكن أن يكون تهالكه في الحب نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير في غيابات الرحم منذ تسعة عشر عاما ؟ ، أو أن تكون تلك المثالب التي أضلته طويلا في مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارا فوق مذبح العذاب ما هي إلا عاقبة محزنة لعبت داية جاهلة ؟ ، وفكر فيما قبل الولادة ، بل فيما قبل الحمل . في المجهول الذي تنبثق منه الحياة ، في تلك المعادلة الكيميائية الآلية التي تستوى كائنا حيا فيثور أول ما يثور على أصله مزدريا ، ويتطلع إلى النجوم مدعيا له نسباً في مداراتها . بيد أنه قد عرف له بداية قرنية دعاها بالنطفة ، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عاما وتسعة أشهر إلا نطفة ، نطفة قذفت بها رغبة بريئة في اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة في البيت . فابن أى حال من تلك الأحوال

كان !. لعله جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب ، فإن الشعور بالواجب لا يزياله ، وحتى اللذات لم يقبل على ممارستها إلا بعد أن تمثلت له فلسفة تتبع ورأيا يعتنق ، إلى أنه لم يخل من الصراع والالام ولم يأخذ الحياة أخذًا سهلاً ، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وثقها ، ثم انزلها إلى الرحم معا ، فتحولا إلى علقه ، فكسيت العلقه لحما وعظما ، ثم خرجت إلى النور والالام بين يديها يسير ، ثم بكت قبل أن تستبين معالمها ، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتلور مستجدة على مر الأيام عقائد وآراء حتى انخمت ، وعشقت عشقا زعمت لنفسها به نوعا من الألوهية ، ثم زلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فردت إلى مكانة أذل من التي جاءت منها أول مرة !. إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاما ياله من عهد طويل !، ويا للشباب الذي يطوى بسرعة البرق ، هل من عزاء إلا أن تملى الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينقع غراب الغروب ؟، مضى عهد البراءة ، ولحق به العهد الذى كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب ق. ح ، ب. ح — اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه ، فلم يجد على محبه إلا ببعض أسمائه الحسنى : فهو الحقيفة ومسرة الحياة ونور العلم ، والسفر فيما يبدو طويل ، وكأن المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمر بمحطة اللاهوتية التى كان شعارها « نعم يا أماه » ، وها هو يطوى الأرض في إقليم الميتافيزيقية التى شعارها « كلا يا أماه » وعن بعد تتراعى خلال المنظار المكبر « الواقعية » وعلى قممتها سجل شعارها « فتح -ينيك وكن شجاعا » .

وتوقف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات ، وتساءل : أيجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يوحى القلم ، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور الأفكار في رأسه ؟، وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كالندندنة ، فاتجه بصره إلى زجاج النافذة المطلة على بين القصرين فرأى لآلئ عالققة برقعة الموهبة برطوبة الجو ، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلى راسمة على الرقعة الموهبة خطا ناصعا منعظا كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض أسلاك لؤلؤية ، على حين لاحت المآذن والأقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطارا من فضة ، واكتنف المنظر كله لون أبيض مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالا

وأحلاما .. وترامت من الطريق صيحات أطفال ، فالتقى نظرة إلى تحت ايزرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعج بالوحل وقد تعثرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولاذ المارة بالخوانيت والمقاهى وما تحت الشرفات .

هذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلا ليتأمل موقفه من الحياة في مطلع عامه الجديد . لم يعد يجد رفيقا يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شداد أرض الوطن ، فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار ، فاتخذ من روحه صديقا بعد أن فارقه صديق الروح ، وسأل روحه : هل تؤمن بوجود الله ؟ ، فسألته بدورها لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم ؟ . وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس ، ثم تلاه أخوه داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن أباه الحقيقي هو حبيس قفصه الذى يدعو الأصدقاء للتفرج عليه في الأعياد والمواسم ، وفي الأصل كان السديم فتناثر منه النجوم كالرشاش المتطاير من عجلة الدراجة ، وتجاذبت النجوم في هواها الأزلى فأنجبت الكواكب ، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر في أثرها يعابثها وهى تقطب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتى فتر نحاسها فاستقرت سماتها جبالا ونجودا وقيعانا وصخورا ثم حياة تدب ، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى . لا أخفى عنك أنى ضبقت بالأساطير ذرعا ، غير أنى فى خضم الموج العاتق عثرت على صخرة مثلية الأضلاع سادعوها من الآن فصاعدا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى . ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج ، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتوجه بها إلى غايتها ، أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطعمى أبعد من الفن مثالا ، لأنه لا يرتوى إلا بالحقيقة ، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو فنا أنثويا ، وفى سبيل هذه الغاية ترائى مستعدا للتضحية بكل شئ إلا ما يمسك على الحياة ، أما عن مؤهلاتي للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخمة وحب خائب وأمل فى المرض . واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من

أعراض مرض الشيخوخة يدعوه المرضى بالحكمة ، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوير نيكوس واستولد وماخ ، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنساني كذلك . والوطنية فضيلة ما لم تتلوث بالكراهية العدوانية ، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس ، وليست الوطنية على ذلك إلا إنسانية محلية ، وتسألني هل أومن بالحب ؟ فأجيب : بأن الحب لم يرح قوادى بعد ، فلا يسعني إلا أن أقر بحقيقة الإنسانية ، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإن تقوض المعابد المقدسة لم يززع أركانه أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل ، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، فكل أولئك لم يوهن من خفة القلب إذا هفت ذكرى أو تخاللت صورة ، ألا زلت تؤمن بخلود الحب ؟ ، ليس الخلود أسطورة . فلعل الحب ينسى ككل شيء في هذه الدنيا ، وقد انقضى على زواج ... عابدة — لم تردد قبل التفوه باسمها ؟ — عام فقطعت شوطا في طريق النسيان ، مررت بطور الجنون فطور الذهول فطور الألم الحاد ثم طور الألم المتقطع ، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تحظر لي على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم مرة أو مرتين في أثناء النهار ، ويتفاوت تأثري بالتذكر ما بين حنين ينبعث معتدلا أو حزن يمر مرور السحاب أو حيرة تلسع ولا تحرق إلا أن تنور النفس بغتة كالبركان فتدور في الأرض ، وعلى أى حال غدت أومن بأننى سأواصل الحياة بلا عابدة . علام تعول في طلب النسيان ؟ .. على دراسة الحب وتعليقه كما سلف ، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التى يبدو عالم الإنسان في مداراتها هباءة تافهة ، والتروج عن النفس بالشراب والجنس ، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذى يرى الزمن شيئا غير حقيقى وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بمحدث في الماضي أو المستقبل مضادة للعقل ، ونحن خليقون بالتغلب عليها إذا كوّننا عنها فكرة واضحة متميزة . أسرك أن وجدت الحب ينسى ؟ .. سرّنى لأنه يعدنى بالنجاة من الأسر ، وأحزنى بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره ، ومهما يكن من أمر فسأمت ما حييت الأسر وأعشق الحرية المطلقة .

سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنى الموت ، سعيد من تنهّج في قلبه شعلة الحماس ، ونخالد من يعمل أو يتهاى صادقا للعمل ، حى من يتأثر الخيام بكتاب

وكأس ومعشوق ، والقلب اللهب بالآمال ينسى أو يناسي الزواج كالكأس المترعة بالويسكي لا تتسع للصودا ، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيرا حسنا وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تفرز أو نفور ، أما حينك من حين لآخر إلى الطهر والتكشف فلعله بقية من تدينك القديم .

ولم ينقذ المطر عن الانهلال لحظة ، وقعقع الرعد ، ولمع البرق ، وأقفر الطريق ، وسكت الصباح ، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فذاذر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة ، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخذه ثم تتدفق صوب البئر القديمة ، وفاض عنها جانب فتجمع في نقرة بين حجرة الفرن والمخزن ، هذه النقرة التي ينجم فيها غب الجفاف — مما يتساقط عفوا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدى أم حنفى — نبت يكسوها حلة سندسية فيترعرع أياما حتى تدوسه الأقدام ، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه ، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقا وحنينا ، ومسرة يغشاها حزن وإن كسحابة شفافه تغشى وجه القمر . وتحول عن السافذة ليعود إلى حجراته فانتبه إلى وجود من كان بالصالة ، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم ، إلى أمه متربعة على الكنبه باسطة ذراعها فوق المجمره ولا جليس لها إلا أم حنفى وقد تربعت على فروة قبالها . فذكر المجلس القديم في أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات ، وكانت المجمره هى الأثر الوحيد فيه الذى لم يكد يطرأ عليه تغير ينكره الرأى .

٤١

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل في طريقه إلى عوامة محمد عفت ، وكان الليل ساجيا والسماء صافية متألفة النجوم ، والهواء مائلا للبرودة ، فلما انتهى إلى هدفه وهم بالميل إليه لم ينس — بحكم العادة وحدها — أن يرمى ببصره بعيدا إلى حيث تقوم العوامة التي دعاها يوما « عوامة زنوبة » . كان قد انتهى على الذكريات الأئمة عام فلم يعد يبنى في قلبه إلا الامتعاض والتجمل ، وكان من آثارها المتخلفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمى ، فتأبر على

ذلك عاما حتى ضجر ، فرجع عن عزمه وعاد ساعيا على قدميه إلى المجلس المحرم ، وما هي إلا دقيقة حتى أقبل على المجلس طالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين ، أما الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس ، وأما المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو — على وجه التحديد — منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زنوبة في حياته . ولم يكن شيء قد بدأ بعد ، فالقوارير لم تنفض والنظام لم يمس ، وكانت جليلة محتلة كنبه الصدارة ، تعبت بأساورها الذهبية وكأثما تنصت إلى وسوستها ، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلى من السقف ، تنظر في امرأة صغيرة بيدها ، متفحصة زيتنها ، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بفوارير الويسكي وصحاف المزة . وتفرق الأصدقاء حاسري العروس وقد خلعوا جبابهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثم صافح المرأتين بحرارة ، فرحبت به جليلة قائلة « أهلا بأخي الحبيب » أما زبيدة فقالت له باسمته في عتاب « أهلا بالذي لولا الأدب ما استحق منا السلام » . ونزع الرجل جبته وطربوشه ، ثم ألقي نظرة على الأماكن الخالية — وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة — وتردد قليلا قبل أن يمضي إلى كنبه المرأتين ويتخذ مجلسه عليها ، ولم يغب ترده عن عين على عبد الرحيم ، فقال :

— هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ !

فقالت جليلة كأثما تشجعه :

— لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه ..

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم :

— أنا أحق الناس بأن أقول ذلك ، أليس هو بنسيبي ؟!

ففطن السيد إلى ما تعرض به ، وتساءل في قلق عن مدى ما اتصل بعلمها في هذا الشأن كله ، ولكنه قال بركة :

— لي الشرف يا سلطنة !

فتساءلت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتياب :

— أنت مسرور حقاً بما كان ؟

فقال بلبافة :

— ما دمت خالتها ...!

فقال وهى تلوح بيدها فى استياء :

— أما أنا فلن يرضى عنها قلبى أبداً !..

وقبل أن يسألها السيد عن السبب ، هتف على عبد الرحيم وهو يفرك يديه :

— أجّلوا الحديث حتى نغمّر رؤوسنا ..

ونهبض إلى المائدة ففرض زحاجة وملاً الكنوس ثم قدمها إليهم واحداً واحداً بعناية
نمتّ عن ارتياحه المعهود إلى القيام بمهمة الساق ، ثم انتظر حتى تمّياً كل للشرب ،
وقال « صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعاً لنا » ، فرفعوا الكنوس إلى
شفاههم باسمين ، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه ..
هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عاماً ، فكان كأنه
يرى فلذات من صميم نفسه ، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة الصادقة .

ومالت عيناه إلى زبيدة ، فعاد إلى حديثها متسائلاً :

— ولماذا لا يرضى عنها قلبك ؟

فاتجهت إليه بظفرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه ، وأجابته :

— لأنها خائنة لا ترعى العهود ، خائننى منذ أكثر من عام فغادرت بيتى دون
استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم ..

ترى ألم تعلم حقاً أين ذهبت فى ذلك الوقت ؟. ولم يشأ أن يعلّق على قولها
بحرف ، فعادت تسأله :

— ألم يبلغك ذلك ؟

فقال بهدوء :

— بلغنى فى حينه !.

— أنا التى كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم ، فانظر كيف كان الجزاء !،
سفعص على الدم النجس !

فقال على عبد الرحيم مازحاً ، وهو يتظاهر بالاحتجاج :

— لا تسبى دمها فإن دمها هو دمك !..

ولكن زبيدة قالت جادة :

— دمي برىء منها !.

وهنا سألها السيد أحمد :

— من كان أباه يا ترى ؟

— أباه ؟!

ندت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخريات ، ولكن محمد عفت بادره قائلا :

— تذكر أن الحديث عن حرم ياسين !

فزائلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في شيء من الارتباك ، على حين عادت زبيدة تقول :

— أما أنا فلا أهزل فيما أقول عنها ، وطالما رمقتني بعين الحسد وطمعت في منافستي وهي في رعايتي ، فكنت أداريها وأغض عن مساوئها (ثم وهي تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة !.

ورددت عينيها في الحاضرين ، ثم قالت بلهجة ساخرة :

— لكنها أفلست فتزوجت !..

تساءل على عبد الرحيم في إنكار :

— هل الزواج في عرفك إفلاس ؟!

فضيقت له عينا ، ورفعت حاجب الأخرى ، وهي تقول :

— نعم يا عمر !.. العالمة لا تهجر التخت حتى تفلس ..

وهنا غنت جلييلة هذا المقطع « أنت المدام يا روحى انت أنستنا » ، فابتسم السيد ابتسامة عريضة وحيائها بأهة لطيفة وشت بانبساطه ، غير أن على عبد الرحيم نهض مرة أخرى وهو يقول :

— لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكأس ..

وملأ الكئوس ووزعها بينهم ، ثم عاد بكأسه إلى مجلسه . وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة ، فالتفت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها كأنما تقول له « صحتك » ، ففعل مثلها وتشاربا ، وجعلت في أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمه . مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة ، كأن التجربة القاسية التي امتحن بها قد أجمدت حماسه ، أو لعله الكبرياء أو لعله المرض ، غير أن نشوة الحمر ونظرة التودد حركتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصد ، واعتدها تحية طيبة من الجنس الذى هام به حياته ، لعلها تضمد جرح كرامته التي قست عليها الخيانة

«تقدم العمر ، وكأن ابتسامه زبده الساطقة كانت تقول له : « لم يول عهدك بعد ! » فلم يحول عن نظرتها عينيه ولم يلغ ابتسامته .

وجاء محمد عفت بعود ووضعه بين المرأتين ، فتناولته جليلة وراحت تلعب بأوتاره ، ولما آنست من السامعين انتابها غنى « وعدى عليك يالى بخبك » ، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلما سمع جليلة أو زبده ، وذهب مع النغمة برأسه وجاء ، كأنما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته . والحق أنه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلا ذكريات ، فقد ذهب الحامولى ومثمان والمنيلوى وعبد الحى ، كما ذهب شهابوكماولت أيام النصر ، ولكن ينبغي أن يوطن النفس على الرضى بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته ، وقد دعاه حبه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنه لم يهو الغناء التمثيل ، فضلا عن أنه ضاق بجلسة المسرح الذى شبهه بالمدرسة ، كما استمتع فى بيت محمد عفت إلى أسطوانات المطربة الجديدة أم كلثوم ولكنه أعارها أذنا حذرة مضرة سوء الظن ، فلم يتذوقها رغم ما قيل من أن سعد زعولون أثنى على جمال صوتها . بيد أن مظهره لم يش بحقيقة موقفه من الغناء ، فما زال يتطلع إلى جليلة راضيا سعيدا ويردد مع الجميع لازمة « وعدى عليك » بصوته الرخيم ، حتى هتف الفار بحسرة :

— أين أين الدف ؟! أين الدف لنسمع ابن عبد الجواد ؟!

سل أين أين أحمد عبد الجواد الذى كان بنقر على الدف ؟! آه ، لم يغيرنا الزمان ؟! وختمت جليلة غنائها فى حالة من الاستحسان ، ولكنها قالت فى لهجة اعتذار وهى تبسم ساكرة :

— إنى متعبة ..

ولكن زبده كملت لها التناء كما يدور بينهما كثيرا على سبيل المجاملة أو حرصا على السلام العام ، ولم يكن يخفى على أحد أن نجم جليلة كعالمة آخذ فى الأفول السريع الذى كان آخر آياته هجر الدفافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر ، وهو أفول طبيعى إذ كان الذبول قد أدرك كافة المزايا التى قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت ، ولذلك لم تعد زبده تجده نحوها غير تذكر فوسعها أن تاملها دون مضض ، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها ، تلك الذروة التى لاخطوة بعدها إلا نحو الانحدار . وكان الأصدقاء كثيرا ما يتساءلون عما إذا كانت حليلة قد

أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة ، وكان رأى أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل ، واتهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها ، ولكنه جاهر في الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأى سبيل ، وأيده على ذلك على عبد الرحيم قائلا : إنها تتاجر بجمال نساء تختها وإن بيتها يتحول رويدا رويدا إلى شيء آخر . أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنها رغم مهاراتها في انتزاع الأموال — جوادة مفتونة بالمظاهر التي تحرق المال حرقا ، إلى ولعها بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين . قال محمد عفت مخاطبا زبيدة :

— اسمحى لى بأن أبدى إعجائى بنظراتك الحلوة التى تخصين بها بعضنا ؟.

فضحكت جليلة ، وقالت بصوت خافت :

— الصب تفضحه عيونه ..

وتساءل إبراهيم الفار منكرا :

— أم تحسبن نفسك فى زاوية العميان ؟

فقال أحمد عبد الجواد متظاهرا بالأسف :

— بهذه الصراحة لن تكونوا قوادين كما تحبون !

أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت :

— أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنى أحسده على شبابه ؟، انظروا إلى

رأسه الأسود بين رعوسكم البيض وأجيبونى هل تعطونه يوما واحدا فوق الأربعين ؟.

— أنا أعطيه قرنا ..

فقال أحمد عبد الجواد :

— من بعض ما عنديكم !

وعند ذاك ترنمت جليلة بمطلع الأغنية « عين الحسود فيها عود يا حليلة » ،

فقالت زبيدة :

— لا خوف عليه من الحسد ، فإن عينى لا تؤذيه !؟

فقال محمد عفت وهو بهز رأسه هزة ذات معنى :

— أصل الأذى كله من عيونك !.

وهنا قال أحمد عبد الجواد موجها الخطاب إلى زبيدة :

— أتتحدثين عن شبانى ؟، أما سمعت بما قال الطبيب ؟

فقلت كالمستكبرة :

— أخبرني محمد عفت ، ولكن ما هذا الضغط الذى يتهمك به ؟
— لف حول ذراعى قرية غريبة ، وراح ينفخ بمفاخ جلدى ، ثم قال لى « عندك ضغط ..! »

— ومن أين جاء الضغط ؟

فأجاب السيد ضاحكا :

— لا أظنه جاء إلا من ذات النفخ !

قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفا بكف :

— لعله مرض معد ، فإنه لم يكد يمضى شهر على إصابة المحروس به حتى ذهبنا جميعا تباعا إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف فى جميع الحالات واحدة :
الضغط ..!

فقال على عبد الرحيم :

— أنا أقول لكم سره ، إنه عرض من أعراض الثورة ، وآى ذلك أنه لم يسمع به
أحد قبل استعالتها !

وسألت جليلة السيد أحمد :

— وما أعراض الضغط ؟

— صداع ابن كلب ، وتعب فى التنفس عند المشى ..

فتمتعت زيدة وهى تبتسم ابتسامة دارت بها شيئا من القلق :

— ومن يخلو ولو مرة من هذه الأعراض ؟ ، ما رأيكم أنا عندى ضغط أيضا ..!

فسألها أحمد عبد الجواد :

— من فوق أم من تحت ؟

وضحكوا بلا استثناء زيدة نفسها ، حتى قالت حليلة :

— ما دمت قد خبرت الضغط ، فاكشف عليها لعلك تعرف علتها !

فقال أحمد عبد الجواد :

— عليها أن تحضر القرية وعلى أن أحضر المنفاخ !

فضحكوا مرة أخرى ، ثم قال محمد عفت كالمحتج :

— ضغط .. ضغط .. ضغط .. لا نسمع الآن إلا الطبيب وهو يقول كأنما

يأمر عبيده : لا تشرب الخمر ، لا تأكل اللحوم الحمراء ، احذر البيض ..
فتساءل أحمد عبد الجواد ساخرا :
— وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلا اللحوم الحمراء والبيض ولا يشرب إلا
الخمر ؟!

فقال زبيدة من فورها :
— كل واشرب بالهنا والشفاء ، الإنسان طيب نفسه ، وربنا هو الطيب ..
ومع ذلك فقد اتبع تعاليم الطيب في الفترة التي اضطر فيها إلى الرقاد ، فلما
نهض تناسى نصيح الطيب جملة وتفصيلا . عادت جليلة تقول :
— أنا لا أومن بالأطباء ، ولكني أقيم لهم العذر فيما يقولون ويفعلون ، فإنهم
يتعيشون من الأمراض كما نتعيش نحن العوالم من الأفراح ، ولا غناء لهم عن القرية
والمنفاخ والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن الدف والعود والأغاني ..
فقال السيد بارتياح وحماس :
— صدقت ، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر الله وحده ، ومن توكل على
الله فلا يخزن ..

إبراهيم الفار ضاحكا :
— اشهدوا يا ناس على هذا الرجل ، إنه يشرب بفيه ويفسق بعينه ويعظ بلسانه !
أحمد عبد الجواد مقهقهها :
— لا على من ذلك ما دمت أعظ في ماخور !..
محمد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد ، ويهز رأسه متعجبا :
— وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا بوعظك !..
فتساءل على عبد الرحيم :
— على فكرة ، ألا يزال على رأيه من أن أصل الإنسان هو القرد ؟!
فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة :
— يا ندامتي !..
زبيدة في دهش :
— قرد ؟!.. (ثم كالمستدركة) لعله يقصد أصله هو !..
قال لها السيد محذرا :

- وأثبت أيضا أن المرأة أصلها لبوة !.
- فقالت وهي تنأهى :
 — ليتنى أرى سليل القرد واللبوة !
 فقال إبراهيم الفار :
 — سيكبر يوما فيخرج عن محيط أسرته ، ويقتنع بأن البشر من آدم وحواء ..
 فبادره أحمد عبد الجواد :
 — أو أحضره معى يوما إلى هنا ليقتنع بأن الإنسان أصله كلب !.
 وقام على عبد الرحيم إلى المائدة ليمأ الككوس ، وهو يسأل زبيدة :
 — أنت أعرف منا بالسيد فألى أى حيوان ترجعينه ؟
 فتفكرت قليلا وهي تتابع يدي على عبد الرحيم وهما تصبان الويسكى فى الككوس ، ثم قالت باسمه :
 — الحمار !.
 فتساءلت جلييلة :
 — ذم هذا أم مدح ؟
 فقال أحمد عبد الجواد :
 — المعنى فى بطن القائل !.
 وعادوا الشراب على أصفى حال ، وتناولت زبيدة العود وغنت « ارخى الستارة الى فى ربحنا » .
 وفى نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة ، رافعا الكأس التى لم يبق فيها إلا الثمالة أمام عينيه ، ناظرا خلالها إلى المرأة كأنما يروم أن يراها بمظمار خمري . وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح أن كل شىء — بين أحمد وزبيدة — قد عاد إلى قديمه ، ورددوا الغناء وراء زبيدة ، فعلا صوت أحمد فى طرب وسرور حتى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق . وما لبث محمد غفت أن قال لجلييلة :
 — لمناسبة « الصب تفضحه عيونه » ما رأيك فى أم كلثوم ؟
 فقالت جلييلة :
 — صوتها — والشهادة لله — جميل ، غير أنها كثيرا ما تصرع كالأطفال !.
 — البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهديّة ، ومنهم من يقول بأن صوتها

أعجب من صوت منيرة نفسها !..

فهتفت جليلة :

— كلام فارغ !. أين هذه الصرصعة من بحّة منيرة ؟

وقالت زبيدة بازدرأ :

— فى صوتها شيء يذكر بالمقرئين ، كأنها مطربة بعمامة !

فقال أحمد عبد الجواد :

— لم أستطعهما ، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها ، والحق أن دولة الصوت زالت بموت سى عبده ..

فقال محمد عفت مداعبا :

— أنت رجل رجعى ، تتعلق دائما بالماضى .. (ثم وهو يغمز بعينه) ..

ألست تصر على حكم بيتك بالحديد والنار حتى فى عهد الديمقراطية والبرلمان !؟

السيد ساخرا :

— الديمقراطية للشعب لا للأسرة ..

على عبد الرحيم جادا :

— أظن أنه يمكن التحكم بالطريقة القديمة فى شبان اليوم !؟ ، هؤلاء الشبان

الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف فى وجه الجنود !؟

فقال إبراهيم الفار :

— لا أدرى عما تتكلم ، ولكننى متفق فى رأى مع أحمد ، كلاناأب للذكور ،

والله المستعان ..

محمد عفت مداعبا :

— كلاكما متحمس للحكم الديمقراطى باللسان ولكنكما مستبدان فى

بيتكما !..

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتج :

— أتريدنى على ألا أبت فى مسألة حتى أجمع كمال وياسين وأم كمال ، ثم نأخذ

الأصوات !؟.

فهاهأت زبيدة قائلة :

— لا تنس زنوبة من فضلك ..

وقال إبراهيم الفار :

— إذا كانت الثورة هي سبب ما نعانى من أولادنا ، فالله يسامح سعد باشا ..
وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح ، وتعالى الضجة واختلطت الأصوات ،
وتقدم الليل غير عانى بشيء ، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده
ينظر إليها ، وقال لنفسه : إنه ليس في هذا الوجود إلا لذة واحدة ، وأراد أن يفصح
عن فكرته ولكنه لم يفصح ، إما لأن حماسه للانفصاح فتر أو لأنه لم يستطع ، ولكن
كيف جاء هذا .. الفتور ؟! ، وتساءل مرة أخرى : أتكون لذة ساعة أم معاشرة
طويلة ؟ ، ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء ، ولكن ثمة وش كأن أمواج النيل
تهمس في أذنيه ، ومع ذلك فمنتصف الحلقة السادسة في تناول اليد ، سل
الحكماء كيف ينطوى العمر ونحن ندرى دون أن ندرى ..

— ماذا أسكتك كفى الله الشر ؟

— أنا ؟! .. شوية راحة ..

أجل ما ألد الراحة ! ، ضجعة طويلة تقوم بعدها صحيحا ، ما ألد الصحة ،
ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام ، وهذه النظرة
أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تعلو فكيف تسمع الغناء ؟
— كلا ، لن نتركه حتى يزف ، ما رأيكم ؟. الزفة .. الزفة ..!

— قم يا جملى ..

— أنا ؟! .. شوية راحة ..

— الزفة .. الزفة ، كما حدث أول مرة في بيت الغورية ..

— ذلك عهد قديم ..

— نجدده ، الزفة .. الزفة ..

لا يرحمون ، وذلك زمن خلا تحجبه عن عينيك ظلمات ، ألا ما أكشف
الظلام ! ، وما أشد الوش ! ، وما أغلظ النسيان ..!

— انظروا ..!

— ما له ؟! ..

— قليلا من الماء .. افتحوا النافذة ..!

— يا لطيف يا رب ..
— خير .. خير ، بل هذا المنديل بالماء البارد ..

٤٢

مضى أسبوع على « حادث » الأب ، وكان الطبيب يزوره يوميا ، وكانت الحالة من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته ، حتى الأبناء كانوا يتسللون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام ، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض ، يتبادلون النظرات ويتهربون منها في ذات الوقت . قال الطبيب إنها أزمة ضغط ، وحجم المريض فملاً طستاً من دمه ، دم أسود كما قالت خديجة في وصفه وجوارحها ترتعش ، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين الحين والحين كشبح يهيم على وجهه ، على حين بدا كمال ذاهلاً كأنما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة في أقل من غمضة عين ، وكيف استسلم الرجل الجبار واستكان ، ثم يسترق نظرة إلى شبح أمه ، أو عيني خديجة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرة أخرى ماذا يعنى هذا كله ؟ ، ووجد نفسه تنساق وهو لا يدري إلى تصور النهاية التي يخافها قلبه ، تصور عالم لا يوجد فيه الأب ، فضاق صدره وجزع قلبه ، وتساءل في إشفاق كيف يمكن أن تتحمل هذه النهاية أمه ؟ . إنها تبدو الآن كالمتنية ولما يقع شيء ، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمي ، فتساءل : أيمكن أن ينسى هذا كما نسي ذاك ؟ . وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات .

وعلم ياسين بالحادث في اليوم التالي لوقوعه ، فجاء إلى البيت لأول مرة مذ غادره عند زواجه من مريم ، وقصد حجرة أبيه رأساً فألقى عليه نظرة طويلة صامتة ثم انسحب إلى الصالة مذهولاً ، فالتقى بأمنية فتصافحا بعد طول فراق ، واشتد تأثره وهو يصافحها فامتلات عيناه بالدموع . ولبت السيد راقداً ، ولم يكن أول الأمر يتكلم أو يتحرك ، فلما حجى دب فيه شيء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عما يريد ، ولكنه في الوقت ذاته شعر بالألم فصدر عنه الأنين والتأوهات . ولما خفت حدة الآلام المرضية أخذ يضيق برقاده الإجباري

الذى حرمه نعمة الحركة والنظافة ، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه في مكان واحد هو فراشه . وكان نومه متقطعا ، وكان ضجره متصلا ، غير أن أول ما سأل عنه كان خاصا بكيفية إحضاره إلى البيت مغشيا عليه ، وأجابته أمانة بأنه جىء به في حانطور مع صحبه محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار ، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه ، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخر الوقت . وسأل بعد ذلك باهتمام عن عواده فقالت له المرأة إنهم لا ينقطعون ولكن الطبيب منع المقابلة إلى حين . وكان يردد بصوت خافت « الأمر لله من قبل ومن بعد » و « نسأل الله حسن الختام » ، ولكن الحق أنه لم يستشعر اليأس ، ولم يحس بدنو النهاية ، ولم تضعف ثقته بالحياة التى يحبها رغم آلامه وخوفه ، عاوده الأمل بمجرد عودة الوعي إليه ، فلم يحدث أحدا بحديث الراحلين كأن يوصى أو يودع أو يعهد لمن يهيمه الأمر بأسرار عمله وثروته ، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوى وكلفه ببعض أعمال المبادلة التى لم يكن يعلم عنها شيئا ، كما أرسل كمال إلى خياطه البلدى بخان جعفر ليحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خيوطها ، لم يكن يكثر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنما يدارى بها قسوة الأقدار . وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام ، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كى يسترد صحته كاملة ويستأنف نشاطه . وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذره منه عند ارتفاع ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقا على الإقلاع عن الاستئثار بعد ما تبين له من عواقبه البوخيمة التى أقنعت به بأن الأمر جد لا هزل ، وجعل يتعزى قائلا : إن الحياة السليمة مع شىء من الحرمان خير على أى حال من المرض .

هكذا مرت الأزمة بسلام ، فاستردت الأسرة أنفاسها وهجت قلوبها بالشكر ، وعند نهاية الأسبوع الثانى سمح للسيد بمقابلة عواده فكان يوم سعيد ، وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبنائه وأصهاره وتحذثوا إليه لأول مرة منذ الرقاد ، وقلب الرجل عينيه فى وجوههم — ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت — وراح بلباقته — التى لم تخنه فى موقفه هذا — يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد ، فقالوا له : إنهم لم يجئوا بهم حرصا على راحته ، ودعوا له بطول العمر وتنام الصحة والعافية ، ثم حدثوه عن حزنهم لما ألم به

وسرورهم بسلامته ، تكلمت خديجة بصوت متهدج ، وتركت عائشة على يده وهي تقبلها دمة تغنى عن كل بيان ، أما ياسين فقال بزلاقة لسان : إنه مرض معه حين مرض ويرى معه حين من الله عليه بالشفاء . فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحديثهم طويلا عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلا على الله وحده ، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال — مخلين الصلاة لمزور العواد المنتظر توافدهم — وهناك أقبل ياسين على أمينة ، فشد على يدها وهو يقول :

— لم أحدثك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين ، لأن مرض بابا لم يترك لي عقلا أفكر به ، أما الآن وقد أمر الله بالسلامة فأود أن أعتذر عن رجوعي إلى البيت دون استئذانك ، الحق أنك استقبلتني بالعطف الذى عهدته منك فى الأيام السعيدة الخالية ، ولكن على الآن أن أقدم فروض الاعتذار .. فتورد وجه أمينة وهي تقول بتأثر :

— ما فات فات يا ياسين ، هذا بيتك تحل فيه أهلا وسهلا حين تشاء .. فقال ياسين ممثا :

— لا أحب أن أعود إلى الماضي ، ولكن أحلف برأس أبى وحياة رضوان ابنى أن قلبى لم يحمل قط سوا لأحد من أهل هذا البيت ، وأنى أحببتهم جميعا كما أحب نفسى ، ربما يكون الشيطان قد دفعنى إلى خطأ ، وكل إنسان عرضة لهذا ، ولكن قلبى لم تشبه شائبة أبدا ..

فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض ، وقالت بإخلاص :
— كنت دائما واحدا من أبنائى ، ولا أنكر أبى غضبت مرة ، ولكن زال الغضب والحمد لله ، فلم يبق إلا الحب القديم ، هذا بيتك يا ياسين ، أهلا بك أهلا .

وجلس ياسين ممثا ، فلما غادرت أمينة الحجرة ، قال للحاضرين بلهجة خطابية

— ما أطيب هذه المرأة ، إن الله لا يغفر لمن يسىء إليها ، لعن الله الشيطان الذى أوطئنى يوما فيما جرح مشاعرها ..
فقال له خديجة وهي تحدجه بنظرة ذات معنى :

— لا يكاد يمضي عام حتى يورطك الشيطان في مصيبة ، كأنك لعبة في يديه ..

فنظر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من لسانها ، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه :

— ذاك تاريخ مضى وانتهى ..

فتساءلت خديجة في تهكم :

— لم لم تأت معك بالمدام « لتحبي » لنا هذا اليوم المبارك ؟

فقال ياسين في كبرياء مصطنع :

— لم تعد زوجتي تحبني أفراحا بعد ، إنها الآن سيدة بكل ما في هذه الكلمة من

معنى ..

فقالت خديجة بلهجة جدية لا أثر للتهكم فيها :

— يا خسارتك يا ياسين ، ربنا يتوب عليك ويهديك ..

قال إبراهيم شوكت ، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته :

— لا تؤاخذني يا سى ياسين ، ولكن ما حيلتي إنها أختك !

فقال ياسين باسم :

— كان الله في عونك يا سى إبراهيم ! ..

وهنا قالت عائشة وهي تنهد :

— الآن وقد أخذ الله بيد بابا ، فأني أصارحكم بأننى لن أنسى ما حييت منظره

أول يوم رأيته ، ربنا لا يحكم على أحد بالمرض ..

خديجة بصدق وحماس :

— هذه الحياة لا تساوى بدونه قلامة ظفر ..

فقال ياسين بتأثر :

— إنه ملاذنا عند كل شدة ، رجل ولا كل الرجال ! ..

وأنا ؟. أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس ؟. وكيف تقطع

قلبي وأنا أرى تهاافت أُمى ، نعرف الموت معنى من المعاني أما إذا هل ظله من بعيد

فتدور بنا الأرض ، ومع ذلك فستتوالى طعنات الألم بعدد من نفقد من الأحباء ،

وستموت أنت أيضا مخلقا وراءك الآمال ، والحياة رغبة ولو ابتليت بالحب . وتعالى

من الطريق رنين جرس حنطور ، فوثبت عائشة إلى النافذة ثم نظرت من
خصاصها ، التفتت قائمة في مباهاة :

— زوار من الأكابر !

وتتابع وصول العواد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب ،
موظفين ومحامين وأعيان وتجار ، وكانت منهم قلة لم تجيء البيت من قبل ، وآخرون لم
يأتوا إلا مدعوين لبعض الولائم التي يولمها السيد في المناسبات ، وغير هؤلاء وأولئك
رجال ترى وجوههم كثيرا في الصاغة والسكة الجديدة ، والجميع أصدقاء ولكنهم
ليسوا من طبقة محمد عفت وصاحبيه . وقد مكثوا قليلا مراعاة لظروف الزيارة ،
ولكن الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المطهمة ما أشبع
خيلاءهم وزهوهم ، وقالت عائشة وهي لا تزال بموقف المراقبة :

— ها هم الأحباب قد وصلوا ..

وترامت أصوات محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتضاحكون
ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد ، فقال ياسين :

— لم يعد في الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء ..

فأمن على قوله إبراهيم شوكت وخلييل ، على حين قال كمال بحزن لم يفتن إليه
أحد :

— قل أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلا كما أتاحت هؤلاء !

وعاد ياسين يقول كالمتعجب :

— لم يمر يوم دون أن يزوروا البيت ، وما غادروه في أيام الشدة إلا والدموع في
أعينهم ..

فقال إبراهيم شوكت :

— لا تعجب ، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم !

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدم مساعداتها . أما تيار العواد فلم ينقطع ،
وقد جاء جميل الحمزاوي بعد أن أغلق الدكان ، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة
الجمالية ، ثم محمد العجمي بائع الكسكسي بالصالحية . وإذا بعائشة تهتف وهي
تشير إلى الطريق من وراء النافذة :

— الشيخ متولى عبد الصمد !، ترى أيستطيع أن يصعد إلى الدور فوقاني ؟!
وراح الشيخ يقطع الفناء متوكئا على عصاه ، متنحنحا — من حين لآخر —

لينبه من في طريقه إلى حضوره . وأجاب ياسين :
 — إنه يستطيع أن يصعد إلى قمة مئذنة .. (ثم مجيبا خليل شوكت الذى
 تساءل عن عمر الرجل بعينه وأصابه) .. بين الثمانين والتسعين !. ولكن لا تسأل
 عن صحته ..

وتساءل كمال :

— ألم يتزوج فى حياته الطويلة ؟

فقال ياسين :

— يقال إنه كان زوجا وأبا ، ولكن زوجه وأبناءه انتقلوا إلى رحمة الله .

وهتفت عائشة مرة أخرى ، ولم تكن برحت موقعها من النافذة :

— انظروا !. هذا خواجه !. من يكون يا ترى ؟..

كان يقطع الفناء ملقيا على ما حوله نظرة متردة متسائلة ، واضعا على رأسه
 قبعة مستديرة من الخوص لآح تحت حافتها أنف مجذور مقوس وشارب منقوش ،
 فقال إبراهيم :

— لعله صائغ من تجار الصاغة !..

فتمتم ياسين فى حيرة :

— ولكنه يونانى السحنة ، أين يا ترى رأيت هذا الوجه !؟

وجاء شاب ضئير ذو نظارة سوداء ، يجره من يده رجل من أهل البلد ملثما
 بكوفية رافلا فى معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلّم ، فعرفهما
 ياسين — من أول نظرة — وهو من الدهش فى نهاية : أما الشاب الضئير فكان
 عبده عازف القانون بتخت زبيدة ، وأما الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة
 يدعى الهمايونى ، فتوة وبلطجى وبرجى الخ .. ، وسمع خليل وهو يقول :

— الضئير قانونجى العاملة زبيدة !..

فتساءل ياسين متصنعا الدهش :

— وكيف عرف بابا ؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول :

— والدك من السمينة القداسى ، ولا غرابة فى أن يعرفه جميع أهل الفن !..

وابتسمت عائشة دون أن تدير رأسها المتجه إلى الطريق لتدارى ابتسامتها ،

ياسين وكال رأيا ابتسامته إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها . وأخيرا جاءت سويدان جارية

آل شوكت تتعثر في خطوات الكبير ، فتمتم خليل وهو يشير إليها « رسول أمانا للسؤال عن السيد » . وكانت حرم المرجوم شوكت قد زارت السيد مرة ، ولكنها لم تستطع أن تعيد الكرة لما اعتراها في الأيام الأخيرة من آلام روماتيزمية تحالفت مع الكبير عليها . وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول مبدية التشكى مضحمة المباهاة :

— يلزمننا قهوجى ليقدم القهوة بنفسه !..

كان السيد جالسا في فراشه ، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة ، ساحبا الغطاء حتى عنقه ، على حين جلس العواد على الكنبه والكراسى التى أهدقت بالفراش ، وبدا سعيدا رغم ضعفه ، فلم يكن يسعده شىء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده ، وإذا كان قد بلاه المرض بالشر فإنه لم ينكر حسنته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحسروهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في مجالسهم أثناء اعتكافه ، وكأنما أراد أن يستزيد من العطف ، فجعل يقص عليهم ما لاقى من آلام وسأم ، واستباح في سبيل ذلك أن يهول ويبالغ ، فقال متنهدا :

— في الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بينى وبين نفسى بأنى انتهيت ، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية ، وفيما بين هذا وذاك أذكركم كثيرا فتفسو على فكرة فراقكم ..

فعلا أكثر من صوت قائلا :

— لا كانت الدنيا بدونك يا سيد أحمد ..

وقال على عبد الرحيم متأثر :

— سبتك مرضك هذا في نفسى أثرا لن يزول مع الأيام ..

وقال محمد عفت بصوت خافت :

— أتذكر تلك الليلة ؟. رباه لقد شيتنا !..

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلا ، وقال :

— نجاك الذى نجانا من الإنجليز ليلة بوابة الفتوح !..

تلك الأيام السعيدة ، أيام الصحة والعشق ، وفهمى كان النجاة والأمل الموعود .

— الحمد لله يا سيد حميدو !..

وقال الشيخ متولى عبد الصمد :
— إني أسألك كم أعطيت الطيب بدون وجه حق ؟! ولا داعى للجواب ،
ولكنى أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين ..

فقاطعه محمد عفت متسائلا :
— وأنت يا شيخ متولى ، ألسنت من أولياء الحسين ؟! . وضح هذه النقطة ..
فاستطرد الشيخ — دون مبالاة — وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كل
عبارة :

— أطلعهم أولياء الحسين وأنا على رأسهم ، أراد محمد عفت أم لم يرد ، وعليه هو
أيضا أن يطعمهم إكراما لك ، وأنا على رأسهم ، وعليك أن تؤدى فريضة الحج هذا
العام ، ويا حبذا لو أخذتني معك ليضاعف الله لك الجزاء ..
ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متولى ، أنت من معالم الزمن .
— أعذك يا شيخ متولى بأن آخذك معى إلى الحجاز ، إذا أذن الرحمن ..
عند ذاك قال الخواجا ، وكان قد خلع قبعته عن شعر خفيف ناصع البياض :
— شوية زعل ، الزعل سبب كل شئ ، اترك الزعل ترجع مثل البمب .
مانولى الذى باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عاما ، بائع السعادة وسمسار
القرافة .

— هذه عاقبة بضاعتك يا مانولى !
فنظر الخواجا فى بقية وجوه الزبائن ، وقال :
— لم يقل أحد إن الخمر تأتى بالمرض ، كلام فارغ ، الانبساط والضحك
والفرشة تسبب المرض ؟!
هتف الشيخ متولى عبد الصمد ، وهو يلتفت نحو الخواجا مسددا نحوه بصرا
لا يكاد يرى :

— الآن عرفتك يا وجه المصائب ، عندما سمعت صوتك فى المرة الأولى تساءلت
أين سمعت هذا الشيطان ؟!
وسأل محمد العجمى بائع الكسكسى الخواجا مانولى ، وهو يغمز بعينيه ناحية
الشيخ متولى :

— ألم يكن الشيخ متولى من زبائنك يا مانولى ؟
فقال الخواجا باسم :

- فمه ملآن بالطعام ، فأين يضع الخمر يا حبيبي ؟
 وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه :
 — تادب يا مانولى !
 فصاح به العجمي :
 — أتتكر يا شيخ متولى أنك كنت أكبر حشاش قبل أن يقطع الكبير أنفاسك ؟
 فلوح الشيخ بيده محتجا ، وهو يقول :
 — ليس الحشيش حراما ، أجريت صلاة الفجر وأنت مسطول ؟. الله أكبر ..
 الله أكبر !
 ووجد أحمد عبد الجواد الهمايوني صامتا ، فالتفت إليه باسماء وهو يقول على سبيل
 المجاملة :
 — كيف حالك يا معلم ؟ . والله زمان !..
 فقال الهمايوني بصوت كالنعير :
 — والله زمان زمان والله !. أنت السبب يا سيد أحمد وأنت الهاجر ، ولكن لما قال
 لى السيد على عبد الرحيم إن عدوك راقد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع ،
 وقلت لنفسى : لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسى الرجل الحبيب ، رجل المروءة والفرقة
 والأنس ، ولولا الملامة لجئت معى بفظومة وتلى ودولت ونهاوند ، كلهن مشتاقات
 إلى رؤيتك ، يا سلام يا سى أحمد ، أنت أنت سواء شرفتنا كل ليلة أم هجرتنا
 سنين !..
 ثم وهو يحيل عينيه الحديديتين :
 — هجرتونا كلكم ، البركة فى السيد على ، ربنا يخلى لنا سنية القلى التى تجذبه
 إلينا ، من فات قديمه تاه ، عندنا أصل الأنس ، ماذا غيبكم عنا ؟ ، لو كانت التوبة
 لعذرناكم ، ولكن التوبة لم يثن أوانها ، ربنا يبعدها بطول العمر والأفراح !
 أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه :
 — ها أنت ترى أننا قد انتهينا !..
 فقال المعلم بحماس :
 — لا تقل هذا يا سيد الرجال ، وعكة وتمضى إلى غير رجعة ، لن أتركك حتى
 تنذر أن تعود إلى وجه البركة — ولو مرة — إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة !..
 فقال محمد عفت :

— الزمن تغير يا معلم همايوني ، أين وجه البركة الذى عرفناه قديما ؟. اجث عنه
فى التاريخ ، أما ما بقى منه فمراح الشبان من أهل اليوم ، كيف نسير بينهم وفيهم
أبنائونا ؟

• وقال إبراهيم الفار :

— ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربنا فى العمر والصحة ، انتهينا كما قال سى
أحمد ، ما منّا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك ، لا تشرب ..
لا تأكل .. لا تتنفس ، وغير ذلك من الوصايا المقررة ، ألم تسمع عن مرض
الضغط يا معلم همايوني ؟

فقال المعلم وهو يحده بنظرة :

— داو أى مرض بسكرة وضحكة ولعبة ، وإن وجدت له أثرا بعد ذلك الزقه فى
كبدى !.

فصاح مانولى :

— قلت له هذا وحياتك أنت !.

وقال محمد العجمى ، كأنما يتم ما بدأ صاحبه :

— ولا تنس المنزل الأصيل يا معلم ..

فهز الشيخ متولى عبد الصمد رأسه متعجبا ، وتساءل فى حيرة :

— دلونى يا أهل الخير أين أنا ، أفى بيت ابن عبد الجواد أم فى غرزة أم فى حانة ؟.

دلونى يا هوه ..!

تساءل الهمايونى وهو يرمق الشيخ متولى شزرا :

— من صاحبكم ؟

— ولى كله خير ..

فقال له متهمكا :

— اقرأ لى الطالع إن كنت ولى !.

فهتف متولى عبد الصمد :

— إما السجن وإما المشنقة ..!

فلم يتمالك الهمايونى من أن يضحك عاليا ، ثم قال :

— حقا إنه ولى ، فهذه هى النهاية المتوقعة (ثم مخاطبا الشيخ) لكن اضبط

لسانك ، وإلا حققت بك نبوءتك ..!

على عبد الرحيم ، وهو يقرب رأسه من وجه السيد :
 — قم يا حبيبي ، الدنيا لا تساوي قشرة بصلة من غيرك ، ماذا جرى لنا
 يا أحمد ؟. أترى أنه يحسن بنا ألا نستعين بالمرض بعد ذلك ؟. كان آباؤنا يتروحون
 وهم فوق السبعين ، فماذا جرى ؟!
 متولى عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه :
 — كان آباؤكم مؤمنين طاهرين ، لم يسكروا ولم يفسقوا ، في هذا الجواب الذي
 تريد ..

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلا :
 — قال لي الطبيب إن الحمادى في الاستهانة مع الضغط عاقبه الشلل والعياذ
 بالله . هذا ما وقع لصاحبنا الوديني أكرمه الله بحسن الختام ، إني أسأل الله إذا حم
 القضاء أن يكرمى بالموت ، أما الرقاد أعواما بلا حراك !.. اللهم رحمتك !
 وهنا استأذن العمى وحيدو ومانولى في الانصراف ، وذهبوا وهم يدعون للسيدة
 بالصحة والعمر المديد . ومال محمد عفت على السيد ، ثم همس بصوت هامس :
 — جليلة تقرئك السلام ، وكم ودّت لو تراك بنفسها !..
 فالتقطت أذن عبده القانونجي مقالته ، ففرقع بأصابعه ، وقال :
 — وأنا مبعوث السلطنة إليك ، وقد كادت أن تنزى بزي الرجال لتحضر إليك
 بنفسها لولا أن أسفقت عليك من العواقب غير المتوقعة ، فأرسلتنى وقالت لي قل
 له :

وتنحج مرة ثم مرة ، وغنى بصوت خافت :
 أمانة يا رايح يمسه تبوس لي الحلو من فمه
 وقل له عبدك المعرم ذليل
 فابتسم الهمايوني كاشفا عن طاقم ذهبي ، وقال :
 — نعم الدواء ، جرب هذا ولا تلق بالآ إلى وليّ الله المتنبئ بالمشانق .
 زبيدة ؟! ، لا شوق لي إلى شيء . دنيا المرض شيء كره ، ولو وقع المحذور كنت
 سكران ، ألا يعنى هذا أنه لا بد من صفحة جديدة ؟!
 وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت :
 — تعاهدنا على ألا نذوق الخمر وأنت راقد ..
 — إني أعفيتكم من تعهدكم ، وسامحوني عما فات !

على عبد الرحيم ميتسما في إغراء :
 — لو كان في الإمكان أن نحتفل هنا الليلة بشفائك !
 متولى عبد الصمد موجهها خطابا للجميع :
 — أدعوكم إلى التوبة والحج ..
 الهمايوني محنقا :
 — كأنك عسكرى في غرزة ..
 وبإشارة متفق عليها من الفار ، تقاربت ربوس محمد عفت وعلى عبد الرحيم
 وإبراهيم الفار فوق رأس السيد ، وراحوا يغنون بصوت خافت :
 أما انت مش قد الخمرة بس نسكر ليه
 على نعمة أما انت مش قد الهوى بس تعشق له
 على حين جعل الشيخ متولى عبد الصمد يتلو آيات من سورة التوبة ، أما أحمد
 عبد الجواد فقد أغرق في الضحك حتى دمعت عيناه ، ومر الوقت بلا حساب
 حتى بدا في وجه الشيخ متولى عبد الصمد الجزع ، فقال :
 — ليكن في معلومكم أنى آخر من سيغادر هذه الحجرة ، لأنى أريد أن أدخل إلى
 ابن عبد الجواد ..

٤٣

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين ، فكان أول ما فعله أن
 صحب ياسين وكال إلى زيارة الحسين والصلاة في مسجده شكرا لله . وكان نبأ وفاة
 على فهمى كامل قد نشر في الصحف ، فتأمل السيد أحمد طويلا وخاطب ابنه
 — وهم يغادرون البيت — قائلا : — سقط ميتا وهو يخطب في جمع حافل ،
 وها أنا أسعى على قدمي بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين ، فمنذا يستطيع
 أن يعلم الغيب ؟! ، حقا إن الأعمار بيد الله ، وأنه لكل أجل كتاب ..
 كان عليه أن يصبر أياما وأسابيع حتى يسترد وزنه ، غير أنه بدا رغم ذلك
 مستوفيا أى وقاره وجماله . وقد سار في المقدمة وتبعه ياسين وكال . وهو منظر لم ير
 بهيته الكاملة منذ وفاة فهمى . وفى الطريق ما بين بين القصرين والجامع لمس

التابان المكانة التي يخطى بها أبوهما في الحى كله ، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يهنئه بالسلامة . واستجابت نفسا ياسين وكال لهذه المودة الحارة المتبادلة ، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق ، غير أن ياسين تساءل في براءة : لم لم يُحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما في الجلال والجمال والعيوب سواء ؟! . أما كمال فبالرغم من تأثره الوقتي استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكانة المرموقة ليسرها بعين جديدة . كانت في الماضي تتمثل لعينيه الصغيرتين آية للجلال والعظمة أما الآن فإنه يراها لا شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا ، ما هي إلا المكانة التي يخطى بها رجل طيب القلب لطيف المعشر جرم المروءة ، والعظمة شيء قد يناقض ذلك كل المناقضة ، فهي دوى يزلزل قلوب الخاملين ويطير النوم عن أعين الرافدين ، وهي عسية بأن تستثير الكراهية لا الحب ، والسخط لا الرضى ، والعداوة لا المودة ، إنها الكشف والهدم والبناء ، ولكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هذا الحب والإجلال ؟ ، بلى وآى ذلك أن عظمة العظماء تقاس أحيانا بمقدار تضحياتهم بالحب والطمأنينة في سبيل أهداف أسمى ، على أى حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته . انظر إليه ما أجمله ! . كذلك ياسين ما أطفه . وما أعجب منظري بينهما كأنى صورة تنكزية في كرنفال ، ازعم ما شاء لك الزعم أن الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يمحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب . وقد برىء أئى من الضغط فمتى أبرأ من الحب ؟ . والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تكتشف جرثومته بعد . إن حسين شداد يقول في رسالته الأخيرة : « إن باريس عاصمة الجمال والحب » فهل هي أيضا عاصمة العذاب . وقد بدأ العزيز ييخل برسائله كأنما يقطرها من دمه الغالى ، أريد عالما لا تخدع فيه القلوب ولا تخدع .

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير ، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة « يا حسين » ثم حث خطاه فتبعه وياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفثيه ابتسامة غامضة . أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته ؟! . أما هذا الجامع فلم يعد في نظره إلا رمزا من رموز الخيبة التي ابتلى بها

قلبه . كان في الماضي يقف تحت مؤذنته وقلبه خفاق ودمعه متحفز وصدرة مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل ، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحت مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق !. بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس أو اتقاء لشهرهم ، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق ، أريد عالما يعيش فيه الإنسان حرا بلا خوف ولا إكراه !.

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباعا ، فاتبعه الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد ، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيما الصلاة فائتيا به . استغرق الأب في الصلاة كعادته فأرخص جفونه وامتل ، ونسي ياسين كل شيء إلا أنه بين يدي الله الغفور الرحيم . وجعل هو يحرك شفتيه دون أن يقول شيئا ، وأنحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدي بعض الحركات الرياضية الفاترة ، وقال لنفسه : إن أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها مكان فمتى يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه ؟. وهذا الصوت الجهر الذي يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالآخرة فمتى كان للزمن آخر ؟، وما أجمل أن ترى إنسانا يغالب الأهوام ليغلبها ولكن متى ينتهي القتال ويعلم المقاتل أنه سعيد ؟. وأن الدنيا لتبدو لعيني غريبة فهل تراها خلقت أمس ؟، وهذان الرجلان هما أئى وأئى فلم لا يكون جميع الناس آباء وإخوة ؟، وهذا القلب الذي أحمله بين جنبي كيف ارتضى أن يسومني العذاب ألوانا ؟. وما أكثر أن أرتطم كل ساعة بشخص لا أودّه فلماذا نزع الذي أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض ؟.

ولما فرغوا من صلاتهم ، قال الأب :

— لمكث قليلا قبل أن نقوم للطواف .

وظلوا متربعين صامتين ، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق :

— لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم !

فقال ياسين بتأثر :

— الفاتحة على روح فهمي ..

وتليت الفاتحة ، ثم سأل الأب ياسين فيما يشبه الاترياب :

— ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين ؟

فقال ياسين الذى لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرات معدودات :
— لا يمكن أن يمر أسبوع دون أن أزور سيدى !
فالتفت الأب نحو كمال ، ورمقه بنظرة كأنما تسأله « وأنت ؟ » ، فقال كمال وهو
يجد استحياء :

— وأنا كذلك !

فقال الأب بخشوع :

— إنه حبيبنا وشفيعنا إلى جده يوم لا ترجى فيه أم ولا أب ..

قام من المرض هذه المرة — بعد أن ألقى عليه درساً لا ينسى — وهو يؤمن
ببطشه ويخاف عواقبه فصدق أنيته على التوبة ، وقد كان يؤمن دائماً بأن التوبة آتية
مهما طال بها الانتظار ، فافتنع بأن تأجيلها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر
بنعمة الله الرحيم . وكان كلما طافت به ذكريات اللهو تعزى بما ينتظره فى حياته من
مسرات بريئة ، كالصدقة والطرب والفكاهة ، لذلك دعا الله أن يحفظه من
وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيما اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور
القصار التى يحفظها .

ونفض فنهضا وراءه ، ثم مضوا إلى الضريح ، وهناك استقبلهن عرف طيب يدكو
فى المكان وغمغمة تلاوات تمس فى الأركان ، فطافوا بالضريح بين جموع
الطائفين ، وارتفعت عينا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء ، ثم استقرتا مليا فوق
الباب الخشبي الذى طالما لثمته شفتاه . فقارن بين عهد وعهد ، وحال وحال ،
وذكر كيف انجلى سر هذا القبر عن أول مأساة فى حياته ، ثم كيف تتابعت المآسى
بعد ذلك غير مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة ، وكيف أنه رغم ذلك كله
لا يزال واقفا على قدميه ، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد ، غير آبه لطعنات الألم ، حتى
المراة انداحت على شفتيه فارتسمت ابتسامة ، أما السعادة العمياء التى تضيء وجوه
الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف ، وكيف يشتري السعادة بالنور وقد عاهد
نفسه على أن يعيش مفتوح العينين ، مؤثرا القلق الحى على الطمأنينة الخاملة ،
ويقظة السهاد على راحة النوم .

ولما فرغوا من أطوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس مليا فى مئوى الضريح ، فاتجهوا إلى
ركن وجلسوا متقاربين ، ولمح السيد بعض معارفه ، فأقبلوا عليه مصافحين

مهئين ، وجالسه نفر منهم ، وكان أكثرهم يعرفون ياسين — إما عن طريق دكان والده وإما عن طريق مدرسة النحاسين — أما كمال فلم يكده يعرفه أحد منهم ، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيد قائلًا :

— ما لابنك هذا كالبرص ؟

فبادره السيد قائلًا ، وكأنه يرد تحية بأحسن منها :

— أنت الأبرص !.

وابتسم ياسين ، وابتسم كمال ، وكان أول مرة يطلع فيها على شخصية أبيه « السرية » التي سمع عنها الكثير . هكذا بدا الأب رجلًا لا تفوته النكتة حتى وهو في مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين . وقد بعث ذلك ياسين على التفكير في مستقبل أبيه ، فتساءل : ترى هل يعود إلى مسراته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه .. ؟ وقال لنفسه : « إن معرفة ذلك عندى من الدرجة الأولى من الأهمية » .

٤٤

كانت أم حنفى متربعة على الحصى بالصالة ، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنية قبالتها . وكانت البنافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفًا من جو أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة ، غير أنه لم تكده تنفوس نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلى من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت ، أما الحجرات فبدت مظلمة صامتة . وكانت أم حنفى خافضة الرأس ، شابكة ذراعها فوق صدرها ، ترفع عينها إلى الصغار الجالسين على الكنية لحظة ثم تغمضهما ، ولم تكن تتكلم ولكن شفتيها لم تتوقفا عن الحركة ، وتساءل عبد المنعم :

— إلى متى يبقى خالى كمال فوق السطح ؟

فتمتمت أم حنفى :

— الجو حار هنا ، لم لم تبقوا معه ؟

— الدنيا ظلام ، ونعيمة تخاف الحشرات .

وهنا قال أحمد في ضجر :

— إلى متى نبقي هنا ؟ ، هذا هو الأسبوع الثاني ، إنى أعد الأيام يوما يوما ، وأريد أن أعود إلى بابا وماما ..

أم حنفي برجاء :

— إن شاء الله تعودون جميعا وأنتم على أسعد حال ، ادعوا الله فإنه يستجيب للصغار الأطهار ..

فقال عبد المنعم :

— إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما توصينا ..

فقال المرأة :

— ادعوه في كل وقت ، ادعوه الآن ، هو وحده القادر على كشف غممتنا ..

وبسط عبد المنعم راحته ، ثم نظر إلى أحمد داعيا إياه إلى مشاركته ، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه ، ثم قال معا كما تعودا أن يقولوا في الأيام الأخيرة :

— يا رب اشف عمنا خليل ، وعثمان ومحمد ابني عمنا ، حتى نعود إلى بيتنا مجبورى الخاطر ..

وبدا التأثر في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن واغروقت عينها الزرقاوان بالدموع ، وهتفت :

— بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم ؟. وماما أريد أن أراها ، أريد أن أراهم جميعا ..

فتحول عبد المنعم إليها قائلا بصوت المواسي :

— لا تبكى يا نعيمة . قلت لك كثيرا لا تبكى ، عمى بخير ، عثمان بخير ، محمد بخير ، وسنعود قريبا إلى بيتنا ، جدتي تؤكد هذا ، وخالي كمال أكدته أيضا منذ قليل ..

فقال نعيمة وهي تجهش في البكاء :

— كل يوم أسمع هذا ، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم ، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد ، أريد ماما ..

قال أحمد بتذمر :

— أنا أريد بابا وماما أيضا ..

عبد المنعم :
 — سنعود عندما يشفون ..
 هتفت نعيمة بجزع :
 — لنعد الآن ، أريد أن أرجع ، لم يعلوننا عنهم ؟
 فأجابها عبد المنعم :
 — إنهم يخافون أن نشم المرض !.
 قالت نعيمة بعناد :
 — ماما هناك ، وخالتى خديجة هناك ، وعمى إبراهيم هناك ، وجدتي هناك ،
 فلماذا لا يشمون المرض ؟
 — لأنهم كبار !..
 — إذا كان الكبار لا يشمون المرض ، فلماذا مرض بابا ؟..
 تهتدت أم حنفى ، وقالت برقة :
 — هل ضايقت شىء ؟.. هذا بيتك أيضا ، وها هو سى عبد المنعم وسى أحمد
 ليلعبا معك ، وخالك كمال يحبك قد عينيه ، وستعودين قريبا إلى ماما وبابا وعثمان
 ومحمد .. لا تبكى يا سى الصغيرة وادعى لبابا وأخويك بالشفاء ..
 أحمد متأففا :
 — أسبوعان عددهما على أصابعي ، ثم إن شقتنا في الدور الثالث والمرض في
 الدور الثانى ، لم لا نعود إلى شقتنا ونأخذ معنا نعيمة ؟
 أم حنفى كالمحذرة وهى تضع أصبعها على شفتيها :
 — سيفضب خالك كمال إذا سمع بما قلت ، إنه يشتري لكم الشكولاتة
 واللب ، فكيف تقول إنك لا ترغب فى البقاء معه ؟. لم تعودوا صغارا ، أنت يا سى
 عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر ، وكذلك أنت يا نعيمة !.
 فقال أحمد متراجعا بعض الشيء :
 — دعونا على الأقل نخرج للعب فى الطريق !
 فأمن عبد المنعم على الاقتراح قائلا :
 — كلام معقول يا أم حنفى ، لم لا نخرج إلى الطريق للعب ؟
 فقالت أم حنفى بحزم :

— عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة ، وعندكم السطح أيضا ، ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟. كان سى كمال وهو صغير لا يلعب إلا فى البيت ، وعندما أفرغ من شغلى أقص عليكم الحكايات .. ألا تحبون ذلك ؟

أحمد محتجا :

— أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت !

نعيمة وهى تجفف عينها :

— خالتى خديجة عندها حكايات أكثر ، وأين ماما لنغنى معا ؟.

أم حنفى باستعطاف :

— طالما رجوتك أن تغنى لنا وأنت ترفضين !.

— لا أغنى هنا !. لا أغنى وعثمان ومحمد مرضى ..

المرأة وهى تنهض :

— سأجهز لكم العشاء ثم ننام ، جبن وبطيخ وشمام ، هه ؟!

كان كمال جالسا على كرسى فى جانب السطح المكشوف فيما يلى سقيفة الياسين واللبلاب ، لا يكاد يرى فى الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضافاض ، وكان مادا ساقيه فى استرخاء ، مصعدا رأسه إلى الأفق المرصع بالنجوم ، مستغرقا فى التفكير ، يكتشفه صمت لا يكدره شئ إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوقأة عن حجرة الدجاج ، وكان فى وجهه أثر مما طرأ على الأسرة فى الأسبوعين الأخيرين ، فقد اختل نظام البيت المعهود واختفت منه أمه إلا فى أوقات نادرة ، وتشبع جوه بتدمير المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون فى رحبته متسائلين عن « بابا » و « ماما » حتى أعيته الحيل فى ملاطفتهم وملاعببتهم .

أما فى السكرية فإن عائشة لم تعد تغنى وتضحك كما قيل كثيرا عنها ، ولكنها تقضى الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزاء ، زوجها وطفليها ، وكل تمنى صغيرا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم ، وكل يشفق اليوم من أن تضطر إلى العودة مهبطة الجناح . كسيرة القلب ، وأما أمه فهمس فى أذنه « لا تزر السكرية ، وإذا زرتنا فلا تمكث طويلا » وإنه ليروها من حين لآخر ، ثم يغادرها تفوح من راحته رائحة المطهرات الغريبة ويستحوذ القلق على فؤاده ، وأعجب شئ أن جرائم التيفود — كسائر الجرائم — آية فى الضالة ، لا تراها العين ، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة ،

وأن تتحكم في مصير العباد ، وأن تشتت إذا أرادت الأسرة . محمد المسكين كان أول المرضى ، ثم تبعه عثمان ، وأخيرا — وعلى غير توقع — وقع الأب ، واللييلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأن أمه ستبيت في السكرية ، ثم قالت — عن أمه وعن نفسها — إنه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق !. إذن لم تبيت الأم في السكرية ؟ ، ولم ينقبض صدره ؟ ، على أنه — رغم هذا كله — من الممكن أن يصفو الجو في غمضة عين ، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان ، ويتألق وجه عائشة ويضيء ، وهل نسي كيف ابتلى بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية أشهر ؟. وها هو أبوه يسعى في كامل صحته وعافيته ، وقد استردت عضلاته قوتها ، وعيناه بريقتيهما الجذاب ، ثم رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغناء ، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شيء في غمضة عين ؟!

— أنت هنا وحدك ؟

عرف كمال الصوت ، فقام متلفتا صوب باب السطح ، ومد يده للقادم وهو يقول :

— كيف حالك يا أخفى ؟ ، تفضل ..

وقدم له مقعدا ، فتنفس ياسين تنفسا عميقا ليعيد إلى رتيبه توازنهما الذي اضطرب بصعود السلم ، فامتأ صدره بشذا الياسمين ، ثم جلس وهو يقول :

— الأولاد ناموا ، وأم حنفي نامت كذلك ..

فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرة أخرى :

— مساكين ، لا يستريحون ولا يريحون ، كم الساعة الآن ؟

— في الحادية عشرة ، الجو هنا ألطف من الطريق بكثير ..

— وأين كنت ؟!

— مترددا ما بين قصر الشرق والسكرية ، وعلى فكرة والدتك لن تعود اللييلة ..

— سويدان أبلغتني ذلك ، ماذا جد ؟ ، كنت من القلق في نهاية ..

ياسين وهو يتنهد :

— كلنا في القلق سواء ، وربنا عنده اللطف ، والدك هناك أيضا ..

— في هذه الساعة ؟!

— تركته في البيت .. (ثم مستطردا بعد قليل) .. كنت في السكرية حتى

الثامنة مساءً ، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرني بأن زوجي قد جاءها الطلق ، فذهبت من فوري إلى أم على الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات ، ومكثت هناك ساعة غير أنني لم أطق سماع الأثنين والصراخ طويلا ، فعدت إلى السكرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسا مع إبراهيم شوكت ..

— ماذا يعنى هذا ، خبرنى بما عندك ..

ياسين بصوت منخفض :

— الحال خطيرة جدا ..

— خطيرة ؟!

— نعم جئت إلى هنا لأريح أعصابى قليلا ، ألم تجد زنوبة ليلة تلد فيها إلا هذه الليلة ؟ ، لشد ما تعبت بين قصر الشوق والسكرية ، وبين الداية والدكتور ، والحال خطيرة ، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت فى وجه ابنها وهتفت « أمان يا رب .. كان يجب أن تأخذنى قبله ! » فانزعجت أملك انزعاجا شديدا ، ولكنها لم تحفل بها ، وقالت بصوت مبسوح : « هذه صورة آل شوكت إذا حضرهم الموت ، رأيت أباه وعمه وجده من قبل ! » ، لم يبق من خليل إلا خيال ، وكذا الطفلان ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ازدرد كمال ريقه ، ثم قال :

— عسى أن تخيب الظنون !

— عسى ! ، كمال .. لست صغيرا ، ينبغي أن تعلم بما أعلم أنا على الأقل ، الطبيب يقول إن الأمر جد خطير ..!

— عن الكل ؟!

— الكل !.. خليل وعثمان ومحمد ، رياه ! ، ما أتعس حظك يا عائشة !..

تمثلت لعينيه فى الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما كانت تبدو له فى الماضى . السعداء الضاحكون الذين مارسوا الحياة كأنها هو خالص ، متى تضحك عائشة من قلبها مرة أخرى ؟ ، كما اختطف فهمى ، الإنجليز أو التفود سيان ، أو غير ذلك من الأسباب ، الإيمان بالله هو الذى جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة ، وهو ليس فى الحقيقة إلا نوعا من العتب .

— أفضع ما سمعت في حياتي !..
— هو ذلك ، ولكن ما الحيلة ؟ ، وماذا جنت عائشة حتى تستحق هذا كله ؟! ، اللهم عفوك ورحمتك ..
هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرر القتل بالجملة ؟ ، إن الموت يتبع قوانين « النكتة » بدقة ، ولكن كيف لنا أن نضحك ونحن هدف النكتة ؟ ، ولعلك تستطيع أن تلاقيه بالابتسام إذا تصدبت له دواما بالتأمل الصادق والفهم الصحيح والتجرد الأميل ، ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا ، ولكن أين من عائشة ذلك كله ؟!

— رأسى يدور يا أخى !.
فقال ياسين بلهجة الحكيم ، ولأول مرة فيما سمع كمال :
— هذه هي الدنيا ، ويجب أن تعرفها على حقيقتها ..
ثم قام فجأة وهو يقول :
— يجب أن أذهب الآن ..
فقال كمال كالمستغيث :
— ابق معى بعض الوقت ..
ولكنه قال كالمعتذر :
— الساعة الحادية عشرة ، ويجب أن أذهب إلى قصر الشوق لأطمئن على زنوبة ، ثم أعود إلى السكينة لأكون إلى جانبهم ، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة واحدة ، والله أعلم بما ينتظرنا غدا ..
فقام كمال وهو يقول في جزع :
— إنك تتكلم كما لو كان كل شيء قد انتهى ، سأذهب من فورى إلى السكينة ..
— بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتى مطلع النهار ، وحاول أن تنام وإلا ندمت على مصارحتي إياك بالحقيقة !
وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب البيت ، وعندما مرا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال ، قال كمال بأسف :
— يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال ، وشد ما بكت نعيمة في الأيام الأخيرة

كأن قلبها حدس ما هنالك ..

فقال ياسين باستهانة :

— الأطفال سرعان ما ينسون ، ادع بالرحمة للكبار ..

ولما خرجا إلى الفناء ، ترمى إليهما من الطريق صوت يصيح بقوة « ملحق

المقطم » ، فتمتم كمال متسائلا :

— ملحق المقطم ؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة :

— أوه إني أعرف عما ينادى فقد سمعت الناس يتناقلونه وأنا قادم إليك .. سعد

زغلول مات ..!

هتف كمال من الأعماق :

— سعد ؟!

فتوقف ياسين عن السير ، والتفت نحوه قائلا :

— هوّن عليك وحسبنا ما نحن فيه ..!

فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتى حراكا ، كأنما قد ذهل عن خليل

وعثمان ومحمد وعائشة ، عن كل شيء إلا أن سعد زغلول قد مات ، وواصل ياسين

السير وهو يقول :

— مات مستوفيا حظه من العمر والعظمة فماذا تريد له أكثر من ذلك !،

ليرحمه الله ..

فتبعه صامتا ولما يقف من ذهوله ، لو في غير هذا الظرف الحزين ما درى كيف

يتحمل النبأ ، ولكن المصائب إذا تلاقى تحدى بعضها بعضا ، هكذا ماتت جدته

في أعقاب مصرع فهمى فلم تجد لها باكيا — إذن مات سعد . النفي والثورة

والحرية والدستور مات صاحبها ، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وترتيبه !*

ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب ، ثم مديده له فتصافحا ، وعند ذاك تذكر

كمال أمرا طال نسيانه له ، فقال لأخيه وهو يجرد من نسيانه حياء :

— أدعو الله أن تجد زوجك قله ولدت بالسلامة ..

فقال ياسين وهو يهم بالذهاب :

— إن شاء الله ، وأرجو أن تنام نوما هادئا ..

﴿ تمت ﴾

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	العاشرة ١٩٧٩
عبث الأقدار	١٩٣٩	الحادية عشرة ١٩٨٥
رادوبيس	١٩٤٣	العاشرة ١٩٨١
كفاح طيبة	١٩٤٤	الحادية عشرة ١٩٨٥
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	الثالثة عشرة ١٩٨٧
خان الخليل	١٩٤٦	العاشرة ١٩٧٩
زقاق المدق	١٩٤٧	الحادية عشرة ١٩٨٥
السراب	١٩٤٨	الثالثة عشرة ١٩٨٧
بداية ونهاية	١٩٤٩	الخامسة عشرة ١٩٨٧
بين القصرين	١٩٥٦	الثالثة عشرة ١٩٨٦
قصر الشوق	١٩٥٧	الرابعة عشرة ١٩٨٧
السكرية	١٩٥٧	الثالثة عشرة ١٩٨٧
اللعن والكلاب	١٩٦١	التاسعة ١٩٨٠
السمان والحريف	١٩٦٢	التاسعة ١٩٨٥
دنيا لله	١٩٦٢	السادسة ١٩٨٧
الطريق	١٩٦٤	الثامنة ١٩٨٤
بيت سبي السمعة	١٩٦٥	السابعة ١٩٨٣
الشحاذ	١٩٦٥	الثامنة ١٩٨٥
ثروة فوق النيل	١٩٦٦	السابعة ١٩٨٧
ميرamar	١٩٦٧	الخامسة ١٩٧٩
خمار القط الأسود	١٩٦٩	السابعة ١٩٨٥
تحت المظلة	١٩٦٩	السادسة ١٩٨٤

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	١٩٨٧ السابعة
شهر العسل	١٩٧١	١٩٨٢ السادسة
المرايا	١٩٧٢	١٩٨٠ الخامسة
الحب تحت المطر	١٩٧٣	١٩٨٠ الرابعة
الجرمة	١٩٧٣	١٩٨٤ الخامسة
الكرنك	١٩٧٤	١٩٨٦ السابعة
حكايات حارتنا	١٩٧٥	١٩٨٦ السادسة
قلب الليل	١٩٧٥	١٩٨١ الثالثة
حضرة المحترم	١٩٧٥	١٩٨٣ الرابعة
ملحمة الحرافيش	١٩٧٧	١٩٨٥ الرابعة
الحب فوق مضربة الهرم	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
الشیطان يعظ	١٩٧٩	١٩٨٧ الرابعة
عصر الحب	١٩٨٠	١٩٨٧ الثانية
أفراح القبة	١٩٨١	١٩٨٧ الثالثة
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	١٩٨٧ الثالثة
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	١٩٨٥ الثانية
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	١٩٨٥ الثانية
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حدث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		رواية
قشتمر		مجموعة
الفجر الكاذب		

الأستاذ عبد الحميد جوده السحار

« جذبني انتاج السحار الفزير المتنوع الأغراض ،
وشدنتني الى هذا الكاتب ثقافته الواسعة ، المتعددة الجوانب
التي أمد بها قراءه » .

« ولهذا أقدمت على عمل بحثي هذا ، وكلني شغف للاطلاع
على المزيد من أعماله الأدبية التي شحذ كل أسلحة علمه
ومعرفته لخراجها الى عالم النور ، أضف الى هذا طبيعة
هذا المؤلف وما يتمتع به من صفات وميزات خاصة ، من حسن
مرصف ، ونظرة لمحة ، وروح شغافة ، ساعد كل ذلك على
إجادته في كل أعماله برغم تنوعها » .

من رسالة ماجستير للأديبة :

فاطمة الزهراء عبد الغفار المواني

أحمس بطل الاستقلال

أبو نثر الغفاري

بلال مؤذن الرسول

في الوظيفة

سعد بن أبي وقاص

همزات الشياطين

أبناء أبي بكر الصديق

في قافلة الزمان

أميرة قرطبة

الثقاب الأزرق

الحنيح عيسى بن مريم

أهل بيت النبي

محمد رسول الله

تأليف : مولاي محمد علي

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمي

تخصص من الكتب المقدسة (مجموعة أقاصيص)

صدى الستين (مجموعة أقاصيص) ترجمت الى الاندونيسية

محمد رسول الله والذين معه

(في عشرين جزءا)

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

قصة الاسلام منذ أيام ابراهيم الخليل الى ان لحق محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى . وقد كتب المؤلف
الحقائق التاريخية في أسلوب قصصي اخاذ .

وفي هذه الأجزاء يستقصى المؤلف تاريخ العرب قبل الاسلام ،
وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين ابراهيم ونشأة العدنانيين ،
معتمداً على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة في بلاد العراق
وسورية وأرض العرب ، وهي حقبة لم يتعرض لها الاخباريون ولا
المؤرخون الاسلاميون .

ويفسر المؤلف التاريخ تفسيراً روحياً من خلال سرده للحقائق
التاريخية . انها موسوعة عربية اسلامية بذل فيها الجهد الكثير .

- | | |
|---------------------------|-------------------|
| ١ - ابراهيم أبو الأنبياء | ١١ - الهجرة |
| ٢ - هاجر المصرية أم العرب | ١٢ - غزوة بدر |
| ٣ - بنو اسماعيل | ١٣ - غزوة أحد |
| ٤ - العدنانيون | ١٤ - غزوة الخندق |
| ٥ - قريش | ١٥ - صلح الحديبية |
| ٦ - مولد الرسول | ١٦ - فتح مكة |
| ٧ - البنيان | ١٧ - غزوة تبوك |
| ٨ - خديجة بنت خويلد | ١٨ - عام الوفود |
| ٩ - دعوة ابراهيم | ١٩ - حجة الوداع |
| ١٠ - عام الحزن | ٢٠ - وفاة الرسول |

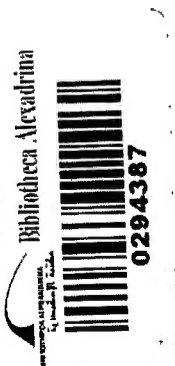
(رواية)	حياة الحسين الشارع الجديد صانعو التاريخ الأمريكى صانعو الاقتصاد الأمريكى
(قصة)	وكان مساء
(قصة)	أنوع وسيقان
(قصة)	المستنقع
(مجموعة القصص)	ليلة عاصفة
(رواية)	الحصاد
(قصة)	جسر الشيطان
(قصة)	النصف الآخر
(رواية)	السهول البيض
(قصة)	أم العروسة
(قصة)	قلعة الأبطال
	وعد الله وأسرائيل
	عمر بن عبد العزيز
	هذه حياتى
	الحفيد
	تكريات سينمائية
	كثتك الموسيقى
	خفقات قلب
	صور وتكريات

الأستاذ الدكتور نبيل راغب

خاص موهوب يسر « مكتبة مصر » أن تنشر إنتاجه

- ١ - توابل الحب
- ٢ - جبروت امرأة
- ٣ - سور الأريكية

مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - البغداد



الشمز ٩ جنيهات

دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه